

من الدراسات التاريخية

شفاء القلوب في مناقب

بني أيوب

لأحمد بن إبراهيم الحنبلي

ت ٨٧٦ هـ - ١٤٧١ م

تقديم وتحقيق وتعليق
مديحة الشرقاوي

مكتبة الثقافة الدينية

المركز الرئيسي : ٥٢٦ شارع بور سعيد - الظاهر

تلفون : ٩٣٦٢٧٧ / ٩٢٢٦٢٠

٥٥٥٥٥



من الدراسات التاريخية

شفاء القلوب في مناقب بني أيوب

لأحمد بن إبراهيم الحنبلي

ت ٨٧٦ هـ - ١٤٧١ م



تقديم وتحقيق وتعليق

مديحة الشرقاوي

مكتبة الثقافة الدينية

المركز الرئيسي . ٥٢٦ شارع بورسعيد القاهرة

تليفون ٩٣٦٢٧٧ / ٩٢٢٦٢٠

131791

حقوق الطبع محفوظة للناسر

١٩٩٦ م - ١٤١٥ هـ

مكتبة الثقافة الدينية

المركز الرئيسي . ٥٢٦ شارع بورسعيد القاهرة

تليفون ٩٣٦٢٧٧ / ٩٢٢٦٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

مقدمة التحقيق

والصلاة والسلام على أفضل خلق الله محمد بن عبد الله وعلى آله وبعد..
فنقدم للمكتبة العربية كتاباً من كتب التراث « شفاء القلوب في مناقب بني أيوب »
وسوف نلقى الضوء على الدولة الأيوبية .

الدولة الأيوبية

(٥٦٧ - ٦٤٨ هـ / ١١٧١ - ١٢٥٠)

سلاطين الأيوبيين

عدد	سنة هجرية	أسماء السلاطين	سنة ميلادية
١	٥٦٧	الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب	١١٧١
٢	٥٨٩	العزیز عماد الدين عثمان	١١٩٢
٣	٥٩٥	المنصور ناصر الدين محمد علي	١١٩٨
٤	٥٩٦	العادل سيف الدين أبو بكر	١٢٠٠
٥	٦١٥	الكامل ناصر الدين محمد	١٢١٨
٦	٦٣٥	العادل الثاني	١٢٣٨
٧	٦٣٧	الصالح نجم الدين أيوب	١٢٤٠
٨	٦٤٧	المعظم توران شاه	١٢٤٩
٩	٦٤٨	عصمة الدين أم خليل شجرة الدر	١٢٥٠

أصل الأيوبيين

يرجع أصل الأيوبيين إلى نجم الدين أيوب ، الكردي الأصل ، كان أبوه يدعى شادى من قبيلة الهذبانية ، إحدى القبائل التى استقرت ببلدة دوين فى أطراف أرمينية .

اتصل « شادى » أبو نجم الدين أيوب بشخص يسمى بهروز ، وساعد الحظ بهروز فوصل إلى وظيفة كانت تعد من وظائف الدولة الهامة ، هى وظيفة حاكم بغداد سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) تحت سلطة السلاجقة بعد أن كان مربياً لأبناء مسعود السلطان السلجوقى ، وكان لبهروز لدى السلطان السلجوقى مكانة سامية ، حتى أقطعه قلعة تكريت ، وتقديراً لعامل الصداقة الوطيدة القائم بين بهروز وشادى أسند بهروز حراسة قلعة تكريت إلى نجم الدين أيوب بن شادى وقيل إنها أسندت لشادى نفسه ، وآلت بعد وفاته إلى ابنه نجم الدين (١) وسواء أكانت حراسة هذه القلعة فى يدى شادى أو ابنه نجم الدين ، فإن ذلك يبين لنا أن العلاقات بين بهروز وشادى كانت قوية .

قضى نجم الدين أيوب فى حكم تكريت عدة سنين ، اكتسب فى خلالها خبرة بشئون الإدارة وتمتع بمحبة الأهالى ، ولكن سرعان ما توترت العلاقات بين نجم الدين وبهروز على إثر حادث اشترك فيه نجم الدين بمحض إرادته وحرية وذلك أن عماد الدين زنكى أتاهك الموصل الذى كان قد عزم على توسيع أملاكه هاجم بغداد سنة ٥٢٦ هـ (١١٣١ م) خارجاً على الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى .

غير أن النزيمة لحقت بزنى ، وكاد يقضى عليه لولا أن نجم الدين أيوب سهل له سبيل العودة ، فعبر نهر دجلة إلى تكريت ، حيث بقى بها خمسة عشر يوماً حتى ضمدت جراحه ثم عاد إلى الموصل ، فنشأت منذ ذلك الحين علاقات ودية بين أيوب وأخيه شيركوه من جهة

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٥ .

وبين زنكى من جهة أخرى ، وفي الوقت الذى توطدت فيه العلاقات بين أسرئى أئوب وزنكى اشتد العداء بين أئوب وبهروز الذى ظل يتحين الفرصة المناسبة لطرء أئوب من تكريت ، حتى انتهى الأمر بأن تمكن بهروز من إخراج أئوب من تكريت ، وقابل الأهالى خروج أئوب بحزن عميق مما يدل على مكانته السامية فى قلوبهم^(١) ، على أن أئوباً رحب بخروجه من تلك القلعة إذ كان قد عزم على المغامرة فى حوادث الشرق الأدنى ، وعلى ربط مستقبله بشخصية عظيمة هى شخصية عماد الدين زنكى الذى كان إذ ذاك قد عظمت مكانته وأصبح نداءً للسلطان السلجوقى^(٢) .

رحلت أسرة أئوب عن تكريت سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨ م) ميممة شطر الموصل ، فرحب زنكى بمقدمها وأكرم وفادتها ، وقدر مواهب رجالها . فأسند حكم بعلبك بعد فتحها سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) إلى أئوب^(٣) وقلء شيركوه قيادة الجيش . ويظهر لنا أن زنكى كان موقفاً فى استخدام هذين الأخوين العظيمين فقد كان أئوب حاكماً مستتيراً محبوباً من رعيتة ، عادلاً فى أحكامه ، كما اتصف شيركوه بالشجاعة والإقدام والمغامرة وحب القتال^(٤) .

وفى ليلة رحيل نجم الدين أئوب من تكريت سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨ م) ولد له ولد أسماه « يوسف » وهو الذى عرف فيما بعد باسم صلاح الدين . نشأ يوسف فى بلاط زنكى بالموصل ، وقضى طفولته فى ظل والده أئوب فى بعلبك ، وأخذ عنه براعته فى السياسة وشجاعته فى الحروب . فلا غرو إذا شب صلاح الدين متشبعاً بالدهاء السياسى والروح الحربية . وتعلم صلاح الدين يوسف علوم عصره وثقف بثقافة أهل زمانه فحفظ القرآن ودرس الفقه والحديث .

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ١ ص ٢٧ .

(٢) ابن الأثير : الدولة الأتابكة ٢١٤ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٧٧ . المقرئى : السلوك ٦ ص ٤٧ .

(٤) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ٢٣٠ .

وبعد مقتل عماد الدين زنكى ، رحل صلاح الدين يوسف مع والده إلى دمشق ، ثم دخل في خدمة نور الدين سلطان حلب أخى عماد الدين زنكى ، فاستعان نور الدين بشيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف فى تحقيق أغراضه فى مصر ، وتمكن بمعاونتهما من ضم مصر إلى أملاكه .

قيام الدولة الأيوبية

١ - صلاح الدين الأيوبي

(٥٦٧ - ٥٨٩ هـ - ١١٧١ - ١١٩٣ م)

قامت الدولة الأيوبية في مصر نتيجة التنافس بين شاور وضرغام في الوزارة في أواخر العهد الفاطمي ، واستنجد كل من المتنافسين بأعداء الدولة الفاطمية الطامعين في أملاك مصر . فقد استنجد شاور بنور الدين سلطان حلب ، وضرغام بعموري ملك بيت المقدس ، وانتهاز كل منهما تلك الفرصة وأرسل الجيوش لتحقيق مطامعه في الاستيلاء على مصر بحجة الدفاع عن استنجد به .

أرسل نور الدين حملة إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب وانتهت الحملات النورية على مصر بانتصار نور الدين على الصليبيين في مصر . وبمقتل شاور وزير العاضد ، اعتلى أسد الدين شيركوه كرسى الوزارة . ولكنه توفي بعد قليل ، فأصبح صلاح الدين وزيراً في سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) وهو في الثانية والثلاثين من عمره . ومنذ ذلك التاريخ أخذ يوطد مركزه في مصر ، ويعمل على تأسيس دولة تحل محل الدولة الفاطمية المنحلة ، وبوفاة الخليفة العاضد الفاطمي تم لصلاح الدين ما أراد .

العقبات التي اعترضت صلاح الدين :

لم تستقر الأمور لصلاح الدين منذ أن وصل إلى منصب الوزارة ، بل اعترضه عدة صعاب ، كان لا بد له من تذليلها والتغلب عليها ، كي يحقق ما كانت تصبو إليه نفسه من إقامة دولة جديدة يكون هو مؤسسها وأول سلطان لها ، وله فيما كان يحدث في أوروبا في القرن الثاني عشر الميلادي وفي الشرق الأدنى حوالي ذلك الوقت من ظهور دول جديدة ، أبلغ مثل وأكبر حافر .

وكان وجود صلاح الدين في مصر نائباً عن نور الدين ، ومحاطاً بالصليبيين الطامعين

في امتلاكها ، ومناضلاً بقايا الفاطميين وأنصارهم من مثيري الفتن والقلاقل ضد حكمه ، مما رسم له طريق الكفاح في سبيل تحقيق آماله .

كان صلاح الدين نبياً ووزيراً في دولة شيعية ، عمل خلفاً لها على تأسيس دولتهم على دعائم شيعية . حضر إلى مصر في مهمة مؤقتة . كان من المفروض بعدها أن يعود إلى وطنه في الشام ليواصل خدمة سيده نور الدين . ولكن استقر به المقام في الديار المصرية ، وتولى أكبر منصب فيها ، ورغم أن صلاح الدين كان شاباً في مقتبل العمر ، فقد كانت له الكلمة العليا إدارة شؤون البلاد . ولما كان يعمل بين كهول أفتوا أعمارهم في خدمة الفاطميين ، فلا تعجب إذا أوغرت صدورهم واشتد عليه حقدهم ، وكثر حساده وأعداؤه ، واعتبروه دخيلاً عليهم ومغتصباً لحقوقهم . ومن هنا نتبين مدى حرج موقفه الداخلي .

بدأ صلاح الدين حياته في مصر موالياً لسيده نور الدين ، فحذف اسم العاضد من الخطبة وذكر اسم نور الدين بعد اسم الخليفة العباسي ، وكان العاضد مريضاً ، ومات دون أن يعلم بذلك التغيير .

ذلك أنه في أحد المساجد قام الخطيب في ذلك اليوم في صلاة الجمعة ، متبعاً الطريقة المأثورة عن السنيين « فأكثر بالصلاة على محمد ﷺ وعلى آله ، ورضى عن أصحابه ، واختص الأربعة الخلفاء بالتسمية رضى الله عنهم جميعاً ، ودعا لعلى النبي صلى الله عليهم سلم حمزة والعباس ، والحسن والحسين ووالى الرضى عن جميعهم ، ثم دعا للأمهات المؤمنات زوجات النبي ﷺ ورضى عن جميعهم ، ورضى عن فاطمة الزهراء ، وعن خديجة الكبرى بهذا اللفظ ثم ألقى عظته بعبارة بليغة ، أثرت في السامعين حتى لانت له أقسى القلوب وسالت من العيون الدموع الغزيرة ، وكان لا بأساً ثوب سواد - وهو شعار العباسيين - مرسوماً بذهب ، وعليه طيلسان شرب وبيق (يسميه الأسيان الأحرار) ومتعمماً بعمامة سوداء مرسومة أيضاً ، وعلى عاتقه السيف بمسكه بيده دون تقلد له ، فعند صعوده في أول درجة ، قلده المؤذن المذكور السيف ، ثم ضرب بنعلة سيفه فيها ضربة أسمع بها الحاضرين - إشارة منه إلى التزام السكون - ثم في الثانية ثم في الثالثة ، فإذا انتهى إلى الدرجة العليا ضرب ضربة

رابعة ، ثم أخذ يتلو الدعاء هو واقف بين علمين أسودين عليهما علامات بيضاء ، وقد لبنا في أعلى المنبر ، ثم دعا للخليفة العباسي أبي العباس أحمد الناصر (لدين الله ابن المستضيء) ثم لصالح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب ولولى عهده أخيه أبي بكر بن أيوب (١) .

هوى بذلك نجم الدولة الفاطمية ، وظل عرش مصر شاغراً ، حتى اعتلاه صلاح الدين بعد كفاح مع عناصر عدة . فقد كانت بقايا الفاطميين وأنصارهم أول ما يتطلبه اهتمام صلاح الدين ، ذلك أنه بعد وفاة العاضد ألقى صلاح الدين أسرة الخليفة المتوفى في القصر الفاطمي ولم يخرجهم منه (٢) ، ولم يقس في معاملتهم ، بل مهد لهم سبيل الترف والنعيم ، حتى ينسيهم تراثهم المقتصب ويعددهم عن سبيل الحكم . غير أن الطامعين في العرش من أنصار الفاطميين لم يعدموا وسيلة يلقون بها صفو صلاح الدين .

ومن هنا قامت الفتنة التي أحدثها الجند السودان بزعامة مؤتمن الخلافة نجاح ، ولكن صلاح الدين قضى على تلك الفتنة تماماً ، وقتل زعيمها وطرده الثوار إلى الوجه القبلي ، وما لبث أن أجلاهم عن الديار المصرية ، وغزا السودان . ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن فتحه للسودان كان بقصد اتخاذه ملجأً يحتوى فيه إذ ما غدر به سيده نور الدين ، وخاصة أن العلاقات بين الرجلين كانت قد ساءت في ذلك الحين ، بسبب شك نور الدين في أطماع صلاح الدين في مصر والشام . ولكن الواقع أن غزوه السودان كان للقضاء على الطوائف الثائرة ، فإن مناخ بلاد السودان وحالتها العامة لم تكن تشجعه على الالتجاء إليها ، حتى إن صلاح الدين رأى أنها لا تستحق المجهود الذي بذل لأجلها (٣) .

على أن أعنف حركة قامت ضد صلاح الدين ، هي الحركة التي دعا إليها الشاعر المعروف عمارة اليمنى ، الذي طالما مدح الفاطميين وأيامهم . فقد عمل عمارة على إعادة الحكم للدولة الفاطمية ، إذ اعتبر الأيوبيين مغتصبين للعرش الفاطمي ، وبلغ من تحقير هذا

(١) ابن جبير (طبعة راهت) مر ٤٦ - ٤٧ .

(٢) Lane - Poole : Egypt in the Middle Ages, P. 93 .

(٣) راجع ما ذكر عن تلك الثورة في : ابن الأثير ج ١١ ص ١٥٥ .

الشاعر لشأن صلاح الدين أنه كان يطلق عليه لقب « المملوك الصغير » واستطاع عمارة في سبيل الوصول لأغراضه ، أن يضم إلى حركته كثيراً ممن جمع بينهم الحقد على الدولة الأيوبية ومن تأثرت مواردهم المالية نتيجة قيامها . فجمع حوله كثيراً من السودانيين ، وبعض التركمان الحاقدين ، وبعضاً من قواد صلاح الدين الحاسدين له لوصوله إلى الوزارة ، بل أكثر من ذلك أن المتآمرين ضد صلاح الدين فاضوا عموري ملك بيت المقدس ، وراشد الدين سنان رئيس الإسماعيلية الحنثيشية ، لإرسال حملات إلى مصر ضد الأيوبيين . وانضم كبار موظفي الدولة إلى حركة عمارة اليمنى أمثال : عبد الجبار بن إسماعيل داعي الدعاة ، وابن كامل قاضي القضاة ، وعبد الصمد الكاتب ، وجماعة من بني رزيق من أسرة شاور ، والعوريس ناظر الديوان^(١) .

ومما زاد في خطورة هذه الحركة ، اتفاق عمارة اليمنى مع ملك صقلية النورماندى على مهاجمة الشواطئ المصرية ، في الوقت الذي تقوم فيه الثورة ضد الأيوبيين في القاهرة^(٢) فأرسل ملك صقلية أسطولاً كبيراً مكوناً من ٢٨٢ قطعة في سنة ٥٧٠ هـ (يولية ١١٧٤ م) وحاصر الإسكندرية بالمجانيق والدهابات لمدة ثلاثة أيام ، استيملت فيها حامية الإسكندرية وقاومت بكل شجاعة ، ولكنها أوشكت على التسليم ، لولا أن صلاح الدين أعلن أنه سيمدها بالعتاد والذخيرة ، فأوجس الأعداء خيفة ورفعوا الحصار وهربوا بعد أن تكبدوا خسائر فادحة في سفنهم . وكذلك لم يف ملك بيت المقدس بوعده في إرسال حملته ، لما علم بمصير حملة ملك صقلية وبقضاء صلاح الدين على مدبرى المؤامرة .

ذلك أن أخبار هذه المؤامرة وصلت إلى صلاح الدين عن طريق زين العابدين على بن نجاء ، الذي ظل يشترك مع المتآمرين حتى عرف خطتهم كاملة ، وعندئذ نقل تفاصيلها إلى صلاح الدين^(٣) وبذلك فشلت حركة عمارة اليمنى ، واستطاع صلاح الدين أن يقبض عليه

(١) المقرئى : كتاب السلوك ج ١ ص ٥٤ .

(٢) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٥٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ص ٤٨ .

وعلى باقى زعماء الحركة الذين ساعدوه فاعترف بعضهم ، وبرروا عملهم هذا بما نالهم من قطع أرزاقهم بإقصائهم عن مناصبهم ، فصلب صلاح الدين أكثر المتأمرين وقتل عمارة فى رمضان سنة ٥٦٩ هـ (أبريل ١١٧٤ م) ونفى بعضهم إلى الصعيد ، وقيل إنه لم يتعرض بسوء لجنده وقواده الذين خرجوا عليه ، وإنما تجاهل فعلتهم لعلهم يرتدعون عن غيرهم .

أما الفتنة الداخلية الثالثة التى واجهها صلاح الدين ، فقد قامت فى أسوان وقوص ، وسببها أن كثر الدولة وهو مصرى من أبناء الصعيد ، نزع إلى أسوان^(١) بعد فتنة مؤتمن الخلافة نجاح ، واستطاع هناك أن يجمع حوله بقايا الجنود السودانية وغيرهم من أنصار الدولة الفاطمية ، ولما أنس كثر الدولة من نفسه القدرة على مناهضة صلاح الدين ، قام بحركته بقصد إعادة الخلافة الفاطمية ، فقتل بعض أمراء صلاح الدين فى تلك الجهات ، وفى الوقت نفسه خرج عباس بن شاذى فى قرية طود ، واستولى على قوص ، فأرسل صلاح الدين إلى هؤلاء الخارجيين أخاه الملك العادل بجيش كبير ، وتمكن العادل من قتل كل من : كثر الدولة وعباس بن شاذى ، وقضى بذلك على تلك الفتنة فى صفر سنة ٥٧٠ هـ (سبتمبر ١١٧٤ م)^(٢)

موقف صلاح الدين من نور الدين :

لم تكن تلك الفتن الداخلية هى العقبة الوحيدة التى واجهت صلاح الدين فى بداية حكمه ، فقد كان صلاح الدين أحد قواد نور الدين ، ولما حكم مصر حكمها نيابة عنه ، وكان يذكر اسم نور الدين فى الخطبة بعد اسم الخليفة العباسى ، وكذلك ضربت السكة باسمه ، على أن تبعية صلاح الدين لنور الدين كانت اسمية ، وكان صلاح الدين هو حاكم مصر الفعلى ، وله جيشه وحاشيته ، كما كان متمتعاً بحب رعيته .

لذلك لم يستطيع نور الدين ، رغم حسده له ، أن يتدخل فى شئونه ويحد من أطماعه . يضاف إلى ذلك أن موقف نور الدين كان حرجاً أمام خصومه من السلاجقة والصليبيين وأمراء

(١) المقرئى . كتاب السلوك ج ١ ص ٥٨

(٢) المقرئى نفس المصدر والجزء والصفحة

الجزيرة ، وكان يعتمد على مساعدات صلاح الدين له ضد أعدائه ، فاضطر أن يتفادى قيام عداء بينهما . أما صلاح فقد قيل إنه تنكر لسيدته نور الدين وأراد الاستقلال بمصر ، وقد شعر نور الدين بنوايا صلاح الدين وأطماعه ، وذلك عندما دعا صلاح الدين أهله وعشيرته من الشام سنة ٥٦٨ هـ (مايو ١١٧٣) وكان ذلك بمثابة قطع كل صلة بينه وبين مملكة نور الدين وقد وزع على أهله بعضاً من كنوز الفاطميين وأسكنهم في قصورهم ، رغم اكتفائه بالدار التي كان يشغلها عندما كان وزيراً وتسمى « دار الوزارة » وفي ذلك يقول أبو شامة لما دخل فصل النيروز وزاد ، استأذن الأمير نجم الدين أيوب ، نور الدين في قصده ولده صلاح الدين والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته وسبده ولبده^(١) ، وخيم بظاهر البلد . خاف نور الدين عليهم ، فسار إلى الكرك ، فنزل عليه وحصره وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين ، ونصب نور الدين على الكرك المجانيق^(٢) ومن قصيدة للشاعر عمارة اليمنى ، مدح بها صلاح الدين :

جاءته إخوته ووالده إلى مصر على التدرج والترتيب
فاسعد بأكرم قادم وبدولة قد ساعدتك رياحها بهبوب

ويستدل على نوايا صلاح الدين من محاولاته المتكررة لیتفادى مقابلة نور الدين عند حصن الكرك رغم ترتيباتهما المشتركة لغزو هذا الحصن والتلاقي فيه ، فقفل راجعاً إلى مصر عندما علم بمسير نور الدين إليه ، وفي مرة أخرى رجع إلى مصر ، واحتج بمرض والده أيوب^(٣) كما أن صلاح الدين لم يمد يد المساعدة لنور الدين في حروبه مع الصليبيين ، بحجة أنه مشغول بقمع الثورات الداخلية في مصر . ويعتقد بعض المؤرخين أن صلاح الدين ظل وفياً لسيدته طول حياته ، بدليل عمله على استرضائه بالهدايا الكثيرة والتحف النفيسة التي آلت إليه بعد الفاطميين ، وذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة^(٤) ويؤيدون صلاح

(١) لم يرد ذكر أسماء إخوة صلاح الدين .

(٢) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ص ١٨٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٦٧١ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ص ٤ .

الدين فيما ذهب إليه ، بأنه كان مشتغلاً بالفتن الداخلية فلم يتمكن من مساعدة نور الدين في حروبه .

علاقة صلاح الدين بالملك اسماعيل بن نور الدين :

في تلك الفترة الحرجة من حياة صلاح الدين ، توفي سيده وعدوه نور الدين في شوال سنة ٥٦٩هـ (١٥ مايو ١١٧٤م) وهو متأهب لغزو مصر لإخراج صلاح الدين منها . وإلى ذلك الحين ، كان صلاح الدين قد نجح في التغلب على العقبات التي صادفته منذ أصبح وزيراً إذ إنه قضى على مؤتمن الخلافة نجاح ، وارتدت الحملة الصليبية إلى دمياط سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م) في بداية عهده ، وكان لهذا الارتداد أكبر الأثر في ذبوع اسم صلاح الدين ، إذ جعل العالم الإسلامي ينظر إليه نظرتة إلى بطل من أبطال الإسلام ، أمكنه الوقوف في وجه الصليبيين ، كذلك نجح صلاح الدين في فتح اليمن ، والقضاء على حركة عمارة اليمنى ، وحركة كنز الدولة .

وكان للأحداث التي أعقبت وفاة نور الدين ، أثرها في جعل صلاح الدين ينقل جهوده من الميدان المصري إلى الميدان الشامي . فقد حدث أن قامت المنافسة الشديدة بين أمراء نور الدين في حلب ودمشق وبين رجال الجيش الزنكي بالموصل على من يعتلى عرش الدولة النورية الشاغر ، وانتهت هذه المنافسة باعتلاء اسماعيل بن نور الدين عرش أبيه ، ولكنه وقع فريسة في أيدي أمراء الدولة المنقسمين . وكان طفلاً في الحادية عشرة من عمره ، فضاعت بذلك قوة الدولة النورية وهيبتها ، وبدأت بها ظاهرة التجزؤ ، فأصبحت الجزيرة والموصل تحت سيطرة سيف الدين غازي ، وانفرد شمس الدين بن الداية بحلب ، وشمس الدين بن المقدم بدمشق . وأدى تنافس هؤلاء الأمراء على السلطة والنفوذ ووقوع السلطان الصغير تحت سيطرتهم إلى ضعفهم ، حتى إن ابن المقدم لم يقو على قتال الفرنجة فعمل على استرضائهم بالمال ليتجنب شرهم (١) .

(١) ابن واصل : مفرج لكروب ص ١٨٠ .

بعد وفاة نور الدين ، أحاط بالملك اسماعيل حزبان من الأمراء : جنوب الحلبيين الذى يميل إلى بقاء اسماعيل فى حلب كما كان نور الدين فيها من قبل ، وحزب الدمشقيين الذى يريد نقل العاصمة إلى دمشق لإرجاعها إلى مجدها القديم الذى كانت عليه قبل اتخاذ نور الدين لمدينة حلب عاصمة للدولة . وبذلك تنازع هذان الحزبان : فاستنجد الحلبيون بالصلبيين لمساعدتهم ، واستعان الدمشقيون بصلاح الدين كى ينصرهم على منافسيهم . ساعد ذلك الضعف الذى انتاب دولة نور الدين فى عهد اسماعيل وتنافس أمراءه فيما بينهم ، على تدخل صلاح الدين فى شئون بلاد الشام ، كى يحول دون وقوع تلك الدول الإسلامية غنيمة فى يد الصليبيين ، فتصبح مصر والشام وباقى الإمارات الإسلامية ، فى خطر عظيم .

وكان هدف صلاح الدين هو القضاء على خطر الصليبيين ، ووجد أن السبيل إلى ذلك هو توحيد القوى الإسلامية كلها فى جبهة واحدة ليتمكن من حصر الصليبيين بين شقى الرحى ، بين المسلمين فى الجزيرة وشمال الشام من جهة ، وبين الأيوبيين فى مصر من جهة أخرى لذلك فإنه حين استنجد به هؤلاء الأمراء المتنازعون ، لى دعوة أمراء دمشق ، وسار إلى الشام ، على اعتبار أنه أكبر أمراء المسلمين وأجدرهم برعاية الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وتمكن صلاح الدين دون قتال من الاستيلاء على دمشق (١١ جمادى الأولى سنة ٥٧٠ هـ) ثم استولى على حمص وحماه .

حاول صلاح الدين أن يقنع الملك الصالح اسماعيل بإخلاصة ، فلم ينجح فى ذلك وحال الملك بينه وبين دخول حلب ، ولكن صلاح الدين لم يقف مكتوف اليدين إزاء ذلك العمل ، فإنه حاصر حلب . إلا أن أهلها استبسلوا فى الدفاع عنها واستنجدوا بريموند صاحب طرابلس ، وسيف الدين غازى صاحب الموصل ، وبطائفة الإسماعيلية التى كاد أحد أفرادها أن يفتك بصلاح الدين لولا أنه نجا بأعجوبة . فاضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن حلب ، واستولى على بعلبك كى يحمى جيشه من الخلف . ثم عاد إلى حصار حلب من جديد ، وأعلن استقلاله وحذف اسم الملك الصالح اسماعيل من الخطبة واتصل بالخليفة العباسى وحصل منه على لقب « سلطان » .

صلاح الدين بعد حصوله على لقب سلطان :

هكذا أصبح لصلاح الدين حق شرعى فى حكم مصر ، ولم يعد يحكمها نيابة عن أسرة نور الدين ، وأحرز صلاح الدين بعض انتصارات استولى بها على منبج واعزاز ، واشتد حصاره لحلب التى أصبحت معزولة عن كل المدن المجاورة ، وعند ذلك طلب الملك الصالح إسماعيل الصلح ، فقبل صلاح الدين ، واتفق الطرفان على تنفيذ شروط الصلح وتلك الشروط تدلنا على أن صلاح الدين لم يقصد إذلاله أسرة نور الدين .

وابتسم الحظ ثانياً لصلاح الدين ، فتوفى أكبر منافس له ، وهو سيف الدين غازى صاحب الموصل فى سنة ٥٧٨هـ ، كما توفى الملك الصالح إسماعيل ولما كان إسماعيل طفلاً لم يعقب وريثاً للعرش ، فإن الانقسام والتنافس ظهرا ثانية بين أمراء الدولة النورية . فخرج صلاح الدين من القاهرة سنة ٥٨٨هـ (١١٨٢م) وزحف على الشام ، فانضمت إليه بعض المدن دون قتال . وانتصر فى سنجار وآمد وتل خالد ، ثم استولى على حلب سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م) ولم يمض وقت طويل حتى كان شمال الشام كله فى يد صلاح الدين . ولم يبق بعد كل تلك الانتصارات ، إلا مدينة الموصل ، وهى مدينة قوية تعادل حلب ودمشق فحاصرها صلاح الدين ، ثم تركها لانشغاله بإخضاع الأرمن ، ولكنه ما لبث أن عاد إليها ، وحاصرها ، ومنع عنها الأقوات والإمدادات . نحتى طلبت الصلح ، وانتهى الأمر باعترافها بسيادة صلاح الدين الذى ترك عليها أميرها عماد الدين زنكى على أن يكون تابعاً له ، ويقوم الخطبة ، ويضرب السكة باسم صلاح الدين ، ويرسل له المساعدات الحربية وقت الحاجة إليها^(١) .

هكذا خضعت كل الإمارات الإسلامية الشامية لصلاح الدين ، واستطاع أن يجمع دولة

(١) Lane - Poole : Egypt in the Middle Ages. P. 209

نور الدين تحت سلطانه ، ويوحد كلمة المسلمين ، ومهد بذلك لنضاله المقبل ضد الصليبيين ، ذلك النضال الذى كرس له صلاح الدين حياته ومواجهه (١) .

خرج صلاح الدين من القاهرة لآخر مرة سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) زاحفاً على الشام لتوحيد شمل المسلمين ، وإعدادهم لقتال الصليبيين . وكان أغلب حياة صلاح الدين بطل الإسلام العظيم فى خارج مصر ، ذلك أنه لم يقض من مدة حكمه التى بلغت أربعة وعشرين سنة ، سوى ثمانى سنوات فى مصر ، لأن تبعيته لملك دمشق التى دامت خمس سنين لم تكن سوى تبعية اسمية ، كما أن أعظم انتصاراته كانت فى سورية ، وبلاد الموصل ، وفلسطين . ولما غادر القاهرة فى اليوم الحادى عشر من شهر مايو سنة ١١٨٢ م ، خرج رجال القصر لتوديعه ، وحين وقف الركب عند بركة الحبش وصدحت الموسيقى ، سمع صلاح الدين شاعراً ينشد شعراً نشاءم منه ووقع فى نفسه أنه لن يرى مصر بعد ذلك وقد صح حدسه ، إذ لم تكتحل عينه بمراى مصر بعدها (٢) .

دارت رحى الحرب بين الصليبيين وبين صلاح الدين فى سنة ٥٨٣ هـ ففزا أرض الفراتين ، واستولى على دمشق التى كان قد ضمها إلى أملاكه بعد موت نور الدين ، وانتصر على الصليبيين فى موقعة حطين ، وكان ذلك فاتحة انتصارات باهرة للمسلمين ، فسلمت لصلاح الدين مدن طبرية ، وعكا ، ونابلس ، والرملة ، وقيسارية وأرسوف ، وبافا ، وبيروت ، والإسكندرونة . ودخل فلسطين واستولى على عسقلان واسترد بيت المقدس التى كانت مقدسة بالنسبة إليه كما كانت بالنسبة إلى المسيحيين ، وأخضع الأرض المقدسة بأسرها ، وحارب فرسان أوروبا حول عكا نحو سنتين ، ونازل آخر الأمر ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا نزالاً جعل اسم صلاح الدين يتردد على كل لسان حتى فى أوروبا نفسها وأخيراً أمضى معاهدة الصلح التى عقدت فى الرملة فى شهر سبتمبر سنة ١١٩٢ م ، وبه أصبحت جميع الأراضى

(١) راجع العلاقات الخارجية فى عصر الأيوبيين فى الباب الرابع .

(٢) مات صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ (شهر مارس سنة ١١٩٣ م) فى دمشق .

فى أيدى المسلمين إذا استثنينا جزءاً ضيقاً من الساحل بين مدينتى صور ويافا ودعا البابا العالم المسيحى أن يحمل السلاح لتخليص بيت المقدس ومملكة أورشليم وقد استجاب لندائه : إمبراطور ألمانيا ، وملوك إنجلترا ، وفرنسا ، وصقلية ، وليوبولد صاحب النمسا ، ودوق برغندية ، وكونت الفلاندرز ، ومئات من مشاهير البارونات ، والفرسان من جميع الأقطار ، وانضموا إلى ملك بيت المقدس وأمراء فلسطين ، وفرسان العبد والكنيسة . إلا أن الإمبراطور قد مات ، وعاد الملوك من حيث أتوا ، وقد تركوا أنبل جماعة من رعاياهم قتلى فى الأرض المقدسة غير أن بيت المقدس بقيت فى بد صلاح الدين ، ولم يبق لملكها الاسمى إلا قطعة صغيرة من الأرض حول عكا لقد تجمعت كل قوى العالم المسيحى فى الحرب الصليبية الثالثة ، ولكنها لم تستطع أن تنال من قوة صلاح الدين وسلطانه .

ولما انتهت حروب السنوات الخمس وخفت مخنها ومصائبها ، لم يكن لصلاح الدين منافس يحكم الأقطار التى تقع بين جبال كردستان ، وصحراء ليبيا . وكان ملك جورجيا وكاثوليك أرمينية ، وسلطان قونية ، وإمبراطور القسطنطينية وكلهم وراء الحدود - يتوددون إليه ويخطبون وده ، ويتوقون إلى محالفته^(١) وظل صلاح الدين يتفقد أحوال سوريا وفلسطين وزار بيت المقدس وذهب إلى دمشق حيث استقبل استقبالاً حافلاً وتغنى بمدحه الشعراء والأدباء .

تقدير صلاح الدين :

مرض صلاح الدين بعد كل تلك الجهود ، ولزم فراشه ، ومات فى سنة ٥٨٩ هـ (٤ مارس سنة ١١٩٣ م) وله من العمر ٥٥ سنة ، بعد أن أسر مواطنيه بجليل أعماله ، وقهر الصليبيين بقوته ، وخلص العالم الإسلامى من كوارث داخلية وخارجية كادت تودى به وبدولته وتوقعه فى أيدى الأعداء ، ويعتبر صلاح الدين من الشخصيات العظيمة النادرة فى التاريخ الإسلامى ، فقد كان سياسياً ماهراً وقائداً محنكاً ، نبيلاً فى تصرفاته ، ميالاً إلى الكرم والعفو ، محباً للعلم والأدب مخلصاً مع أصدقائه وأعدائه . وفيما بوعوده وعهوده ، فإنه لم ينقض اتفاقاً أو صلحاً عقده حتى حين كانت تسنح له الفرصة للتخلص من أعدائه ، لذلك

(١) Lane - Poole : Saladin, p. 360

فإنه لما توفي هذا البطل العظيم ساد الحزن أرجاء البلاد الإسلامية ، وبكاه شعبه المهزون عليه رجالاً ونساء ، وتمنى الجميع لو افتدوه بأرواحهم .

ويتميز عصر صلاح الدين بتلك المنشآت الهائلة التي تمت في عهده : فقد شيد قلعة الجبل ، وعهد بينائها إلى وزيره بهاء الدين قراقوش ، وكان لها سور وأبراج وثلاثة أبواب . ولم يبن عاصمة جديدة ، أسوة بمن سبقوه ، بل ضم الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع والقاهرة ، بعضها إلى بعض ، وأحاطها بسور عظيم ، وبذلك اتسعت مدينة القاهرة . وعنى ببناء المدارس : كمدارس الناصرية والقمحية والسنية ونهض بالحركة العلمية في البلاد نهضة مباركة .

وإذا كان صلاح الدين من أبرز شخصيات العالم الإسلامي ، فإن عصره كان كذلك من أزهى العصور ، وحفل بكثير من الشخصيات التي كان لها من رجاحة الرأي ، وسداد الفكر ما ساعد صلاح الدين على إنجاز كثير من مهام الدولة . فكان والده نجم الدين أيوب أول مستشار له ، وأكبر عون ونصير ، ولكن الزمن لم يمهل طويلاً ، فقد وافته منيته في ٢٧ ذى الحجة سنة ٥٧٨ هـ ودفن في مصر ثم نقلت جثته وجثة أخيه أسد الدين شيركوه إلى الحجاز^(١) وبوفاته انتهت حياة أولى شخصيات الأيوبيين والساعد الأيمن لصلاح الدين .

وبعد وفاة نجم الدين أيوب ، اعتمد صلاح الدين على أخيه العادل سيف الدين واسترشد بآراء القاضي الفاضل ، وكان من الشخصيات المقربة إليه ، فترك له حرية التصرف في مكتبة القصر ، وكانت تحوى ١٢٠,٠٠٠ مخطوط^(٢) ، وبهاء الدين قراقوش الذي عهد إليه بالإشراف على بناء قلعة الجبل ، وكان الأخيران من رجال الدولة الفاطمية ، ثم انضموا إلى صلاح الدين ، وخدموا الدولة الأيوبية الناشئة أجل الخدمات .

(١) ابن الأثير : الكامل ج١ ص ١١٦ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٦٧ .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج٢ ص ٥٢ .

خلفاء صلاح الدين

(٥٨٩ - ٦٤٨ هـ / ١١٩٣ - ١٢٥٠ م)

بعد موت صلاح الدين ، انقسمت السلطنة الأيوبية بين أبنائه الثلاثة وأخيه وبعض أقاربه . فاستقل ابنه العزيز بمصر ، وابنه الأفضل بدمشق وسوريا الوسطى ، وابنه الظاهر بحلب ، أما أخوه العادل فحكم العراق وديار بكر والرها ، وتولى أبناء عمومته حماه وحمص وبلبك واليمن ، واعتبر كل منهم مستقلاً في ولايته ، وهكذا قضى بموت صلاح الدين على وحدة الدولة ودب الشقاق بين أبناء صلاح الدين بعضهم وبعض ، وبين عمهم العادل وأبناء عمومته ، مما أضعف الدولة وهدد كيانها .

٢- العزيز بن عماد الدين

(٥٨٩ - ٥٩٥ هـ = ١١٩٣ - ١١٩٨ م)

خلف صلاح الدين على عرش مصر ، الملك العزيز وهو أصغر أبنائه الثلاثة ، وكان شاباً في الحادية والعشرين من عمره ، وساعد على تبوّثه هذا المنصب : أن كان يحكم مصر نيابة عن أبيه أثناء حياته ، وأن أخاه الأكبر المعروف بالأفضل حاكم دمشق ، كان شاباً مستهتراً منغمساً في اللهو والشراب مما لا يجعله كفواً لتبوّث العرش .

حدث نزاع بين العزيز وأخيه الأفضل ، فقد كانت مدينة القدس ضمن أملاك الأفضل ، ولما كانت تتطلب مجهوداً عظيماً لدفع الصليبيين عنها ، فإنه كتب لأخيه العزيز بالتنازل له عنها ، وسر العزيز لذلك وبعث جنده إلى القدس لتسلمها ، ولكن بدا للأفضل ألا يسلمها له حسب اتفاقه معه ، فساءت العلاقات بين الأخوين وحبب إليه رجال دولته محاربة أخيه الأفضل^(١) وقد مر ذلك النزاع في ثلاث مراحل اشترك عمه العادل في كل منها : مرتين

(١) المقرئى : كتاب السلوك ج١ ص ١١٥ .

إلى جانب الأفضل ، ومرة إلى جانب العزيز ، وطمع الملك العزيز بعد توليه عرش مصر في حكم دمشق ، منتهزاً فرصة ضعف مركز أخيه فيها ، وجمع لذلك جيشاً زحف به عليها . في ذلك الوقت ، كان الملك العادل أخو صلاح الدين يرقب الحوادث ، كى تتاح له الفرصة في النهاية للاستيلاء على العرش وإخضاع الدولة لسلطانه ، مع عمله في نفس الوقت على أن تظل الدولة محتفظة بكيانها ولا تنحدر إلى طريق الانهيار . فذهب العادل إلى الشام ، لنصح العزيز بالإقلاع عن حصار دمشق ، حتى لا يوجد ثغرة ينفذ منها الطامعون في مصر من أعداء الدولة الأيوبية وأخصهم الصليبيون ، وتدخل باقى الأمراء للفصل في هذا الأمر ، وأقنعوا العزيز بصحة رأى عمه العادل ، فلم يجد العزيز بدا من قبول النصح ، واصطلح مع أخيه الأفضل ورجع إلى مصر وودعه الأفضل أحسن وداع^(١) .

شعر العزيز بعد ذلك بقوته وضعف أخيه أما الأفضل فإنه استمر في لهوه واعتمد على بعض الرجال الذين ساءت سمعتهم وكرههم الشعب وخاصة الوزير محمد ابن الأثير ، لذلك أصبح موقف الأفضل في دمشق في غاية الحرج ، ولم يجد وسيلة للتخلص مما هو فيه سوى التحالف مع عمه العادل ورحب العادل بذلك ، كى يضعف من سلطان العزيز ونفوذه ، واتفق الاثنان على خلع العزيز عن عرش مصر ، وسارا معاً من الشام حتى وصلا إلى بلبس ، ولما استعصت عليهما لسوء حال جيشهما تركاها وسارا إلى القاهرة ، إلا أن العزيز خرج واسترضى عمه العادل بأن استوزره^(٢) وبذلك تدخل العادل في شئون الدولة بصفة فعلية ، وقبض على زمام الأمور ، بحجة منع الأفضل من الاستيلاء على القاهرة وكان وصوله إلى الوزارة ، الخطوة الأولى في سبيل وصوله إلى العرش وتحقيق أمنيته التى طالما عمل جاهداً لنيلها . على أن العادل ما لبث أن حرض العزيز على أخذ دمشق من الأفضل ، وتم لهما ما أرادا وتولاها العزيز . ولكنه وهبها قبل موته للمعظم عيسى ابن الملك العادل^(٣) .

(١) المقرئى : كتاب السلوك ج ١ ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٢) ابن أيبك . كثر الدرر ج ٧ ص ٩١ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣١ .

استمر العزيز على عرش مصر يساعده في حكمها عمه العادل ، حتى توفي العزيز سنة ٥٩٥هـ (١٩٨ م) وكان شجاعاً رحيماً كريماً ، ويتصف بالعفة وكرم الأخلاق .

٣ - المنصور ناصر الدين

(٥٩٥ - ٥٩٦هـ = ١١٩٨ - ١٢٠٠ م)

خلف العزيز ابنه الملك المنصور وهو طفل في التاسعة من عمره ، حكم مصر لمدة سنة وتسعة أشهر ، كانت عبارة عن نزاع بين عمه الأفضل وعم أبيه العادل لتنافس كل منهما على الوصول إلى العرش . وكان أبوه العزيز قد أوصى قبل وفاته بأن يتولى الوصاية عليه الوزير بهاء الدين قراقوش^(١) ، وقيل إن الوصي عليه كان أزكش مقدم الأسدية^(٢) .

ومهما يكن اسم الوصي الذي أشار به أبوه ، فإن الأمراء اتفقوا على استدعاء عمه الأفضل للوصاية عليه حتى يبلغ سن الرشد ، إلا أن الصلاحية وزعيمهم جهار كس كانوا ضد هذا الرأي وعملوا على مقاومته ، ولكن الأفضل سار إلى مصر وحكمها واستبد بالأمر ، ولم يترك للمنصور من السلطة إلا اسمها ، منتهزاً فرصة انشغال عمه العادل في العراق . ولما تأكد الأفضل من عدم رضاه عمه العادل عنه ، عزم على أن يقف منه موقف الهجوم بدلاً من الدفاع فاتفق الأفضل مع أخيه الظاهر على أخذ دمشق من يد عمهما ، وحاصراها ولكن محاولتهما فشلت ، ورجع كل من الأفضل والظاهر إلى دولته .

سار العادل في أثر الأفضل إلى مصر ، وتعمدت الحالة أمام الأفضل ، فقد كان الشعور قوياً ضده لكرهية رجال الدولة لوزيره محمد بن الأثير ولعجزه عن دفع أجور الجند حتى تألبوا عليه . لكي يدافع عن مصر ، حاول حرق بلبليس حتى يسد الطرق أمام العادل ، الذي استمر في الضغط على الأفضل في مصر .

ولم يجد الأفضل بدأ من عقد الصلح مع عمه ، واتفق على أن يأخذ العادل مصر ، في مقابل أن يترك للأفضل ميافارقين وجبل جور وديار بكر . وبهذا صار العادل وصياً على

(١) المقرئى : كتاب السلوك ج١ ص ١٤٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزهرة ج١ ص ١٤٦ .

المنصور ، وكان يخاف أن تتعقد الأمور في يده ، فتنهار الدولة الأيوبية ويطمع فيها جيرانها ، كما كان يتوق للوصول إلى العرش واضعاً نصب عينية : أن الملك ليس بالإرث ، فجمع مجلساً من الفقهاء قرر أنه يجب خضوع الصغير للكبير ، وأعلن خلع السلطان الصغير ، وتولية العادل سلطاناً على مصر .

وهكذا وصل العادل إلى العرش ، ووجد تحت إمرته كل إمبراطورية أخيه صلاح الدين تقريباً ، مع استثناء بلاد العرب وشمال سوريا (حلب ، حمص ، حماه) فقد نص على أن تحتفظ باستقلالها الذاتي ، واعترفت هذه الولاية بسيادته ، وساهمت في حروبه ، وضربت السكة باسمه وخطب له على كل المنابر الإسلامية .

٤ - العادل سيف الدين

(٥٩٦ - ٦١٥ هـ = ١٢٠٠ - ١٢١٨ م)

كيف وصل إلى السلطنة :

كان العادل أعظم سلاطين الأيوبيين في مصر بعد صلاح الدين ، فقد اكتسب خبرة واسعة من اشتراكه مع أخيه صلاح الدين في غزواته ومفاوضاته وإدارة أقاليم الدولة ، إذ وكل إليه معاونة العزيز في حكم مصر عندما كان يحارب الصليبيين في الشام . كما عهد إليه بحكم حلب ثم العراق وذاع صيت العادل بيم ملوك أوروبا فكان صديقاً لريتشارد قلب الأسد ووسيطاً بينه وبين أخيه صلاح الدين أثناء محاولة الصليبيين الاستيلاء على مصر .

اشتهر العادل بالكفاية والدهاء والدراية بشئون الحكم ، ولكنه - بحكم وصية أخيه - كان بعيداً عن العرش ، ولما رأى ضعف سلالة أخيه وحاجة الدولة إلى سلطان قوى ، فضلاً عن أن الوصول إلى السلطنة كان أمنيته التي ينشدها انتهز فرصة الشقاق الواقع بين أبناء صلاح الدين الثلاثة : العزيز والأفضل والظاهر للوصول إلى الحكم ، واشترك في منازعاتهم وناصر أحدهم على الآخر ، ليمهد الطريق لنفسه ، دون أن يظهر بمظهر الطامع في العرش ، بدليل أنه لم يخلع العزيز من السلطنة بعد وفاة أبيه صلاح الدين ، بل ظل يتحين الفرصة حتى سنحت

فاقتنصها وكان ذلك ضرورياً لحفظ كيان الدولة الأيوبية التي بلغت من الانقسام درجة كان يخشى عليها من الانهيار .

وما أن تولى العادل زمام الحكم في مصر ، حتى عزم على التخلص من المنصور السلطان المعزول ، فأخرجه هو وأسرته من مصر إلى الرها ، ولكنهم هربوا إلى حلب ، وظل المنصور في رعاية عمه الظاهر أمير حلب حتى توفي^(١) إلا أن تصرف العادل إزاء المنصور سبب قيام طائفة الصلاحية ضده ، رغم أنهم ساعدوه من قبل أثناء نزاعه مع الأفضل .

الصعاب التي واجهت العادل

١ - موقفه من أبناء صلاح الدين :

ومن الطبيعي أن يقف الأفضل والظاهر عما المنصور السلطان المعزول ، ضد العادل منتصب السلطنة ، ولم تفلح الطرق الودية في إرجاع التفاهم والتعاون بين الطرفين ، وحاول الأفضل والظاهر الاستيلاء على دمشق ، ولكن العادل سبقهما إليها ومنعهما من أخذها ، وانتهى الأمر بمقد صلح بين الفريقين . نصر فيه على : أن يكون للعادل مصر ودمشق وجميع ما في يده من البلاد ، ويكون للظاهر حلب ، وللأفضل قلعة النجم وسروج وسميساط ، وأن تقام الخطبة للعادل^(٢) .

غير أن الأفضل انتهز فرصة قتال العادل مع الصليبيين وألب أعداءه ، لذلك انتزع منه العادل أملاكه عدا سميساط ، فقابل الأفضل عمل العادل بقطع الخطبة له ودعا للسلطان السلجوقي صاحب الروم . كان العادل دائماً شجى في حلق الأفضل بن أخيه : فقد أصبح تحت يد العادل حران والرها وميافارقين ، وأخذ من الأفضل دمشق وقلعة النجم وسروج .

(١) المقرئى : كتاب السلوك ج١ ص ١٥٣ .

(٢) المقرئى : كتاب السلوك ج١ ص ٣٧١ .

ولكن الظاهر حاول أن يوجد علاقات ودية بينه وبين عمه العادل ، فتزوج الظاهر صفية خاتون ابنة العادل ، وأنجب منها ابناً ، إلا أن هذا الزواج لم يفلح في إيجاد الصفاء بين العم وابن أحميه ، وظل كل منهما يتحين الفرصة للايقاع بالآخر والتخلص منه . وقد حدث أن خرج الظاهر من حلب للحج ، ولكنه منع من أداء تلك الفريضة ، بحجة أنه أتى للاستيلاء على اليمن ، فقال : « قيدوني ودعوني أقض مناسك الحج » ، فرفض طلبه ، وتآلم الناس لتلك المعاملة التي عومل بها الظاهر (١) .

٢ . عداة الاسماعيلية والصلاحية له :

لم يكن موقف العادل إزاء بعض شخصيات أسرة صلاح الدين وعداء هؤلاء له هو كل ما صادف العادل من العقبات ، فقد ظهرت أثناء سلطنته بعض الطوائف المتمردة على حكمه ، وأهمها طائفتا الإسماعيلية ، والصلاحية .

كانت الإسماعيلية تعادى الأيوبيين منذ ظهور صلاح الدين في مصر ، واشتركت في الفتنة التي قام بها عمارة اليمنى ، بقصد خلع صلاح الدين ، ولا نعجب لقيام العداة بين طائفة الإسماعيلية وبين الأيوبيين . إذ كان الفاطميون من الشيعة الإسماعيلية . وقد قبض العادل على تلك الطائفة سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) وصادر أملاك زعمائها وسجنهم .

أما الصلاحية ، فهم أنصار صلاح الدين ، الذين كرسوا جهودهم لخدمة أبنائه من بعده ، ولكنهم ساعدوا العادل قبل أن يتولى حكم مصر ضد الأفضل ابن صلاح الدين بعد أن رأوا استهتاره وسوء خلقه أثناء توليته حكم دمشق ، على أنهم انقلبوا على العادل . حين عزل سلطان مصر الشرعى الملك المنصور ، حفيد صلاح الدين وابن العزيز ، إذ كانوا يريدون أن يظل العادل وصياً على السلطان ، لا مغتصباً للملكه ، واشترك الصلاحية مع الأفضل ابن صلاح الدين في زحفه على دمشق لأخذها من يد العادل ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك ، لاستبسال العادل فى الدفاع عنها ، غير أن العادل استراح من هذه الطائفة بموت زعمائها : الأمير جهاركس والأمير عز الدين أسامة والأمير تراجا ، والاستيلاء على حصونهم .

٣ . فشله أمام الصليبيين :

(١) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ١٥٩ .

وواجه العادل عدة حملات صليبية ، زحفت على مصر خلا حكمه لها ، فقد خرج الصليبيون بأسطول كبير إلى مصر ، ولكن العادل اصطلع معهم سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) وعقد هدنة مع ملك بيت المقدس . وواجه كذلك حملة الأبطال التي زحفت على مصر ، ولو أنها لم تترك بالبلاد أى أثر سوى أنها ملأت البلاد بأثرى من الفتيات بيعوا كالرقيق . ثم أرسلت أوروبا حملة صليبية هاجمت مصر بقيادة جان دى برين Jean de Brienne ، ووصلت إلى دمياط وحاصرتها ورغم أنها كانت محصنة وبشرف عليها برج السلسلة ، فقد استولى عليها الصليبيون وسقط هذا البرج .

٤ - المجاعة تكتسح مصر :

ومما زاد فى حرج مركز العادل ، أن مصر اكتسحتها فى السنوات الأولى من حكمه مجاعة خطيرة كادت تكون صورة مماثلة للمجاعة التى حدثت فى عصر المستنصر بالله الفاطمى ، فقد انخفض فيها ماء النيل حتى لم تعد المياه كافية لزراعة الأراضى مما سبب انتشار القحط ، ونفشى الأوبئة ، وسوء أحوال مصر الاقتصادية^(١) ، وصحب هذه المجاعة زلزال حدث فى الصعيد ، هدم كثيراً من أبنية مصر ومات بسببه الكثيرون ، وامتد خطره للشام ، وهدم جهات عديدة فى نابلس وعكا وصور ودمشق ، وأهلك عدداً لا يحصى من السكان^(٢) .

٥ - تقسيم ملكه بين أبنائه :

ورغم ما واجه العادل من الصعاب الداخلية والخارجية ، فقد اتسع ملكه إلى حد كبير ، ووصله تقليد رسمى من الخليفة العباسى فى بغداد بحكم مصر والشام وأرض الجزيرة ، وخلق الخليفة عليه الخلع الشمينة ، على أنه كان من الصعب على العادل أن يحكم هذه المملكة الواسعة ، فوزعها بين أولاده ، وكانوا تسعة عشر ابناً عينهم جميعاً ملوكاً على أجزاء دولها ، نذكر منهم : الكامل الذى حكم مصر نيابة عن أبيه فى حياته مما مهد له سبيل الوصول إلى سلطنتها بعد مماته ، والمعظم عيسى الذى حكم الشام ، والأوحد نجم الدين أيوب الذى حكم

(١) راجع الحالة الاقتصادية فى مصر الأيوبية ، فى الباب السابع .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٦٧ .

مبارفاقين ونواحيها والأشرف مظفر الذي حكم الولايات الشرقية^(١) .
 وهذه الطريقة التي اتبعها العادل ، في حكم مملكته الواسعة بواسطة أبنائه ، ضمنت وحدة
 الدولة أثناء حياته ، ولكن كان لها خطرها بعد مماته ، شأن كل سلطان يترك لإرثه موزعاً بين
 أبنائه ، فإن تقسيم أملاك الدولة أوجد التنافر والتحاسد ، وأعاد من جديد المأساة التي حدثت
 بعد صلاح الدين .

تقدير العادل :

كان العادل حاكماً عادلاً ، ذكياً ، حليماً حسن التدبير ، محباً للأدباء والعلماء مشجعاً
 لهم ، سياسياً مخنكاً ، نال إعجاب الصليبيين وصدقاتهم ، قوى الجسم أكولا ، قام برحلات
 عديدة ، جاب بها أطراف إمبراطوريته الشاسعة الأرجاء ، كي يضمن استتباب الأمن والنظام ،
 متفقداً أحوال أبنائه في الأقاليم ، التي أنابهم عنه في حكمها .
 وحزن العادل حزناً شديداً على قوع برج السلسلة المتصلة بدمياط في أيدي الصليبيين ،
 فمرض ، ومات سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) وكنتم أصحابه خبر موته ونقل إلى دمشق ، حيث
 استولى ابنه المعظم عيسى على أمواله ، وخلفه في حكم مصر ابنه الكامل .
 ومما يؤسف له أن ذلك الملك الشاسع الذي توحد تحت سيطرة العادل ، انقسم ثانية بعد
 وفاته بين أبنائه العديدين ، وساد الشقاق بينهم ، وحاول ابنه الكامل أن يوحد الدول من
 جديد .

٥ - الكامل ناصر الدين

(٦١٥ - ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٧ م)

حكم الكامل مصر نيابة عن أبيه العادل ، فلما مات أبوه استقل بحكمها ، دون معارضة
 تذكر . وحياء الكامل السياسية هي كفاح عنيف ضد إخوته : الفائز . والأشرف ، والمعظم
 عيسى ، وابنه الناصر . واستطاع الكامل أن يخرج من هذا الكفاح منتصراً محتفظاً بقوته ،

(١) المقرئى : كتاب السلوك ج ١ ص ١٦٧ .

عيسى ، وابنه الناصر . واستطاع الكامل أن يخرج من هذا الكفاح منتصراً محتفظاً بقوته ، رغم أن بداية حكمه لم تكن تبشر له بالنجاح في هذا السبيل ، وعمل من جهة أخرى على توسيع ملكه ، مما كلفه كثيراً من الجهد والمال .

تولى الكامل العرش في ظروف حرجية ، إذ كان الصليبيون منتصرين في دمياط ، ذلك الانتصار الذي أدى إلى موت أبيه كمدأ . وفي الوقت الذي تصدى فيه الكامل لمقاومة خطر الصليبيين قام ضده عدد كبير من أمراء مصر ، بزعامة عماد الدين أحمد بن المشطوب بقصد عزله من السلطنة ، وتولية أخيه الفائز مكانه مما أدى إلى انسحاب السلطان الكامل إلى أشموم طناح^(١) ، وبذلك تمكن الصليبيون وسط ذلك الاضطراب الداخلي من أخذ دمياط .

وكان من المتوقع أن تطيح الفتنة بسلطة الكامل وحياته لولا أن أخاه المعظم عيسى تدخل في صالحه ، وخلصه من ابن المشطوب ، وأرسل الفائز إلى الشام بحجة جلب الأمداد اللازمة لإجلاء الصليبيين عن دمياط ومساعدته الحظ بموت الفائز ، واستطاع بعد موته أن ينتقم من زعماء الفتنة أنصار أخيه المتوفى^(٢) .

بذلك صفا الجو للكامل ، فاستعاد نفوذه ، وثبت سلطانه ، إلا أن صداقة المعظم لأخيه الكامل لم تدم ، ودب الخلاف بينهما ، لطمع المعظم في ملك مصر ، فقطع المعظم الخطبة لأخيه ، ولكنه بعد أن اتخذ هذه الخطوة الجريئة وجد أنه لا يقوى بمفرده على أخيه الكامل ، فطلب مساعدة جلال الدين الخوارزمي ، فلبى طلبه وتحالفاً معاً ضد السلطان الكامل ، على أن الحظ ابتسم ثانية للكامل ، فمات المعظم عيسى ، وفرح أخوه لموته وخلصه من تلك المحنة .

وهنا نلاحظ ظاهرة طالما تكررت في العصر الأيوبي ، وهي دوام تنازع الإخوة على سلطنة مصر ، على الرغم من حكمها لأقاليم تعد مستقلة استقلالاً ذاتياً ، وذلك لأن مصر كانت تعد مركز الحضارة الإسلامية ومقر السلطنة ، ولذا اشتد تنافس أفراد الأسرة الأيوبية على من يلي الديار المصرية ومن يتولى حكم إقليم من الأقاليم التابعة لها كالشام والعراق ، تلك الأقاليم

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٣٦ .

(٢) المقرئ : كتاب السلوك ج١ ص ١٦٩ .

التي بعدها السلطان الأيوبي مكملته لسلطته في مصر ولا غنى له عنها وعلى الأخص في كفاحه مع الصليبيين .

واستولى الكامل بمساعدة أخيه الأشرف على آمد وكيفا وبعض قلاع أخرى وبوفاة الأشرف زحف الكامل على دمشق وضمها إلى أملاكه ، وبذلك أصبح تحت سيطرة الكامل ملك أخويه المعظم والأشرف وبعض قلاع اكتسبها من حروبه مع المغول ، واستولى على نابلس وبيت المقدس ، وأرسل ابنه الملك المسعود إلى اليمن فامتلكها ، واستولى على مكة وزيد والحجاز . وهكذا اتسع ملكه حتى كان أئمة المساجد يدعون له على المنابر بقولهم : «سلطان مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها ، والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ، ورب العلامتين ، وخادم الحرمين الشريفين ، الملك الكامل (١)» .

ومن أبرز أعمال السلطان الكامل ، إتمامه في سنة ٦٠٤ هـ قلعة الجبل ، الذي بدأ السلطان صلاح الدين في بنائها وتوفي قبل أن يتمها ، وأصبحت تلك القلعة منذ عهد الكامل مقراً لدور الحكومة . كذلك أنشأ الكامل في سنة ٦١٦ هـ مدينة جديدة على الشاطئ الشرقي لفرع دمياط ، هي مدينة المنصورة وبنى الكلية الكاملة ، التي سميت نسبة إليه .

ورث الكامل عن أبيه صفاته الطيبة : فكان قائداً قديراً ، وسياسياً بارعاً ، وإدارياً نشيطاً حازماً ، يدير أمور دولته بنفسه حتى إنه عندما توفي وزير أبيه لم يعين وزيراً بدله وقام بالأمر بمفرده ، وكان محباً للحديث ، مشجعاً للعلماء والأدباء وكان هو نفسه عالماً ينظم الشعر ويجيده ، كريماً في عطاياه وصداقته .

ولما كان الكامل في دمشق ، أصابه برد شديد ، فدخل الحمام وصب على نفسه ماء ساخناً ، عملاً بنصيحة الرازي في كتابه «طب ساعة» فأصيب بالحمرة . وأصابته نزلة حادة لم يحتملها ، فمات . وهذا الحادث جعل الشعراء يسخرون من حمامات دمشق ، بأبيات فيها الكثير من الزرابة والتهكم (٢) ، وقد أخفى موت الكامل حتى استتب الأمر لابنه العادل ، واتفق الأمراء على تأييده ، فتولى عرش مصر ولقب «العادل الثاني» .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٤٣ .

(٢) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٨٧ .

وبعد الكامل : أخذت دولة الأيوبيين في الضعف ، وكانت وفاته بداية عهد الانحلال في الدولة .

٦ - العادل الثاني

(٦٣٥ - ٦٣٧ هـ / ١٢٣٧ - ١٢٤٠ م)

يطلق على هذا السلطان « العادل الصغير » أو « العادل الثاني » تمييزاً له عن الملك العادل أخى صلاح الدين وكان العادل الثاني نائباً عن أبيه الكامل فى حكم مصر ، فلما مات أبوه أصبح سلطاناً على مصر ، كما حدث حين اعتلى الكامل العرش بعد نيابته عن أبيه العادل الأول فى حكمها أثناء حياته ، رغم وجود أخوة أحق منه بحكم مصر لأنهم أكبر منه سناً . كذلك مهدت نيابة العادل عن أبيه فى حكم مصر أن يتخطى أخاه نجم الدين أيوب ويحكمها بعد وفاة أبيهما الكامل بالطريقة التى تولى بها كل من العزيز والكامل عرش مصر من قبل . على أن حكمه لم يستمر إلا سنة واحدة وشهرين ، كلها مليئة بالفتن والانقلابات التى انتهت بنزع العرش منه وقتله .

تعرض العادل فى بداية حكمه لمؤامرات دبرها بعض أمراء مصر ترمى لعزله وتولية الناصر ابن الملك المعظم مكانه ، ولكن هذه الحركة فشلت . أما المنافس الأعظم للعادل الثانى ، فهو أخوه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فقد عزم هذا الملك على أن ينزع من العادل سلطته ، إذ كان يطمح فى ولاية العرش بعد وفاة أبيه الكامل واستاء من ولاية أخيه العادل على العرش رغم صغره عنه فى السن ، ورأى نجم الدين أن يمهد لذلك بالقضاء على الظاهر أخى الكامل ، فزحف بجيشه على دمشق واستولى عليها وعلى نابلس ، ثم أخذ أملاك الناصر كلها واضطره إلى الهرب ، فلبأ إلى مصر حيث أكرمه السلطان العادل الثانى ولكن قبض بعد قليل على الصالح أيوب وسجن فى الكرك ، وعاد الملك الناصر إلى ملكه فى دمشق .

على أن الناصر صاحب دمشق لم يتفق مع العادل ، لأن العادل لم تكن له شخصية

قوة يمكن الاعتماد عليها . ولكنه اتفق مع الصالح أيوب ، لذلك رفض الناصر أن يسلم العادل أخاه أيوباً المسجون في مقابل مائة ألف دينار يدفعها له العادل . وهكذا اتفق الناصر مع الصالح أيوب على أن يمكنه من تولي العرش ، مقابل أن يأخذ منه دمشق وحمص وحماء وحلب والجزيرة والموصل . ويمكننا القول بأن الصالح أيوب قد اضطر إلى الاتفاق مع الناصر، على اعتبار أنه الوسيلة الوحيدة إذ ذاك لحل الموقف والتخلص من الحبس .

أما العادل ، فكان موقفه في مصر قد زاد ضعفاً ، لسوء تدبيره وغلظته واستبداده ، فاتفق الأمراء ضده وقبضوا عليه ، وطلبوا من الصالح أيوب الإسراع إلى مصر ، لتولي الحكم ، فسار إليها ومعه الناصر ، وجلس على عرش مصر ، وقبض على أخيه العادل وسجنه في القلعة ، ثم أمر بنفيه إلى الشوبك ، فلما رفض العادل الإذعان للأمر ، أمر الصالح بشنقه وعهد إلى ثلاثة من المماليك بتنفيذ أمره ، وأذاع أنه مات منتحراً^(١) .

٧ - الصالح نجم الدين أيوب

(٦٣٧ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م)

إن العرش الذي بذل الصالح أيوب في سبيل الوصول إليه ، ذلك المجهود الكبير ، كان عرشاً مضطرباً مزعزع الأركان ، جلب لصاحبه الكثير من المشاكل والمتاعب .

كان أهم ما اعترض الصالح أيوب ، تمرد فرق الجيش الأيوبي عليه ، فقد تمردت عليه فرقة الأشرفية ، فشنتها وسجن زعماءها وقتل كثيرين منهم ، ثم ضم إلى جانبه فرقة الخوارزمية التي طردها جنكيز خان إمبراطور المغول ، وقد استطاعت هذه الفرقة ، في أول حكمه ، أن تساعد مساعدهات جلييلة ، ولكنها ما لبثت أن تألبت عليه بعد قليل . ووجد الصالح أيوب أن خير وسيلة لعلاج تلك الحالة هو تكوين جيش جديد ، فاشترى كثيراً من الأتراك المماليك وجعلهم خاصته وبطانته وقضى على غالبية أمرائه ، وعين الأتراك محلهم^(٢) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١ .

(٢) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٣٠ .

وكان هؤلاء المماليك من أشد الناس احتراماً للصالح أيوب وتقديراً لشخصه ، وبلغ من محبته لهم واعتماده عليهم أن تزوج السيدة شجرة الدر^(١) ، من المماليك البحرية . وكان لتلك الزوجة التي تولت حكم مصر فيما بعد ، أهد الأثر في سير الحوادث في أواخر عهد دولة بني أيوب في مصر ، وكان هؤلاء الجند المرتزقة ، هم نواة السلطنة المملوكية التي خلفت الأيوبيين في حكم مصر .

وأهم ما شغل بال الصالح أيوب في سلطنته هو علاقته بأمرء الولايات ، الذين كثيراً ما أثاروا الفتن في وجهه ، مما عرض ملكه للزوال . ولكن سلطان مصر ما لبث أن انتصر على هؤلاء الأعداء جميعاً بمساعدة الخوارزمية الذين استولوا على حران وخرهوها .

غير أن ابنه المغيث عمر وقع أسيراً في يد الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك . وانتهى الأمر باتفاق الصالح أيوب مع الصالح إسماعيل ، على أن يطلق إسماعيل سراح المغيث ابن الصالح أيوب في مقابل أن يستولى إسماعيل على دمشق ويقوم بالخطبة لسلطان مصر ، واتفق الاثنان على مقاومة الملك الناصر . على أن ذلك الصلح الذي أبرم بين الصالح أيوب والصالح إسماعيل ما لبث أن نقض . فقد ضبط الصالح إسماعيل خطاباً أرسله الصالح أيوب سراً يوصي فيه الخوارزمية ضد الصالح إسماعيل ، معترفاً بأنه لم يتفق معه إلا لكي يطلق سراح ابنه المغيث وكانت النتيجة الطبيعية لذلك ، أن الصالح إسماعيل لم ينفذ الصلح ، بل أرجع المغيث إلى معتقله وقطع الخطبة عن الصالح أيوب وعاد إلى تحالفه مع الملك الناصر .

ولو عرفنا أن الصالح أيوب كان يقاتل الصليبيين إذ ذاك ، تبيننا كيف تفاقمت المشاكل أمامه . إلا أن المساعدة التي قدمتها له الفرقة الخوارزمية كان لها أكبر الأثر في التغلب على تلك المشاكل التي أحاطت به ، وخاصة أنهم انتصروا على الصليبيين واستولوا على بيت المقدس ، وحاصروا دمشق حصاراً عنيفاً ثم استولوا عليها ، وعين عليها المعين وزير الصالح

(١) لابن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ صاحب كتاب « مفرج الكروب في تواريخ بني أيوب » أهمية خاصة في دراسة العصر الأيوبي ، لأنه عاصر سقوط دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك ، وشاهد بنفسه شجرة الدر ، وأطلق عليها كتابه « شجرة الدر » .

أيوب ، وأصبح موقف الصالح اسماعيل حرجاً حتى إنه طلب الصلح من الصالح أيوب ، فرفض طلبه (١) .

أدركت الخوارزمية أن انتصارات الصالح أيوب في كل حروبه ، وخاصة استرجاعه بيت المقدس من أيدي الصليبيين ، قامت على أكتافهم ، فسيطر عليهم الفرور والغوا في طلب المنح والأموال ، فلما لم يستطع السلطان إجابة كل طلباتهم ، تألبوا عليه وانضموا إلى أعدائه ، ولكن حالة الصالح أيوب تحسنت بانضمام صاحبي حلب وحمص إليه ، كما وصله بناء على طلبه تقليد رسمي من الخليفة العباسي بحكم مصر والشام واستطاع بمساعدة حلفائه الجدد أن يقضى على الخوارزمية .

وهكذا استقرت الأحوال للصالح أيوب ، وحل الوثام والسلام بينه وبين صاحبي حلب وحمص محل الشقاق والخصام ، واستطاع الصالح بعد ذلك أن يتفرغ للصليبيين (٢) ومن أبرز الأعمال التي اقترنت باسمه ، تشييده في سنة ٦٣٨ هـ قلعة الروضة ، التي بناها في جنوبي جزيرة الروضة ، وانتقل إليها هو ومماليكه البحرية .

كان الصالح أيوب من أعظم خلفاء صلاح الدين : فقد كان زاهداً ، عفيف اللسان ، طموحاً ، يقابل المصائب بجنان ثابت وحيلة واسعة ، له هبة أبيه الكامل وشجاعته .

وينبغ من المماليك الذين استكثر منهم الصالح نجم الدين أيوب عدة أشخاص ، كان لهم أكبر الأثر في تغيير مجرى السياسة المصرية ، من أهمهم « شجرة الدر » وهي أرمنية وكانت أم ولد في حريم الصالح نجم الدين أيوب ، بعثها الخليفة المستعصم بالله من بغداد إلى نجم الدين في القاهرة . فولدت له ابنه خليلاً ، وكانت في صحبته ببلاد المشرق في حياة أبيه السلطان الكامل ، ثم ظلت معه حينما حبسه الملك الناصر داود صاحب الكرك بحلب سنة ٦٣٧ هـ واشتهرت هذه السيدة بالذكاء والدهاء والجمال ، وتوطدت مكانتها بمولدها ابنها خليل ، حتى

(١) المقرئى : كتاب السلوك ج ١ ص ٣٠٩ - ٣١٠ ، أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٤ .

(٢) Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 235

لقد سميت « أم خليل » وغلب عليها هذا اللقب حتى بعد وفاة ولدها ولازمها طول حياتها .
ولما اعتلى الصالح أيوب عرش السلطنة الأيوبية في مصر ، تبوأ شجرة الدر أسمى مكانة
وصارت ملكة غير متوجة ، إذ رأى فيها السلطان أيوب ما حببها إليه ، فأعتقها ، ثم تزوجها .
مات الصالح أيوب ، والحرب دائرة بين المسلمين والصليبيين وتجلى دهاؤها في أنها
أحكمت إخفاء خبر وفاته في تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر إذ أمرت بأن يتولى غسل
جثمانه أحد أطبائه وضع في تابوت حمل في جنح الظلام إلى قلعة الروضة ثم إلى قبره بجوار
المدرسة الصالحية حيث دفن ، وكانت تقول للأمراء - بعد دفنه - « إن السلطان مريض لا
يصل إليه أحد » كما كان السباط السلطاني يمد في مواعيده ، والأوامر تخرج كل يوم
بالعلامة السلطانية .

كان نجم الدين من أعظم ملوك مصر وأشجع سلاطين آل أيوب مات وهو على قتال
الإفرنج أمام المنصورة في ليلة النصف من شهر شعبان سنة ٦٤٧ هـ ، ونقل جثمانه في سفينة
إلى جزيرة الروضة حيث وضع في إحدى قاعات القلعة ذات السنين برجا والتي كانت قائمة
مكان سراي المنسترلي الحالية وبقي بها إلى أن نقل في يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٦٤٨ هـ
ولما مرت جنازته بالأحياء أغلق التجار حوانيتهم وتعطلت الأسواق ثلاثة أيام ، وليس رجال
الدولة وقواد الجيش البياض من الشباب حزناً عليه وحلق مماليكه شعور رؤوسهم حينما تقدموا
لحمل تابوته . وساروا به على أكتافهم حتى وصلوا إلى المدرسة الصالحية التي كانت قائمة
في حي بين القصرين « شارع المعز لدين الله » ودفنوه في القاعة التي كانت مخصصة لشيخ
المالكية ، ولما دفن استمر العزاء ثلاثة أيام بلياليها في مدرسته وبعثت زوجته شجرة الدر
بالسناجق السلطانية ، وأمرت بأن تعلق في داخل القاعة على الضريح ليرى الزائر آلات الجهاد
التي كان يحملها آخر سلاطين بني أيوب في قتاله وكفاحه في معركة المنصورة .

المعظم توران شاه

(٦٤٧ - ٦٤٨ هـ / ١٢٤٩ - ١٢٥٠ م)

قبل أن يعرف خبر وفاة السلطان أيوب ، استدعت شجرة الدر « توران شاه » ابن زوجها . وكان غائباً عن مصر في حصن كيفا ، وأصدرت الأوامر إلى أكابر رجال الدولة ومقدمي الجند بأن يحلفوا له يمين السلطنة كما دعا له خطباء المساجد ، وقبل وصوله استمرت هي في وضع الخطة الحربية والإشراف على تنفيذها ومراقبة المعركة ومد القواد بأرائها وبلغ من حماسها أنها كانت ترقب سير المعركة وتضافر الأهالي مع الجند في التنكيل بالأعداء . وبعد وصول توران شاه إلى مصر تسلم قيادة الحرب وزمام الملك .

لم يزد حكم هذا السلطان عن شهرين ، إذ تولى الملك في وقت كان فيه الصليبيون قد وصلوا إلى المنصورة وأخذوا يتقدمون نحو القاهرة ، فلما حضر من كيفا ، أدار دفة الحرب ضد الصليبيين بمهارة فائقة ، حتى انتصر المسلمون فأحبوه وقدروه .

إلا أن هذه البداية الحسنة ، انقلبت إلى مأساة ، بسبب طباع توران شاه الخشنة فإنه احتجب عن الناس ، وأبعد كثيراً من رجال الدولة^(١) وتنكر لشجرة الدر زوجة أبيه ، ولم يذكر لها جميلها في حفظ العرش له ، وكانت قد هربت خوفاً منه إلى بيت المقدس ، فأرسل إليها يهددها ويطلبها بإرجاع ما حملته معها من مال وجواهر . واشتد كذلك في معاملة المماليك البحرية ، ويقال إنه كان إذا سكر يجمع الشموع ويضرب رؤوسها بسيفه ، فيقطعها ويقول « كذا أفعل بالبحرية »^(٢) .

اتفق الأمراء والمماليك وشجرة الدر على قتله ، وفشلت أول محاولة في هذا السبيل ، إذ إن الطعنة التي وجهت إليه تلقاها بيده ، وهرب ممن حاول قتله بعد أن عرف أنه من المماليك ،

(١) المقرئى : كتاب السلوك ج ١ ص ٢٥١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧١ .

وأقسم ألا يبقى لهم بقية^(١) فخافوا منه ، وصمموا على القضاء عليه ، وبالفعل قتلوه ، وتركوه ملقى على جانب البحر دون دفن ، حتى شفع فيه رسول الخليفة العباسي فدفن .
ويعتبر بعض المؤرخين أن توران شاه ، هو آخر سلاطين الدولة الأيوبية ، على حين أن أغلب المؤرخين اتفقوا على اعتبار شجرة الدر السلطانة الأخيرة في هذه الدولة .

٩ - عصمة الدين أم خليل شجرة الدر

(١٢٥٠م - ١٢٧٤هـ)

عقب مقتل توران شاه ، نادى كبار رجال الدولة بشجرة الدر سلطانة على مصر ، على أن يكون الأمير عز الدين أيك مقدماً للعساكر ، واختارت الصحاب بهاء الدين المعروف بابن حنا وزيراً لها ، واتخذت لنفسها طائفة من الألقاب الطريفة مثل : « الملكة عصمة الدين شجرة الدر » و « الستر العالي والدة خليل » ودعى لها على المنابر بدعوات مبتكرة مثل : « اللهم آدم سلطانة الستر الرفيع والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين والدة الملك خليل » و « احفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية (نسبة إلى الخليفة المستعصم) صاحبة الملك الصالح » ونقش اسمها على السكة بالعبارة الآتية : « المستعصمية الصالحة (نسبة للملك الصالح) ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل أم المؤمنين » .
وشهد عهد الصالح أيوب وتوران شاه وشجرة الدر ، الحملة الصليبية التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا المعروف باسم القديس لويس ، واستطاع لويس أن يستولى على دمياط بسهولة ، ثم سار من دمياط إلى القاهرة ، ولكنه تمهل ستة أشهر حتى تصله الإمدادات ، ووصل إلى منطقة المنصورة ، واستولى عليها رغم دفاع المسلمين المجيد . وفي هذه الأثناء توفي السلطان أيوب وتولى سلطنة مصر توران شاه فأدار دفة القتال بمهارة ونشاط ، وحصر الفرنسيين ومنع عنهم الإمدادات ، حتى طلب لويس الصلح وعرض تنازله عن دمياط مقابل أخذ بيت

(١) المقرئى : كتاب السلوك ج ١ ص ٣٥٩ .

المقدس ولكن توران شاه رفض ذلك وهزم لويس فى فارسكور هزيمة شائنة ، وفى هذه الأثناء قتل توران شاه ، وتولت شجرة الدر زوجة أبيه أيوب سلطنة مصر ، فأقرت أن يدفع لويس الفدية ، فدفعها هو وأنصاره وأطلق سراحهم وأرجعت دمياط المسلمين وهنا يلاحظ أن هزيمة جان دى برين ولويس التاسع ترجع إلى جهلهما بجغرافية الديار المصرية .

حكمت شجرة الدر مصر بعد موت توران شاه مباشرة ، وبلغت مدة حكمها ثمانين يوماً ، أظهرت فيها جدارة وكفاية نادرة وحسن تدبير للأمر ، وكانت هذه الملكة على اتفاق تام مع أمراء المماليك ، فلا عجب إذا اتفق الأمراء - بعد مقتل توران شاه - على توليتها الملك ، تحت رعاية أيبك التركمانى ، وخطب لها على جميع منابر الدولة الإسلامية ، ويقال إن الخليفة العباسى لم يقبل أن تتولى حكم مصر امرأة ، فأرسل إلى زعماء المماليك يقول لهم وإن كانت الرجال قد عدت عندكم ، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً^(١) .

وحاول كثير من أمراء دمشق أن يبايعوا الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز الأيوبي ، وسلمت له دمشق فعلاً ، ولكن تلك المحاولات انتهت بالفشل .

على أن شجرة الدر عندما وجدت أن بقاءها على عرش مصر يثير مشاكل كثيرة ضدها تزوجت عز الدين أيبك التركمانى وتنازلت له عن العرش ، ولكنه كان ضعيفاً فى رأيه وشخصيته وسلطته ، وقد حاول أن يتزوج غيرها ، فتآمرت عليه ودبرت قتله^(٢) ، وحاولت أن تتزوج غيره وتقيمه على الملك ، فلم تلق تشجيعاً من أحد .

وهكذا أسدل الستار على الدولة الأيوبية ، بل إن حكم الأيوبيين انتهى منذ أن ولى عز الدين التركمانى عرش مصر .

(١) المقرئى : كتاب السلوك ج ١ ص ٢٦٨ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٨٦ .

انتهى حكم الدولة الأيوبية في مصر ، بعد أن نالت تلك الدولة مكانة عظيمة في تاريخ مصر والإسلام ، فقد بدأت عهداً بانقلاب خطير شمل ناحيتين إحداهما دينية والأخرى سياسية .

فمن الناحية الدينية : حولت مصر من مذهب الشيعة ، الذي عمل الفاطميون على نشره في تلك البلاد ، إلى المذهب السني الذي يعتنقه العباسيون .

ومن الناحية السياسية : حطم الأيوبيون دولة الفاطميين ، تلك الدولة التي كانت قد هزمت وضعفت من أثر النزاع والانقسام ، فأدى ذلك إلى تدخل الطامعين فيها من جيرانها ، مما أضعف مركزها وقلل من هيبتها وانتهى الأمر بزوالها وقيام دولة الأيوبيين الفتية مكانها ، ووطدت تلك الدولة دعائم ملكها وقضت على أعدائها .

كذلك اهتم سلاطين الأيوبيين بالإصلاحات الداخلية : فأقاموا المنشآت ، ونهضوا بالتعليم ، ووقفوا حجر عشرة في طريق الصليبيين وحالوا بينهم وبين أطماعهم في الاستيلاء على سوريا ومصر ، كان ذلك النزاع من أهم ما تميز به عهد الدولة الأيوبية ، وكان انتصارها في هذا الميدان من أهم عوامل شهرة صلاح الدين وخلفائه ومن دواعي إعلاء مجد الإسلام . ولكن على الرغم من نشاط الأيوبيين في ميادين الحروب والإصلاح الداخلي ، فإن عهدهم تميز بكثرة حوادث النزاع على عرش السلطنة ، ما أدى في النهاية إلى سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك .

وصاحب كتاب شفاء القلوب في مناقب بني أيوب وهو قاضي القضاة عز الدين أبو البركات أحمد بن إبراهيم بن نصر بن أحمد بن محمد بن أبي الفتح بن هاشم بن نصر الله ابن أحمد الكنانى العسقلانى الأصل ثم المصرى الحنبلى الإمام العالم العامل المفسن الورع الزاهد المحقق المتفق شيخ عصره وقدرته ، ولد فى ذى القعدة سنة ثمانمائة وتوفى والده وهو رضيع فنشأ هو واشتغل بالعلم وبرع ولقى المشايخ وروى الكثير ودأب فى الصغر وحصل أنواعاً من العلوم ثم باشر نيابة الحكم بالديار المصرية عن ابن سالم عن ابن المغلى ثم عن المحب بن نصر الله ثم ولى قضاء الديار المصرية وكان ورعاً وزاهداً باشر بعفة ونزاهة وصيانة وحرمة مع لين

جانب وتواضع وعلت كلمته وارتفع أمره عند السلاطين وأركان الدولة والرعية وكتب الكثير في علوم شتى ولكن لم ينتفع بما كتبه لاهماله لذلك ودرس وأفتى وناظر وله من التصانيف مختصر المهر في الفقه وتصحيحه ونظمه ومنظومات متعددة في علوم عديدة فقهاً ونحواً وأصولاً وتصريفاً وبياناً وبدعياً وحساباً وغير ذلك وله من غير النظم توضيح الألفية وشرحها وشروح غالب هذه المنظومات وتوضيحاتها إلى غير ذلك من التواريخ والمجاميع واختصر تصحيح الخلاف المطلق في المقنع للشيخ شمس الدين بن عبد القادر الناهلسي ، وكان ينظم الشعر الحسن وكان مرجع الخبابة في الديار المصرية إليه ولم يزل كذلك إلى أن توفي ليلة السبت حادي عشر جمادى الأولى وصلى عليه السلطان قايتباي والقضاة وأركان الدولة وكانت جنازته حافلة ودفن بالصحراء من القاهرة .

وقد قمت بتصوير هذا المخطوط من المكتبة المركزية بجامعة القاهرة ونقع في ٣٦٢ ورقة وهناك نقص في الصفحة الأولى وقد اعتمدت في تحقيقى على نسخة ناظم وشعر العراقى مع الاستعانة ببعض التعليقات وله جزيل الشكر على هذا المجهود العظيم .

ء

ونسأل الله المعون والمغفرة

مديحة الشرقاوى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

وكان كيف ما تمحو الازدب
 من اذنين وطيب عيسى في الادب
 وقال انتمو كل الخلق ذال ارب
 في معان فاستباحث خلقى كتب
 لما ابتدأ بانته ارحمة

فصاحب الجنة لي صديق
 بالفه الزجس والسقي
 يقول ان اسئله وردة
 انت لحو تمنعك السقي

سوف لوحج العلى الارباج وكروده

سكبينج جاوشير حليت فاشوه قرنفل شكر
 يدوم جمع ويستعمل فانه ان شاء الله نافع



به علاج افقر العباد
 هذا الكتاب
 ملا مصطفى نويا كيرنى افندوزا نيسفرد



٥٣٥ ور

MUSEUM
 ISTANNICUS

بجانبها تلي

عليها ظاهره وإن شئت وبعيد الأثر والأثر
والشاهد والغائب والظاهر والباطن
بدل كل من وقد أوجب حبه ، وخالف
بينت ما به آلت وما ذل الأثر الذي
لم يتره الصلوة القائم أو رتبته الولد إليها
يزداد في له على من الأثر من جهة ، ويد
الوجه ، طافك عن من الأثر من جهة
اعلى أبو زهيراً على من جهة الأثر من
أنا ما الأثر من جهة الأثر من جهة
اعلمة الأثر أو أشتا شيئاً قال والأثر
ساربه الذي يقع على حسن طاعة و
سلاطين الأثر من جهة الأثر من جهة
الذي هم كالأثر من جهة الأثر من جهة
جالت الأثر والأثر من جهة الأثر من جهة
وحيث الأثر والأثر من جهة الأثر من جهة
وما بين الأثر من جهة الأثر من جهة
بذلك الأثر والأثر من جهة الأثر من جهة
الأثر من جهة الأثر من جهة الأثر من جهة
من بل من جهة الأثر من جهة الأثر من جهة
الأثر من جهة الأثر من جهة الأثر من جهة
وشتاعله ، ويسمى شيئاً الأثر من جهة
على الأثر من جهة الأثر من جهة الأثر من جهة
بجانبها تلي على الأثر من جهة الأثر من جهة

أثر من جهة



بجانبها تلي

بجانبها تلي

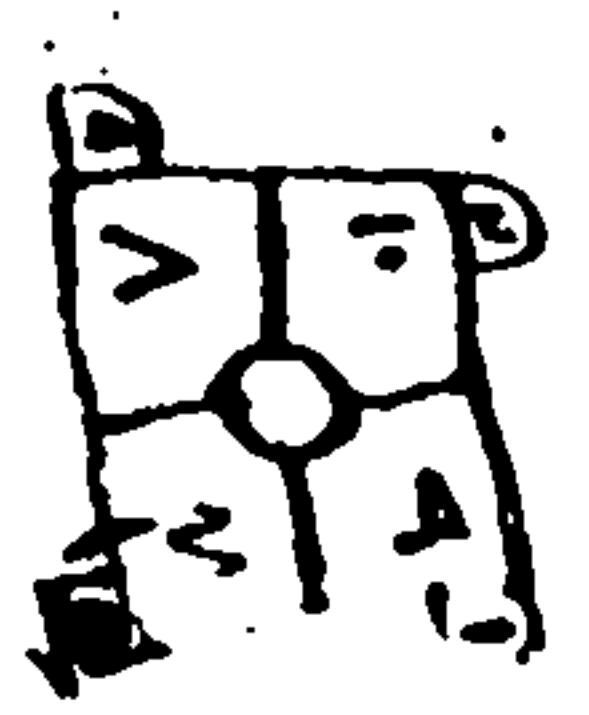
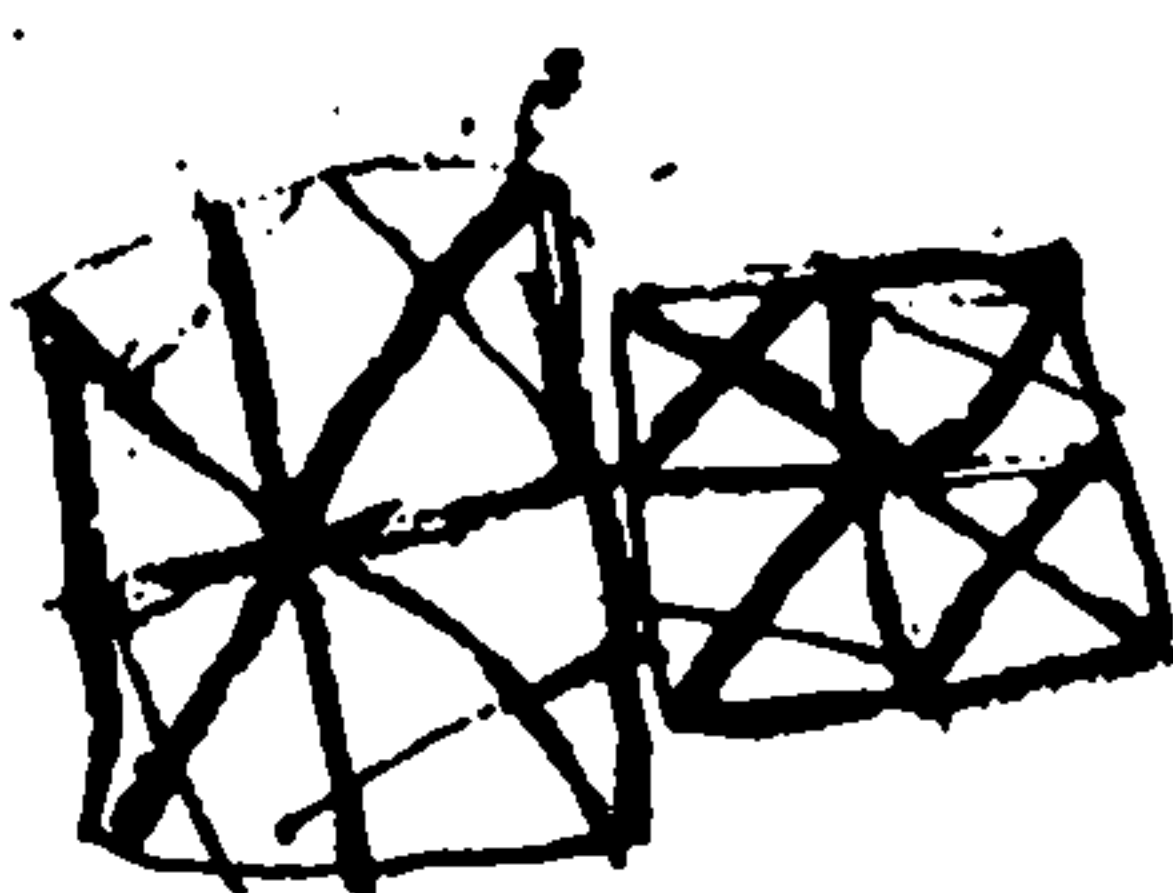
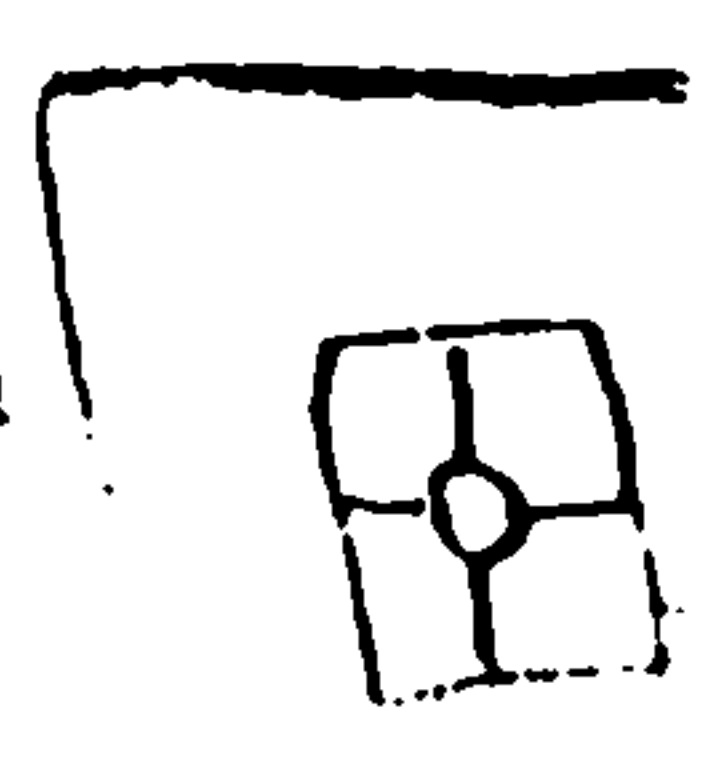
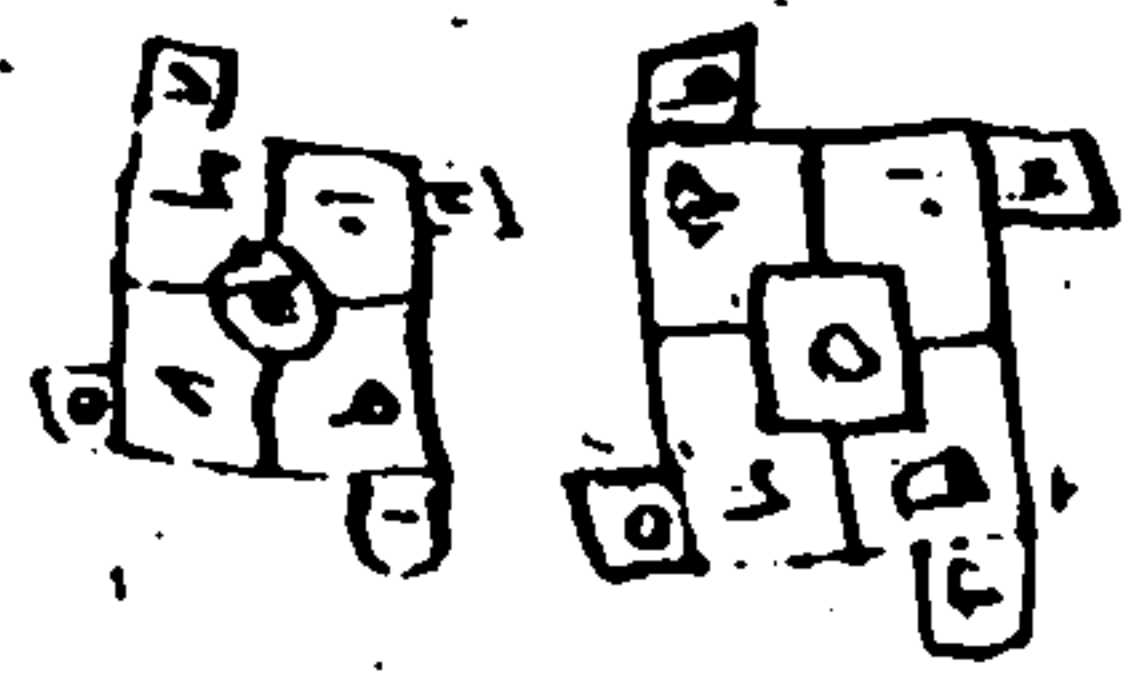
بازارک مع السخاذه و فرج
 در کتب شیخ السخاذه براف معلوم بدو کمال المریخ و سیرت و مکرر

و کلام او من
 و کلام او من

و کلام او من
 و کلام او من
 و کلام او من

و کلام او من
 و کلام او من
 و کلام او من

و کلام او من
 و کلام او من
 و کلام او من



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة (١)

... سلفه (٢) الطاهر وأبنائه ، ويجمع له منهم الأول والآخر ، والناقص والوافر ، والشاهد والغائب ، والبادئ والحاضر (وقد بذلت جهدي) وذلك جهد المقل ، ومن بذل جهده فقد أوجب حمده ، وجاء في الحديث الصحيح « صدقة درهم سبقت ألف درهم » ، وما ذلك إلا لهذا المعنى ، فجمعت لحضرتة العلية المقام ، وربته المولية للإنعام على الدوام ، كتاباً يزداد ذكره على مرور الأيام جده ، ويذكر بمحاسن الأهل عند الوحدة ، كما قال عمر بن الخطاب (٣) رضى الله عنه لهرم بن سنان (٤) :

(١) إضافة من عندنا .

(٢) هناك نقص في المخطوطة وخاصة الصفحة التي تخص الملك العادل سليمان ابن الملك الكامل غازى .

(٣) هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أبو حفص العدوى الفاروق وزير رسول الله ﷺ ، ومن أهد الله به الإسلام ، وفتح به الأمصار ، وهو الصادق المحدث الملهم ، وهو الذى سن للمحدثين الثبوت فى النقل ، وربما كان يتوقف فى خيبر الواحد إذا ارتاب ، واستشهد أمير المؤمنين فى أواخر ذى الحجة من سنة ثلاث وعشرين هجرية ، وعاش نحواً من ستين سنة .

انظر : أسد الغابة ١٤٥/٤ ، الإصابة ٥١١/٢ ، تاريخ الخلفاء ١٠٨ ، تذكرة الحفاظ ٥/١ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٣٩ ، شذرات الذهب ٣٣/١ ، طبقات الفقهاء ٣٨ ، طبقات القراء لابن الجزرى ٥٩١/١ ، المعبر ٢٧/١ ، مروج الذهب ٣١٢/٢ ، النجوم الزاهرة ٧٨/١ .

(٤) هو هرم بن سنان ابن أبى حارثة المري من مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ، من أجواد العرب فى الجاهلية ، يضرب به المثل وهو ممدوح زهير بن أبى سلمى . اشتهر هو وابن عمه الحارث بن عوف بن أبى الحارثة بدخولهما فى الإصلاح بين عيس وذبيان ، قال الحارث بن عوف فى قصة أوردها الأصفهاني . مات سنة ١٥ ق . هـ / ٦٠٨ م .

انظر : الأمثال للميداني ١٢٧/١ ، الأغاني ١٤١/٩ - ١٤٣ ، المعبر ١٤٣ ، شرح ديوان زهير لثعلب

. ٣٣

ما أعطى أبوك زهيراً^(١) على قصيدته اللامية^(٢) ؟ قال : ثيابا وأثالا وأشياء أفناها الدهر .
قال عمر (رضى الله عنه) لكن ما أعطاكموه لا يفنيه الدهر . وفي رواية أخرى :
أعطاه كذا وكذا وأشياء أنسيتها ، فقال : لكن ما أعطاكموه لا ينسى .

(وضعت هذا الكتاب) فى مآثر بيته الذى رفع على أحسن عماد ، ومناقب أهله
الأجود الأمجاد ، سلاطين الإسلام ، وأعيان الأعلام ، وزين الزمان ، وفخر الأوان الذين هم
كما قال بعضهم :

عاشوا كراماً وقضوا كراماً^(٣) وعاش فى فضلهم الكرام
وهناك قول آخر^(٤) :

خَلَّتِ الْأَسْرَةُ وَالْمَنَابِرُ مِنْهُمْ فَعَلِيَهُمْ حَتَّى الْمَمَاتِ سَلَامٌ^(٥)
وختمته بذكر مناقبه التى هى واسطة هذا النظام ، ومحاسنه الشريفة التى هى مسك

(١) هو زهير بن أبى سلمى ربيعة بن رباح المزنى من مضر ، حكيم الشعراء فى الجاهلية ، وفى أئمة الأدب
من يفضله على شعراء العرب كافة . قال ابن الأعرابى : كان زهير فى الشعر ما لم يكن غيره ، كان
أبوه شاعراً وخاله شاعراً وأخته سلمى شاعرة وابناه كعب وبيير شاعرين ، وأخته الخنساء شاعرة ، ولد
ببلاد مزينة بنواحي المدينة ، وكان يقيم فى الحاجر من ديار نجد ، واستمر بنوه فيه بعد الإسلام
قيل : كان ينظم القصيدة فى شهر وينفحها ويهدبها فى سنة ، فكانت قصائده تسمى الحوليات ،
مات سنة ١٣ ق . هـ - ٦٠٩ م .

انظر : الأغاني ٢٨٨/١٠ - ٢٣٤ ، شرح زهير لشعرب ٥٥ و ٣٢٦ ، معاهد التنصيص ٣٢٧/١ ،
شرح شواهد المغنى ٤٨ ، جمهرة الأنساب ٢٥ و ٤٧ ، وصحيح الأخبار ٧/١ و ١١٢ ، آداب اللغة
١/١٠٥ ، الشعر والشعراء ٤٤/١ ، خزنة البغدادى ٣٧٥/١ .

(٢) مطلع القصيدة :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو وأقفر من سلمى التعمانوق والثقل

(٣) وردت فى المخطوطة « وماتوا كراماً » .

(٤) إضافة من عندنا للسياق مع المعنى .

(٥) ورد هذا البيت فى نكت الهميان ، والأغاني للأصفهاني ٣٠٠/١٦ ، وهذا البيت لأبى المنصور
الأعمى له ترجمة وافية فى الشعر والشعراء لابن قتيبة .

الختم، وقد أردفه المملوك بذكر السادة الملوك ، أولاد المقام الأشرف الذين هم عين الأعيان ،
ونخبة الزمان ، ونجوم الزواهر ، والبحور الزواجر .

من تلق منهم ثقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يصرى بها السارى^(١)
اللهم شد بهم عضده^(٢) وساعده ، وكن في الحوادث معاضده ومساعدته وسميته
« شفاء القلوب في مناقب بنى أيوب » على أننى لم ألتزم استيعاب الأخبار ولا ذكر جميع
الآثار ، ولكن نبهنا بما ذكر على ما لم يذكر ، فإن عجائب البحر لا تحصى ولا (ق ٢
ب) تحصر، فإن وقع في خاطره الكريم فى حيز القبول ، فذلك غاية المقصود ومنتهى
السؤال . وإلا :

فنفائتى أن أوم حظى وحظى الحائط القصير
والمسؤول من إحسان الواقف عليه ، والواصل إليه ، أن يغفر الزلل ويسمح ، ويصلح
الخطأ ويصفح ، فإنى معترف بالتقصير ، معتذر إلى حضرة من إليه هذا الكتاب يصير ،
وتمثل بقول العالم الكبير^(٣) :

وإن تجد عيباً فسد الخلا فجل من لا عيب فيه وعلا
وبالله أعتضد فيما أعتمد ، وأعتصم عما يصم^(٤) وهو حسبى ونعم الوكيل . ومن هنا
نشرع فيما نحن بصدده ، والله الموفق والمعين والمسهل للإتمام .

(١) هذا البيت من شعر عبید بن العرندس فى مدح وتمجید بنى عمرو الفنویین .
انظر : معجم الشعراء ١٧٣ ، أمالى ٢٣٧/١ .

(٢) المقصود هنا عضد الملك العادل سليمان بن الملك الكامل غازى

(٣) المقصود هنا القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى أبو محمد من أهل البصرة ، كان يسكن
بنى حرام إحدى محال البصرة مما بلى الشط ، أحد أئمة أهل الأدب واللغة ، ومن لم يكن له فى فنه
نظير ، فاق أهل زمانه بالذكاء والفصاحة وتنميق العبارة وتحسينها ، له عدة مصنفات منها « المقامات »
و « درة الغواص فى أوهام الخواص » و « ملحة الإعراب » و « شرح الملحة » . مات سنة ٥١٦ هـ .
انظر : نزهة الألباء ٤٥٣ - ٤٥٧ ، النجوم الزاهرة ٢٢٥/٥ ، معجم البلدان ٦١/٨ ، معجم الأدباء
٢٦١/١٦ - ٢٩٣ ، الكامل ٣٠٥/٨ ، البداية والنهاية ١٩٣/١٢ ، وفيات الأعيان ٤١٩/١ -
٤٢١ ، روضات الجنات ٥٢٧ - ٥٢٨ ، شذرات الذهب ٥٠/٤ - ٥٣ .

(٤) بمعنى : يعيب .

طبقات البيت الأيوبي

أذكر أولاً : أصل البيت الأيوبي ، وهم منتسبون إلى أيوب بن شاذى بن مروان كما نذكره فى محله ، ثم تتبعه بذكر التراجم فى الطبقات .

فالتبقة الأولى : أولاد شاذى .

والثانية : أولاد أولاده .

والثالثة : أولاد أولاد أولاده ، وكذا إلى آخر الكتاب .

وأقدم من الأخوة أسبقهم موتاً ، ثم أتبعهم بمن أعلم وفاته ، ثم أتبعهم بأخواتهم النساء كذلك ، ثم أذكر أولادهم فى الطبقة التى تلى طبقتهم على حسب ترتيب أصولهم كذلك ، وكذا إلى آخر الطبقات ولنذكر مثالا يتضح به ذلك .

الطبقة الأولى :

أولاد شاذى أولها شيركوه . ، مات سنة أربع وستين وخمسمائة ، ثم أخوه أيوب ، مات سنة ثمان وستين وخمسمائة .

الطبقة الثانية :

أولاد شاذى وأولها شيركوه ، وهو محمد مات سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، ثم أولاد أيوب أولهم شاهنشاه . مات سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ثم توران شاه . مات سنة ست وسبعين وخمسمائة ، ثم بورى . مات سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، ثم [ق ١٣] يوسف ، مات سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، ثم طفتكين . مات سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، ثم أبو بكر . مات سنة خمس عشرة وستمائة ، ثم ست الشام ماتت فى السنة المذكورة ، ثم ربيعة خاتون . ماتت سنة ثلاث وأربعين وستمائة .

الطبقة الثالثة :

أولاد أولاد أولاد شاذى . أولها : أولاد محمد وهو شيركوه . مات سنة سبع وللائين
وستمائة ، ثم أولاد شاهنشاه ، ثم أولاد يوسف وأولهم عثمان . مات سنة خمس وتسعين
وخمسمائة ، وآخرهم توران شاه . مات سنة ثمان وأربعين وستمائة ، ثم بقية إخوته ممن لم
أعلم وفاته ، ثم أختهم مؤنسة ، ثم أولاد ظفتكين ، ثم أولاد أبى بكر ، ثم أولاد ست الشام
وهو محمد وهو آخر الطبقة ، وكذا إلى آخر الكتاب ممن وصل إلينا علمهم ، والمسؤول ممن
وقف على هذا الكتاب ، وكان عنده زيادة تراجم أو أخبار أن يضعها مواضعها ، فإننا ربما
بيضنا فى بعض المواضع لأجل ذلك والله تعالى أعلم .

بنو أيوب

أصل البيت الأيوبي

ثبت الله تعالى قواعده

هم منتسبون إلى أيوب بن شاذى ، زاد بعضهم ابن مروان ، زاد بعضهم ابن عريب بن على بن عتيرة بن الحسن بن على بن أحمد بن أبي على بن عبد العزيز بن هذبة بن الحصين بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مرة بن عوف بن أسامة بن نبهش بن الحارث ابن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ديث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . قال جامع الفقير : والأشهر فى نسب عدنان أنه ابن أد بن أدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم .

وفى رواية أخرى : ابن أدد بن هميسع بن حمل بن بنت بن قيدار بن إسماعيل .

وفى رواية أخرى : عدنان بن أدد بن معرم بن سالب بن عامر بن منير بن الصباح بن تامين بن منير بن حمل بن نابت بن إسماعيل ، وفيه أقوال آخر .

وإبراهيم عليه السلام بن آزر ، وهو تارح بن ناحور بن شاروخ بن أرغو بن قانع بن عابر ابن أرفخشذ بن (ق ٣ ب) سام بن نوح بن ملك بن متوشلخ بن أخنوخ ، وهو إدريس عليه السلام ابن يارد بن مهليل بن قينان بن أنوش بن شيش بن آدم عليهما السلام .

وقيل ناحور بن ساحور بن أرغو وهو هود عليه السلام بن هونث بن فالخ بن أرفخشذ ابن سام ، وقيل غير ذلك ، وفى ضبط الألفاظ اختلاف كبير ليس هذا محله ، انتهى كلام جامع .

وذكر الحسن بن غريب بن عمران^(١) الحرسي أن علي بن أحمد يقال إنه ممدوح
المتنبى^(٢) ويعرف بالخراساني ، وفيه يقول من قصيد :

شرق الجو بالفبار إذا سا ر علي بن أحمد القمام^(٣)
قال : وحارث بن عوف بن أبي حارثة هو الذي حمل الدماء بين عبس وذبيان وشاركه
خارجة بن سنان ، وفيهما يقول زهير بن أبي سلمى قصائد منها :

على مكثريهم حتى من يعترهم وعند المقلين الساحة والبهذل
وهل ينبت الخطى إلا وشيجة وتفرس إلا في منابتها النخل

انتهى . ويقال إن مروان من أولاد الخلفاء الأموية ، وادعى ذلك إسماعيل بن طغتكين
ابن أيوب ، وأنكره عمه العادل أبو بكر ، وذكر ابن القادسي^(٤) أن شاذى كان مملوكا لبهرز
الخادم ، وهو غلط ما كان مملوكا قط ، وإنما هو من الأكراد الروادية وهي بطن من
الهدبانية ، من بلد دوين^(٥) في آخر أذربيجان من جهة أران^(٦) وبلاد الكرج^(٧) ، وكان له
من الولد « أيوب » وهو الأكبر « شيركوه » فقدم بهما أبوهما العراق ، فخدما شحنتها
بهرز ، وكان إقطاعه تكريت^(٨) فجعل دزدار قلعتها هي حافظ ، وقيل بل جعل شاذى ،
ومات شاذى بتكريت وعليه قبة داخل البلد ، واتفق أن عماد الدين زنكى انهزم إلى تكريت

(١) له ذكر في كتاب مفرج الكروب ٤/١ ، وفيات الأعيان ١٤٠/٦ ، النجوم الزاهرة ١٣/٦ .

(٢) الشاعر المشهور .

(٣) ورد هذا البيت في ديوان المتنبى ١٥٠ .

(٤) هو الشيخ والمؤرخ أبو عبد الله محمد بن أبي العباس القادسي الكتبي ، ثقة .

ومات سنة ٦٢٢ هـ ، له ذيل على المنتظم .

(٥) بلدة في آخر حدود أذربيجان .

(٦) إحدى فروع أرمينية .

(٧) مدينة بين همذان وأصبهان .

(٨) بلدة مشهورة بين الموصل وبغداد .

في ربيع الآخر سنة ست وعشرين وخمسمائة فخدمه أيوب وشيركوه ، ثم إن شيركوه قتل إنسانا فأخرجهما بهروز في حدود سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة .

قال بعض الأيوبيّة : خرجنا من تكريت ليلة ولادة صلاح الدين ، فتشاءموا به .

فقال بعضهم : لعل فيه الخير وما تعلمون ، وكان ﴿ فعمسى أن تكروها شيكاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾^(١) ولما خرجا لحقّا بعماد الدين فأحسن إليهما ، واتصل أبوه بولد (ق ٤ أ) عماد الدين غازي ، وشيركوه بولد نور الدين محمود ، فلما فتح عماد الدين بعلبك^(٢) في أوائل سنة أربع وثلاثين وخمسمائة جعل أبوه مستحفظ قلعتها ، ولما حاصرها عسكر دمشق سنة إحدى وأربعين سلمها إليهم على إقطاع كبيرة وبقي أيوب من أكابر أمراء دمشق ، فلما أراد نور الدين أخذ دمشق ساعده أيوب ، وصار شيركوه مقدم عسكر نور الدين ، ثم علا أمرهم إلى أن صاروا ملوكا ، آباء ملوك والله يؤتى ملكه من يشاء .

(١) ١٩ م النساء ٤ .

(٢) مدينة قديمة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام .

انظر : معجم البلدان ١/٤٥٣ .

الطبقة الأولى من أولاد شاذى

١ - فمنهم الملك المنصور شيركوه :

ومعناها : أسد الغابة ابن شاذى الملك المنصور أسد الدين أبو الحارث .

قال ابن عساكر (١) : ولى دمشق مدة ، وأقام يحارب الفرنج ، وفتح حصونا كثيرة ، وكان شجاعاً مقداماً صارماً مهيباً ، حج سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وله مدرسة بدمشق . انتهى .

ذكر ورود أسد الدين القاهرة فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة : وسببه أن شاور (٢).

(١) هو الإمام الحافظ الكبير حافظ الشام ثقة الدين أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن الحسين الدمشقى ، صاحب « تاريخ دمشق » و « أطراف السنن الأربعة » و « عوالى مالك » و « غرائب مالك » و « فضل أصحاب الحديث » و « مناقب الشبان » و « عوالى الثورى » و « من وافقت كنيته كنية زوجته » و « مسند داريا » و « تاريخ المزة » ، ولد سنة ٤٩٩ هـ ، وسمع فى سنة ٥٠٥ هـ باعثناء والده ، ورحل إلى بغداد والكوفة ونيسابور ومرو وهرات وغيرها ، وعمل الأربعمين البلدانية ، وعدد شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ونيف وثمانون امرأة سمع من الكبار .

قال ابن النجار : هو إمام المحدثين فى وقته ، انتهت إليه الرئاسة فى الحفظ والإتقان والثقة والمعرفة التامة ، وبه ختم هذا الشأن . مات سنة ٥٧١ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ٢٣٥/١ ، النجوم الزاهرة ٧٧/٦ ، المنتظم ٢٦١/١٠ ، مفتاح السعادة ٣٥٢/٢ ، البداية والنهاية ٢٩٤/١٢ ، تذكرة الحفاظ ١٣٢٨/٤ ، شذرات الذهب ٢٣٩/٤ ، طبقات السبكي ٢١٥/٧ ، العبر ٢١٢/٤ ، مرآة الجنان ٣٩٣/٣ .

(٢) هو شاور بن مجير بن نزار السعدى من بنى هوازن أبو شجاع أمير من الولاة فيه نجابة وفرنسية يلقب بأمر الجيوش ، ولى الصعيد الأعلى بمصر فى أيام العاضد ، ثم قام بثورة استولى بها على وزارة مصر بعد أن قتل زريك بن صالح سنة ٥٥٧ هـ ، واتهم بملأة الإفرنج وأنه استعان بهم على دفع أسد الدين =

وزير العاضدى^(١) المصرى وصل إلى نور الدين مستنجدا على من أخذ منصبه قهراً ، وكانت عادة للمصريين أن يوقعوا للغالب ، وكان شاور أخذ الوزارة من بنى رزيك^(٢) ثم ولب عليه حاجب الباب ضرغام ، فأخرجه من القاهرة وقتل ولده ، فرحل إلى نور الدين يطلب عسكرياً ويئذل له ثلث خراج مصر ، ونور الدين مقدم رجلاً ومؤخر أخرى ، تارة بجملة رعاية شاور وكشف أحوال مصر ، وتارة بمنعه خطر الطريق ، ثم أرسل عسكرياً بصحبة أسد الدين ، وذلك فى جمادى الأولى .

وقال ابن شداد^(٣) فى ثانى جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وصلوا مصر ، ثم سار

شيركوه عن دخول مصر ، فاتفق مع العاضد على قتله وعهد إلى « صلاح الدين » وكان لا يزال قائداً فتولى قتله أمام قبر الإمام الشافعى سنة ٥٦٤ هـ بالقاهرة ، وبعث برأسه إلى العاضد .
انظر : كتاب الروضتين ١٣٠/١ ، وفيات الأعيان ٢٢٠/١ ، الكامل فى التاريخ ١٢٥/١١ ، العبر فى المبتدأ والخبر ٧٧/٤ - ٧٩ .

(١) هو عبد الله العاضد بن يوسف ابن الحافظ العلوى الفاطمى أبو محمد آخر ملوك الدولة الفاطمية « المبيدية » بمصر والمغرب ، بويج له بمصر سنة ٥٥٥ هـ ، بعد موت الفاتز ، وكان الضعف قد ظهر على رجال هذه الدولة ، واستبد الوزراء والمستشارون الترك وغيرهم بالأمر ، وفى أيامه قوى السلطان صلاح الدين « يوسف بن أيوب » وتولى وزارته ونصرف فى شئون الملك ، ثم قطع خطبته وأمر بالخطبة للمتضىء بالله العباسى وكان العاضد فى مرض موته ، فمات ولم يعلم بذلك . فهو آخر من دعى بأمر المؤمنين من العبديين الفاطميين بمصر ، وآخر من ولى الخلافة منهم . وكانت مدتهم ٢٦٨ سنة

انظر : ابن خلدون ٧٦/٤ و ٨١ و ٨٢ ، الكامل ٩٦/١١ و ١٣٧ ، النجوم الزاهرة ٣٠٧/٥ و ٣٣٤ - ٣٥٧ ، اتماظ الحنفا ٢٨٧ - ٢٩٣ ، وفيات الأعيان ٢٦٩/١ ، ابن ياسر ٦٧/١ .

(٢) هو أبو الفارات طلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح وزير مصر ، كان والياً بمنية بنى خصيب من أعمال صعيد مصر ، كان فاضلاً سمحاً فى العطاء سهلاً فى اللقاء محباً لأهل الفضائل جيد الشعر . مات سنة ٥٥٦ هـ ، وكانت ولادته ٤٩٥ هـ

(٣) هو يوسف بن رافع بن نعيم بن عتبة الأسدى الموصلى أبو المحاسن بهاء الدين ابن شداد مؤرخ من كبار القضاة ، ولد بالموصل سنة ٥٢٩ هـ ، ومات أبوه وهو صغير فنشأ عند أخواله « بنى شداد » وشداد جده لأمه ، فنسب إليهم ، وتفقه بالموصل ثم بغداد ، وتولى الإعادة بالنظامية نحو أربع سنين ، وعاد إلى الموصل فدرس وصنف بعض كتبه ، وسافر إلى حلب فحدث بها ودمشق ومصر وغيرها . ولما دخل =

نور الدين ليشغل الفرغ ، ووصل أسد الدين بلبيس فخرج إليه ناصر الدين أخو الضرغام فهزمه أسد الدين إلى القاهرة ، فقاتله جند القاهرة ، ثم هزمهم أسد الدين آخر النهار وأحرق نواحي من القاهرة ، ثم استاء من جماعة ثانی يوم ، وبقي الضرغام متحيراً ثم قتل عند مشهد السيدة نفيسة^(١) وحمل رأسه على رمح ، وخلع على شاور خلع الوزارة مستهل رجب ، وأجرى الضيافة لأسد الدين وهو نازل بأرض الطبالة^(٢) ظاهر القاهرة ، وأقام ثلاثة أيام (ق ٤ ب) ولم يخرج إليه شاور . ثم عزم على قتل أسد الدين لأنه عنف على ما تجر به الغز^(٣) على مصر ، فأرسل أسد الدين يطلب من شاور إنجاز الوعد ، فلم يجبه وأمره بالعودة إلى بلاده ، فكر أسد الدين راجعاً ونزل على بلبيس فملكها ، وهي من البلاد الشرقية ، فكتب شاور إلى الفرغ يستمدهم ويخوفهم من نور الدين ، فجاءهم فرج عظيم ،

= دمشق كان السلطان صلاح الدين محاصراً قلعة « كوكب » فدعاه إليه ، وولاه قضاء العسكر وبيت المقدس والنظر على أوقافه واصطحبه معه في بعض غزواته فدون وقائمه وكثيراً من أخباره ، ولما توفي صلاح الدين كان حاضراً .

وتوجه إلى حلب لجمع كلمة الأخوة أولاد صلاح الدين وتخليف بعضهم لبعض ، ثم انصرف إلى مصر لاستخلاف الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف ، وعرض عليه الظاهر صاحب حلب الحكم فيها ، فأجاب . مات سنة ٣٦٢ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ٣٥٤/٢ ، ذيل الروضتين ١٦٣ ، طبقات القراء لابن الجزرى ٣٩٥/٢ ، تاريخ ابن الوردي ١٦٠/٢ ، الأنس الجليل ٤٤٧/٢ و ٤٦٣ ، مرآة الجنان ٨٢/٤ ، مفتاح الكنوز ٥١٦/٢ .

(١) هي نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، صاحبة المشهد المعروف بمصر . تقيّة صالحة عالمة بالتفسير والحديث ، ولدت بمكة سنة ١٤٥ هـ ، ونشأت في المدينة وتزوجت إسحاق المؤتمن ابن جعفر الصادق ، وانتقلت إلى القاهرة فتوفيت فيها سنة ٢٠٨ هـ ، حجت للاثين حجة ، وكانت تحفظ القرآن وسمع عليها الإمام الشافعي ، ولما مات أدخلت جنازته إلى دارها وصلت عليه ، وكان العلماء يزورونها ويأخذون عنها ، وهي أمية ولكنها سمعت كثيراً من الحديث .

انظر : فوات الوفيات ٣١٠/٢ ، وفيات الأعيان ١٦٩/٢ ، طبقات المناوى ٢٧١ ، الدر المنثور ٥٢١ .

(٢) من أفضل متنزهات القاهرة ، وهبها الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معد الفاطمي إلى مغنية المسماة نسب الطبالة فاشتهرت بها .

(٣) نوع من الأجناس الأتراك .

وسارعوا إلى تلبيته طمعاً في ملك مصر ، فصار ملك القدس بمن حوله وبمن اجتمع عنده بسبب الحج ، والتقاها شاور بعبانه وسودانه ، فلما سمع أسد الدين تحصن ببلبيس شهرين ، وقيل ثلاثة أشهر ، وكان سورها من طين وهو قصير جداً ، وليس له خندق وهو يفاديهم القتال ويروحهم ، فقتل من الطرفين خلق عظيم ، ولم يبلغوا منه غرضاً . فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم^(١) ومسير نور الدين إلى بانياس^(٢) ، وكان نور الدين قد بلغه غدر شاور فخاف الفرنج على أسد الدين فخرج إلى حارم ليشغل بالهم . فلما سمع الفرنج بالهزيمة سقط في أيديهم ، وأرادوا العود إلى بلادهم ليحفظوها ، وراسلوا أسد الدين في الصلح ، وأن يرجع كل منهم إلى بلاده فأجابهم ، ولم يعلم ما فعل نور الدين وتم الصلح وخرج أسد الدين من بلبيس في ذى الحجة . قال بعضهم : رأته يوم خرج وقد قدم أصحابه بين يديه وبيده لت حديد ، والمسلمون والفرنج تنظر إليه فأتاه فرنجي فقال له : أما تخاف غدر هؤلاء وقد أحاطوا بك فلا يتقون لك بقية فقال : يا ليتهم فعلوا . كنت والله أضع فيهم السيف فلا أقتل حتى أقتل رجلاً ثم يقصدها الملك العادل فيفنى من بقى منهم . والله لو طاوعنى هؤلاء لخرجت إليهم أول يوم . فصلب الفرنجي على وجهه ، وقال : كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالتهم في وصفكم والآن قد عذرناهم ، وكان مع أسد الدين ابن أخيه صلاح الدين يوسف فكان صاحب رأيه لا يفصل أمراً دونه . لما لاح له من آثار السعادة واقتران النصر بحركاته ، ورجع أسد الدين ، فوصل الشام سالماً في رابع عشرين ذى الحجة . وقال ابن شداد في سابع عشرين ذى الحجة سنة ثمان وخمسين . وكان الفرنج قد قعدوا له في الطريق فعلم بهم وعدل عن الطريق وعاد شاور إلى القاهرة . وله يقول ابن الزبير^(٣) مادحاً من قصيد (ق ٥ أ) :

(١) حصن في اتجاه أنطاكية ، وهي من أعمال حلب .

انظر : معجم البلدان ٢٠٥/٢ .

(٢) حصن يقع في جنوب غرب دمشق .

(٣) هو أبو محمد بن علي بن الزبير ، مات سنة ٥٦١ هـ .

انظر : فوات الوفيات ١٢٤/١ .

مجيد فلم يسمع بمثلهما الدهر
على الناس بالنعمى أنا ملك العشر
إذا ما بدا من وجهك الشمس والبدر
وينفذ فيهم عندك النهى والأمر
يدين له الإسلام أجمع والكفر
وأجرى لهم الأرزاق السنية ، وأطلق لهم الأسرى ،
وحملهم على الخيل ، وأخذ يصادر الناس ، لعلمه أن هو أهم مع أسد الدين .

ليهنك حين استجمع النصر والفخر الـ
فلم يمض هذا العشر حتى تبادرت
وهل يلبث الاقلام والظلم ساعة
ويخدمك الافرنج خدمة طاعة
وقبلك لم يسمع بأن خليفة
واستصحب معه شزيمة من الفرنج ،
وأخذ يصادر الناس ، لعلمه أن هو أهم مع أسد الدين .

مجيء أسد الدين إلى القاهرة مرة ثانية

سنة اثنتين وستين (وخمسمائة)

وذلك أنه لما رجع من بلبس وبقى في خاطره أمر عظيم من البلاد لحسنها ، ولعلمه
أن الأمور تجرى فيهم بالوهم ، ولما في نفسه من غدر شاور ، فكان كلما خلا بنور الدين
يرغبه فيها ، فأذعن نور الدين لذلك ، لما في قلبه من شاور فأرسله في منتصف ربيع الأول
في ألفى فارس غير الحشود ، وصحبه ابن أخيه صلاح الدين فقال عرقلة (١) :

مصر إلى حرب الأعراب
يق من أولاد يوسف
دى من أولاد أربوب

أقول والأتراك فد أزمعت
رب كما ملكتها يوسف الصد
تملكها في عصرنا يوسف الصا

ثم إن أسد الدين جد في المسير فوصل إطفح (٢) وجبى الأموال ونزل الجيزة (٣)
وأقام قريب الشهرين ، فلما اتصل الخبر بشاور أرسل إلى ملوك الفرنج يستصرخهم ويقول

(١) له ترجمة في فوات الوفيات لابن شاعر الكنبي ٢٢٢/١ .

(٢) بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر .

(٣) بليدة في غربي فسطاط .

ملككم ولا ملك العدو . وقيل إن شاور لما علم نور الدين بالمكاتبة أرسل أسد الدين ، انتهى .

فأقبل مَرَى (١) في خيله ورجله ، الرجاء يسوقهم والخوف يقودهم حتى نزل بظاهر الفسطاط ، وذلك بعد وصول أسد الدين . وقيل : إنهم وصلوا قبله ، وقيل : وصلوا مع وصوله ، ثم امتنعوا من التقدم إلا بمال . قال بعضهم : طلبوا أربعمئة ألف دينار وألف دينار مدة إقامتهم ومائة دينار غلة فساروا (ق ه ب) طالبين أسد الدين حتى انتهوا إلى موقع يقال له « البابين » وقيل : « أبوان » فعزم على لقائهم (وقتالهم) فتوانى العسكر لعلمهم أن كل من في مصر عدوه ، ولقائهم وكثرة العدو . فإنهم كانوا عشرات الألوف قال بزغش مملوك نور الدين : من يخاف القتل أو الأسر فلا يخدم الملوك . والله لئن عدتم إلى الملك العادل ليأخذ إقطاعاتكم ويأخذ منكم ما أخذتم . قال أسد الدين : هذا رأى وبه أعمل ، فأقام بمكانة حتى أدركوه ، فجعل الأتقال في القلب يتكثر بها . وقال لصلاح الدين : نعم إنهم يعتقدون أنى في القلب فهم يجعلون جمرتهم بإزائه ، فإذا حملوا ، فانهزموا ثم ارجعوا عليهم . ووقف هو بشجعان العسكر في الميمنة . فلما تلاقوا ، انهزم صلاح الدين فحينئذ حمل عليهم أسد الدين ، فأكثر القتل والأسر ، فقتل الوفا وأسر مائة وسبعين ، فلما عاد الذين طلبوا القلب رأوا مكان المعركة بلقماً ، فانهزموا ، ولم يتبعهم أسد الدين ومضى إلى الإسكندرية ، فخرج إليه ابن مصال والبهاء وأعيان البلد وسلموها إليه ، وسألوه المقام بها فقال لا يمكنى ورتب صلاح الدين فيها مع خمسمئة فارس ، وخرج نحو قوص (٢) ، فعاد شاور والفرنج وحاصروا البلد ثلاثة أشهر ، وقيل أربعة ، وقاتل أهل البلد مع صلاح الدين وقوره بالأموال ، وسألهم شاور أن يسلموه صلاح الدين ويترك المكوس والخمس . فقالوا : معاذ الله أن نسلم المسلمين إلى الفرنج وبلغ أسد الدين فجمع العرب وعاد ، فلما قارب الاسكندرية ، خاف شاور وأرسل يطلب الصلح على أن يعطى أسد الدين

(١) ملك الفرنج بالشام .

(٢) مدينة في صعيد مصر .

خمسين ألف دينار ، واقطاعاً بمصر . وألا يقيم الفرغج بها ، وأن يرجع كل منهم إلى بلاده ، فتم الأمر ، وسلموا البلد نصف شوال ، واستقر الصلح بين شاور والفرغج أن يكون لهم كل سنة مائة الف دينار ، وأن يكون لهم بمصر شحنة ، والعاضد ليس عنده خبر . ووصل أسد الدين الشام ثامن عشر ذى القعدة وقيل شوال فامتدحه العماد الكاتب يقول^(١) :

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر
سهرت إذ رقدوا بل هجت إذ سكنوا
ومن يكون بنور الدين مهتدياً
لقد بفت فئة الإفرنج فانتصفت
غرست في أرض مصر من جسومهم
وسال بحر نجيع في مقام وغي
أنهت منهم دماء بالصعيد جرى
والساكنون القصور القاهرية قد
وشاور شاوروه في مكالدهم
وكيف يخذل جيش أنت مالكة
أجاب فيك الله ذو العرش دعوة من
ونلت ما عجزت عن نيله القدر
وصلت إذ جهنوا بل طلت إذ قصروا
فيأمره كيف لا يقوى له المرر
منها بأقدامك الهندية البتر
أشجار خط لها من هامهم ثمر
به الحديد غمام والدم المطر
منها إلى النيل في واديهم نهر
نادى القصور عليهم أنهم قهروا
فكاده الكيد لما خاناه الحذر
والقائدان له التأيد والظفر
يطيب بالليل من أنفاسها لسحر

فلما عاد أقطعه نور الدين حمص وأعمالها زيادة على ما بيده وأعطى صلاح الدين ضيعتين إحداهما بحلب والأخرى بكفر طاب^(٢) وفي سنة اثنتين وستين أخذ أسد الدين الشقيق^(٣) ثم رحل عنها طالباً حصناً يقال له الفراق^(٤) فمدحه عرقلة من قصيد :

(١) له ترجمة وافية : وفيات الأعيان ٢٣٣/٤ ، النجوم الزاهرة ١٧٨/٦ ، طبقات السبكي ٩٧/٤ .

(٢) بلدة بين حلب والمرة .

(٣) قلعة حصينة قرب بانياس من أرض دمشق .

(٤) له ذكر في النكت المصرية ٣٥ ، ٦٩ .

رحلت من الشقيق إلى الفراق بعزم كالمهتدة الرقراق
بجاشك لا بجيشك نلت هذا وبالتوفيق لا بالاتفاق

رجوع أسد الدين مرة ثالثة إلى القاهرة ودخوله مصر

فى سنة أربع وستين وخمسمائة فتحت الديار المصرية وقتل شاور وتولى أسد الدين مكانه وسبب ذلك يعود إلى أن الفرغ لما دخلوا مصر علموا عوراتها وطمعوا فى ملكها ونقضوا ما بينهم من القواعد ، وظنوا أن نور الدين بعيد عن نصره مصر ، فخرجوا وأظهروا قصد حمص وشايهم على ذلك قصد مصر جماعة من أعداء شاور كاهن الخياط وكاتب الملك « مرى » فرغ مصر . ولم يكن مثله رأياً وشجاعة . فقال : المصلحة ألا تقصدها فإنها طعمة لنا . وأموالها تساق (ق ٦ ب) إلينا نتقوى بها على نور الدين ، وإن قصدناها فإن أهلها لا يسلمونها ويحملهم الخوف منا على تسليمها لنور الدين ، وإن ملكها فهو والله هلاك الفرغ . فقالوا إلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ملكناها وحينئذ يتمنى نور الدين السلامة ، فأجابهم على كره ووصلوا بلبس أول يوم من صفر فملكوها قهراً وقتلوا وسبوا وأسروا سليمان بن شاور ، وأقاموا بها خمسة أيام ثم أناخوا بالقاهرة فى تاسع صفر وحاصروها ، فبذل أهلها الجهد فى حفظها وخافوا أن يفعل بهم كما فعل بأهل بلبس لملوكها . ولكن حسن لهم ذلك ﴿ ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ﴾ (١) وكان شاور لما سمع بهم سقط فى يده وأرسل يستنجد بأسد الدين ، وأمر بحفر خندق وبنان حصن وعسف الخاص والعام ، وجعل الفقهاء مستحشين لبيغضهم العامة فبنى سوراً وحفر خندقاً لا يمنعان الكلاب العارية ، ونادى فى مصر أن لا يسقى بها أحد ، فنفر الناس خارجين لا يلوى أحد على أحد ، يأخذ الرجل من جميع ما يملكه ما يقدر على حمله ونهب

(١) سورة الأنفال الآية ٤٢ .

السودان والجند الناس ، من سلم له شيء أخذوه وطافت بالقاهرة الخلائق وبقوا في طرقاتها، والروافض تلعنهم وبعض الناس أسعد وبعضهم أحذر فلم تر فتنة أعظم منها ، ثم أمر بحرق مصر فبقيت النار فيها أربعة وخمسين يوماً ، وبقيت مدة لا يسمع فيها أذان ولا يوقد فيها مصباح وأحرق جانب من الجامع العتيق ثم اشتد الحصار ، فكان شاور يرد الناس به يؤس في يده ، وكان يحمل إلى الفرنج سراً الأطعمة والأموال واستشار في المهادنة . ثم أرسل إلى الملك يذكر محبته وأن هواه معه وتخوفه من نور الدين ، وأن المسلمين لا يوافقونه على تسليم البلد ، ويشير بالصلح ، على أن يدفع له مالا ، فأجابه إلى ذلك . ووقع الصلح على ألف ألف دينار مصرية في بعضها بأجل ، فقال الفرنج . نأخذ المال نتقوى به ونعود ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ (١) فجعل لهم مائة ألف دينار وسألهم الرحيل ليجمع لهم المال ، فرحلوا قريباً ، وشرع في مصادرات الناس ، وبالجهد حصل خمسين ألف دينار . وكان العاضد قد أرسل إلى نور الدين يستغيث به ، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال له هذه شعور نسائي من قصرى يستغثن بك لتتقذهن من الفرنج . فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر ، ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال عاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه بما لقي المسلمون من الفرنج ، وبذل له ثلث بلاد مصر ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيماً في عسكر وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين .

ودخل أسد الدين في الرابع من شهر ربيع الآخر الايوان ، وخلع عليه ولقى الإحسان وتردد شاور إلى أسد الدين وتودد وتجدد بينهما من الوداد ما تأكد وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة والأطعمة الواسعة والحلاوات والميرة ، فقال صلاح الدين : هذا أمر يطول ومسألة فرضها يعول ، ومعنا هذا العسكر الثقيل وإقامته بالإقامة يقصر عنها الأمد الطويل ولا أمر لنا مع استيلاء شاور ولا سيما إذا راوغ شاور وغادر ، فانفذ أسد الدين الفقيه عيسى (٢) إلى شاور يشير عليه بالاحتراز وقال له : أخشى من عندي من الناس فلم يكثرث بمقاله ،

(١) سورة آل عمران الآية ٥٤ .

(٢) له ترجمة وافية في : الكامل ٤٢/١٢ ، النجوم الزاهرة ١١٠/٦ ، البداية والنهاية ٣٣٤/١٢ .

وركب على سبيل انبساطه واسترساله فاعترضه صلاح الدين في الأمراء النورية وهو راكب على عادته في هيبة الوزيرية فبغته وشحنه وقبضه وألبته ووكل به في خيمة ضربها له ، وحاول إمهاله فجاء من القصر من يطلب رأسه ، ويعجل من العمر بأسه وأبوا أن يرجعوا إلا ينجح السول ، فحم حمامه وحمل إلى القصر هامة وقد كثر هجاء شاوور بغدره ومكره حتى قال عرقلة :

لقد فاز بالملك العقيم خليفة
كان ابن شادي والصلاح وسيفه
هو الأسد الضاري الذي جل خطبه
ومنها

فلا رحم الرحمن تربة قبره
ولا زال فيها منكر ونكير

تقلد أسد الدين الوزارة

ولما قتل شاوور أنفذت خلعة الوزارة لأسد الدين ، وسار إلى مصر ، ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش ونزل دار الوزارة ، وهي التي كان بها شاوور ، وقيل : إنه أقام أياماً بعد ولايته بظاهر القاهرة ثم دخل وسلم على الخليفة ، وقيل إن الخليفة استدعاه فدخل القاهرة ، ورأى اجتماع الناس فخافهم على نفسه ، فقال : إن مولانا العاضد أمركم بنهب دار شاوور فتفرقوا عنه ، وحل بين يدي الخليفة ولقبه . ولما رجع إلى دار الوزارة لم يجد ما يجلس عليه وذلك في سابع عشر ربيع الآخر ، وكتب له القاضي الفاضل تقليداً إلى العاضد بحطه على أعلاه هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله ، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها ، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مرشد سبيله ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت بك بنوة النبوة ، واتخذة للفوز سبيلاً ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ (١) .

(١) سورة النحل : الآية ٩١ .

مرسوم التقليد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القاهر فوق عباده ، الظاهر على من جاهر بعناده ، القادر الذي يعجز الخلق عن فهم ما أودع ضمائر القلوب من مراده القوي على تقريب ما قضت الهمم باستبعاده ، الملى بحسن الجزاء لمن جاهد في الله حق جهاده ، مؤتى الملك من يشاء بما أسلفه من ذخائر رشاده ونازعه ممن يشاء بما اقتطفه من كباثر فساده ، منجد أمير المؤمنين بمن أمضى في نصرته العزائم واستقبلته الأعداء بوجوه الندم وظهور الهزائم ، وفعلت له المهابة ما لا يفعل إليهم ، وخلعت آثاره على الدنيا ما تخلعه الأنوار على الظلم وعدمت أنظاره بما وجد من محاسنه التي فاق بها الملوك العرب والعجم ، وانتقم الله به ممن ظلم نفسه وإن ظن الناس أنه ظلم ، وذاد عن موارد الدين من هو منه أولى ، وبأبى الله إلا إمضاء ما حتم ، مؤيد أمير المؤمنين بإمام أقر الله به عينه وقضى على يده من نصرة الدين دينه ﴿ لو أنفلتت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ (١) .

والحمد لله الذى خص جدنا محمداً بشرف الاصطفاء والاجتباء وانهضه من الرسالة بأثقل الأعباء ، وذخر له من شرف المقام المحمود أوفر الأنصباء وأقام به القسطاس ، وطهر به من الأدناس وأيده بالصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس وألبس شريعته من مكارم الأفعال والأقوال أحسن لباس ، وجعل النور سارياً منص فى عقبه لا ينقصه كثرة الاقتباس ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ (٢) .

والحمد لله الذى اختار أمير المؤمنين لأن يقوم فى أمته مقامه ، ويهدى بمرشد نوره إلى دار المقامة وأوضح به منار الحق وأعلامه ، وجعله شهيد عصره وحجة أمره وباب رزقه وسبيل حقه وشفيع أوليائه ، والمستجار من الخطوب بلوائه والمضمونة لذويه العقبي ،

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٣ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٣٨ .

والمستول له الأجر في القربى والمفترض له الطاعة على كل مكلف ، والغاية التي لا يقصر عنها لولائه إلا من تأخر في مضمار النجاة وتخلف ، والمشفوع الذكر بالصلاة والتسليم والهادى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، لا يقبل عمل إلا بحفارة ولائه ولا ينجح أمل إلا بسفاره الآله ولا يضل من استضاء بأنجم هدايته اللامعة ولا دين إلا به ولا دنيا إلا معه ليتضح النهج القاصد ولتقوم الحجة على الجاحد ، وليبين لهم اختلافوا فيه وليعلموا أنما هو إله واحد .

يحمده أمير المؤمنين على ما حباه من التأيد الذي ظهر فبهرو وانتشر فعم نفعه البشر والاستظهار الذي اشترك فيه جنود السماء والأرض والاطفار الذي عقد الله منه عقداً لا تدخل عليه أحكام النقض ، والانتصار الذي أبان الله به معنى قوله ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ (١) .

وسأله أن يصلى على سيدنا محمد الأمين المبعوث رسولا في الأميين الهادى إلى دار الخلود المستقل بيانه استقلال عوائر الجدود والمعدود أفضل نعمة على أهل الوجود والصفية بشريعته مشارع النعمة والواضحة به الحنيفة البيضاء لئلا يكون أمر الخلق عليهم وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين على بن أبي طالب ناصر شريعته وإمام شيعته وباب علمه وسيف نصره ولسان حكمه وقسيمه في النسب والسبب ، ويد الحق التي حكم لها بالغلب وعلى الأئمة من ذريتهما وسائط الحكم ، ومصاييح الظلم ومفاتيح النعم . ومنه .

وأمير المؤمنين لما فوضه الله تعالى إليه من إياله الخليفة ومنحه من كرم السجية وشرف الخليفة ومنه وظاهر له من (ق ٨ أ) المكرمات التي زادت على أمنية كل متمن وأتمته من أسرار النبوة التي رآه لها أشرف مودع ، وأكرم مؤتمن ، وأجرى عليه دولته من تذليل الصعاب وتسهيل الطلاب وتبديد أحزاب الشرك إذا اجتمعوا كما اجتمع على جده أهل الأحزاب يصل شكر هذه النعم التوام ، ويعترف بعوارفها الفرادى والتوام ومنه :

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥١ .

ويثق بوعده الله إذا استهلكته المصاير ويفزع إلى الله إذا قرع الضائر فما اعترض ليل كربة إلا انصدع له عن فجر وضاح ، ولا انتفض عهد غادر إلا عاجله الله بأمر ففاح . ولا انقطعت سبل نصره إلا وصلها بمن يرسل لإرسال الرياح ولا انصدعت عصا ألفه إلى تدارك الله بمن يجرده تجريد الصفاح ، وإذا عدد أمير المؤمنين هذه النعم الجسيمة والمنح الكريمة واللطائف العظيمة ورد العوارف العميمة والآيات المعلومة والكفایات المحتومة والسعادات المقسومة والمعادات المنظومة ، كنت أيها السيد الأجل أعظم نعم الله أثراً وأعلاها خطراً وأقضاها للأمة وطراً . ومنه فليهنئك أنك حزب الله الغالب ، وشهاب الدين الثاقب ، وسيف الله القاضب ، وظل أمير المؤمنين الممدود ومورد نعمته المورود ، والمقدم في بيته وما تأخرت إلا لأجل معدود، نصرته حين تناصر أهل الضلال ، وهاجرت إليه هاجراً برود الزلال وبرد الظلام ، ومنه :

وكشفت الغماء وهي مطبقة ورفعت نواظر أهل الإيمان وهي مطرقة وغضضت أعة الطغیان وهي مطلقة وأعدت بحركتك على الدولة بهجة شبابها المونقة ، وأنفذت الإسلام وهو على شفا جرف هار ونفذت حين لا تنفذ السهام عن الأوتار ، وسمعت دعوته على بعد الدار وبصرت حق الله بنصرتك له ، وكم من أناس لا يرونه بأبصار ، وأجلبت طاغية الكفر وسواك اجتذبه ، وصدق الله سبحانه حين داهنه من لا بصيرة له وكذبه ومنه :

وما يومك في نصرة الدين بواحد ولا أمسك مجحود وإن رغم أنف الجاحد بل أوجبت الحق بهجرة بعد هجرة ، وأوجبت دعوة الدين قائماً بها في غمرة بعد غمرة وافترعت صهوة هذا المحل الذي رقاك إليه أمير المؤمنين باستحقاقك وأمات (ق ١٩) الله العاجزين بما في صدورهم من حسرات المعجز عن لحاقتك . وكنت البعيد القريب نصحه ، المحجوب النافذ بحجته المدعورة أعداء أمير المؤمنين به إن فوق سهمه أو أشرع رمحه ومنه :

وقد استشرفتك الصدور وتطلعت إليك عيون الجمهور ، واستوجبت عقيلة النعم بما قدمت من المهور ونصرت الإسلام بأهله وأظهرت الدين بمظاهرتك على الدين كله ،

وناهضت الكفرة بالباع الأشد ، ونادتهم سيوفك ولا قرار على زار من الأسد - فأدال الله بك ممن قدم على قدم ، وندم فما أغنى عنه الندم ، حين لج في جهالته وتمادى في ضلالته ، واستمر على استطالته وتوالت منه عشرات ما أتبعها باستقالة ، فكم أباج للدولة رجالاً ، وضيق من أرزاقهم مجالاً ، وسلب من ذخائرهم ذخائر وأسلحة وأمولا ، ونقلها من أيدي أوليائها إلى أعداء الله تبارك وتعالى ، واتسعت هفواته عن التعديد وما العهد منها بعيد ، وقد نسخ الله بك من حوادثها ، فواجب أن تنسخ أحاديثها وأتى الأئمة منك بمن هو وليها ، والأمة بمن هو مغيثها ودعاك إمام عصرك بقلبه ولسانه وخطه على بعد الدار ، وتحقق أنك ممن تتصرف معه حيث تصرف وتدور معه حيث دار واختارك على بينه من أن الله بحمد له فيك عواقب الاختيار . ومنه :

وكنت حيث رجا وأفضل ووجدت حيث دعا وأعجل وقدمت فكتب الله لك العلو ، وكبت بك العدو وجمع على التوفيق لك في طرفي الرواح والغدو ولم يلبس الكافر لسهامك جنة إلا الفرار وكان ﴿ كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها قرار ﴾ (١) فله درك حين قتلت بخبرك قبل عسكرك ونصرت بإثرك قبل طلوع عيترك وأكرم بك من قادم خطواته مبرورة ، وخطواته للاعداء مبيرة ، وكل يوم من أيامه بعد سيرة ، وإنك لمبعوث إلى بلاد أمير المؤمنين بعث السحاب المسخر والمقدم في تقدم النية وإن كنت في الزمان المؤخر . ومنه :

ولما جرى من جرى ذكره على عادته في إيحاشك والإيحاش منك بكواذب الظنون ، ورام رجعتك عن الحضرة ، وقد قررت بك الدار وقرت بك العيون ، وكان كما قال الله في كتابه المكنون ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ (٢) ومنه :

(١) سورة إبراهيم : الآية ٢٦ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٤٨ .

وأخذه من أخذه أليم شديد وعدل فيه من قال ﴿ وماريك بقلام للعبيد ﴾ (١) ، ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (٢) .

وقيل إن نسخة التقليد من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولي الأئمة مجير الأمة أسد الدين أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين ، وأمتع بطل بقاته أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته ، سلام عليك فإنه يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين ، والأئمة المهتدين ويسلم تسليماً كبيراً ، ثم ذكر تفويض الوزارة إليه .

ووصل أسد الدين مديح العماد الكاتب قصيدة أولها (٣) :

بالحمد أدركت ما أدركت لا اللعب
يا شيركوه بن شادي الملك دعوة من
جري الملوك وما حازوا بركضهم
ثمل من ملك مصر رتبة قصرت
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من
رد الخلافة عباسية ودع الد
لا تقطن ذنب الأفعى وترسله
كم راحة جنيت من دوحة التعب
نادى ، فعرف خير ابن بخير أب
من المدى في العلا ما حزت بالخيب
عنها الملوك فطالت سائر الرتب
فتح البلاد فبادر نحوها وثب
عى فيها يصادف شر منقلب
فالحزم عندي قطع الرأس كالذنب

قال جامعه الفقير : أصله قول الآخر (٤) :

لا تقطن ذنب الأفعى وترسلها
إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنبا

(١) سورة الآية ٤٦ .

(٢) سورة ق الآية ٨ .

(٣) انظر : مفرج الكروب ١٦٥/١ ، المختصر ٤٦/٣ .

(٤) ورد هذا البيت في المختصر في أخبار البشر ٧٤/١ ، البيت لأبي أذينة ابن عم الأسود بن المنذر بن النعمان .

وفاة أسد الدين

كان يكثر أكل اللحوم الغليظة فكانت تتواتر عليه التخم والخوانيق ، فأخذه مرض شديد فقتله وقيل : بل سم في حلل الخلعة ، وكانت وفاته يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام . وقيل شهران وحين دخل إلى دار الوزارة رأى على بابها ، المدة قصيرة فادخل على بصيرة وقد كتبت (ق ٩ ب) بالقبطى وتحتها عشرين .

قال جامع الفقير : ولشبه هذا أن المهدي اتخذ قصرًا عظيمًا فلما دخله سمع صوتاً من جانبه يقول :

كأنى بهذا القصر قد باد أهله
فأجابه المهدي :

وقد درست أعلامه ومنازله
كذلك أمور الناس يبلى جديدها
فأجابه الهاتف :

وكل فتى يوماً ستبلى أنامله
فخذ أهبة للموت إنك ميت
فأجابه المهدي :

وانك مسئول فما أنت قائله
أقول بأن الله لا شك واحد
فأجابه الهاتف :

وذلك أمر ليس تخفى فضائله
تزود من الدنيا فإنك راحل
فأجابه المهدي :

سأفعل ما قد قلت وأعالجه
متى ذاك خبرنى . هديت . فإننى
فأجابه الهاتف :

إلى منتهى شهر فما أنت كامله (١)

تهياً ثلاثاً بعد عشرين ليلة

(١) وردت هذه الأبيات في البداية والنهاية ١٥٦ / ٧ .

فما أتى عليه شهر حتى مات . انتهى

وقيل إن وفاته كانت يوم الأحد ثالث عشرين رمضان ، وإنه أشهد على نفسه أنه مات بقضاء وقدر ، ولم يسمه أحد . وأن مدة وزارته ثمانية وخمسون يوماً . وأنه أوصى بالوزارة لابن أخيه . انتهى .

وكانت جنازته عظيمة وصلى عليه العاضد ودفن بظاهر القاهرة إلى أن مات أخوه فحملاً فدفا برباطهما بالمدينة النبوية . فسبحان من لا زوال لملكه ولا عز إلا لسلطانه لما أن صنعت له البلاد ، وهلك أعداؤه واستعمل أصحابه على الأعمال ، أتاه أجله **حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة** (١) .

٢ - الملك الأفضل (*)

وقيل الأوحى أيوب ابن شاذى نجم الدين الملك الأفضل ، وقيل الأوحى أبو الملوك الأيوبية ، وهو أكبر من أخيه ، وقيل إنه مولود بقرية يقال لها أجدا يقال على باب دوين وكان من أعيان أمراء دمشق ولم يكن يجلس فى مجلس نور الدين غيره ولم يزل بالشام حتى ولى ابنه شيركوه مصر ، وسأل نور الدين فى إرساله فأرسله وخرج لوداعه بمساكره إلى رأس الماء (٢) ، ولم يستصحب نجم الدين معه شيئاً من المال ، بل فرقه كله ، وخرج إلى مصر بجماعته وأهله ، وخرج العاضد للقاءه ولقبه وزينت البلد وذلك فى صفر سنة خمس وستين وخمسمائة ، وسأله ولده أن يكون هو السلطان ، فأبى ، وكان حازماً عاقلاً (ق ١٠) شجاعاً حليماً رحيماً جواداً ، عاطفاً على الفقراء ، محباً لهم ، قليل الكلام جداً ، لا يتكلم إلا عن ضرورة يلعب بالكرة دائماً شديد الركض بالخيل ، ومن رآه يلعب يقول :

(١) سورة الأنعام الآية ٤٤ .

(*) انظر : ترويح القلوب ٣٨ ، مرآة الزمان ٢٩٥/٨ ، زبدة الحلب ٢٣٩/٢ ، الروضتين ٥٣٣/١ ،

شذرات الذهب ٢٧١/٤ ، وفيات الأعيان ٢٣٢/١ ، المعبر ٢٠٣/٤ .

(٢) مكان فسيح للحرب .

ما يموت إلا من وقعة عن ظهر فرس . ركب يوماً وخرج من باب النصر يريد الميدان فشب به فرسه فوق على رأسه . فحمل إلى داره ، فأقام ثمانية أيام في داره ، وتوفي ليلة الثلاثاء ، سابع عشرين ذى القعدة ، سنة ثمان وستين وخمسمائة ، ودفن إلى جانب أخيه في بيت بدار السلطان ، كذا قال في المرآة ثم نقل إلى المدينة النبوية كما ذكرنا ، وبينهما وبين النبي - ﷺ - قدر عشرة أذرع وقال الدوادار^(١) إنهما دفنا بمكة . وكان ولده صلاح الدين بالكرك^(٢) عند وفاته ، فحزن عليه ، وكان له من الذكور ستة : الناصر يوسف ، العادل أبو بكر ، توران شاه وهو أكبرهم ، شاهنشاه ، طغتكين ، بوري وهو أصغرهم . ومن الإناث : ست الشام ، وربيعة خاتون . وللعمامد الكاتب في نجم الدين أيوب - وكان أخوه وابنه بمصر - من قصيد أولها :

ولا الفراق إلى عيشى بمنسوب
بالله . والنصر وعد غير مكذوب
تعودا ضرب هام أو عراقيب
بلفحها يصبح الشبان كالشيب
تقر بعد التناهي عين يعقوب
والله يجمعهم من غير تثريب^(٣)

يوم النوى ليس من عمرى بمحسوب
أخوك وابنك صدقاً منهما ، اعتصما
هما هاما في يومى وغى وقرى
غداً يشبان في الكفار نار وغى
ويستقر بمصر يوسف ، وبه
ويلتقى يوسف فيها بإخوته
ولعمارة اليمنى مرثية^(٤) :

وحادث الدهر لا يبكى ولا يذر
لو أثرت عندنا الآيات والنذر

صفو الحياة وإن طال المدى كدر
وما يزال لسان الدهر يُنذرننا

(١) الدوادار : هو الأمير ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري صاحب التاريخ المتوفى سنة ٧٢٥ هـ .
(النجوم الزاهرة ٩ : ٦٣) .

(٢) الكرك : اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء (معجم البلدان ٤ : ٤٥٣) .

(٣) وردت في الروضتين ١ : ٣٩ .

(٤) انظر النكت المصرية ٢٦٩ ، الروضتين ١ : ٥٤١ ، مفرج الكروب ١ : ٢١ .

كم شامخ العز ذاق الموت من يدها
 أودى على وعثمان بخلبها
 ومن أراد التأسى في مصيبتته
 لا قدست ليلة كادت مصيبتها الـ
 كأنما صور الله الكمال بهم
 إذا الليالي تجافت عن هشاشته
 يا ناصر الحق ، والأيام خاذلة
 ما مات أيوب إلا بعد معجزة
 مضى سعيداً من الدنيا وليس له
 صلى الاله على نجم أضواء لنا

ما أضعف القدر إن ألوى به القدر
 ولم يفتها أبو بكر ولا عمر
 فللورى برسول الله معتبر (١٠ ب)
 أكباد حزناً على أيوب تنظير
 شخصاً . ويوسف منه السمع والبصر
 فالجرح مندمل والذنب مفتفر
 إن القريب بغير الدمع ينتصر
 في المجد لم يؤتها من جنسه بشر
 في رتبة أرب منها ولا وطر
 من نسله التيران : الشمس والقمر

الطبقة الثانية :

ومنهم الملك القاهر محمد (١)

ابن شيركو بن شاذى ، الملك القاهر ، ابن المنصور ، ناصر الدين ، صاحب حمص ،
 وكان ابن عمه السلطان صلاح الدين يعظمه ويهابه ، وكان يدعى أنه أحق بالسلطنة منه ،
 وكان يبلغ السلطان ذلك فيحتمله ، وكان عنده بحران (٢) سنة إحدى وثمانين لما كان
 السلطان ضعيفاً ، ففارقه وسار إلى حمص ، واجتاز حلب ، ووعد أهلها وأعطاهم مالا ،
 وارسل الدماشقة في تسليم البلد إليه عند موت صلاح الدين ، وأقام بحمص ينتظر موته :

(١) انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢ : ١٧٥ ، المعبر ٤ : ٢٤٦ ، الوافى بالوفيات ٣ : ١٥٤ ، البداية
 والنهاية ١٢ : ٣١٧ ، النجوم الزاهرة ٦ : ١٠٠ ، الدارس في تاريخ المدارس ١ : ٢١٧ ، القلائد
 الجوهريه ٥٨ ، تاريخ أبي الفداء ٥ : ٩٣ ، شذرات ٤ : ٢٧٣ ، كنز الدرر ٨٠ ، ترويح القلوب ٣٩ .
 (٢) حران : مدينة قديمة في ديار مصر ، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان (معجم البلدان ٢ : ٢٣٥)

فبقى السلطان ومات هو عن قليل ، وقيل : إن السلطان اغتاله بسم ، وقيل : مات فجأة يوم عرفة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة . قال ابن واصل : شرب خمراً كثيراً فأصبح ميتاً . ومات بحمص وتناثر لحمه ، فنقلته زوجته ست الشام بنت أيوب بن شاذى إلى تربتها بدمشق ، وأبقى السلطان على ولده شيركوه إقطاع والده وهى حمص والرحبة^(١) وتدمر^(٢) وسلمية^(٣) وخلف من الأموال شيئاً كثيراً ، فحضر صلاح الدين واستعرضها ، وأخذ أكثر ما عنده ، وأحضر ولده شيركوه وقال له : إلى أين بلغت فى القرآن ؟ فقال له : إلى قوله تعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيراً ﴾^(٤) فمجب من ذكائه (١١١) .

أولاد أيوب :

منهم نور الدولة شاهنشاه^(٥)

ومعناه ملك الملوك ، وفى الحديث الصحيح : أئجع الاسماء عند الله - عز وجل - رجل تسمى بشاهنشاه ، يعنى ملك الملوك . ومعنى الحديث : أنه أبغض الأسماء إلى الله تعالى . انتهى . ابن أيوب بن شاذى ، نور الدولة . شقيق السلطان صلاح الدين ، وأسن منه وهو والد المظفر عمر صاحب حماة . وفروخ شاه صاحب بعلبك . قتل فى ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، قتله الفرغ لما كانوا منازلين دمشق ، وجرى بينهم وبين المسلمين قتال قتل فيه .

(١) الرحبة : قرية من قرى دمشق (معجم البلدان ٣ : ٣٣) .

(٢) تدمر : مدينة قديمة فى برية الشام بينها وبين حلب خمسة أيام (معجم البلدان ٢ : ١٧) .

(٣) سلمية : بليدة فى ناحية البرية من أعمال حلب (معجم البلدان ٣ : ٢٤٠) .

(٤) سورة النساء : الآية ٩ .

(٥) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ٨ : ٣٦٢ ، وفيات الأعيان ٢ : ١٦٢ ، البداية والنهاية ١٢ : ٢٢٤ ،

الروضتين ١ : ١٤٤ ، المدارس فى تاريخ المدارس ١ : ٢٧٨ ، تاريخ أبي الفداء ٥ : ١٣١ ، كنز الدرر

٦٨ ، الكامل ١١ : ٤٦٨ ، ترويح القلوب ٤٨ .

ومنهم الملك المعظم توران شاه (١)

ومعناه ملك الشرق ، وصحفه بعضهم (الى) مروان شاه ، وبعضهم الى شروان شاه ، ابن أيوب بن شاذي ، الملك المعظم ، ابن الأفضل شمس الدولة ، شقيق صلاح الدين ، وأكبر أخوته ، وكان السلطان يحترمه ويرجحه على نفسه ، وكان في نفسه من الملك ، ويرى أنه أحق من أخيه ويقع في حق أخيه منه في حال سكره كلمات . وأغزاه أخوه النوبة (٢) في جمادى الأولى سنة ثمان وستين وخمسمائة ليفتحها فوجدها لا تساوي التعب ، فرجع منها بفنائم كثيرة ، والسبب في ذلك أن صلاح الدين كان يخشى أن يخرج نور الدين من مصر ، فأراد أن يحصل بلداً يلتجئ إليه عند الخوف ، فلم تعجبهم النوبة ، فسيره إلى اليمن بعد أن استأذن نور الدين ، وكان عمارة (٣) خصيصاً بشمس الدولة . فمدحه بقصيدة حرضه فيها على اليمن وهي (٤) :

العالم مذ كان محتاج إلى العلم	وشفرة السيف تستغنى عن القلم
لم يترك البيض في الأجنان قاملة	إلى الموارد في الأعناق والقلم
ومقلة العزم نحو المجد شاخصة	فاترك لعودك عن إدراكها وقم
أمامك الفتح من شام ومن يمن	فلا ترد رفوس الخيل باللجم

- (١) انظر ترجمته في مرآة الزمان ٨ : ٣٦٢ ، الروضتين ٢ : ١٨ ، وفيات الأعيان ١ : ٢٧٣ ، البداية والنهاية ١٢ : ٣٠٦ ، النجوم الزاهرة ٦ : ٨٧ ، تاريخ أبي الفداء ٥ : ٨٤ ، العقود اللؤلؤية ١ : ٢٩ ، شذرات ٤ : ٢٥٥ ، ترويح القلوب ٤٨ .
- (٢) النوبة : بلاد واسعة في جنوب مصر (مرصد الاطلاع ٣ : ١٣٩٤) .
- (٣) هو الفقيه أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد ، الشاعر المشهور ، صلب في سنة ٥٦٩ هـ (الخريدة قسم الشام ٣ : ١٠١ ، وفيات الأعيان ٣ : ١٠٧) .
- (٤) انظر النكت المصرية ٣٥٢ ، الروضتين ١ : ٥٥٣ ، مفرج الكروب ١ : ٢٣٨ ، السلوك ١ : ٥٢ ، البداية والنهاية ١٤ : ٢٧٦ ، النجوم الزهرة ٦ : ٧٠ .

فعمك الملك المنصور سومها
طال التردد في إبرام منتقض
فكيف إن نهضت فيما هجمت به
لا يدرك المجد إلا كل مقتحم
إذا تقدم ذنب الدهر ما حسنت
وكم يد لك صانت وجه منقبض
وما مدحتك في بأس وفي كرم

من العراق إلى مصر بلا سلم
في هذه الحال أو في نقض منبرم
أسد تسير من الخطى في أجم
في موج ملتطم أو فوج مضطرم
عندى مواقع ما تولى من النعم (١١١)
عن السؤال واهدت أنس محتشم
إلا بما حدثتني السن الشميم

وفي هذه القصيدة بيت فظيع جداً ، ذكرناه ليتنبه عليه ، وكان أحد أسباب قتله وهو :

وَمَنْ أَوْلَ هَذَا الدِّينَ مِنْ رَجُلٍ سَمَى إِلَى أَنْ دَعَاهُ سَيِّدُ الْأُمَمِ

ف قيل : إن هذه القصيدة هي السبب لمسيره (إلى) اليمن ، وقيل : بل أراد أخوه
إيعاده ، فتوجه من مصر ، وقيل : من قوص ، وكانت إقطاعه ، وكان ارتفاعها مئة الف
دينار ، في رجب سنة تسع وستين ، فلما وصل مكة صعد صاحبها الجبل وأخذ مفاتيح
الكعبة معه ، فجاء شمس الدولة فطاف وصعد على باب الكعبة وقال : اللهم إن كنت تعلم
أنى إنما جئت هذه البلاد لإصلاح البلاد وتمهيدها ، فيسر على فتح الباب ، ومسك القفل
فانفتح ، فنزل إليه صاحب مكة فطيب قلبه ، ثم سار إلى اليمن فالتقاء عبد النبي بن
المهدي^(١) ويلقب بالداعي ، وكان المهدي قد فتح البلاد ، وقتل خلقاً كثيراً وشق بطون
الحوامل ، وذبح الأولاد على صدور أمهاتهم ، وكان يرى رأى ... ، ويتستر بالإسلام ، وأنه
داعية صاحب مصر ، فلما مات فعل ولده عبد النبي أعظم ما فعل أبوه ، واستبعد الناس
وبنى على أبيه قبة عظيمة ، صفع جدرانها ظاهراً وباطناً بالذهب والجواهر ، بحيث لم
يعمل في الدنيا مثلها ، وجعل بها قناديل الذهب وستور الحرير ، ومنع الناس من الحج إلا

(١) عبد النبي بن علي بن مهدي ، ثالث حكام الأسرة المهديّة وآخرهم حكم بين سنتي ٥٥٨ - ٥٦٩ هـ

وكان حكم الزسرة قد بدز سنة ٥٥٤ .

إليها ، ومن لم يهجم حمل المال ، فاجتمع عنده أموال عظيمة ، كانوا يطوفون بالقبر ، فتم على فجوره ، إلى أن جاء شمس الدولة فانهزم ورجع إلى زيد^(١) وقيل إنه طلب الأمان ، فأسره وركل به ، ثم ذهب إلى صنعاء وقيل : قتل ، وقيل : بل انهزم إلى صنعاء ، فحلف أنه لا ينتهي عنه حتى يحرقه كما فعل بأبيه ، وكان قد وصل إلى قبر أبيه فهدمه (ونبش القبر) وأحرق عظامه ، وحمل ما فيه فكان ستمائة جمل فرجع إلى زيد فعاد شمس الدولة وراءه فظفر به وقتله وحرقه ، واستولى على بلاد اليمن وأموالها ، فيقال : إنه فتح ثمانين حصناً ومدينة ، وقيل : إنه لما قتله سير نواب القلاع مفاتيحها إليه وهي إحدى وأربعون حصناً ، ثم سار إلى عدن^(٢) فجرى بينه وبين صاحبها ياسر^(٣) قتال ، أسره فيه . وقال بعضهم : فلما حكم ظلم وسفك الدماء (١٢ أ) وقتل الأمائل وأخذ الأموال ، ولما فتحت سير نور الدين البشائر إلى بغداد ، . ولم تطب اليمن لشمس الدولة ، وكره المقام بها ، فجاء إليه رسول أخيه يرغبه في المقام بها ، فلما أدى طلب شمس الدولة ألف دينار . وقال للغلام : امض إلى السوق واشتر لنا بهذه قطعة ثلج ، قال : ومن أين ههنا الثلج ؟ قال : فطبق شمس ، قال : من أين يوجد ؟ وأخذ يذكر أنواع الفاكهة والغلام يقول : ما يوجد . فقال للرسول : ليت شعري ما أصنع بالمال إذا لم انتفع به في شهوتي ؟ فكتب إليه أخوه يأذن له في القدوم ، وصدر الكتاب أبيات من إنشاء القاضي الفاضل^(٤) :

(١) مدينة شهورة باليمن (معجم البلدان ٣ : ١٣١) .

(٢) مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن (معجم البلدان ٤ : ٨٩) .

(٣) ياسر بن بلال بن جرير بن الحبش ، توفي سنة ٥٧٩ (معجم الانساب ١ : ١٨١) .

(٤) هو أبو علي عبد الرحيم بن علي بن محمد بن الحسن بن الحسين بن أحمد بن الفرج بن أحمد

اللخمي ، العسقلاني المولد ، المصري الدار . ولد سنة ٥٢٩ هـ وتوفي سنة ٥٩٦ هـ ، وزير لصلاح الدين

وكان أثيراً عنده (انظر الخريدة قسم شعراء مصر ١ : ٣٥ ، وفيات الأعيان : ٣١٣ ، طبقات الشافعية

٤ : ٢٥٣ ، شذرات الذهب ٤ : ٣٢٥) .

لا تضجرن مما أتيت فإنه
أما فراقك واللقاء ، فإن ذا
حلف الزمان على تفرق شملنا
حول المضاجع كتبكم ، فكاننى

صدر لأسرار الصبابة بنفت
منه أمسوت ، وذاك منه أبعث
فمتى يرق لنا انزمان ويحدث ؟
ملسوعكم ، وهى الرقاة النفت^(١)

فسار من اليمن ، وكتب من الطريق إلى أخيه يعلمه بوصوله ، بأبيات من شعر

المنجم^(٢) وهى :

والى صلاح الدين أشكو أننى
جزعاً لبعث الدار منه ، ولم أكن
فلأركبن إليه متن عزائى
ولا قطعن من النهار هواجراً
ولأسرين الليل لا يسرى به
وأقدمن إليه قلبى مخبراً
حتى أشاهد منه أسعد طلعة

من بعده مضمئى الجوانح مولع
لولا هواه ، لبعث دار أجزع
ويخببى ركب الفسرام ويوضع
قلب النهار بحرهما يتقطع
طيف الخيال ولا البروق اللع
أنى بجسمى من قريب أتبع
من ألقها صبح السعادة يطلع^(٣)

وقدم دمشق فى ذى الحجة سنة إحدى وسبعين ، وكان أخوه على حلب ، وقيل : فى
رمضان ، فلما رجع السلطان إلى مصر استنابه على الشام وهو السلطان . وفى سنة
أربع وسبعين قدم مصر ، وسأل السلطان بعلبك ، وكانت لشمس الدين بن المقدم ، أعطاهما
إياه السلطان لما سلم إليه دمشق فلم .. وأرسل (١٢ ب) إلى ابن المقدم فامتنع ، فأرسل
السلطان من حصرها تسعة أشهر فأجاب إلى أن يعوض بارين (٤) وكفر طاب . وفى ذى
القعدة سنة خمس (وسبعين) نزل عن بعلبك ، وطلب الاسكندرية ، فأجابه السلطان ،

(١) ديوان القاضى الفاضل : ٢ ك ٤٨٢ .

(٢) هو نشو الدولة على بن مفرج المنجم توفى سنة ٦٣٠ هـ (انظر ترجمته فى الخريدة - قسم شعراء
مصر ١ : ١٦٨ ، حسن المحاضرة ١ : ٢٢٦) .

(٣) وردت الأبيات فى الروضتين ١ : ٦٧٠ ، مفرج الكروب ٢ : ٤٨ ، الكامل ١١ : ٤٣٤ . وتاريخ أبى
الفداء ٣ : ٦٢ ، وتاريخ ابن الوردي ٢ : ١٢٤ .

(٤) بارين : والعامّة تقول بـرين ، مدينة بين حلب وحماة (معجم البلدان ١ : ٣٢١) .

وسلم بعلبك إلى فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب . وسار توران شاه إلى الإسكندرية فأقام بها إلى أن توفي ، وكان بها ، وله أكثر اليمن ، ونوابه تحمل إليه الأموال من زبيد وعدن وما بينهما ، وكان منعكفا على لهوه ، ولم يحضر حروب السلطان وأغفل الشام لما وليه . وكان أجود الناس وأسخامهم ، حسن الأخلاق ، يخرج كل ما تحمل إليه ، ومع هذا مات وعليه مائتا ألف دينار دين فأوقاها أخوه . قال ابن الأثير : كان فيه شر وظلم ، توفي بالإسكندرية في صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة ، فنقلته شقيقته ست الشام إلى تربتها بظاهر دمشق ، ورثاه أبو فراس الصنهاجي بقصيدة أولها :

أرى ظل العلياء أصبح بلقما وكنا ألقناه مصيفا ومرعبا
ومنها :

وكنا إذا جار الزمان ، أجارنا به أروع ، يابى لنا أن نروعا
ولما توارت شمسنا بحجابها وددنا جميعا أن في الخلق يوشعا

قال جامعه الفقير : معنى البيت أنه كان يود ، لما مات هذا ، أن يوشع بن نون النبي - عليه السلام - حاضر ليرده ، فإن هذا الميت شمس وهو رد الشمس ، كما في الحديث الصحيح . ومثل قول الآخر :

ووالله ما أدري أحلام نائم أمت بنا أم كان في الركب يوشع (١)
ومن القصيدة الأولى :

وعهدى بأن السحب للشمس برقع فكيف ارتضت باللحد في التراب برقعاً

قال محمد بن علي الخيمي (٢) الأديب : رأيت في النوم شمس الدولة بعد موته ، فمدحته بأبيات ، فلف كفته ورمى به الي ، وقال :

(١) البيت لأبي تمام ، انظر ديوانه ٢ : ٣١٢ .

(٢) هو مهذب الدين أبو طالب محمد بن علي المعروف بابن الخيمي الحلبي نزيل مصر ، توفي ٦٤٢ هـ (رفيات الأعيان ١ : ٢٧٦ ، فوات الوفيات ٢ : ٨٤) .

ميتا فأمسيت منه عارى البدن
من بعد بذلى ملك الشام واليمن
من كل ما ملكت كنى سوى كفى^(١)

لا تستقلن معروفاً سمحت به
ولا تظنن جودى شأنه بخل
إنى خرجت من الدنيا وليس معى

ومنهم تاج الملوك بورى^(٢)

ابن أيوب بن شاذى ، تاج الملوك ، أبو سعيد بن الأفضل ، أصغر (١١٣) إخوته ، ولد
فى ذى الحجة سنة ست وخمسين وخمسمائة ، وكان كريم الطباع ، لطيف الأخلاق ، له
كرم وشجاعة ، وفضل وفصاحة ، وله ديوان شعر ، قال بعضهم : فى شعره الغث والسمين
لكنه بالنسبة إلى مثله جيد ، فمن شعره :

أه من ورد على خـــــــد
بين أجـــــــفانك سلطا
قد تصبـهـرت وان بر
فلعل الدهر يومــــا
يك بالمسك منلفط
ن على ضملى مسلط
ح بع الشوق وأفرط
بالتلاقى منك يغلط^(٢)

وقال :

أيا حامل الريح الشبيهه بقده
ويا شاهراً سيفاً حكى لحظه عضباً

(١) انظر الأبيات فى وفيات الأعيان ١ : ٢٧٦ ، ثمرات الأوراق ٢ : ١٤٩ ، شذرات ٤ : ٢٥٦ الخطط
المقرزية ٣ : ٦٠ .

(٢) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ٨ : ٣٧٥ ، زبدة الحلب ٣ : ٦٤ ، الروضتين ٢ : ٤٤ ، وفيات الأعيان
١ : ٢١١ ، العبر سنة ٥٦٨ ، مرآة الجنان ٣ : ٤١٤ ، مضمار الحقائق ١٤٤ ، الكامل ١١ : ٤٩٨ ،
النجوم ٦ : ٩٦ ، الشذرات ٤ : ٢٦٥ ، كنز الدرر ٧٧ ، كشف الظنون ٧٨٠ ، هدية المعارفين ١ :
٢٤٣ .

(٣) انظر الأبيات فى وفيات الأعيان ١ : ٢٦١ ، الشذرات ٤ : ٢٦٥ .

ضع الرمح واغمد ما سللت فرهما
وقال :

شريت من الفرات ، ونزل مصر
ولى فى مصر من أصبو إليه
فقلت ، وقد ذكرت زمان وصل
أرى ما أشتهيه بفر منى
أحب الى من ماء الفرات
ومن فى قربه أبدأ حياتى
تمادى بعمده ، روح الحياة
وما لا أشتهيه إلى باتى^(٢)

قال جامعه الفقير : ويشبه البيت الأخير قول الآخر :

تعاندى الأيام فىمن أحبه
يفارقنى من لا أريد فراقه
كأنى خصيم للزمان عبود
ويصحبنى فى الناس من لا أريد

وقال وبالع ، واثمه عليه ، والله يسامحه :

يا غزالاً يميت طوراً ويحيى
هذه المعجزات ليست لظى
وهو براء السقام سقم الصحوح^(٣)
إنما هذه فعمال المسوح

قال جامعه الفقير : وقريب من هذا قول نجم الدين الطوفى ارتجالاً :

وشاقنى من بنى النصارى
خالف فى المعجزات عيسى
سهامٌ لحظيره بها رميت
فذاك يحيى وذا يميت

وقال وهو سائر ، وربما لغيره :

أقبل من أعشقه راكباً
فقلت : سبحانك يا ذا العلا
من جانب الغرب على أشهب (١٣ب)
أقبلت الشمس من المغرب^(٤)

(١) انظر البيتين فى وفيات الأعيان ١ : ٢٦١ ، أعلام النبلاء ٢ : ١٣٤ .

(٢) وردت فى مرآة الزمان ٨ : ٣٧٩ .

(٣) وردت فى مرآة الزمان ٨ : ٣٧٩ .

(٤) وردت فى وفيات الأعيان ١ : ٢٦١ .

وقال وأثم ، والله يسامحه :

غلطوا إذن في قولهم وأساءوا
عطش ، وسائر ليله استسقاء^(١)

رمضان ، بل رمضان ، إلا أنهم
رمضان فيه تحالفا ، فنهاره

وقال :

ووجهه كالكوكب الثاقب
باليسـتني راكباً ذا الراكب

رأيت من أعشقه راكباً
فقلت من يوم جنوني به

وقال وكان فالأ عليه :

ولا يسمع الشكوى لمن كان شاكياً
يجرد لي لحظاً من السيف ماضياً
فيا عجباً ما للزمان وما ليا ؟
فلا القلب مسروراً ولا العيش صافياً
عهودي ، ولا صافيت من لا صفا ليا
فكن يا إلهي بالمنية قاضياً
وحسبك داء أن ترى الموت شاقياً

بليت بمن لا يعرف العطف قلبه
من الترك مياس القوام كأنه
يعاندني فيه الزمان تعمدا
بخالفني في كل شيء أريده
فلولا شكائي ما بليت بخائن
فيا رب إن لم تقض لي فيه بالمني
واني لأستشقي من الموت بالردى

قال جامعه الفقير : ومثل ذلك في الفأل ، أن فارس المسلمين ، أخا الصالح بن

رزيك^(٢) ، عمل دعوة في شعبان سنة ست وخمسين وخمسمائة ، وحضر عنده أخوه ،

فأنشد القوال :

أنست بكم دهرًا فلما ظعنتم أسـ تفرت بقلبي وحشة للتفرق

ومنها :

(١) ينظر البيت في مرآة الزمان ٨ : ٣٧٨ ، مفرج الكروب ٢ : ١٤٤ ، كنز الدرر ٧٧ ، النجوم الزاهرة

٩٦ : ٦ .

(١) الملك الصالح أبو الفارات طلائع بن رزيك ، وزير العاضد العلوي ، كان فاضلاً شاعراً توفي سنة

٥٥٦ هـ .

انظر : الخريدة - قسم شعراء مصر ١ : ١٧٣ ، وفيات الأعيان ٢٠٨/٢ ، النجوم الزاهرة ٣٥٩/٥ .

وأعجب شيء أننى يوم بولكم بقتيت ، وقلبي بين جنبي ما بقى
أرى البعد ما بينى وبين أحبتي كبعد المدى ما بين غربٍ ومشرقٍ
ألا جددى يا نفسُ وجداً وحسرة فهذا فراق بعدة ليس لتلقى (١)

فقتل الصالح فى رمضان من هذه السنة ، ومنه أن علاء الدين بن غانم (٢) قال : بلغ
الشهاب محمود (٣) أن جماعة الديوان ذموه فعتبني فكتبت إليه :

ومن قال إن القوم ذموك كاذبٌ وما منك إلا الفضلُ بوجدٌ والجودُ
وما أحدٌ إلا لفضلكَ حامدٌ وهل عيب بين الناس أو ذم محمود

فكتب إلى بأبيات منها :

علمت بأنى لم أذم بمجلس وفيه كريم القوم مثلك موجودٌ
ولست أزكى النفس إذ ليس نالعى إذا ذم منى الفعل والاسم محمودٌ
وما يكره الإنسان من أكل لحمه وقد آن أن يبلى ويأكله الدود (٤)

فلم يبق إلا أياما قلائل حتى مات ، ومثله ما جرى لى ، وهو أنى صنفت كتاباً سميته
(تسلية المصاب بفقد الأحباب) حتى جاء الطاعون فرق لنا شملاً وقيل : إن المجنون (٥) لما
قال :

قضاها لغيرى وابتلانى بحبها فهلا بشيء غير ليلى ابتلانى

- (١) انظر الأبيات فى الروضتين ٣١٢/١ ، والخريدة - قسم شعراء مصر ١٨٤/١ .
(٢) علاء الدين بن غانم أحد الكتاب المشهورين بحسن الترسل وكثرة الأدب توفى سنة ٧٣٧ هـ .
انظر : الوفيات ١٠٩/٢ ، الدور الكامنة ٢٦٧/١ .
(٣) هو محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحلبي ، كان كاتباً شاعراً ، توفى سنة ٧٢٥ هـ .
انظر : الدرر الكامنة ٣٣٦/٤ ، النجوم الزاهرة ٢٦٢/٩ ، شذرات الذهب ٧٠/٦ .
(٤) ورد الخبر والأبيات فى الفيت المسجم فى شرح لأمية المعجم ١٢١/٢ .
(٥) هو قيس بن الملوخ بن مزاحم ، توفى فى حدود الثمانين من الهجرة .
انظر : الأغاني ١:٢ ، المؤلف والمختلف ٢٨٩ ، تزيين الأسواق ٦٢/١ .

فحصل له برص في الحال . انتهى .

توفي على حلب من طعنة أصابت ركبته ، سادس عشر محرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، وقيل : من سهم أصاب عينه ، ثالث عشرين صفر ، وكان أخوه صلاح الدين قد أعد ضيافة للصلاح عماد الدين صاحب حلب ، بعد الصلح وهو على السماط إذ جاءه الحاجب فأمر إليه موته ، فلم يتغير وأمر بتجهيزه ودفنه ، وأعطى الضيافة حقها وكان يقول : ما أخذنا حلب رخيصة ، وقيل : إنه قال : ما غلت حلب بيورى ، وعاش ثلاثا وعشرين سنة ، وقيل : وشهور ، وعلى ما حكينا من مولده فإنه عاش اثنتين وعشرين سنة وأياما .

ومنهم الملك الناصر (١)

ابن أيوب بن شاذى السلطان الأعظم العالم العادل المجاهد أبو المظفر صلاح الدين الملك الناصر بن الأفضل سيد ملوك عصره ، ومن لم يأت بعده مثله ، صاحب المآثر والمناقب والتراجم ، ومن دوت في محاسنه الأكابر ، وجمع جمع من العلماء أخباره ليقتفى الملوك عدله ، وهو الذى فتح معظم بلاد الإسلام مصر والشام والساحل والمغرب والنوبة واليمن ، وخطب له على المنابر شرقا وغربا ، عجماء وعربا ، وهو عماد البيت الأيوبى وفخره ورئيس ... قال ابن أبى شامة (٢) رأيت هو ونور الدين الشهيد فى المتأخرين كالمعمرين فى المتقدمين ، فلا أبعد أنهما من الله حجة الملوك المتأخرين فرحمهما الله (١٤ ب) :

(١) انظر ترجمته فى النوادر السلطانية ٢٤٦ ، مرآة الزمان ٤٢٥/٨ ، الروضتين ٣١٥/٢ ، وفيات الأعيان ١٣٩/٦ ، مفرج الكروب ١٦٨/١ ، وما بعدها ، تاريخ أبى الفدا ١١٢/٥ ، البداية والنهاية ١٣٩/١٣ ، مفرج الكروب ١٦٨/١ ، السلوك ٤٤/١ ، النجوم الزاهرة ٥١/٦ ، الدارس ١٧٨/٢ ، طبقات الشافعية ٣٢٥/٤ ، الكامل ٩٥/١٢ ، ابن الفرات ٥٥/٤ ، ابن خلدون ٧٩/٤ ، ٢٥٠/٥ ، تاريخ الخميس ٣٨٧/٢ ، ابن اياس ٦/١ ، شذرات ٢٩٨/٤ ، كنز الدرر ٤١١٣ .
(٢) هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى الملقب بأبى شامة ، مؤلف الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، توفي سنة ٦٦٥ هـ .

وَأَلْبَسَ اللَّهُ هَانِيكَ الْعَقَّامَ ، وَإِنْ يَلِينُ تَحْتَ الثَّرَى ، عَفَا وَغَفَرَانَا
سَقَى ثَرَى أَوْدَعُوهُ رَحْمَةً مَلَأَتْ مَثْوَى قُبُورِهِمْ رَوْحاً وَرِيحَاناً (١)

ولد بتكريت (٢) سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة ، ونشأ في حجر أبيه ، ونشأ في الدولة النورية ، وناهيك بها ، ومنها تعلم العدل والإحسان على ما جبله الله من محاسن الشيم ، وكمال الفضائل .

وكان - رحمه الله - شجاعاً سمحاً جواداً مجاهداً ، قطع أيامه بالفزوات والجهاد وفتح ما لا تيسر لغيره ، وسترى من فتوحه ما يتعجب له الناظر ويدهشه ، يجود بالمال قبل أن يصل إليه ، ومتى علم بوصول حمل وقع عليه بإضعافه ، وما أجاب أحداً بالرد ، وإن لم يكن عنده شيء لطف به كأنه غريم يستمهله ، وكان مفرماً بالإنفاق في سبيل الله ، وحسب ما أنفقه على عكا في رجب سنة خمس وثمانين إلى انفصاله في شعبان سنة ثمان وثمانين فكان اثني عشر ألف رأس من الخيل الجياد ، غير ما أطلقه من أثمان الخيول ، قال العماد: لم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب ، وتصرف أثمان أغالي كسوته في المعروف ، ومجالسه منزهة عن اللهو والهزل ، ومحافله حافلة بأهل العلم الفضل ، ولا سمعت منه كلمة فحش ، ولا لفظ تسخط ، مؤثر سماع الأحاديث بالإسناد ، ويتكلم عنده في العلم ويلين للمؤمنين ، ويغلظ على الكافرين ، ومن جالس له لا يعلم أنه جالس سلطاناً وإنما هو أخ من الإخوان ، حكيماً مقيلاً للعثرات متجاوزاً نقياً صفيماً ولياً ، شكا بعضهم إليه دينا مبلغه اثني عشر ألف دينار فقضاه عنه ، وكتب إليه سيف الدولة ابن منقذ نائبه بمصر أن بعض العمال انكسر عليه مال كثير وربما وصل إلى باب وتمحل ، فأرسل إليه السلطان يقول : احذر أن تقع في يد ابن منقذ ، قال العماد : ورأى معي يوماً دواة محلاة فأنكر

(١) هذان البيتان لأسامة بن منقذ .

انظر الروضتين ٧/١ ص ٣٠٩ .

(٢) بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، وهي إلى بغداد أقرب .

انظر : معجم البلدان ٣٨/٢ .

على وقال : ما هذا؟ فلم اكتب بها عنده بعدها أبدا ، وكان محافظاً على الصلوات في جماعة ، قال ابن شداد : كان إذا جاء وقت الصلاة وهو راكب نزل فصلى ، وما قطع الصلاة إلا في مرض موته ثلاثة أيام ، اختلط فيها عقله ، وكان حسن العقيدة قرأ عقيدة القطب النيسابوري وعلمها أولاده ، أما الزكاة فلم تجب عليه ، وأما صدقة النافلة فاستفدت أمواله ، اجتاز يوماً بصبي يقرأ على أبيه القرآن فأعجبه فوقف عليه وعلى أبيه مزرعة ، وكان شديد الحياء (١٥ أ) خاشع الطرف ، رقيق القلب سريع الدمعة شديد الرغبة في سماع الحديث ، وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية استحضره وسمع عليه ، وأسمع أولاده ومماليكه وإن لم يحضر الشيخ تردد هو إليه ، سافر إلى الإسكندرية فسمع السلفي (١) وابن عوف (٢) وكان مبعثاً لكتب الفلاسفة ، وأرباب المنطق ، ولما بلغه عن السهروردي (٣) ما بلغه ، أمر ولده الظاهر بقتله ، وكان محباً للعدل ، يجلس له الاثنين والخميس مجلساً عاماً يحضره الفقهاء والقضاة ، وما استغاث به أحد إلا وأجابه ، واستغاث به بعضهم (٤) على ابن أخيه المظفر تقي الدين عمر وقال : ما يحضر معي مجلس الشرع فأمره بالحضور معه ، وكان من أعز الناس عنده ، وادعى رجل أن سنقر الخلاطي (٥) مات علي ملكه ، فتزحزح عن طراحته (٦)

(١) هو المحافظ السلفي أبو الطاهر عماد الدين أحمد بن محمد بن أحمد المحدث المشهور ، توفي سنة ٥٧٦ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ٨٧/١ ، طبقات الشافعية ٤٣/٤ ، النجوم الزاهرة ٨٧/٦ ، البداية والنهاية ٣٠٧/١٢

(٢) هو إسماعيل بن مكى بن إسماعيل توفي سنة ٥٨١ هـ .

انظر : النجوم الزاهرة ١٠٠/٦ .

(٣) هو أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك ، الملقب شهاب الدين ، قتل بحلب سنة ٥٨٧ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ٣١٢/٥ ، النجوم ١٠/٦ .

(٤) هو ابن زهير الدمشقي . انظر : النجوم ١٠/٦ .

(٥) حسام الدين سنقر الخلاطي أحد مماليك صلاح الدين ، توفي سنة ٥٨٥ هـ .

انظر : الفتح القدسي ص ٣٠٥ .

(٦) الطراحة : مرتبة تفرش للسلطان إذا أراد الجلوس .

انظر : الروضتين ٥٣٩/١ حاشية ١ .

وساواه فى الجلوس ، فلما ادعى الرجل رفع رأسه إلى جماعة الشيوخ وقال لمن يعرفون سنقر قالوا : نشهد أنه مات على ملكك ، ولم يكن للرجل المدعى بينة فأسقط فى يده ، قال ابن شداد : فقلت له : يامولاي هذا رجل غريب جاء من خلاط^(١) فى طمع ونفدت نفقته وما يحسن أن يرد عن المولى خائباً ، فقال : يا قاضى هذا إنما يكون على غير هذا الوجه ، ووهب له خلعة ونفقة وبنفلا وأحسن إليه .

فتح آمد ووهبها لابن قره أرسلان^(٢) و واجتمع عنده وفد بالقدس ولم يكن عنده مال ، فباع ضيعة من بيت المال وفرقها عليهم ، وكان فى حصار عكا^(٣) يدور على الأطلاب ويقول لهم : أنا واحد منكم ، وكان فى الشتاء يعطى العساكر دستورا^(٤) ويقيم هو فى نفر يسير وكان العدو خمسمائة ألف إلى مئتمائة ، قتل أكثر من مائة ألف وغرق معظمهم ، وجاء الخبر بوفاة تقى الدين وهو على الرملة^(٥) فقال : وقد خنقته العبرة ، اكنموا الخير عن العدو ، وكلمه الجناح^(٦) على يافا^(٧) كلاماً غليظاً فما رد عليه ، ثم استدعاه فأيقن بالهلاك ، فأطعمه فاكهة جاءت من الشام وسقاه ماء وثلجاً ، وكان له لصوص يسرقون من الأفرنج فسرقوا ليلة صبيا فباتت أمه تبكى ، فقال لها الفرنج : إن سلطانهم رحيم القلب فاذهبى إليه ، فجاءته وعفرت وجهها بالتراب فسأل عنها فأخبر بقصتها فدمعت عيناه فأمر بإحضار الطفل ، ولم تمض ساعة حتى أحضر فلما رآته شهقت وضمت إليه وأشارت إلى

(١) خلاط : وهى قرية أرمينية الوسطى .

انظر : معجم البلدان ٣٨٠/٢ .

(٢) هو محمد بن قره أرسلان صاحب حصن كيفا ، توفى سنة ٥٨٠ هـ . انظر : النجوم ٩٨/٦ .

(٣) بلد على ساحل بحر الشام من عمال الأردن . انظر : معجم البلدان ١٤٣/٤ .

(٤) الدستور : الإجازة أو الإذن ، يقال أعطى السلطان الأمراء دستورا ، أى أعطاهم إذناً بكذا (العصر المملوكى ٤١٦) .

(٥) مدينة عظيمة فى فلسطين ، وكانت رباطاً للمسلمين . معجم البلدان ٦٩/٣ .

(٦) هو الجناح بن على بن أحمد الهكاري ، وكان من أمراء صلاح الدين . الكامل ٨٥/١٢ .

(٧) مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين . معجم البلدان ٥ : ٤٢٦ .

ناحية الفرخ فأمر أن تحمل على فرس ثم عادت ، وكان حسن المشرة طيب القلب حافظاً
لأنساب العرب عارفاً بخيولهم طاهر اللسان (١٥ ب) والقلم ، ما شتم أحداً قط ، ولا
كتب بيده أذى لمسلم ، ولا حضر عنده يتيم إلا ترحم على والديه ، وأعطاه ما يكفيه إن
كان له كافل سلمه إليه وإلا كفله ، وذكر من مناقبه الغرر ما بين في التواريخ والسير ،
وحكى سنقر الحلبي (١) أن الحجاب كانوا يزدحمون على طراحتة قال : فجئته ومعى
قصة (٢) وكان السلطان قد مد يده ليستريح عليها ، فدستها ولم أعلم ، وقلت له : علم
عليها فلم يجبنى ، فكررت عليه ، فقال : يا طواشي (٣) أعلم بيدي أو برجلي ؟ فنظرت
فرايت يد السلطان تحت رجلى فخجلت ثم أخذها وعلم عليها ، ولم يزل على هذا الأخلاق
حتى توفاه الله تعالى ، وكان لا يلتفت إلى قول منجم ، ولم يزل ممدحاً محبوباً إلى الناس
معظماً عند ملوك الأرض ، وكان في زمانه ابن عَنِين (٤) الشاعر هجاء خبيث اللسان ، لم
يسلم منه أحد فهجا السلطان ودولته فقال (٥) :

سلطاننا أعرج وكاتبه أعمش والوزير منحذب
وصاحب الأمر خلقه شرس وعارض الجيش داؤه عجب
والدولعي الخطيب مستكف وهو على قشر بيضة يثب
ولا بن باقى وعظ يفر به النا من عبد اللطيف محتسب

(١) هو مبارز الدين سنقر الحلبي من الأمراء المصريين . انظر : مفرج الكروب ٢٥٠/٣ .

(٢) القصة : هي الطلب أو الالتماس يرفعها صاحب الحاجة أو الشكوى إلى السلطان . انظر : صبح
الأعشى ١٥٤/١٣ .

(٣) وجمعه طواشية : وهم الخصيان الذين استخدموا في الطبقات المملوكية ، وفي الحریم السلطاني ،
كانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة ، ويعد شيخهم من أعيان الناس .
انظر : المواعظ ٢١٩/٤ .

(٤) أبو المحاسن : شرف الدين محمد بن نصر الله بن عَنِين ، ولد بدمشق سنة ٥٤٩ هـ ، وتوفي سنة
٦٣٠ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ١٠٦/٤ ، النجوم الزاهرة ٢٩٣/٦ .

(٥) ديوان ابن عَنِين ص ٢١٠ .

فناه السلطان إلى الهند فأرسل يقول (١) :

فسلام أهدتم أبا ثقبه لم يجترم ذنباً ولا سرقا
انفسوا المؤذن من بلادكم إن كان ينفي كل من صدقا

وهذه النبذة كالمقدمة لسيرته ، وتذكر سيرته بعد ذلك على مر السنين ، على ما
يحضرنا ، ففي سنة إحدى وستين وخمسة ولاء نور الدين شحنة دمشق وقيل : بل ولاء
دمشق ، فأظهر السياسة وهذب الأمر فقال عرقلة (٢) :

رويدكم يا لصوص الشام فإني لكم ناصح في مقال
واياكم وسمى النبي يوسف رب الحجا والجمال
فذاك يقطع أيدى النساء وهذا يقطع أيدى الرجال

ومن هنا نسرده السنين على التوالي (١٦ أ) .

سنة أربع وستين وخمسة : ذكر وزارة الملك الناصر للعاقد العبيدي بمصر .
لما مات عمه أسد الدين طمعت نفوس الأمراء النورية إلى الوزارة وهم عين الدين
الياروقى ، وسيف الدين المشطوب ، وشهاب الدين الحارمى خال السلطان وغيرهم ، فأشار
نصحاء العاقد عليه بوزارة صلاح الدين لطراعيته ، ولما جرت به الأقدار من سعاده وحمله
على ذلك أن صلاح الدين ليس له عسكر فيبقى تحت حكم الخليفة قال جامعه : اجتهد
العاقد رأيه وظن أن في صلاح الدين بقاء ملكه ، فكان فيه إسراع هلكه :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعده الدهر
ولكن :

وطالما سلك الإنسان شاكلةً يظن فيها نجاة وهي تتلفه (٣)

(١) ديوان ابن عنين ٢١٠ .

(٢) ديوان عرقلة ٨٧ .

(٣) الشاكلة : الناحية والطريقة والمذهب واللسان . انظر : اللسان ٣٥٧/١١ .

فطلبه الخليفة فامتنع فأكره على ذلك وخلع عليه ، ولقب بالناصر ، وقيل : إنما ملكه المستضيء ويأى ذلك ، فلما ولى لم يلتفت إليه أحد ممن كان يريد لها لنفسه ، وكان الفقيه عيسى الهكاري معه ، فسعى إلى أن جمعهم عليه بأنواع من الترغيب والترهيب فأجمعوا إلا الياروقى فإنه عاد إلى نور الدين فأنكر عليه ، وصلاح الدين فى ذلك نائب عن نور الدين والخطبة فى البلاد له ، ولا يتصرفون إلا عند أمره ، كان يكتب إليه : الأمير الأسفهلار^(١) ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً أن يكتب اسمه ، وكان لا يفرد صلاح الدين بكتاب بل الأمير صلاح الدين ، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا ، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أهله وأن يرسلهم إليه فأعطاهم الإقطاعات وتمكن من البلاد وضعف أمر العاضد قال المؤيد^(٢) - صاحب حماة - لما فوض إليه الأمر تاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص لباس الجد ودام على ذلك حتى توفاه الله ، قال ابن الأثير : رأيت كثيراً ممن ابتداءً بالملك ينتقل الملك إلى غير عقبه ، فإن معاوية تغلب بالملك وانتقل الملك إلى بنى مروان ، ثم ملك السفاح وانتقل الملك إلى أخيه المنصور ، ثم السامانية أولهم نصر بن أحمد فانتقل إلى أخيه إسماعيل بن أحمد ثم بنى بويه ، فانتقل إلى عقب أخيه ركن الدولة ، ثم طغرل بك ، ثم انتقل إلى (١٦ ب) عقب أخيه داود ، ثم شيركوه ، فانتقل إلى ابن أخيه ، ولما قام صلاح الدين بالملك انتقل إلى أخيه العادل وأولاده ، ولم يبق لأولاد صلاح الدين غير حلب قال : وكان سبب ذلك قتل من تولى أولاً وأخذ الملك وعيون أهله وقلوبهم معلقة به ، فتحرمه عقبه لذلك .

قال جامع الفقير : وقل من أقام دولة إلا وكانت تلك الدولة سبباً لزواله ، فإن أبا مسلم الخراسانى أقام الدولة العباسية فقتله المنصور ، فأتى الخلفاء منهم ، والمهدى الفاطمى قتل داعيها ، وصلاح الدين أزال الدعوة الفاطمية :

(١) الأسفهلار : اصطلاح عسكري مركب من كلمتين : اسفه : وهى فارسية ، وسلار : عسكري وهى

تركية ، معناه : مقدم الجيش . انظر : صبح الأعشى ٦/٣ .

(٢) المؤيد : هو عماد الدين إسماعيل بن على بن محمود أبو الفدا ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، وهو صاحب

كتاب المختصر فى أخبار البشر .

نسخة تقليد الوزارة بالإنشاء الفاضلي

من عبد الله وليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين ، إلى السيد الأجل الناصر مصطفى الأئمة منجد الأمة صلاح الدين ، كافل قضاة المسلمين ، هادي دعاة المؤمنين ، أبي المظفر يوسف العاضدي ، عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلي على محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وعلى آله الطاهرين المهديين ، وسلم تسليماً كثيراً كبيراً ، أما بعد فالحمد لله مصرف الأقدار ومحصر الأعمال والأعمار ، وعالم سر الليل وجهر النهار ، وجاعل دولة أمير المؤمنين فلكا دواراً تتعاقب فيه أحوال الأعمار ، بين انقضاء سرار واستقبال سرار ، وروضا إذا ذوت فيه الدوحات أينعت فروع ساهقة النوار ، بأسقة الثمار ومنجد دعوته بالفروع الشاهدة بفضل أصولها ، والجواهر المستخرجة من أمضى نصولها ، والقائم بنصرة دولته فلا تزال حتى يرث الله الأرض ومن عليها قائمة على أصولها .

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين ودله على مكان الأخيار ، وأغناه باقتضاب إلهام عن رؤية الاختبار ، وعضد به الدين الذي ارتضاه وعضده بمن ارتضاه ، وانجز له من وعد السعد ما قضاه قبل أن اقتضاه ، ورفع محله عن الخلق فكلهم مضاف إلى الخلق غير مضاه ، وجعل مملكته عرين الأسد وشبله ، ونعمته ميراثاً أولى به (١٧ أ) ذوى الأرحام من بنى الولاء وأهله ، وأظهر في هذه القضية ما أظهر في كل القضايا من فضل أمير المؤمنين وعدله ، فأولياؤه كالأيات التي تتسق درارى أفقها المنير ، وسق درر عقدها التنظيم النضير : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ (١) .

(١) سورة البقرة : الآية ١٠٦ .

والحمد لله الذى تم له الرشاد وجعله أولى من للخلق ساد ، وللق شاد ، وآثره بالمقام الذى لا ينبغى إلا له فى عصره ، وأظهر له المعجزات لنصره ما لا يستقل العدد بحصره ، ورفع له ولمن والاه من رفع قدره ووضع إصره وجعل الإمامة محفوظة فى عقبه والمعقبات تحفظه بأمره ، وأودعه من الحكم التى رآه لها أحوط ما أودعه وأطلع من وجهه أنوار الفجر الذى جهل من ظن أن من غير نوره مطلع ، وآتاه ما لم يوت أحداً وأمات به غيا وأحيا رسدا ، وأقامه للدين عاضداً فأصبح به معتزدا .

يحمده على ما آتاه من توفيق يذلل له الصعب الجامح ، ويدنى منه البعيد النازح ، ويخلف على الدين من صلاحه الخلف الصالح ، ويلزم آراءه جدد السمود الواضح ، ويؤتبه آيات الإرشاد فأبه نار قدح القادح ، ويصلى على النبى محمد الذى أنجى أهل الإيمان ببعثه ، وطهر بهديه من رجس الكفر وخبثه ، وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى جادلت يده بلسان ذى الفقار ، وأولاده ، وعلى الأئمة من ذريته الذين أذل الله بعزهم أهل الإلحاد ومنه :

وان الله سبحانه وتعالى ما أخلى دولة أمير المؤمنين التى هى مهبط الهدى من لطف يتلاقى الحادثة بشعبها ولما لم تكن اسمى الحادثة فى الأجل الملك المنصور أسد الدين شيركوه رضى الله عنه ، نظر أمير المؤمنين فى اصطفاك أيها السيد الأجل الملك الناصر لخدمة بعد فى تقديمه خير من سند ، وسحق به فى المجد أولك ويحمد منه العواقب ولك فاعلم هذا من أمره ورسمه واعمل بموجبه وحكمه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .
غير ذلك ، وكان السلطان وعد عرقلة متى ملك مصر يعطيه ألف دينار ، فلما فتحها كتب إليه من دمشق ، وقيل : بل قصده إلى مصر (١٧ ب) :

قل للصلاح معينى عند إقتارى يا ألف مولاي أين الألف دينار؟
أخشى من الأسر إن حاولت أرضكم وما تفى جنة الفردوس بالنار

فجد بها عاضديات مُسطرة من بعض ما أخلف الطاغى أبو الطارى (١)
حُمرًا كأسيافكم ، غمرا كخيلكم عتقا ثقالا كأعدائى وأطمارى (٢)

فبعث له ألف دينار ، وأخذ له من أخوته مثلها ، وما أحسن قول عرقلة وكان أعور فله

من قصيد :

أقول والقلب فى هم وتمذيب أى كل يوسف ارحم نصف يعسوب

ذكر قتل مؤتمن الخلافة جوهر وحرب السودان

وشرع صلاح الدين فى نقص إقطاع المصريين من أجل من معه ، وكان بالقصر
خصى يدعى « مؤتمن الخلافة » وكان مقدم السودان وهو متحكم على القصر فأجمع هو
ومن معه على أن يكتبوا للفرنج ، فإذا جاءوا خرج إليهم السلطان ، فيؤخذ من تأخر بالبلد ،
وتأتى الفرنج من ورائهم ، فتكون الدائرة عليهم ، واتفق أن تركمانيا عبر البئر البيضاء فرأى
مع إنسان ذى خلقان نعلين جديدين ليس فيهما أثر مشى فأنكرهما وأتى بهما صلاح
الدين ، ففتحهما فوجد بهما مكاتبة للفرنج فسأل عن الكاتب فإذا هو يهودى ، فلما
أحضره لمعاقبته أسلم وأيد أنه كتبه لمؤتمن الخلافة فعلم المؤتمن بذلك فاختفى بالقصر
فتلاهم عنه السلطان فلما طال الأمر خرج ذات يوم إلى بستان بقلوب فوجه إليه من احتز
رأسه وأتى به إليه ، فاستعمل على القصر قراقوش (٣) مملوك عمه أسد الدين ، ليطلب بما

(١) عاضديات : نسبة إلى العاضد الخليفة الفاطمى ، أبو الطارى .

انظر : جاء فى الروضتين ٤٤٩/١ ، حاشية ٥ يعنى بالطاغى شاررا وله ابن اسمه الطارى ، وفى الديوان
والخريدة : أبو العار .

(٢) انظر الأبيات فى ديوان عرقلة ص ٤٩ .

(٣) قراقوش : أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدى ، الملقب بهاء الدين ، توفى سنة ٥٩٧ هـ بالقاهرة .

انظر : وفيات الأعيان ٢٥٤/٣ .

يحوى القصر ، وكان قتل جوهر سبباً لنزول ملك الفاطميين ، وكان سبب ملكهم فى الأول جوهر العبد ، ولما قتل ثار السودان وكانوا أكثر من خمسين ألفاً وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه فحسبوا أن كل بيضاء شحمة ، وأن كل سواد فحمة فثار السلطان ومقدمهم أبو الهيجاء^(١) واتصل الحرب بين القصرين يومين ، وقيل أربعة وقتل من الفريقين خلق كثير ثم انهزما ، فكانوا كلما لجأوا إلى محلة أحرقوها عليهم ، ثم هربوا إلى الجيزة فتلقاهم توران شاه بن أيوب فقاتلهم فلم ينج منهم إلا الشريد ، وأرسل إلى ولاية البلاد لقتل من وجد منهم وكانت محلة على باب زويلة^(٢) تسمى المنصورة فأخربه (١٨ أ) بعض الأمراء وجعلها بستاناً ، ووصل إلى السلطان التهانى من كل جانب فمن ذلك^(٣) :

هنيئاً لمصر حوز يوسف ملكها بأمر من الرحمن قد كان موقوتاً
وما كان فيها قتل يوسف شاوراً بمائل إلا قتل داود جالوتاً
وقلت لقلبي : أبشر اليوم بالمنى فقد نلت ما أملت ، بل حزت ما شيتاً

سنة خمس وستين ذكر نزول الفرنج على دمياط

لما ملك أسد الدين مصر خاف فرغ الساحل فكتبوا أهل الأندلس وغيرهم ، وأرسلوا القسوس يحرضون الناس فاعتدوا على دمياط^(٤) فوصلوها يوم الجمعة ثالث صفر ، فحاصروها ونصبوا عليها المنجنيق^(٥) فأرسل السلطان إليها العساكر مع خاله وابن أخيه تقي

(١) هو حاتم الدين أبو الهيجاء السمين ، مقدم الأكراد الأسيدي ، شجاعاً مقداماً عارفاً متجملأ ، توفى سنة ٥٩٤ هـ . (النجوم الزاهرة ١٤٥/٦) .

(٢) باب زويلة : من أبواب القاهرة (معجم البلدان ١٦٠/٣) .

(٣) من نظم العماد الأصبهاني . انظر : الروضتين ٤٥٥/١ ، مفرج الكروب ١٧٨/١ ، ابن الفرات ٧٣/٤ .

(٤) من ثغور مصر القديمة على زاوية بين بحر الروم المالح والنيل . انظر : معجم البلدان ٤٧٢/٢ .

(٥) المنجنيق : آلة خشب لها دفتان بينهما سهم طويل ورأسه ثقيل وذنبه خفيف وفيه كفة المنجنيق التى يجعل فيها الحجر ، يجذب حتى ترفع على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه ما أصاب شيئاً إلا أهلكه : صبح الأعشى ١٣٧/٢ .

الدين ، وأرسل إلى نور الدين يقول : إن تخلفت عن دمياط ملكها الفرنج ، وإن خرجت ما آمن الشيعة ، فجهز نور الدين العساكر يتلو بعضها بعض ، ثم سار نور الدين إلى بلاد الفرنج فوصلت غاراته إلى ما لم تكن تبلغ ، فلما رأى الفرنج ذلك كروا خائبين ، ودامت مدة مقامهم نحو خمسين يوماً ورحلوا في ربيع الأول ، قال صلاح الدين : ما رأيت أكرم من العاضد ، أرسل إلى في نوبة دمياط ألف ألف دينار سوى الثياب ، وفيها قدم والد السلطان وأهله وزينت البلدين ، وفيها أبطل من الأذان ، حتى على خير العمل ، وأمر أن يذكر الخلفاء الأئمة .

سنة ست وستين

ذكر خروج الملك الناصر إلى بلاد الفرنج

خرج السلطان بعساكره إلى الشام في جمادى الأولى ، فأغار على غزة^(١) وعسقلان^(٢) والرملة وكان يقول : لما يسر الله لي فتح مصر علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه فتح في قلبى ذلك ، وعاد إلى القاهرة في جمادى الآخرة ، وفيها فتح أيلة^(٣) وهى على جانب البحر الشرقى عمل قلعة من خشب قبالة قلعتها ، والتقاء الأسطول فى البحر فأفتح قلعتها فى العشر الأول من ربيع الآخر ، وقيل : فى جمادى الأول ، وفيها مضى إلى الإسكندرية ليشاهدها ويرتب قواعدها ، وفيها فى عشرين جمادى الآخرة عزل قضاة مصر وولى القضاء عبد الملك (١٨ ب) بن درباس^(٤) الكردى ، وفيها كان بمصر حبس يعرف بـ « دار المعونة »^(٥) فعمره مدرسة للشافعية .

(١) غزة : مدينة فى أقصى الشام من ناحية مصر ، وهى فى نواحي فلسطين : معجم البلدان ٢٠٢/٤ .

(٢) عسقلان : مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر : معجم البلدان ٦٩/٣ .

(٣) أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم ، وقيل هى آخر الحجاز وأول الشام : معجم البلدان ٢٩٢/١ .

(٤) هو صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن درباس ، توفى بمصر سنة ٦٠٥ هـ : النجوم الزاهرة ١٩٦/٥ .

(٥) وهى بالفسطاط ويقال لها دار المعونة لأنها بنيت بمعونة المسلمين ، وكانت واقعة قبلى جامع عمرو بن العاص : الخطط المقرئية ١٨٧/٢ .

وعمر « دار الغزل » للمالكية ، وفيها فى شعبان اشترى المظفر عمر ابن أختى السلطان « منازل العز » بمصر وعمرها مدرسة للشافعية ووقف عليها حمام الذهب والروضة وغيرها .

سنة سبع وستين

ذكر قطع خطبة العبيدية

والخطبة للمستضى، العباسى

كتب نور الدين إلى السلطان يأمره بإقامة الخطبة لبنى العباس ، فاعتذر بالخوف من الشيعة ، فلم يصنع إليه وقيل : إن الخليفة أرسل لنور الدين يأمره بذلك فأرسل نور الدين كتب الخليفة وكتبه يأمره بذلك فاستشار صلاح الدين الأمراء فمنهم من سهل ومنهم من صعبه ، فحضر الفقيه أبو يحيى بن اليشع الجامع يوم الجمعة سابع محرم وصعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضى ، فلم ينكر أحد ، فلما كانت الجمعة الثانية خطب للمستضى وقيل : بل خطب فى الجمعة الأولى بمصر ، وفى الثانية بالقاهرة ، ومن العجب أن العاضد رأى عقربا خرج من مسجد فلان فلدغته ففسر أن ذلك أذى يحصل بالمسجد فأمر الوالى بإحضار من فى المسجد ، فأحضر له شخص صوفى يقال له « نجم الدين الخبوشانى » فاستخبره العاضد عن مقدمه ، وسبب بقائه بالمسجد فأخبره فرآه العاضد أحقر من أن يناله بمكروه ، فوصله بمال وقال : ادع لنا . فلما أراد السلطان قطع خطبتهم استفتى العلماء ، فامثله بذلك جماعة ، منهم الخبوشانى ، وبالغ فى الحط عليهم ، وأخرجهم من الاسلام ، فصح بذلك رؤيا العاضد . واتفق أن العاضد مرض ومات قبل أن يعلم بقطع خطبته ، وقيل : بل علم فمرض ، فلما علم اشتد مرضه فمات ، وقيل : إن ذلك سبب مرضه ، قيل : إنه جلس بعيد الأرجاف فقطع خطبته ، وهو عليه ضعف القوى ، فلما اشتد مرضه تخاذل عنه حتى طيبه الذى كان يبلاطه ، وما أحسن قول القائل :

جريت في شدتي أن لا صديق لمن أضحي كعصف عليه الدهر قد عصفاً
خلق الصديق كخلق الدهر متبع فإن صفا لك صلي أو جفاك جفا

وتوفى يوم عاشوراء ، قال الفاضل : كان بين وضع اسمه على أعواد المنابر ووضع
جثته (١١٩) على أعواد النعش ثلاثة أيام ، فمشى السلطان بين يديه ، وعمل له العزاء
شهرأ ، وهو آخر الملوك الفاطمية ، وعدتهم كعدة بنى أمية أربعة عشر ، وإن طال أيام هؤلاء
فكانت مائتي سنة واثنين وسبعين تقريباً ، وفي المرآة مائتي سنة وثمانين سنين ، ولعل
الكاتب صحف كلمة ثمانين ، ومع هذا فهو غلط ، وهذا دأب الدنيا لم تعط إلا استردت ،
ولم تحل إلا تمررت ، ولم تصف إلا تكدرت ، بل صفوها لا يخلو من الكدر . واعتقل
السلطان أقاربه والزامه ، واستولى على ما في القصر من الأموال والتحف ، وكان عنده من
الجواهر ما لا يملكه خلق مثله ، فمنه القضيبي الزمرد ، طوله قبضة ونصف ، والحبل
الياقوت الأحمر ، والدرة اليتيمة مثل بيضة الحمامة ، والياقوتة الحمراء وتسمى الحافر ،
وسبعة عشر مثقالاً ، وقيل : درهماً ، وقيل : أربعة عشر مثقالاً ، وثلاث قطع بلخش ، قطعة
نيف وثلاثين مثقالاً وقطعة ثمانية عشر ، وأخرى دونها ، وطبل للقولنج إذا ضرب به الإنسان
ضرباً ، ولم يعلم له إلا بعد أن كسر ، ومن الكتب النفيسة مائة ألف مجلدة ، وعمامة
القائم وطيلسانه بعث بهما البساسيري^(١) إلى المستنصر ، وأموالاً لا تحصى وأخرج جميع
ما في القصر من عبد وأمة ، فباع البعض ووهب البعض ، وعتق البعض ، وخلا القصر من
سكانه ﴿ كان لم تغن بالأمس ﴾^(٢) ، قال جامعه : فكذا دأب الدنيا لم تبق على أحد
كما قال بعضهم : رأيت الدنيا في صورة عجوز مزينة فقلت لها : كم تزوجت ، قالت :

(١) هو أرسلان بن عبد الله ، أبو الحارث البساسيري ، قائد نادر تركي الأصل ، خطب للمستنصر الفاطمي
صاحب مصر سنة ٤٥٠ هـ وأخذ له بيعة القضاة والأشراف ببغداد قسراً ، ولم يثق به فاهمل أمره قتل
سنة ٤٥١ هـ (وفيات الأعيان ١ : ٦١ : ٦٤ : ٥) .

(٢) سورة يونس ، الآية ١٠ .

ما لا أحصى ، قلت : فكلهم طلقك ، قالت : لا بل كلهم قتل ، فقلت تبا لخاطبك
بعد هذا :

بإله ربك كم بيت مسررت به قد كان يعمر بالذات والطرب
طارت عقاب المنايا في جوانبه فصار من بعدها للويل والحرب

انتهى . ورتاهم عمارة اليمنى بقصيدة أولها (١) :

رمىت يا دهر كف المجد بالشلل وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
سعبت في منهج الرأي العثور فإن قدرت من عثرات الدهر فاستقل
جدعت مارنك الأقنى فأنفك لا ينفك ما بين نقص الشين والخجل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل سقبت مهلاً ، أما تمشى على مهل ؟
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة على فجيعتها في أكرم الدول (٢٠ ب)
يا عاذلى في هوى أبناء فاطمة لك الملامة إن قصرت في عذلى
بإله زر ساحة القصرين وابك معي عليها لا على صلفين والجمال
وقل لأهليهما والله ما التحمت فيكم جروحي ولا قرحي بمندمل
ماذا ترى كانت الافرنج فاعلة في نسل آل أمير المؤمنين على ؟
هل كان في الأمر شيء غير قسمة ما ملكتم بين حكم السبى والنفل
وقد حصلت علىها واسم جدكم محمد ، وأبوكم خير منتعل
مررت بالقصر ، والأركان خالية من الوفود وكانت قبلة انقبل
فعلت عنها بوجه ، خوف منتقد من الأعداء ، ووجه الود لم يمل
أسبلت من أسف دمي غداة خلت رحابكم ، وغدت مهجورة السبل
أبكى على مآثرات من مكارمكم حال الزمان عليها ، وهي لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم واليوم أوحش من رسم ومن طلل
والله لا فاز يوم الحشر ظالمكم ولا نجا من عذاب النار غير ولى
ولا رأى جنة الخلد التي وعدت من خان عهد الإمام العاضد بن على

وكانت هذه الأبيات أحد أسباب قتله مع غيرها ، ولما مرض العاضد ، أرسل يستحضر
السلطان ، فخشى أن يكون مكيدة ، فلم يحضر ، فلما مات أسف إذ لم يحضر ، وأرسل إلى

نور الدين البشارة بذلك وهو بحلب ، فدقت البشائر ، وزينت البلد ، وأرسل إليه هدية ، من جملتها مائة ألف دينار ، وطيباً وتحفاً وعمامة القائم وطيلسانه ، فقال : والله ما كان بنا حاجة إلى هذا ، وما وصل إلينا غير معشار ما أنفقنا على العساكر التي جهزناها لمصر ، وما فقدنا بفتح مصر والساحل .

نسخة كتاب التهنة للمستضىء بخط القاضي الفاضل

﴿ سلاماً قولاً من رب رحيم ﴾ (١) ، ﴿ ببشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾ (٢) وصلواته التي تنزل بها الروح الأمين ، وتُسبِّعها الملائكة بالتأمين ، على مولى النعمة ، ووالى الأمر المصون فى عقبه ، وولى الله الذى لا خوف عليه ولا خوف به ، الخليفة على الخليقة ، والامام الذى يحمى من دين الله الحقيقة على الحقيقة ، ووارث السقائين (٢٠) : زمزم والكوثر والولائتين : السرير والمنبر ، والدعاءين : اليوم وفى المحشر ، والشرفين : المشعر والمعشر ، والطرفين : المشهد الأول والمشهد الأكبر ، والفريقين : البادى والحاضر ، والطاعتين : ممن أسر القول ومن جهر ، والمقامين : مقام إبراهيم ومقام محمد صلى الله عليهما أبداً سرمداً ، والشعارين : الأبيض فى القلب والأسود فى اليد ، والخلدين : فى دار السلام ودار السلامة والموطنين : مقام الامامة ودار المقامة ، والشفاعتين : سالماً فى أهل الغمام وآمناً فى أهل النار ، والسلامين : سلام لكم من الأبرار ، وسلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، على الخليفة بن الخلائف ، على رغم من رضى أن يكون مع الخوالف ، وابن الأئمة المشهورين فى المناظر والمواقف ، مولينا ومولانا المستضىء بالله أمير المؤمنين ، صلوات الله على ملك الأنوار القديسة ، تتضوع عن نسيم الأنفاس الفردوسية ، والحمد لله الذى جعل الدين دينه المسئول وأغمد عن أهله سيف الفتنة

(١) سورة يس ، الآية ٣٦ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١٩ .

المسلول، فأورث أمير المؤمنين حقاً كان به مطولاً ، وأطال يده إلى استيفاء طائلة كان دم الحق بها مطولاً ، ودأب المملوك صادر إلى مقر الشرف الأصيل ، ومن شرفه لشرف الرسول رصيل والاسم الشريف المستضىء به قد صدحت منابره وعروشه ، وطرزت المدائن والملايس والدنانير والدرهم رقومه ورقوشه ، وجهزت إلى بلاد الكفار في الكرام مرة أو مرتين بعوث نصره وجيوشه ، والزمن قد وقرته السكينة لا الوجوم والكواكب قد همت بأن تساقط إيثار الطرب لا إيثار الرجوم . ونشأة الدعوة المنيفة قد أشبهت ولاية النبوة الشريفة ، وقد طالع وزير أمير المؤمنين بتفصيل ما أخلده ، وتحصين ما منعه الجلالة أن تستوفيه وتستكمله ، راجياً أن تناله من الملاحظات النبوية ، ما يجعل له سلطاناً ، ويمكن له في قلوب الأعداء والأولياء مكاناً حتى يحفظ على الخلافة من لا يعينه إلا إياها ، وينفذ على الثقلين في الخافقين أوامرها وقضاياها ، والتكيف لها نصراً إلى نصر ويستنجد لها ما كتب في الزبور من بعد الذكر ... باسم أمير المؤمنين في الملأ الأعلى ، وطبق بدعوته المعمورة حتى لا .. وقلص به عن الأمة ضلالة ومد عليه ظلاً ، إن شاء الله تعالى .

... (٢٠ ب) ببغداد وزينت ، وبعث الخليفة أكبر الخدم صندل المقتفوى إلى نور الدين بالخلع وفيه الطوق فيه ألف دينار ، والعمامة وسيفين واحد للشام وآخر لمصر ، وبعث لصالح الدين خلعة دون ذلك .

سنة ثمان وستين :

فيها أرسل السلطان إلى نور الدين بهدية ، فيها فيل وحمار عتابي فبعث بها نور الدين إلى بغداد ، وعجب الناس من خلقة الحمار ، وكان من العتاييين رجل يدعى النحو في غاية من الجهل ، فخرج مع الناس يتفرج مع بعض الظرفاء وقال : يا قوم ليس بمعجب حمار عتابي ، فعندنا عتابي حمار فضحك الناس منه .

ذكر خروج الناصر إلى الكرك والوحشة بينه وبين العادل

وفيها ، وقيل : سنة سبع بدت الوحشة بين العادل والناصر الباطن ، وذلك أن الناصر سار ونازل الكرك والشوبك^(١) قال بعضهم : إنها أول غزوة غزاها ، وقد ذكر خروجه إلى أيلة وغيرها ، ثم رحل خوفاً من أن يملكه ، فلم يبق ما يعوق نور الدين عن قصد مصر ، فبلغ ذلك نور الدين فكتمه وقيل : إن صلاح الدين استغتم خروج نور الدين إلى الموصل فأعلم نور الدين بذلك . وقيل : بل تقرر أن يجتمع الملكان على قصد الفرنج ، فوصل صلاح وخرج نور الدين ، فأوجس الناصر في نفسه خيفة ، أن يعزله عن مصر ، فرجع عائداً ، بعد أن بقيت بينه وبين الكرك مسافة قريبة ، وأرسل مع الفقيه عيسى هدايا كثيرة ، وكتب يعتذر أن والده ضعيف فلاطف الفقيه نور الدين فأظهر قبول العذر ، وقال : يحفظ مصر عندنا أهم من غيرها ، ونقم عليه ذلك في الباطن ، فلما رجع صلاح الدين ، جمع أقاربه وقال : بلغني أن نور الدين يقصدنا ، فما الرأي ؟ فقال ابن أخيه تقي الدين : نقابله وذلك بحضور نجم الدين ، فأنكر على تقي الدين ذلك ، وقال : أنا والدكم ، ولو رأيت نور الدين قبلت الأرض بين يديه ، بل اكتب لنور الدين : لو جاءني من عندك إنسان واحد وربط المنديل في عنقي وجرنى إليك سأترك له ذلك واتفقوا على ذلك . ثم اجتمع أيوب بابنه خلوة وقال : لو قصد نور الدين كنت أول من يقاتله ، ولكن إذا أظهرنا ذلك يترك نور الدين جميع ما هو فيه ويقصدنا ولا ندرى ما نفعل ، وإذا أظهرنا الطاعة تمادى الوقت بما تحصل به الكفاية من الله ، فكان كذلك (١٢١) .

سنة تسع وستين :

فيها وصل قراقوش - غلام تقي الدين عمر - مع طائفة من الترك والعرب إلى طرابلس ، فاستولى عليها بعد أن حاصرها مدة ، وعلى كثير من بلاد أفريقيا ، ما خلا

(١) الشوبك : قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمّان وأيلة (معجم البلدان ٣ : ٣٧٠) .

المهدية (١) وسفاقس (٢) وقفصة (٣) وتونس (٤) وقيل : إن تقي الدين بعث مملوكه ه بزناه فالتقاء عسكر عبد المؤمن فهزمه ، بعد أن أقام الدعوة بأفريقية ، وعاد إلى القاهرة منهزماً . وفيها اجتمع جماعة من دعاة الدولة المصرية وتماروا فيما بينهم ، وعينوا خليفة ووزيراً ، وأحكموا أمرهم بليل ، وكان عمارة اليمنى من أحكمهم ، وأدخلوا عندهم ابن نجما (٥) الواعظ ، فأطلع السلطان على ذلك ، وطلب ما لابن كامل (٦) من المال والذخيرة فأعطاه السلطان ذلك ، ثم اعتقل مقدمهم ، وصلب يوم السبت ثانی رمضان جماعة منهم بين القصرين (٧) منهم عمارة والقاضي العويرس (٨) وعبد الصمد الكاتب وداعى الدعوة عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوى ، وقد جمعوا الشباب وكتبوا الفرنج ، وكاد أمرهم أن يتم . ووصل إلى الشام كتاب بالقصة يوم وفاة نور الدين ، ولكل واحد من المصلوبين تراجم مطولة .

وفيهما أكثر نور الدين من الصدقات ، وزاد فى العدل ، بحيث لم يبق ببلاده مظلمة ، وبعث خالداً القيسراني (٩) أميناً على حواصل البلاد ، فأكرمه صلاح الدين وقال له : نحن

-
- (١) المهدية : مدينة بأفريقيا بينها وبين القيروان مرحلتان (معجم البلدان ٥ : ٢٣٠) .
(٢) سفاقس : مدينة من نواحي أفريقيا على ضفة الساحل يعها وبين المهدية ثلاثة أيام (معجم البلدان ٣ : ٢٢٣) .
(٣) قفصة : بلدة صغيرة فى أفريقيا من ناحية المغرب بينها وبين القيروان ثلاثة أيام (معجم البلدان ٤ : ٣٨٢) .
(٤) تونس : مدينة كبيرة بأفريقيا على ساحل بحر الروم (معجم البلدان ٢ : ٦٠) .
(٥) هو زين الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجما الواعظ توفي سنة ٦٠٠ بمصر (النجوم الزاهرة ٦ : ١٨٣ ، البداية والنهاية ١٣ : ٣٥ ، شذرات ٤ : ٤٣١) .
(٦) محلة بالقاهرة ، وهى بين قصرين عمرها الملوك المتعلوية فى وسط المدينة (معجم البلدان ١ : ٥٣٤) .
(٧) هو أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل الداعي توفي سنة ٥٦٩ هـ (الخريدة - شعراء مصر ١ : ١٨٦ ، الروضتين ١ : ٥٧١ ، البداية والنهاية ٢ : ٢٧٥ ، شذرات ٤ : ٢٣٥) .
(٨) كان قد تولى ديوان النظر ثم القضاء فى عهد العاضد (الروضتين ١ : ٥٦١) .
(٩) هو أبو البقاء موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني استوزره نور الدين الشهيد بدمشق ومات بها سنة ٥٨٨ هـ (البداية والنهاية ١٤ : ٣١) .

ممالك نور الدين ، افعل ما أمرك ، إلا أن جماعة من أكابر الدولة قد تصرفوا في أماكن كان نزعها منهم ، فعلم خالد أن طاعته مخادعة فسكت ، ومات نور الدين في شوال وبطل ذلك كله .

سنة سبعين وخمسة :

فيها ، وقيل : في سنة اثنتين وسبعين خالف الكنز^(١) بأسوان ، وهو مقدم من المصريين ، جمع السودان ، وخطب لداود بن العاضد ، وقصد قوص ، وانتهى خبره إلى الناصر ، فجرد عسكرياً ، قدم عليه أخاه العادل ، والتقوا فقتل الكنز ، وتفرق جمعه ، وكان معه مائة ألف ، قتل منها ثمانون ، قال العماد : قتل الكنز وما انتطح فيها عنز ، وقيل : إن جماعة من غلمان العادل نادوا بشعار داود ، فخرج إليهم العادل ، وقتل منهم . وفيها جاء الفرنج إلى الاسكندرية في مائتي شيني^(٢) فأخرج السلطان العسكر ، وتحرك ليخرج ، فالتقى في قلوبهم الرعب ، فعادوا خائبين ، بعد أن ضايقوا البلد ، وخلفوا مجانيقهم وآلاتهم .

ذكر ملك الناصر دمشق وحمص وحماة وحلب

وسبب ذلك أن شمس الدين بن الداية^(٣) ، المقدم بحلب ، أرسل يستدعي الصالح إسماعيل (٢١ ب) وقد ولى بعد أبيه ، وحلف له أرباب الممالك وذلك في شوال سنة تسع وستين ، فسار الصالح إلى حلب ، وتمكن كمشتكين^(٤) ، وقبض على ابن الداية وأخوته

(١) في النوادر السلطانية ص ٤٧ ، الكنز انسان مقدم من المصريين كان قد انتزح إلى أسوان فأقام بها ، ولم يزل يدبر أمره ، ويجمع السودان عليه ، ويخيل لهم أنه يملك البلاد ويميد الدولة المصرية .
(٢) الشيني : السفينة الحربية الكبيرة . كانت تقام فيها الأبراج والقلاع وكانت تنزلق على الماء بمساعدة مائة وأربعين مجدافاً (السلوك ١ : ٥٦ ، مفرج الكروب ٢ : ١٣ ، حانية ١) .
(٣) هو شمس الدين علي بن الداية من كبار أمراء حلب (النجوم ٦ : ٢٤) .
(٤) هو خادم السلطان نور الدين ، وكان ولاء الموصل نيابة عنه ، فلما مات نور الدين هرب إلى حلب ، وخدم شمس الدين بن الداية ، ثم جاء إلى الملك الصالح ابن نور الدين الشهيد فاعطاه حازم ، ثم غضب عليه وقتله سنة ٥٧٣ (النجوم الزاهرة ٦ : ٨١) .

واستبد بتدبير المصالح ، فخافته الأمراء الذين بدمشق ، فراسلوا الناصر ، ومن كتابه القاضي كمال الدين الشهرزوري^(١) وابن الداية ، فسار جريدة^(٢) في سبعمائة فارس ، وخلف على مصر أخاه العادل ، ووصل إلى دمشق في سلخ ربيع الأول ، فخرج كل من بها من العسكر وخدموا ، ونزل بدار والده وتعرف بـ « دار العقيق »^(٣) وامتنت عليه القلعة أياماً ثم سلمها ريحان الخادم ، وأحسن السلطان إلى ابن المقدم ، ومشى إلى دار القاضي . وقال : كانت بيننا مشاحنات ، وما مشيت إليك إلا لأزيل ما في خاطرك فطب نفساً ، وأكثر الشعراء القول في أخذ دمشق ، وأسكن أخاه طفتكين قلعة دمشق . قال (القاضي) الفاضل : ملكنا دمشق عناية لا عنوة . ثم كتب الناصر إلى الصالح كتاباً يتواضع فيه ويخاطبه بمولانا وابن مولانا ، ويقول : إنما جئت خدمة لك لأؤدي ما يجب من حقلك ، فلا تسمع ممن حولك فيفسد حالك ، وما قصدى إلا جمع الكلمة . فعرض الصالح كتابه على كبار الدولة وفيهم خالد القيسراني ، فأشار عليه أن يكاتبه بالغلظة ، فكتب إليه ، ينكر عليه ، وينسبه إلى كفر النعمة ، وجحد إحسان والده ، ووعدده وهدده وبعث الكتاب مع « ينال »^(٤) صاحب منبج^(٥) ، فأغلظ للسلطان ، وقال : السيوف التي ملكتك مصر هي التي تردك ، وأشار إلى سيفه ، فغضب السلطان ، وقال : بوالله لولا أن الرسول لا يقتل لقتلتك ، فوالله ما جئت طمعاً ، وإنما جئت لاستنقذ هذا الصبي من يد أمثالك ، فأنتم زوال نعمته ، وطرده بغير جواب . ولما قرر أمر دمشق استخلف أخاه طفتكين ، وسار إلى حمص مستهمل

(١) هو محمد بن عبد الله بن القاسم ، أبو الفضل كمال الدين الشهرزوري قاضي دمشق ولد سنة ٤٩٢ هـ وتوفي سنة ٥٧٢ هـ (النجوم الزهرة : ٦ : ٧٩ ، والكامل ١١ : ٤٤١) .

(٢) الجريدة الفرقة من العساكر الخيالة لا رجالة فيها .

(٣) العقيق : هو الشريف أحمد بن الحسين بن أحمد العلوي صاحب الدار المشهورة بدمشق ، توفي سنة ٣٧٨ هـ (انظر النجوم الزهرة ٤ : ١٥٣) .

(٤) هو قطب الدين ينال بن حسان ، كان من قواد نور الدين ، تعصب للملك الصالح بعد وفاة نور الدين ، وأخذ السلطان منه منبج سنة ٥٧١ هـ . (سنا البرق ١ : ٦٩ حاشية ٤) .

(٥) منبج : بلد قديم كبير بينه وبين الفرات ثلاثة فراسخ وإلى حلب عشرة فراسخ (معجم البلدان ٥ :

جمادى الأولى ، وكانت حمص وحماة وقلعة بارين^(١) وسلمية وتل خالد^(٢) والرها^(٣) فى إقطاع مسعود بن الزعفرانى وله البلاد بدون قلاعها إلا بارين ، فنزل السلطان على حمص وتسلمها ، قيل : إنه قاتل يوماً واحداً وامتنعت عليه القلعة ، فخلف من يحصرها ، وسار إلى حماة ، فملكها مستهل جمادى الآخرة ، وكان يحكمها « جرديك »^(٤) مملوك نور الدين ، فامتنع فأرسل إليه السلطان يذكر أنه فى طاعة الصالح ، وإنما خرج لحفظ البلاد من الفرنج وقصد من جرديك المسير إلى حلب فى رسالة ، فاستحلفه على ذلك ، وسار إلى حلب واستخلف (٢٢٢ أ) بالقلعة أخاه ، فلما وصل إلى حلب قبض على كمشتكين وسجنه ، فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى الناصر ، فملكها ثم سار إلى حلب وحصرها ، فجمع أهل حلب وقتلوه وصدوه ، وأرسل كمشتكين إلى الاسماعيلية أموالاً عظيمة ليقتلوا الناصر ، فأرسل « سنان »^(٥) جماعة لقتله ورآهم صاحب أبى قبيس^(٦) فعرفهم ، وسبق إلى السلطان ، فأدركوه على باب الخيمة ، فقتل خمارتكين^(٧) أمير جاندار^(٨) واحداً منهم ، واجتمع الغلمان فقتلوا الباقين ، واستمر الحصار إلى مستهل رجب ، ثم رحل عنها ، بسبب نزول الفرنج على حمص ، ووصل إلى حماة ، ثامن

-
- (١) بارين : مدينة بين حلب وحماة من جهة الغرب (معجم البلدان ١ : ٣٢١) .
(٢) تل خالد : قلعة من نواحي حلب (معجم البلدان ٢ : ٤١) .
(٣) الرها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام (معجم البلدان ٣ : ١٠٦) .
(٤) هو جرديك بن عبد الله النوري ، كان من أكابر أمراء الملك ، العادل نور الدين محمود ، ثم خدم السلطان صلاح الدين فى جميع غزواته ، توفى سنة ٥٩٤ هـ (النجوم ٦ : ١٤٣) .
(٥) هو سنان بن سليمان صاحب دعوة الاسماعيلية بقلاع الشام توفى سنة ٥٨٨ هـ (النجوم ٦ : ١١٧) .
(٦) أبو قبيس : حصن يقابل شيزر فى بلاد الشام (معجم البلدان ١ : ٨٠) .
(٧) خمار تكين : هو الأمير ناصح الدين خمار تكين صاحب أبى قبيس : كان مشاعراً للاسماعيلية قتل سنة ٥٧٠ هـ (الروضتين ١ : ٦١٣) .
(٨) جاندار : فارسية تركيب من كلمتين ، جان بمعنى سلاح ، ودار بمعنى ممسك ، وأمير جاندار هو الذى يستأذن فى دخول الأمراء على السلطان (صبح الأعشى ٤ : ٢٠) .

رجب، وسار إلى حمص ، فرحل الفرنج عنها ، فحضر القلعة وملكها في حادى عشرين شعبان ، ثم سار إلى بعلبك فملكها في رمضان من الخادم يمن الريحانى ، ولما استقر ملك لهذه البلاد أرسل الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازى - صاحب الموصل - يستنجده فجهز جيشه مع أخيه عز الدين مسعود ، وطلب من الأكبر عماد الدين زنكى - صاحب سنجار - ليسير فى النجدة ، مصانعة لصلاح الدين ، لأنه وعده أن يملكه، فسار سيف الدين إليه وهو بسنجار، ووصل عسكر الموصل إلى حلب صحبة عز الدين محمود أحد أمراء الموصل ، فأرسل الناصر يذل لهم حمص وحماة ، وأن تقر بيده دمشق ويكون بها نائباً للصالح ، فلم يجيبوه وساروا إلى قتاله، فاقتلوا عند حماة ، فانهزم عسكر الموصل إلى حلب وغنم الناصر أثقاله وأسر أبطاله وتبعهم إلى حلب ، وهذه المرة الثانية لحصار حلب ، والأولى لكسر المواطن وقطع خطبة الصالح (ابن نور الدين) فراسلوه على أن يكون لكل واحد ما بيده ، فصالحهم على ذلك ، ورحل عن حلب ، فى العشر الأول من شوال وقيل : إنه صالحهم على أن يطلقوا ابن الداية وأن يكون بدمشق ما للصالح . وإنه جاءته الخلع من الخليفة ولقب بالناصر ، وإنه استعمل على حلب خاله ، وقيل : ابن خاله ، وهذا كله ليس بصحيح . وأقطع السكة حمص ناصر الدين بن شيركوه ، وحماة خاله ، وقيل : ابن خاله . وفى الوقت الآخر من شوال أخذ قلعة بارين من صاحبها مسعود الزعفرانى (وهو) من أكابر الأمراء النورية ، قيل : نازلها ، وقيل : إن صاحبها نزل عنها واتصل بالسلطان وظن أنه يكرمه ويشاركه فى الملك ، فلم ير ذلك ففارقه . وفيها العادل إلى بلاد الاسماعيلية (٢٢ ب) وأحرق سرمين^(١) ومرة مصرين^(٢) وجبل السماق^(٣) وقتل معظم أهله .

(١) سرمين : بلدة مشهورة من أعمال حلب (معجم البلدان ٣ : ٢١٥) .

(٢) مرة مصرين : وهي بليدة بنواحي حلب (معجم البلدان ٥ : ١٥٥) .

(٣) جبل السماق : وهو جبل عظيم من أعمال حلب الغربية ، يشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع

(معجم البلدان ٢ : ١٠٢) .

سنة احدى وسبعين :

ذكر محاصرة حلب وأخذ غيرها من البلاد : لما انهزم عسكر الموصل ورجعوا إلى سيف الدين لامهم وأرسل صالح أخاه عماد الدين ، وجمع عسكره وعسكر أخيه وممهم أخوه عز الدين ، واستنجد صاحب الحصن (١) وصاحب ماردين (٢) فاجتمع قريب العشرين ألفاً ، وقيل : ستة آلاف وليس صحيح ومن سعد الناصر أن سيف الدين بعث رسولا ومعه كتابين ، أحدهما إلى الناصر ليأخذ منه عهداً للمواصلة ، والآخر إلى الحلبيين يلومهم على الصلح ، ويخبرهم أنه واصل إليهم بمساكر الشرق ، وكان السلطان بدمشق ، فجاء به الرسول ، وكان قد ربط الكتابين في منديله ، فلما دخل عليه ، غلط فناوله كتاب الحلبيين ، فتأمله السلطان ، وعلم أن الرسول قد غلط ، فلم يقل له كلمة ، وفهم الرسول ، ولم يمكنه الاستدراك . قال جامعه الفقير : ومما يشبه هذا في الغلط أن ابن سكرة الهاشمي (٣) دخل على القاضي عتبة بن عبيد (٤) ومعه ررقتان ، إحداهما فيها طلب حاجة ، والأخرى فيها هجو القاضي على أن القاضي لم يقض حاجته ، ناوله الهجو ، فلما دخل عليه ناوله الورقة التي فيها هجوه ، ظنا منه أنها التي فيها الحاجة ، فرأى القاضي يوقع فيها بقضاء حاجته ، فلما تم الكتابة أخذها فرآها تلك الورقة فخجل ، ونسك ذلك :

يا عتبة بن عبيد
حوشيت من كل عيب
القاضي

وأنت فحوشيت من كل عيب .

- (١) الحصن : موضع بين حلب والرقة (معجم البلدان ٢ : ٢٦٤ : ٩ .
 (٢) ماردين : قلعة مشهورة مشرفة على دنيير ودارا ونصيبين (معجم البلدان ٥ : ٣٩) .
 (٣) هو محمد بن عبد الله بن محمد ، أبو الحسن ، المعروف بابن سكرة الهاشمي ، البغدادي ، توفي سنة ٣٨٥ هـ (بتيمة الدهر ٣ : ٣ ، تاريخ بغداد ٥ : ٤٦٥ ، وفيات الأعيان ٤ : ٤٤٠) .
 (٤) هو عتبة بن عبيد بن عبد الله بن موسى الهمداني ، كان قاضي القضاة في بغداد سنة ٣٣٨ هـ ، واستمر إلى أن توفي سنة ٣٥٠ هـ .

انظر : طبقات الشافعية للسبكي ٢٤/٢ ، تاريخ بغداد ٣٢/٢ ، شذرات الذهب ٥/٣ .

ابن سكرة:

زُبيب بنت شبيب

قالوا بانك تهوى

القاضي :

كذبوا قبحهم الله.

ابن سكرة :

أصهوه بعد شبيب

أقول هذا محال

القاضي :

جزاك الله خيراً.

ابن سكرة :

نقى عرض وجيب

اتعلمون بشيخ

القاضي :

قل ما يشبهك .

ابن سكرة :

فلم شهدتم بفيب

رأيتم الأير فـ

القاضي :

جهلاً منهم بطريق الشهادة .

انتهى . وكتب السلطان إلى أخيه العادل بتجهيز العساكر بسرعة ، وسار سيف الدين إلى حلب فالتقاء الصالح ، فاعتنقه سيف الدين ويكى وصعد القلعة ، وكان أمراء حلب ينزلون كل يوم إلى خدمته ، ثم رحل إلى تل السلطان بعساكره وكانت عشرين (٢٣ أ) ألفا ، والسلطان في ستة آلاف فما رأى التخلف عنهم ، فسار ونزل حماة ، وترك أثقاله بها ، وجاء إلى جبال التركمان ، وجاء رسول الحلبيين يخوفونه بأسهم ويأمرونه بالرجوع إلى مصر ، قال الرسول : فرأيت في خيمة صغيرة على بساط لطيف وتحت سجادة وبين يديه مصحف ، وهو مستقبل القبلة ، وإلى جانبه زرديته ، وسيفه بين يديه ، وقومه وتركته

معلق في عمود الخيمة ، فلما رأته وقع في خاطري أنه منصور لأنى قد فارقت أصحابي وهم على طنafs الحرير ، والجبول تعمل ، وليس في خيامهم خيمة إلا وفيها أنواع من المهرمات ، فأديت الرسالة وجاء وقت الظهر فضج العسكر بصوت الأذان ، وفي كل خيمة إمام ، فقال لى الحق بأصحابك وقل لهم يستعدوا للقتال ، وعند طلوع الشمس نازل إليهم و « يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » (١) ففارقتة وأنا على بصيرة ، ومشيت عامة الليل ، فوافيتهم وقت الفجر وهم سكارى فطلبت سيف الدين ، فقيل : نائم ، فوالله ما بسطت الشمس إلا وأعلام صلاح قد أقبلت ، والكوسات (٢) وأصحابنا نيام ، فقاموا وذلك يوم الخميس عاشر شوال وقيل : إن السلطان وصل قبل وأصحابه فى تعب وعطش ، فآلقوا أنفسهم على الأرض وليس فيهم فتأخر إلى الغد . انتهى ، فلما التقوا حمل ميمنة الحلبيين على ميمنة السير فطحنوها ، ثم ميسرتهم على ميمنته فتعتموها ، فنزل السلطان وياشر القتال بنفسه ، ووصل عسكر مصر مع تقى الدين (عمر) وناصر الدين بن شمس فى تلك الساعة ، فهال ذلك الحلبيين وساق خلفهم ، وأسر أبطالهم ، ولم ينج من الفريقين سوى رجل واحد ، ونجا سيف الدين بنفسه إلى الموصل ، ثم بمفارقتهم من الوهم ، فثبته وزيره ، ورجع السلطان إلى خيامهم فوجدها مفروشة بالرياحين المغانى جلوس فى انتظاره ، والخمور، ومطابخه تعد وأنواع المأكولات فيها ، فأرسل السلطان الخمور والطيور إلى سيف الدين وقال : اشتغالك بها الذ من مباشرتك للحرب . ثم سار السلطان إلى بزاعة (٣) فحصرها وتسلمها ، وسار إلى منبج فحصرها فى آخر شوال ، وصاحبها ابن حسان ، وكان شديد البغض للسلطان ، فاتفق وقوع سلمه فى السر وطلب الأمان فأمنه ، وقيل : بل أسره ثم أطلقه فسار إلى الموصل وأعطى السلطان ثلاثمائة ألف دينار ، ثم سار إلى إعزاز (٤) ونازلها

(١) سورة الأعراف : الآية ٨٧ .

(٢) الكوسات : هى صنجات من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بايقاع خاص : صبح الأعشى ٤٩/٤ .

(٣) بزاعة : من أعمال حلب بين منبج وحلب : معجم البلدان ٤٠٩/١ .

(٤) إعزاز : بليدة فيها قلعة شمالى حلب : معجم البلدان ١١٨/٤ .

ثالث ذى القعدة وتسلمها حادى عشر ذى الحجة ، وقيل (٢٣ ب) بل أقام عليها ثمانية وعشرين يوماً ، ووثب على السلطان باطنى فى خيمة جاولى (١) فضربه بسكين فى رأسه ، وكان عليه الزردية فأمسك يده ، إلا أنه لم يقدر على منعه بالكلية ، إنما كان يضربه الإسماعيلى فى رقبته فيرده الكازغند (٢) ، وقتل الإسماعيلى ثم وثب آخر فقتل ، ثم آخر فقتل ، وجاء السلطان إلى خيمته وهو مذعور ، لا يصدق النجاة ، وأعرض عسكره وأبعد من أنكره ، ورحل من إعزاز إلى حلب فنازلها فى منتصف ذى الحجة ، وقامت العامة فى حفظ البلد ، حتى منعوا السلطان من القرب منه ، وانقضت السنة ، وهو محاصر لحلب ، وسألوه فى الصلح ، وأن يكون له من حماة وما فتحه إلى مصر ، فأجابهم ، وأفرجوا إليه بنت نور الدين وهى صغيرة ، فأكرمها وأعطاهما شيئاً كثيراً ، وقال لها : ما تريدین ؟ قالت : قلعة عزاز ، وكانوا علموها فسلمها السلطان إليهم ، ورحل عن حلب عشرين محرم .

سنة اثنتين وسبعين :

فى المحرم قصد السلطان بلاد الإسماعيلية فنهبهم ، وخرب بلادهم ، وحصر قلعة مصيف (٣) فأرسل إليه منان مقدم الإسماعيلية يطلب الأمان ، فرحل عنها ، وقيل : إنه بعث إلى خال السلطان شهاب الدين الحارمى يقول : المصلحة رحيلة ، فاشفع ما أمكنك ، فقال : ارحل فإنى أخاف عليك ، فرحل إلى دمشق ، واستتاب أخاه شمس الدولة على الشام ، وفيها قدم السلطان مصر وأمر قراقوش ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة ودور ذلك ، وقيل : بل سور البلدين خاصة ، تسعة وعشرين ألف ذراع بالهاشمى ، ولم يزل العمل فيها إلى أن مات السلطان ، ولم ينتفع به أحد ، وفيها عمر المدرسة الملاصقة لقبه الإمام الشافعى ، ودرس فيها الخبوشانى ، وعمل المارستان بالقاهرة ، وفيها أبطل ما

(١) جاولى الأمدى وهو أحد أمراء السلطان صلاح الدين . انظر الكامل ٤٣٠/١١ .

(٢) الكازغند : المعطف القصير يلبس فوق الزردية يصنع من القطن أو الحرير المبطن .

انظر الروضتين ٦٥٩/١ حاشية ١ .

(٣) مصيف : حصن مشهور للإسماعيلية بالساحل الشامى قرب طرابلس . انظر معجم البلدان ١٤٤/٥ .

كان يؤخذ من الحاج بجدة ، مما يحمل في البحر لفقراء الحرمين مثلها ، وفيها تزوج السلطان الخاتون عصمة الدين بنت معين الدين أتر .

سنة ثلاث وسبعين

فيها سار السلطان من مصر للغزو ، فوصل عسقلان رابع عشرين جمادى الأولى ، وقيل : الآخرة ، فنهب وأسر ، وتفرق عسكره في الإنمارة فلم يبق معه إلا طائفة يسيرة ، فلم يشعر إلا بالفرنج قد طلعت ، فقاتل قتالاً شديداً وتمت الهزيمة على المسلمين ، وكانوا زيادة على عشرين ألفاً ، ولولا أن الليل حجز بينهم ، لم يبق من المسلمين أحد ، وتُعرف بـ « وقعة الرملة » وسار السلطان في البرية بلا دليل ، ومضى العسكر في الرمل فتبعهم الفرنج قتلاً وأسراً ، ومن أسر الفقيه عيسى الهكاري ، قيل : وأخوه الظهير ، وافتداه السلطان بعد سنتين بستين ألف دينار ، ومن سلم من الناس مات جوعاً وعطشاً ، ووصل السلطان إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة ، بعد أن قاسى الشدائد ، وكتب إلى أخيه توران شاه كتاباً بخطه يذكر الوقعة أوله (١) :

ذَكَرْتُكَ وَالْخَطِيئُ بِخَطَرِ بَيْنِنَا وَقَدْ نَهَلْتُ مَنَا الْمُثَقَّلَةَ السَّمْرُ

ويقول فيه : لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجانا الله سبحانه منه إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى .

وما ثبتت إلا وفي نفسها أمرٌ

قال جامعه : ويشبه قوله ذكرك والخطيئ ، البيت ، قول الآخر :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالسَّيَاطُ تَلْوَشُنِي عِنْدَ الْإِمَامِ وَسَاعِدِي مَقْلُوبُ
وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالذِّي أَنَا عَبْدُهُ وَالسَّيْفُ بَيْنَ جِوَانِحِي مَسْلُوبُ

وفيها وصل من الفرنج كند (٢) كبير في البحر ، فرأى السلطان ، وقد عاد منهزماً إلى

(١) البيت لأبي عطاء السندی . انظر : كتاب الزهرة لأبي بكر محمد بن سليمان الأصفهاني ص ٢٠٠ .

(٢) كند : فيه اشتقاق ، الأول وهو لغة في القومص ، الثاني وهو فارسي الأصل بمعنى الفارس الباسل

الشاكي السلاح . انظر : منا البرق ٦١/١ حاشية ٣ .

مصر فاغتم ذلك ونزلوا على حماة في جمادى الأولى ومقدمهم أرناط كان نور الدين قد أسره واعتقله بحلب فأطلقه ولده الصالح ، وكان بحماة خال السلطان شهاب الدين محمود ابن تكش الحارمى ، وهو شديد المرض ، وكان بها المشطوب^(١) ، ولولاه لملكوها ، وكان بالقرب منها طائفة من عسكر السلطان ، أعانوا أهل البلد وأزاحوا الفرغ ، وكانت إقامتهم أربعة أيام ، وتوفى شهاب الدين بعد رحيلهم بأيام قلائل ، وكان له ابن من أحسن الشباب مات قبله بثلاثة أيام ، فأعطى السلطان حماة لمنكورين بن خمارتكين^(٢) وقيل : لتقى الدين وكان منكورين نائبا عنه ، وقيل : بل أعطاه لتقى الدين فى سنة أربع وسبعين فسار السلطان إلى الشام واستخلف على مصر أخاه العادل ، فوصل دمشق فى شوال وبها أخوه توران شاه مشغول ببلذاته فلامه السلطان على ذلك .

سنة أربع وسبعين

فيها سير السلطان ابن أخيه تقى الدين إلى حماة ، وابن عمه محمد بن شيركوه إلى حمص (٢٤ ب) .

سنة خمس وسبعين

فيها خرج السلطان وشن الغارات على بلاد الفرغ ، فطلع عليه عدة من ملوكهم فنصر الله المسلمين على مرج العيون^(٣) وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأسر منهم صاحب رملة ، وصاحب طبرية^(٤) ، وصاحب القدس ، وصاحب عقلاى ، وصاحب جبيل^(٥) ،

(١) هو سيف الدين على بن أحمد المشطوب ، كان من أكابر أمراء صلاح الدين ، توفى سنة ٥٨٨ . انظر النجوم ١١٧/٦ ، البداية والنهاية ٣٥٢/١٢ ، شذرات ٢٩٤/٤ .
(٢) منكورين بن خمارتكين : كان صاحب قلعة أبى قبيس ، وكان أحد أصحاب صلاح الدين ، سلمه صلاح الدين قلعة صهيون سنة ٥٨٤ ، وكذلك حصن برزية . تاريخ أبى الفدا ٧٤/٣ .
(٣) مرج العيون : موضع بسواحل الشام . انظر : معجم البلدان ١٠١/٥ .
(٤) طبرية : بلدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية ، وهى فى طرف جبل ، وهى من أعمال الأردن . انظر : معجم البلدان ١٧/٤ .
(٥) جبيل : بلد فى سواحل دمشق . انظر : معجم البلدان ١٠٩/٢ .

وصاحب طرابلس (١) فخلص بعضهم نفسه ، ومات بعضهم فى الأسر ، وفتح حصناً كانوا بنوه ، وأطلق من فيه من المسلمين ، وذلك فى ربيع الأول ، وقيل : فى المحرم ، ثم سار فى ربيع الأول إلى حصن يعقوب ، ويسمى قصر يعقوب وبيت الأحزان (٢) فنصب عليها المجانيق ، وخلع على النقبين ، وياشر القتال بنفسه ، فطلبوا الأمان وعاجلوهم المسلمون ففتحوه عنوة ، وعرض سوره عشرة أذرع ، وارتفاعة أربعون ذراعاً ، فقتل منهم ألفاً وخمسمائة ، وخلص مائة أسير ، وكان بيت الأحزان الذين يزعمون أن يعقوب كان يركب على يوسف فيه عليهما السلام ، بيعة فجعلها السلطان مسجداً ، وفى فتحه يقول ابن الساعاتى (٣) :

وقلت على حصن المخاض وإنه
وما رفعت أعلامك الصفر ساعة
أتسكن أوطان النبرين عصابة
نصحتكم والنصح فى الدين واجب
لموقف حتى ما يوازيه موقف
إلى أن هلت أكبادها السود ترجف
تمين لدى أيمانها حين تحلف
ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

وقال أحمد بن نفاذة (٤) :

هلاك الفرنج أتى عاجلاً
ولو لم يكن قد دنا حثفها
وقد آن تكسير صلبانها
لما عمرت بيت أحزانها

وفىها كان الحرب بين عسكر السلطان ، ومقدمهم تقى الدين ، وبين عسكر قليج

(١) طرابلس : بلدة بالشام على شاطئ البحر . انظر معجم البلدان ٢٥/٤ .

(٢) بيت الأحزان : بلد بين دمشق والساحل . انظر : معجم البلدان ٥١٩/١ .

(٣) هو أبو الحسن على بن رستم بن هردوز ، المعروف بابن الساعاتى ، شاعر مبرز فى حلبة المتأخرين ، توفى سنة ٦٠٤ هـ . انظر : وفيات الأعيان ٧٣/٣ ، انظر الأبيات فى ديوانه ٤٠٩/٢ .

(٤) هو الرئيس الشاعر شمس الدولة أحمد بن نفاذة السلمى الدمشقى ، كان عند صلاح الدين فى عداد الأجناد الذين يسمونهم الأمراء ، توفى سنة ٦٠١ هـ . انظر : الغصون اليانعة ٢٦ ، فوات الوفيات ٨٦/١ أحمد بن نفاذة .

أرسلان (١) ، وسببه أن حصن رعبان (٢) كان بيد ابن المقدم ، فطمع فيه قليج أرسلان ، فأرسل إليه عسكرياً قريباً من عشرين ألفاً ، فسار تقي الدين في ألف فارس فهزمهم ، وكان تقي الدين يفتخر بذلك ، ويقول : هزمت بألف عشرين ألفاً ، وفيها ختن السلطان ولده العزيز وجعل ابن المجاور (٣) معلماً له .

سنة ست وسبعين :

ذكر مسير السلطان إلى نجدة صاحب حصن كيف (٤) (٢٥ أ) فيها سار السلطان إلى الروم ، وذلك أن محمد بن أرتق (٥) صاحب حصن كيفا انضم إلى السلطان ، وكان تزوج ابنة قليج أرسلان (٦) صاحب الروم ، فأساء العشرة ، وأحب مغنية وتركها نسياً منسياً فأرسل إليه : إما أن تحسن عشرتها وإما أن تفارقها ، فلم يلتفت ، فوعده أن يقصد بلاده فاستنجد محمد بالسلطان ، فسار السلطان إلى رعبان ، وأرسل إليه قليج أرسلان رسولاً ، فلما أدى الرسالة قال : أريد أن أقول للسلطان كلاماً من عندي ولي الأمان ، قال : قل . قال : يا مولانا قبيح بمثلك ، وأنت أعلى السلاطين قدراً ، وأكبرهم شأنًا أن تسمع الناس أنك صالحت الفرج وتركت الغزو ومصالح المملكة ، وأعرضت عما فيه صلاحك وصلاح رعيتك ، وخسرت أنت وعسرك الأموال العظيمة لأجل قجة مغنية ، ما يكون عذرك عند الله ، ثم عند الخليفة ، وملوك المسلمين ، وهب أن أحداً يواجهك بهذا أما تعلم أن الأمر كذا ، ثم احسب أن قليج كآب وهذه ابنته أرسلتني إليك تستجبرك أفيحسن أن تردّها ؟

-
- (١) هو قليج أرسلان بن محمود بن قليج أرسلان السلجوقي صاحب الروم ، توفي سنة ٥٨٨ هـ .
 انظر : النجوم ١١٧/٦ ، الكامل ٥٧/١٢ ، البداية والنهاية ٣٥٢/١٢ .
 (٢) حصن رعبان : بين حلب وسميساط قرب الفرات : معجم البلدان ٥١/٣ .
 (٣) هو نجم الدين أبو الفتح يوسف بن الحسين بن المجاور ، الشاعر الدمشقي ، توفي سنة ٦٠١ : الغصون الياقة ٣٥/١٩ .
 (٤) كيفا : مديّة بين حلب والرقّة : معجم البلدان ٢٦٤/٢ .
 (٥) توفي سنة ٥٨٠ هـ : النجوم ٩٨/٦ .
 (٦) وهي سلجوقة خاتون بنت قليج أرسلان ، توفيت سنة ٥٨٤ : سنا البرق ٣٤٤/١ .

فقال السلطان : الحق معك ، ولكنى أصلح بينهم ، ثم أصلح بينهم ، وعبر إلى بلاد ابن ليون^(١) وذلك أنه استمال قوما من التركمان ، حتى نزلوا بلاده ثم نهبهم ، فنزل السلطان على النهر الأسود^(٢) وبعث الغارات وأخرب ابن ليون حصن النفير ، وهو حصن له على الجبل فأسرع إليه السلطان قبل أن ينقل ما فيه فغنم ذلك ، وصالح ابن ليون على مالٍ ورد ما عنده للتركمان ، وعاد السلطان إلى مصر واستخلف ابن أخيه فروخ شاه على الشام .

سنة سبع وسبعين

فيها سار السلطان إلى الإسكندرية وقال : نغتنم حياة الشيخ أبي طاهر ، فسمع هو وأولاده ، الموطأ ، عليه ، وفيها زور خطيب المزة^(٣) كتاباً على السلطان بزيادة في جامكته^(٤) فهم فروخ شاه بالإيقاع به ، فهرب إلى مصر واستجار بالسلطان فأجاره ووقع له توقيماً بما طلب ولم يخيه .

سنة ثمان وسبعين

فيها سار السلطان عن مصر إلى الشام ، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة وخرج أعيان الدولة لوداعه ، أخذ كل واحد منهم يقول أبياتاً في (٢٥ ب) الوداع وفي الحاضرين معلم لأولاده فقال :

تمتع من شميم عرار نجدٍ فما بعد العشيّة من عرار^(٥)
وقيل : بل سمع قائلاً ظاهر الخيمة ، فطلب القائل فلم يوجد فتطير السلطان ، وكان كذلك فلم يعد بعدها إلى القاهرة مع طوال المدة ، فلما سمع الفرنج برحيله اجتمعوا

(١) في منا البرق ٣٤٧/١ ، والروضتين ١٦/٢ ، النجوم ٢٨/٦ ابن لاون .

(٢) نهر في بلاد الروم في طرف بلاد المصيصة وطرسوس : معجم البلدان ٣١٧/٥ .

(٣) قرية كبيرة غناء في وسط بستان دمشق : معجم البلدان ١٢٢/٥ .

(٤) الجامكية : الراتب المربوط لشهر أو أكثر : العصر المملوكي ٤٠٤ .

(٥) البيت للشاعر الصمة بن عبد الله القشيري ، وهو شاعر غزل بدوي من شعراء العصر الأموي ، توفي

نحو سنة ٩٥ هـ . انظر البيت في حماسة المرزوقي ص ١٢٤٠ ، وزهر الأدب ص ٦٨٥ ، ولسان

العرب ٥٦٠/٤ .

ليكونوا على طريقه فخرج فروخ شاه من الشام إليهم ، ففتح الشقيف وحصن جلدك وساق
فالتقى بالسلطان على بصرى (١) ففرح به ، وقدم دمشق حادى عشر صفر ، وأغار السلطان
فى طريقه على بلاد فنم وحصل ، وذكر ذلك الدوادار فى سنة سبع ، وفيها سار السلطان
من دمشق فى ربيع الأول ونزل قرب طيبة وشن الغارة على بلاد الفرغ مثل : بيسان (٢)
وجنين (٣) واللجون (٤) والغور (٥) ، فقتل واسر وغنم وعاد إلى دمشق ، ثم عاد إلى بيروت
وحاصرها وأغار عليها ، ثم رجع إلى دمشق ، وقيل : إن ذلك فى سنة سبع .

ذكر ملك السلطان البلاد الجزرية (٦) وفيها ، وقيل فى سنة سبع سار السلطان من
دمشق إلى البلاد الجزرية ، وسبب ذلك أن مظفر الدين كوكبرى (٧) صاحب حران كتب
له : إني محب لك وأنا معك ، ووعدته أخذ البلاد فرحل من الشام ، وقيل : من بيروت ،
وأظهر أنه يريد حلب وسار إليه مظفر الدين فقصد البيرة (٨) ودخلها ، وكان صاحبها مع
صلاح الدين ، ولما بلغ عز الدين مسعود (٩) وقايمار (١٠) وصول الناصر إلى الشام جمعا

-
- (١) بصرى : موضع بالشام من أعمال دمشق ، مشهورة عند العرب قديما وحديثا : معجم البلدان ٤٤١/١
(٢) بيسان : مدينة بالأردن بين حوران وفلسطين : معجم البلدان ٥٢٧/١ .
(٣) جنين : بلدة بين نابلس وبيسان من أرض الأردن : معجم البلدان ٢٠٢/٢ .
(٤) اللجون : بفتح أوله وضم ثانيه ، بلد بالأردن : معجم البلدان ١٣/٥ .
(٥) الغور : غور الأردن بين بيت المقدس ودمشق ، وهو منخفض عن أرض دمشق والبيت المقدس ، ولذلك
سمى بالغور : معجم البلدان ٢١٧/٤ .
(٦) الجزرية : هى التى بين دجلة والفرات مجاورة الشام ، تشمل على ديار مصر وديار بكر : معجم البلدان
١٣٤/٢ .
(٧) مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على كوجك ، صاحب حران ثم إربل ، توفى بإربل سنة ٦٣٠ هـ .
انظر : وفيات الأعيان ٢٧٠/٣ ، البداية والنهاية ١٣٦/١٣ ، النجوم ٢٨٢/٦ .
(٨) البيرة : بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية : معجم البلدان ٥٢٦/١ .
(٩) هو عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى ، الذى صار صاحب الموصل بعد وفاة أخيه ، توفى سنة
٥٨٩ هـ بالموصل . وفيات الأعيان ٢٩٠/٤ ، الروضتين ٢٢٦/٢ .
(١٠) هو أبو منصور مجاهد الدين قايمار بن عبد الله الزينى ، صار نائب الموصل من سنة ٥٧١ إلى أن توفى
سنة ٥٩٥ هـ . انظر : وفيات الأعيان ٢٤٦/٣ ، البداية والنهاية ٢١/١٣ .

عسكراً ونزلاً إلى داراً^(١) خوفاً على حلب فجاءهما أمر لم يكن في حسابهما وبلغهما عبوره الفرات ، فعادا إلى الموصل وأرسلوا عسكراً إلى الرها ، وكاتب السلطان ملوك الأطراف فأجابهم صاحب الحصن ، ونزل السلطان على الرها وقال الدوادار : آمد واعلم أن الدوادار حسن الخطة ، كثير الخبط فحصرها وتسلمها من صاحبها مسعود الزعفراني بالأمان ، وصار في خدمة الناصر ، ثم زحف على القلعة وتسلمها من صاحبها على مال ، وسلمها إلى صاحب حران ، ثم سار إلى الرقة^(٢) فملكها من صاحبها بنال بن حسان المنبجى ، ثم سار إلى الخابور^(٣) وملك قرقيسيا^(٤) وماكسين^(٥) وعربان^(٦) والخابور جميعه ، ثم سار إلى نصيبين^(٧) فملك المدينة (٢٦ أ) لوقته ، وحصر القلعة أياماً ففتحها ، ثم أقطعها أبا الهيجاء السمين ، ثم استشار أمراءه أبدأ بالوصول أو بسنجار أو بآمدا ؟ فأشار صاحب حران^(٨) بالموصل ، وكذلك ناصر الدين بن شيركوه ، وبذل للسلطان مالا على أن يقطعه إياها إذا ملكها ، فسار السلطان إليها ، وقد استعد صاحبها فرأى ما هاله من كثرة المقاتلة ، ونصب منجنيقاً فنصبوا من داخل السور تسعة وتردد الرسل في الصلح ، فطلب صاحب الموصل إعادة البلاد التي أخذت منه ، فقال له السلطان : بشرط تسليم حلب ، فلم يتم أمر ، وذلك في رجب ، فلما رأى أن حصار الموصل يطول وأن من بسنجار من المواصلة يقطعون

(١) دارا : بلدة بين نصيبين وماردين : معجم البلدان ٤١٨/٢ .

(٢) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام : معجم البلدان ٥٩/٣ .

(٣) الخابور : اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ، ولاية واسعة وبلدان جمة عليها

اسمه : معجم البلدان ٣٣٤/٢ .

(٤) قرقيسيا : بلد على نهر الخابور ، وعندها مصب الخابور في الفرات : معجم البلدان ٣٢٨/٤ .

(٥) ماكسين : بلد بالخابور قريب رحبة مالك بن طوقى في ديار ربيعة : معجم البلدان ٤٣/٥ .

(٦) عربان : بليدة بالخابور من أرض الجزيرة : معجم البلدان ٩٦/٤ .

(٧) نصيبين : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام : معجم البلدان

٢٨٨/٥ .

(٨) هو مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين : الكامل ٤٨٥/١١ .

طريق من يقصده من عسكره سار عن الموصل إليها ، فسير صاحب الموصل إليها نجدة فأوقع بهم السلطان وأخذ عددهم وحصر البلد وكتبه بعض الأمراء الذين بها أن يقصدها من جهة فسار إليها وطرقها ليلا فملكها ، واستتاب بها سعد الدين بن معين الدين وعاد إلى حران ، فلما وصل نصيبين شكوا أهلها أبا الهيجاء السمين فعزله ، وأقام بخران ليستريح عسكره ، وفيها أجمع صاحب الموصل وشاه أرمن^(١) ، فأرسل شاه أرمن إلى السلطان يشفع فيما يتعلق بصاحب الموصل فغالطه ، فأرسل إليه أخيراً مملوكه بكتمر^(٢) فأتاه وهو يحاصر سنجار ، فطلب منه أن يتركها وقال له : إن لم يرحل عنها وإلا تهدده بقصده فأبلغه بكتمر الشفاعة فسوفه في الإجابة رجاء أن يفتحها ، فلما رأى بكتمر هذا أبلغه التهديد وفارقه غضباً ولم يقبل له خلعة ، فاجتمع صاحب الموصل وصاحب خلاط وصاحب بدليس^(٣) وأرزن^(٤) ، فلما سمع السلطان باجتماعهم سير ابن أخيه يستدعيه من حماة وسار إلى رأس عين^(٥) فلما سمعوا برحيله تفرقوا ، وفيها عمل صاحب الكرك مراكب وأرسلها ليفسدوا بالحرمين وأرسل جيشاً في البر ، فلما سمع العادل وهو نائب أخيه بمصر سير جيشاً صحبة لؤلؤ الحاجب^(٦) وكان مظفراً شجاعاً فسار مجدداً في طلبهم ، فوجد فرقة محاصرين أيلة فقتلهم وأسروهم ، ووجد فرقة ساروا في نحو عيذاب^(٧) ولم يعهد بهذا البحر فرنجيا قط فسار يقفوا أثرهم ، فأدركهم بساحل الجوزاء وقتلهم (٢٦ ب) أشد القتال ، فأظفر الله بهم

(١) شاه أرمن : هو ناصر الدين سُكمان الثاني بن إبراهيم ، توفي سنة ٥٨١ هـ : النوادر السلطانية ٦٩ .

(٢) بكتمر بن عبد الله مملوك شاه أرمن بن سُكمان صاحب خلاط ، توفي سنة ٥٨٩ هـ : النجوم الزاهرة

١٣٢/٦ .

(٣) بدليس : بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط : معجم البلدان ٣٥٨/١ .

(٤) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط ، وكانت من أعمر نواحي أرمينية : معجم البلدان ١٥٠/١ .

(٥) رأس عين : مدينة كبيرة من مدن الجزيرة بين حران وديسر : معجم البلدان ١٤/٣ .

(٦) لؤلؤ الحاجب : من كبار رجال الدولة الصلاحية ، خدم مع صلاح الدين وأخلص له ، مات سنة

٥٩٧ هـ .

(٧) عيذاب : بلدة على ضفة بحر القلزم : معجم البلدان ١٧١/٤ .

وقتل أكثرهم ، وأخذ الباقين أسرى وأرسل البعض إلى منى (١) لينحروا بها ، والبعض إلى المدينة ، وعاد بالباقيين إلى المدينة فقتلوا عن آخرهم وكان الأسرى اثنين وسبعين أسيراً .
 وكتب الفاضل إلى الخليفة كتاباً فيه ، وكان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكراً واقتضوا من البحر بكرة ، وعمروا مراكب شحنوها بالمقل والأزراد ، وضربوا بها سواحل تهامة ، وأوغلوا في البلاد ، وما ظن المسلمون إلا وأن الساعة قد نشر مطوى أشراطها ، وطوى منشور بساطها ، وقد غضب الله لفناء بيته الحرام ومقام أنبيائه المعظم ، وضريح نبيه المفخم ﷺ ، وحرس من فضل الله كما حرس إذا قصده أصحاب الفيل ، ووكل أهله الأمور إلى الله فكان حسبهم ونعم الوكيل ، ولم يبق من العدو مخبراً ولا أثراً ﴿ وسبق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ﴾ (٢) .

سنة تسع وسبعين

ذكر ملك السلطان آمد وغيرها من البلاد : سار السلطان إلى البلاد فحاصرها وتسلمها بعد قتال شديد يوم الأحد عاشر محرم ، وسلمها لصاحب الحصن لأنه وعده بها لما جاء إلى خدمته ، ولما ملكها السلطان خرج محمد بن علي ومحمد بن كيكملدى منها بأموالهما إلى الموصل ، وأعانهما السلطان بدواب فحملاً ما خف ، وعجزا عن كثير من الذخائر ، ثم سار في شهر محرم إلى الشام وقصد تل خالد من عمل حلب فملكه ، فأنشده ابن الساعاتى على التل (٣) :

ملك الملوك وهذى دولة الدول
 حتى غدا مثلاً ناهيك من مثل
 ما بين ظل الندى والوابل الهطل
 جلوتها من برود الهام في حلل

ما بعد لقياك للعافين من أمل
 من حاتم عندما كفاك واهبة
 من يطلق الألف بعد الألف في طلق
 ذر الصوارم في أغمادها فلقد

(١) منى : في درج الوادى الذى ينزله الحاج ويرمى فيه الجمار من الحرم : معجم البلدان ١٩٨/٥ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٧٣ .

(٣) ديوان ابن الساعاتى ٢/٣٨٢ .

ومنها :

ما خفت مذ كنت إلا الله من أحدٍ لذاك خافك حتى النوم في المقل

قال جامعه الفقير : من خاف الله خافه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل

شيء ولهذا قيل :

وما العز إلا خيفة الله وحده فمن خاف منه خافه كل ما طلب

انتهى .

لذل خوفاً وطوعاً أن تقول ذل
سروجها قلل تغنى عن القل
بكل أصمى أصم الكعب معتدل
فحلها وتلافنها من العطل

فلو توخيت هدم السد معتزماً
فانهض إلى حلب في كل سابقة
بكر المعائل فاخطبها مكاثرة
فما سواك لها بعلٌ وقد عطلت

ومنها :

حلولة وعلى الآفاق فليطل
تياأس وأمل فليه صادق الأمل

فليعلم القدس أن الفتح منتظرٌ
وأفك يوسف يا بيت الخليل فلا

ثم سار إلى عين تاب (١) وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ إسماعيل (٢) فحاصرها
ثم تسلمها وابقى صاحبها عليها .

ذكر أخذ السلطان حلب وحارم

وذكر غير ذلك

واستدعى السلطان جميع العساكر فاجتمع عنده خلق عظيم ، ونزل الميدان الأخضر ،
قال ابن شداد في سادس عشر محرم ، وياشر القتال بنفسه بكرة وعشية ، فلما طال الحصار

(١) عين تاب : قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية : معجم البلدان ١٧٤/٤ .

(٢) كان خازن نور الدين محمود زنكى وصاحبه : الكامل ٤٩٥/١١ .

ضجر صاحبها عماد الدين زنكى بن مودود^(١) وكثرت اقتراحات أهل حلب عليه فأرسل حسام الدين طمان^(٢) في الصلح ، ولم يعلم أحداً فخرج وقرر الأمور ، فلما أصبح عماد الدين قال لأهل حلب : دبروا أنفسكم وأعلمهم بما تم فأرسلوا عز الدين جرديك^(٣) عن الرعية فاستحلف السلطان ، وخرج عماد الدين والعسكر إليه بالميدان وسير معه ، وقدم له السلطان خلعة سنية وخلع على أمراءه وعمل له وليمة عظيمة ، مات تاج الملوك يومها على ما ذكرنا في ترجمته ، وتعوض عن حلب سنجار^(٤) ونصيبين والخابور والرقه وسروج^(٥) ، وسار عماد الدين من يومه إلى سنجار ، وكان أهل حلب قد جعلوا له تحت القلعة صابوناً وثياباً ، وصاحوا يا فاعل ، يا صانع ، انزل اغسل الثياب مثل الخنايث وعملوا الأشعار وغنوا بها في الأسواق ومنها :

وبعت بسنجار خير البقاع ثكلتك من باع مشتري^(٦)

وجعلوا ينادون : يا حمار ، بعت حلب بسنجار . وصعد السلطان القلعة سلخ صفر ، ومن العجب أن القاضي محيي الدين بن الزكى^(٧) مدح السلطان بقصيدة منها :

-
- (١) عماد الدين زنكى بن مودود بن آق سنقر ، وهو ابن أخى نور الدين الشهيد ، توفى سنة ٥٩٤ هـ : النجوم الزاهرة ١٤٤/٦ .
- (٢) الأمير حسام الدين طمان بن عبد الله النووى ، صاحب الرقة ، كان شجاعاً جواداً ، بنى مدرسة بحلب للحنفية ، توفى سنة ٥٨٥ هـ ، وحزن السلطان صلاح الدين عليه والمسلمون لحرصه على الجهاد ولواقفه المشهودة : النجوم الزاهرة ١٠٩/٦ .
- (٣) عز الدين جرديك بن عبد الله النووى ، خدم السلطان صلاح الدين فى جميع غزواته وحروبه ، توفى سنة ٥٩٤ هـ . النجوم الزاهرة ١٤٣/٦ .
- (٤) سنجار : من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام : معجم البلدان ٦٢/٣ .
- (٥) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مصر : معجم البلدان ٢١٦/٣ .
- (٦) ورد البيت فى مرآة الزمان ٣٧٦/٨ .
- (٧) هو محمد بن على بن محمد بن يحيى أبو المعالى محيى الدين ، المعروف بابن زكى الدين ، قاضى القضاة بدمشق وأعمالها ، كان فاضلاً مترسلاً ، وله النظم والنثر البديعان ، توفى سنة ٥٩٨ هـ : وفيات الأعيان ٣٦٤/٣ ، طبقات السبكي ٩٩/٤ ، النجوم ١٨١/٦ .

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتوح القديس في رجب^(١) (٢٧ب)

فوقع ذلك بعد أربع سنين ، وكان القاضي هو الخطيب به . قال جامعه الفقير : وهذا من السعد العظيم ، ولكن قيل : إنه وجد ذلك في بعض التفاسير عند قوله تعالى ﴿ الم غلبت الروم ﴾^(٢) . انتهى .

ومدحه ابن سناء الملك^(٣) بقصيدة أولها :

بدولة التُّرك عزت دولة العرب
وفي زمان ابن أيوب غدت حلب
ولا بن أيوب دانت كل مملكة
مُظفر النصر ، مبعوث بهمته
والدهر بالقدر المحتوم بخدمه
ويجتلي الخلق من راياته همماً
تبدو الفوارس منها في سوابغها
مستلهمين ، ولولا أنهم حلفوا
وبابن أيوب ذلت شيممة الصلب
من أرض مصر وعادت مصر من حلب
بالصلح والصلح ، أو بالحرب والحرب
إلى العزائم ، مدلول على الغلب
والأرض بالخلق ، والأفلام بالشهب
مُبيضة النصر من مُصفرة العذب
بين النقيضين من ماء ومن لهب
عوالج الحرب لاستغنوا عن اليلب

ومنها :

فأفخر ففتحك ذا فخر لمفتخر
بك العواصم طابت بعدما خبيثت
وإلى الفرات فالق فيه ذا لجب
إلى بلاد أجات قبل أن دعيت
ذخر لمدخر ، كسب لمكتسب
بمالكبرها ، ولولا أنت لم تطلب
يظل بهزناً من تياره اللجب
للخاطبين ولولا الخوف لم تُجب

(١) ورد البيت في مرآة الزمان ٣٧٦/٨ ، مضمار الحقائق ١٤٣ ، الكامل ٤٩٧/١١ ، تاريخ أبي الفداء

٦٦/٣ ، تاريخ ابن الوردي ١٣٣/٢ .

(٢) سورة الروم : الآيات ١ ، ٢ .

(٣) هو هبة الله بن جعفر بن محمد بن هبة الله بن محمد ، القاضي السعيد المشهور بابن سناء الملك ، توفي

سنة ٦٠٨ هـ (الخريدة - قسم شعراء مصر ٦٤/١ ، وفيات الأعيان ١١٢/٥ ، شذرات ٣٥/٥ ، انظر

الآيات في ديوانه ص ١ .

ومنها :

ثم استجابت فلا حصن بمنتع منها عليه ، ولا ملك بمحتجب
أتى إليها يقود البحر منتظماً فالبيض أمواجه والبيض كالحبيب

قال الدوادار : وقيل : إنها لابن الزكى ، وذكر منها : ففتحكم حلباً ، البيت . قال
جامعه : ففهم من نظمها أن البيت لابن سناء الملك ، وقيل : لابن الزكى ، ولم يحك
أحد خلافاً إنها لابن الزكى . انتهى .

ورحل السلطان عن حلب يوم السبت ثانی عشرين ربيع الآخر ، ورتب بحلب ولده
الظاهر غازي ، وأنقذ إلى سرخك متولى حارم (١) في تسليمها ، فلم ينتظم أمر ، وكاتب
سرخك الفرخ ، فوثب عليه أهل القلعة وسلموها إلى السلطان ، وقد كان سار إليها ، ثم
عاد إلى حلب واقطع إعزاز سليمان بن جندر (٢) ثم عاد إلى دمشق ، فوصلها (١٢٨) ثالث
جمادى الأولى ، فجهز منها للغزو ، فعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة ، فأغار على
بيسان وأحرقها ، وأسر مائة أسير ، ثم رحل إلى الطور (٣) وقد كان طلب منهم المصاف (٤) ،
فلم يخرج إليه أحد ، فلما جاء الليل ، ساروا إلى عكا ، وسار السلطان خلفهم يقابل
المسافة ، ثم عاد إلى دمشق . وكلام الدوادار أن ذلك كان في مجيئه من حلب . ثم تجهز
إلى الكرك ثالث رجب ، وقد كان العادل أرسل يطلب حلب عوض مصر ، فأجابه وأمره أن
يوافيه بأهله ، فالتقيا على الكرك في رابع شعبان ، فضيق عليها ، ثم رحل عنها ، في
نصف شعبان ، وسار إلى نابلس (٥) فأحرقها ، ونهب كل ما في طريقه ، ثم سلك الغور ،

(١) حارم : حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية : معجم البلدان ٥٠٢/٢ .

(٢) سليمان بن جندر : كان من أكابر أمراء حلب ، ومشايخ الدولتين النورية والصلاحية ، شهد مع السلطان
صلاح الدين حروبه كلها ، توفي سنة ٥٨٧ هـ . النجوم ١١٣/٦ ، السلوك ١٠٧/١ .

(٣) الطور : جبل مطل على طبرية الأردن على رأس بيعة واسعة محكمة البناء موثقة الأرجاء : معجم البلدان
٤٧/٤ .

(٤) المصاف : جمع مصف ، وهو الموقف في الحرب والاصطفاف للقتال . اللسان ١٩٤/٩ .

(٥) نابلس : مدينة مشهورة بأرض فلسطين : معجم البلدان ٢٤٨/٥ .

وعاد إلى دمشق ، فدخلها رابع عشرين شعبان ، وأرسل ابن أخيه نقي الدين إلى مصر ، وسير أخاه العادل إلى حلب في رمضان ، وأحضر ولده الظاهر فأقام في خدمة أبيه راضياً في الظاهر ساخطاً في الباطن ، وقيل : إن العادل أعطى الظاهر ثلاثمائة ألف دينار عوض حلب . وحكى الدوادار أن في هذه السنة قصد السلطان الموصل ، لما بلغه من الخلف الواقع بين صاحبها وبين نائبه ، وأنه رحل عن الموصل إلى سنجار وتسلمها ، وكتب إلى الخليفة يلمس تقليداً بآمد ، فوصله التقليد ، فسار إليها ونازلها سابع عشرين ذى الحجة ، وافتتحها في المحرم سنة ثمانين ، وسلمها إلى صاحب الحصن بذخاثرها . وخبط في هذا المحل ، فإنه ذكر محاصرة الموصل ، وأخذ آمد سنة سبع ، وأخذ سنجار سنة ثمان .

سنة ثمانين وخمسمائة

فيها كتب زين الدين بن نجما الواعظ من مصر إلى الشام كتاباً منه (١) « آدم الله تعالى أيام مولانا السلطان الملك الناصر ، وقرنها بالتأييد ، والنصر والتسديد ، أترى ما يشاق مولانا إلى مصر ونيلها ، وخيرها وسلسيلها ، ودار ملكه ، ودارة فلكه ، وبحرها وخليجها ، ونشرها وأريجها ، ومقسمها ، وأنيس أبياتها ، وقصور معزها ، ومنازل عزها ، وجيزتها وجزيرتها ، وبركتها وبركها ، وتعلق القلوب بقلوبها ، واستلاب النفوس لأسلوبها ، وملتقى البحرين ، ومرتقى الهرمين ، وروضة جناتها ، وجنة رضوانها ، ومشاهدها ومجامعها (٢٨ب) ، ومساجدها وجوامعها ، ونواظر بساتينها ، ومناظر ميادينها ، وساحات سواحلها ، وآيات فضائلها .

وذكرها ما يطول . قال جامع الفقير : صدق - يرحمه الله - فيما وصف به مصر ، ويكفيها فضلاً قوله تعالى ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونَ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ (٢) وفي الحديث « مصر كنانة الله في أرضه ، ما ظلمها عدو إلا أهلكه الله » وهو حديث مأثور ،

(١) ورد في مرآة الزمان ٢٨٠/٨ ، الروضتين ٥٨/٢ .

(٢) سورة الشعراء : الآيتان ٥٧ ، ٥٨ .

مصداقه أن التتر الذين ملكوا الدنيا صرفهم الله عنها . وكذلك ... وغيرهم . ورأيت في كتاب عن كلب الأحبار أن الله تعالى قاتل للمال : أين تختار؟ قال : مصر ، قال : أبشر وأنا معك ، وقال الجاحظ : اتفقت أشياء ، فقال الغناء واليسار : أسكن مصر . قال ابن زولاق^(١) ومصر من أقدم البلدان ، فإنها أسست قبل الطوفان واختارها نوح لولده ، ودعا لهم . ومن محاسنها نيل مصر وحلاوته ومنافعه ، وإنه من الجنة ، وما يقل من الأموال ، وإن من شرب منه زادت قوته ، وقد ذكرها الله في ثمانية عشر موضعاً ، وذكرها في غير موضع من كتابه ، فقال : ﴿ وقال نسوة في المدينة ﴾^(٢) ، وقال : ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾^(٣) وثبت أن النبي ﷺ - قال : « استوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً » . قال جامع : الذي في الحديث الصحيح « استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً » ، واختلف العلماء ، فقيل : كما أراد بالرحم هاجر أم إسماعيل عليه السلام لأنها منهم . وقيل : مارية القبطية أم إبراهيم ابن النبي ﷺ وعليهما . ومارية أهداها المقوقس ملك الإسكندرية للنبي ﷺ ، هي واختبها سيرين وقيسر ، وخصياً يقال له : مابور ، وقيل : إنه ابن عم مارية ، وجارية أخرى ، وبغلة شهباء ، وهي الدلدل ، وحماراً أشهب ، وهو عُفير ، وفرساً ، وهو اللزاز ، والفرس مثقال ذهباً ، وعشرين ثوباً من قباطى مصر ، وقدحاً من زجاج ، وعسلاً من عسل بنها^(٤) فأعجب النبي ﷺ - العسل ، ودعا فيه البركة .

قال ابن زولاق : ومن محاسنها أن حرها وبردها لا يمنعان التصرف ، وأنها تميز الحجاز

(١) ابن زولاق : أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن علي بن خالد بن راشد بن عبد الله ابن سليمان بن زولاق ، الليثى المصرى ، كان فاضلاً في التاريخ وله فيه مصنف جيد ، له كتب في خطط مصر ، وكتاب أخبار قضاة مصر ، توفي سنة ٣٨٧ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ١/٣٧٠ ، البداية والنهاية ١١/٣٢١ ، لسان الميزان ٢/١٩١ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٣٠ ، وقد أخطأ المؤلف فقال : بالمدينة .

(٣) سورة يوسف : الآية ٨٠ .

(٤) بنها : من قرى مصر ، وأكثر عسل مصر الموصوف بالجودة مجلوب منها : معجم البلدان ١/٥٠١ .

واليمن والهند والشام والجزيرة وغيرها من البلاد لا تميز أهلها فضلاً عن غيرها ، وما يعمل بها من الثياب الديقى والشرب والقصب ، وليس في الدنيا بلد يبلغ قيمة الحلة فيها ألف دينار وغيرها ، وأن بعض الملوك أرسل يطلب منها من كل نوع من الثمار (٢٩) ثمرة فأرسل إليه وجبة من الثمر ومنها علماؤها كالشافعي (١) والبوطي (٢) والطحاوي (٣) وفي القضاء بكار بن قتيبة (٤) وفي الزهاد ذو النون (٥) قال جامعه : وما أحسن قول ابن الفارض (٦) :

(١) الشافعي : محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه تنسب الشافعية ، توفي بمصر سنة ٢٠٤ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ٣/٣٠٥ ، المحمدون من الشراء للقفطي ١٣٧ ، تذكرة الحفاظ ١/٣٢٩ ، تهذيب التهذيب ٩/٢٥٥ ، تاريخ بغداد ٢/٥٦ ، حلية الأولياء ٩/٦٣ ، صفوة الصفوة ٢/١٤٠ .

(٢) البوطي : يوسف بن يحيى البوطي ، صاحب الإمام الشافعي ، وقام مقامه في الدرس والإفتاء بعد وفاته ، هو من أهل مصر ، نسبته إلى بويط (من أعمال الصعيد الأدنى) حمل إلى بغداد في أيام الواثق وأريد منه القول بأن القرآن مخلوق فامتنع فسجن وتوفي في سجنه ببغداد سنة ٢٣١ هـ : تاريخ بغداد ١٤/٢٩٩ ، طبقات السبكي ١/٢٧٥ .

(٣) الطحاوي : أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الطحاوي المصري ، ولد ونشأ بطحا من صعيد مصر ، مجتهد محدث حافظ مؤرخ ، توفي بالقاهرة سنة ٣٢١ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ١/٥٣ ، البداية والنهاية ١١/١٧٤ ، النجوم الزاهرة ٣/٢٤١ .

(٤) بكار بن قتيبة بن أسد . قاضي فقيه محدث ، ولي القضاء للمتوكل العباسي سنة ٢٤٩ هـ ، لما صار الأمر إلى أحمد بن طولون بمصر أمره بخلع الموفق من ولاية المهدي فامتنع فاعتقله ، وتوفي في سجنه بمصر سنة ٢٧٠ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ١/١١٣ ، تهذيب ابن عساكر ٣/٢٨٢ .

(٥) هو ثوبان بن إبراهيم . أحد الزهاد المشهورين من أهل مصر ، كانت له فصاحة وحكمة وشعر ، توفي سنة ٢٤٥ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ١/٢٨٠ ، تاريخ بغداد ٨/٣٩٣ ، ميزان الاعتدال ١/٣٣١ .

(٦) هو عمر بن علي بن المرشد بن علي المصري ، المعروف بابن الفارض ، شاعر صوفي يلقب بسلطان العاشقين ، توفي سنة ٦٣٢ هـ انظر : وفيات الأعيان ٣/١٢٦ ، شذرات ٥/١٤٩ .

ولعمري مُشْتَهَاها مُشْتَهَاها

وطنى مصر وفيها وطرى

الآيات الأربعة وقول ابن الصائغ (١) :

ليس فى ذلك الكلام التباسُ
كان بينى وبينك المقياسُ

إن مصرًا لأطيب الأرض عندى
وإذا قستها بأرض سواها

وقوله الآخر :

والناس أنواعًا وأجناسًا
فما رأى الدنيا ولا الناس (١)

من شاهد الدنيا وأقطارها
وما رأى مصر ولا أهلها

انتهى . فكتب السلطان إلى ابن نجما المذكور (٣) : ورد كتاب الفقيه زين الدين ، أدام الله توفيقه ، لا ريب أن الشام أفضل ، وأن أجر ساكنه أجزل ، وأن القلوب إليه أميل ، وأن زلاله البارد أغلى (٤) وأنهل ، وأن الهواء فى صيفه وشتائه أعدل ، وأن الجمال فيه أكمل ، والكمال به أجمل ، وأن القلب به أروح ، الروح به أقبل ، ودمشق فعاشقها مستهام ، وما على مُحبها ملام ، وما فى ربوتها رية ، ولكل نور فيها شبيبة ، وساجعاتها على منابر الورق خطبًا تطرب ، وهزاراتها وبلابلها تعرب وتعجم ، وكم فيها من جوارٍ ساقيات ، وسواق جاريات ، وثمار بلا أثمان ، وروح وريحان ، وفاكهة ورمان ، وخيرات حسان ، وكون الله أقسم به فقال : ﴿ والتين والزيتون ﴾ (٥) يدل على فضله المكنون . وقال **عنه** : « الشام صفوة الله من بلاده ، يسوق إليها خيرته من عباده » وأن الصحابة اختاروا المقام بالشام وفتح

(١) الآيات الأربعة فى ديوانه ص ١٨٢ .

(٢) محمد بن حسن بن سباع بن أبى بكر المعروف بابن الصائغ ، مصرى الأصل ، دمشقى المولد والوفاء ، توفى سنة ٧٢٠ هـ . النجوم الزاهرة ٢٤٨/٩ ، فوات الوفيات ٢٣٨/٢ ، الدرر الكامنة ٤١٩/٣ .

(٣) البيتان لصلاح الدين الصفدى . انظر : تاريخ مصر لابن لياس ٨/١ .

(٤) ورد الكتاب فى مرآة الزمان ٢٨١/٨ ، الروضتين ٥٩/٢ .

(٥) سورة التين : الآية ١ .

دمشق بكر الإسلام ، وما يُنكر أن الله ذكر مصر ، ولكن على لسان فرعون بقوله : ﴿ أليس لي ملك مصر ﴾^(١) ألا ترى أن يوسف نقل منها إلى الشام ، والمقام بالشام أقرب للرباط وأوجب للنشاط . وأين قطوم المقطم من سناء سنين ، وأين دار ابن منيف من ذروة الشرف المبين ، وأين لبانة لبنان من الهرمين ، وهل هما إلا مثل السلعتين ، وهل للنيل من طول نيله وطول ذيله ، برد بردى في نقع الغليل ، وما لذاك الكثير (من طلاوة هذا القليل ، لو كان لهم مثل بانياس لما احتاجوا إلى قياس المقياس ، ونحن لا نجفرو الوطن كما جفاه ، ولا نأبى فضله كما أباه ، وحب الوطن من الإيمان (٢٩ ب) ونحن لا ننكر أن إقليم مصر إقليم عظيم الشأن ، ولكن نقول كما قال المجلس الفاضلي : إن دمشق تصلح أن تكون بستاناً لمصر ، ولا شك أن أحسن ما في البلاد البستان ، لعل زين الدين رجع إلى الحق ، ووافقني على ما هو الأحق . نقلت هذا الفصل من نسخة سقيمة .

وفيهما سار السلطان إلى الكرك في ربيع الآخر ، وانفذ العساكر ، وحصر الكرك ، وضيق عليه ، وملك رُبضها ، وبقي الحصن ، وله خندق عظيم ، عمقه ستون ذراعاً ، وطلب طمه فلم يقدر لكثرة المقاتلة ، فلما عجز الفرخ أرسلوا يستمدون الملك ، فجمع فارسهم وراجلهم ، فلما بلغ السلطان رحل عن الكرك إلى طريقهم ، فقرب منهم ، لم يمكنه الدنو لعورة الأرض ، وانتظر خروجهم فلم يخرجوا ، فرحل إلى بانياس^(٢) فأحرقها ، وقتل وأسر ونهب ، ثم سار إلى سبسطية^(٣) ، وبها مشهد زكريا ، بها الأقساء والرهبان ، وعندهم الودائع ، فطلبوا الأمان ، وأن يطلقوا ما عندهم من الأسرى ، فأمنهم وسلك الغور ، وعاد إلى دمشق .

(١) سورة الزخرف : الآية ٤٣ .

(٢) بانياس : بلدة قرب دمشق : مراصد الإطلاع ١٥٨/١ .

(٣) سبسطية : بلدة من نواحي فلسطين بها قبر زكريا ويحيى بن زكريا : معجم البلدان ١٨٤/٣ .

سنة إحدى وثمانين

ذكر حصار الموصل ، وهو الحصار الثاني ، وأخذ ميفارقين : قطع السلطان الفرات ، ووصل حران سادس عشرين صفر ، وسار فوصل الموصل وضايقها ، وخرج إليه أهلها أجمعون فقاتلوه وظهروا عليه ، وكانوا يخرجون إليه عرأة ، وجاءه الملوك ، فبينما هو في الحصار ، جاء الخبر بوفاة شاه أرمن صاحب خلاط ، وكتب مقدموها يطلبونه ، فشاور الأمر ، فأشاروا عليه بقصدها ، فسار ونزل ميفارقين^(١) وكان بها برنقش^(٢) فامتنع ، وقال : وصى الأيتام ، والأمر إلى والدتهم ، فأرسل السلطان يطمعها أن يتزوجها ويزوج ابنه بنتها ، فسلمت إليه في سلخ جمادى الأولى ، فأعطاها الهتاج وأعطى برنقش جبل جور^(٣) وأعطى زوجه شاه أرمن قلعة هفتاج ، وكان الحكم على خلاط للوزير مجد الدين بن الموفق ، وهو الذى كاتب السلطان فبعث السلطان إليه الفقيه عيسى ليكشف له الحال ، فغالطه الوزير ، وقال إن زوجة صاحبها بنت البهلوان^(٤) ، وربما جاء البهلوان ، وإن المصلحة إبقاء المودة ، فرجع السلطان إلى قصد الموصل ، فجاءته رسل صاحبها يسأل الصلح ، وكان السلطان بالإسماعيلات ، وقيل : كفر زمان ، وكان (قد) عزم على أن يشتى بذلك المكان ، وأقطع جميع بلاد الموصل ، وأخذ غلالها أيضاً (١٣٠) وخرجت النساء الأتابكيات يشفن ، ومعهن والدة عز الدين صاحب الموصل ، وابنة عمه نور الدين الشهيد ، فاكرمهن ووعدهن ، وقيل : إن بعثن كان فى الحصار الثانى ، واستقبح الناس ردهن ، ولا سيما وفيهن بنت نور الدين ، ثم ترددت الرسل فى الصلح على أن يسلم صاحب الموصل

(١) ميفارقين : أشهر مدينة بديار بكر : معجم البلدان ٢٣٥/٥ .

(٢) برنقش : مجاهد الدين برنقش بن طلحان غازى ، كان مملوكاً لعماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى صاحب سنجار والخابور والرقه ، توفى سنة ٥٩٤ هـ . أبو الفداء ٩٣/٣ .

(٣) جبل جور : كورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية . معجم البلدان ١٠٢/٢ .

(٤) البهلوان : هو محمد بن أيلدكز الأتابك صاحب أذربيجان ، وكان يلقب بالبهلوان ، توفى سنة ٥٨١ هـ . النجوم الزاهرة ١٠٠/٦ .

شهرزور^(١) وأعمالها ، وولاية القرابلس ، وما وراء الزاب ، وأن يُخطب للسلطان على المنابر ، وقيل : إن الرسول لحقه بذلك على حران ، وهذا الكلام يدل على أن السلطان لم يحاصر الموصل ثالثاً . وذكر ابن شداد : أنه حاصرها ، وأقام عليها شعبان ورمضان ، وكان السلطان قد لازم قراءة القرآن في رمضان ، واشتد الحر ، وندم على رد النساء ، فمرض مرضاً شديداً ، فتناثر شعر رأسه ولحيته ، وقيل : إنه سقى وأرجف بموته ، وأقام على نصيبين ميثوساً منه ، ثم تماثل ، فحمل في محفة^(٢) إلى حران ، ونزل ظاهرها ، فعوفى وبني داراً سماها دار العافية ، وقيل : بل شدة مرضه كان بحران ، وكان عنده ولده العزيز ، وأخوه العادل ، فحلف الناس لأولاده ، وقسم البلاد بينهم ، وجعل أخاه وصياً ، وقيل : قسمها في السنة الآتية وذلك برأى الفاضل .

سنة اثنتين وثمانين

فيها قطع السلطان الفرات ، ووصل إلى حلب ، وخرج يريد دمشق ، فوصلها في المحرم ، وأطلق المكوس والضمانات ، وفيها سير يستدعى ابن أخيه تقي الدين من مصر ، وذلك أنه كان نائباً بها ، ومعه الأفضل ولد السلطان ، فأرسل تقي الدين يشتكى من الأفضل أنه ما يمكنني من استخراج المال ، فإنني إذا أحضرت من عليه الخراج وأردت عقوبته يطلقه ، فأخرج السلطان ولده الأفضل من مصر وأقطعه دمشق ، وتغير في الباطن على تقي الدين ، وظن أنه إنما أخرج ولده ليستولي على مصر ، إذا مات السلطان .

وأشار بعض الأمراء على السلطان بإخراجه من مصر ، ف وقعت هذه الإشارة من نفسه موقعاً . وفيها استدعى أخاه العادل من حلب ، فخرج جريدة ليلة السبت رابع عشرين ربيع الأول ، وفاوضه في أمور وأوصى ولده الظاهر أن يلتزم من عمه حلب ، فسأله ، فأجابه إلى ذلك ، والسبب في ذلك أن الأمير علم الدين سليمان بن جندر قال للسلطان ، وكان

(١) شهرزور : كورة واسعة بين أربيل وهمدان . معجم البلدان ٣/٢٧٥ .

(٢) المحفة : سرير يحمل عليه المريض أو المسافر .

بينهما موآنة قبل الملك ، وقد سايره يوماً ، وكان من أمراء حلب ، والعاذل لا ينصفه ، وكان السلطان قد مرض على حصار الموصل (٣٠ ب) وأوصى أخاه ، فقال: بأى رأى كنت تظن أن وصيتك تمضى ! كأنك كنت خارجاً إلى صيد ، وتعود فلا يخالفوك ! أما تستحى أن يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة ! قال (صلاح الدين) وكيف ذلك ؟ وهو يضحك ، قال : إذا أراد الطائر أن يعمل عشاً لفراخه قصد إلى أعالي الشجر ليحمى فراخه ، وأنت سلمت الحصون إلى أهلك ، وجعلت أولادك على الأرض ، هذه حلب - وهى أم البلاد - بيد أخيك وحماة بيد ابن أخيك ، وحمص بيد (ابن عمك) أسد الدين ، وابنك الأفضل مع تقى الدين بمصر يخرجه متى شاء ، وابنك الآخر مع أخيك فى خيمة يفعل به ما أراد ، فقال له (صلاح الدين) : صدقت ، واكتم الخبر ثم استدعى أخاه ، وأخذ منه حلب لولده الظاهر ، فسار الظاهر ودخل قلعتها يوم السبت ، وقيل : إنه دخل فى مثل يوم وفاته ، وأرسل يستدعى تقى الدين كما قدمنا ، فقيل : إنه توقف عن الحضور ، وأراد أن يلحق بمملوكه قراقوش المستولى على برقة^(١) فبلغ السلطان ذلك ، فأرسل يستعطفه ، فحضر إليه فزاده على حماة منبج وميارفارقين وجبل جور ، وقلد ولده العزيز مصر ، وجعل العادل أتابكه ، وعوضه عن حلب حران والرها . قال العادل : فلما استقر الأمر جلست بين العزيز والظاهر ، وقلت للعزيز : اعلم يا مولانا أن السلطان أمرنى أن أسير فى خدمتك إلى مصر ، وأنا أعلم أن المفسدين كثير ، ولا يخلو أن يقال لك عنى ما لا يجوز ، ويخوفوك منى ، فإن كان لك عزم أن تسمع منهم فقل لى حتى لا أجيء ، فقال : كيف يتهاى لى أن أسمع منهم وأرجع إلى رأيهم ، والتفت إلى الظاهر وقلت : أنا أعرف أن أخاك ربما سمع فى أقوال المفسدين وأنا فما لى إلا أنت ، فذكر لى كل خير .

وفىها غدر البرنس صاحب الكرك ، وقطع الطريق على قافلة جاءت من مصر ، فيها

(١) برقة : اسم صُقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية . معجم البلدان ١/٣٨٨ .

خلق وأموال ، فأرسل السلطان يطلب منه ذلك بحكم الهدنة فلم يفعل ، فنذر السلطان إن ظفر به أن يقتله بيده .

وفيهما قال الدوادار : حضر القمص صاحب طرابلس إلى السلطان واتفق معه أن يفتح له جميع الساحل ، فأطلق له جميع الأسرى ، وجرّد معه عسكرياً ، وفتح الطريق من مصر إلى الشام ، ثم إنه نافق وأخذ قافلة ودخل بلاد الفرنج ، فحلف السلطان إن ظفر به أن يقتله بيده ، وكان ذلك سبب فتوح الساحل ، وهذا ما اشتبه على الدوادار على عادته ، والغادر إنما هو البرنس (٣١ أ) .

سنة ثلاث وثمانين

ذكر وقعة حطين المباركة على المسلمين : خرج السلطان من دمشق غرة المحرم ، فترك بصرى يرتقب وصول الحاج ، وكانت معهم أخته ست الشام ، وابنها محمد بن لاجين ، وكان بلغه أن البرنس يرتقب وصولهم فوصل الحاج أواخر المحرم ، فسار إلى الكرك ، فقطع الأشجار ، ورعى الزرع ، وكذلك فعل بالشوبك ، وقام ينتظر عسكر مصر ، وكان عند مسيره إلى الكرك قد أمر ولده الأفضل أن ينزل على رأس الماء ، ينتظر باقى العسكر الشرقى ، فأرسل الأفضل طائفة أغار بهم على طبرية ، وقيل : عكا ، فأسروا وغنموا شيئاً كثيراً ، واجتمع السلطان بولده الأقبوانة^(١) وكان بلغه أن العدو اجتمع فى عدة كبيرة بمرج صفورية^(٢) عندما بلغه اجتماع العساكر الإسلامية ، فسار السلطان ونزل على بحيرة طبرية ، ينتظر قصد الفرنج له ، فلم يتحركوا ، وعرض السلطان العسكر فكان اثني عشرة ألف فارس ، وأما الرجالة فيقال : إنهم كانوا ثمانين ألفاً ، فلما رأهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية ، وترك الأطلاب مقابل العدو ، وحصر مدينتها ، وأخذها لوقته بالسيف ، وكانت لصاحب

(١) الأقبوانة : موضع بالأردن على ساحل بحيرة طبرية . معجم البلدان ٢٣٤/١ .

(٢) مرج صفورية : كورة وبلدة من نواحي الأردن قرب طبرية . معجم البلدان ٤١٤/٣ .

طرابلس ، وكان ينتمى إلى السلطان ، فأرسل البطرك والفرنج توبخوند فعاد إلى عداوته ، وبقيت القلعة محتمية ، ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية ، قلقوا ورحلوا نحوها ، فبلغ ذلك السلطان فترك على القلعة من يحاصرها ولحق بالمسكر ، والتقى بالعدو على سطح جبل طبرية الغربى ، يوم الخميس ثانى عشرين ربيع الآخر ، وحال الليل بين العسكرين ، فباتا على مصاف إلى يوم الجمعة ، وكان السلطان يقصد لقاء العدو يوم الجمعة ، تبركاً بأدعية المسلمين ، فتصادموا ، والتحم القتال ، وذلك بأرض قرية تُعرف بلوييا^(١) فلما يبق إلا الظفر ووقوع الخذلان على من كفر ، (و) حال الليل بينهما أيضاً ، وكان يوماً حاراً ، واضطرم الغور عليهم ، واشعل المسلمون النيران ، فأيقنوا بالويل والشبور ، وأحست أنفسهم أنهم فى غد يومهم من زوار القبور ، فلما كان يوم السبت قاتلوا إلى الظهر ، ثم صعّدوا إلى تل حطين^(٢) ، والنار تضطرم عليهم ، فهلكوا وتساقتوا ، وكان القومص^(٣) معهم ، فحمل وفتح له السلطان درياً فصعد إلى صنف واحتاط المسلمون بالفرنج من كل جانب ، وفوق إليهم السهام الصوائب ، وسطوا فيهم أيدي السيوف القواضب ، فاستسلموا ، وأسر من الملوك جفرى وأخوه كابى ، وصاحب الكرك (٣١ب) وابن الهنفرى وأخوه ، وصاحب جبيل وبيروت وصيداً ، وابن صاحب طبرية ، ومقدم الداوية^(٤) ومقدم الأستار^(٥) قال

(١) لوييا : أرض بالقرب من طبرية . مفرج الكروب ٨٩/٢ .

(٢) حطين : قرية بين أرسوف وقيسارية . معجم البلدان ٢٧٣/٢ .

(٣) القومص : تعريب حرفى للفظة اللاتينية (Comes) أى : الأمير ومعناها الأصلية فى اللاتينية « الرقيق » لأنه كان فى بادئ الأمر يرافق الملك فى حروبه وتنقلاته ، ثم سُمى بالأمير . مفرج الكروب ٧٣/١ ، هامش ١ .

(٤) الداوية : قوم من الفرنج يحبسون أنفسهم لجهاد المسلمين ، ويمنعون أنفسهم عن النكاح وغيره ، ينسبون إلى حصن بنواحي الشام . معجم البلدان ٢٦٤/٢ .

(٥) الأستار : جماعة من فرسان الصليبيين حبسوا أنفسهم على حروب المسلمين . الروضتين ٤٢١/١ ، هامش ٢ .

بعضهم : رأيت مع شخص واحد بحوران^(١) نيفاً وثلاثين أسيراً ، فقد ربطتهم في طناب خيمة ، لما وقع لهم الخذلان ، ووصل القومص الذي هرب إلى طرابلس فمات غماً ، وقيل : بذات الجنب ، وقيل : من الجراح ، وقيل : بل سمته امرأته . وجيء بالملوك الأسرى إلى السلطان ، ومعهم صليب الصليبوت^(٢) وهو مرصع بالجواهر والياقوت ، في غلاف من ذهب ، وهو عند النصارى مثل المسيح ، فلما رأهم نزل وسجد شكراً ، وجاء إلى خيمته واستدعاهم ، وجلس وأجلس الملك عن يمينه ، وصاحب الكرك إلى جانبه ، ونظر فرأى الملك يلهث عطشاً ، فأمر له بقدر من ماء ثلج فشربه ، وسقى صاحب الكرك ، فقال السلطان : ما أذنت لك ، ثم أرسلهم إلى بعض الخيم فأكلوا شيئاً ثم عادوا بهم ، وأوقف صاحب الكرك بين يديه ، وشرع يعدد عليه ذنوبه ، ثم عرض عليه الإسلام ، فلم يفعل ، فضربه بالسيف حل كتفه . وكان (قد) نذر إن وقع له أن يقتله بيده ، وكان (قد) وقع في حق الجناب الرفيع المحمدي ، وقال له : ها أنا انتصر لمحمد ، وتمم الممالك قتله ، وقطعوا رأسه ، وأطعموا جثته الكلاب ، فلما رآه الملك جفري خاف وطار عقله ، فقال له السلطان : لم تجر عادة الملوك أن تقتل الملوك ، ولكن هذا غدار كذاب . وعرض الإسلام عليهم فمن أسلم استبقاه ، ومن لم يسلم قتله ، فقتل خلقاً كثيراً ، منهم المقدمان ، وأرسل باقى الملوك مع القاضى ابن أبى عصرون^(٣) إلى دمشق ، فدخل والصليب منكس بين يديه ، والأسرى فحبسهم بالقلعة ، وبيع الأسرى بأبخس الأثمان ، حتى إن بعض الفقراء

(١) حوران : كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة . معجم البلدان ٣١٧/٢ .

(٢) صليب الصليبوت : قطعة من الخشب يعتقد المسيحيون أن المسيح عليه السلام صلب عليها . مفرج الكروب ١٨٩/٢ .

(٣) هو عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن على ، القاضى شرف الدين ابن أبى عصرون ، كان إماماً مصنفاً ، اقتضى به السلطان صلاح الدين وضر قبل وفاته بعشر سنين ، وتوفى سنة ٥٨٥ هـ . النجوم الزاهرة ١٠٩/٦ .

اشترى أسيراً بنعل ، فعتب السلطان ، فقال : أردت هوانهم . وعاد السلطان إلى قلعة طبرية ، فتسلمها يوم الأحد خامس عشرين ربيع الآخر وأمن صاحبها زوجة القومصر ، وكانت هذه الواقعة سبباً لفتح الساحل وهلاك دين النصرانية .

ذكر فتح عكا والمجدل ويافا

سار السلطان بعد فتح طبرية ، فنازل عكا ، يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر ، وليس بها من يحميها ، وكان بها ثلاثون ألفاً ، فطلبوا الأمان على نفوسهم ، وما يقدرون على حمله ، فأمنهم ، ودخلها يوم الجمعة ، عاشر جمادى الأولى ، وكان بها من أسرى المسلمين أربعة آلاف فاستنقذهم ، وجعل الكنيسة جامعاً ، وأعطى الخطابة عبد اللطيف بن أبي النجيب السهروردي^(١) وأعطى (٣٢ أ) البلد ولده الأفضل ، وغنم أموالاً لا تحصى ، لأنها كانت مظنة التجار . وقال : من ركز رمحه على دار فهي له بما فيها . وأعطى الفقيه عيسى ما تحصن الداوية^(٢) ولم يحضر العادل هذا الفتح لأنه كان بمصر . فجاء وفتح في طريقه مجدل^(٣) ويافا ، ثم مضى العادل إلى مصر ، ولما عاد العزيز اجتمع بوالده .

وكتب العماد إلى بغداد كتاباً^(٤) أوله : ﴿ ولقد كتبنا في الزيود من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾^(٥) والحمد لله على إنجاز الوعد ، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف ، من قبل ومن بعد ، وجعل بعد عسر يسرا وأحدث بعد أمر أمراً ، وهون الأمر

(١) عبد اللطيف هو ابن الشيخ العلامة أبو النجيب بن عبد الله السهروردي المتوفى سنة ٥٦٣ هـ . النجوم الزاهرة ٢٨٠/٥ .

(٢) حصن الداوية : حصن حصين بنواحي الشام بين الرقة ونواحي حلب . معجم البلدان ٢٦٤/٢ .

(٣) مجدل : بلد طيب بالخابور إلى جانبه تل عليه قصر . معجم البلدان ٥٦/٥ .

(٤) ورد هذا الكتاب في الروضتين ٨٩/٢ ، كنز الدرر ٩٥ ، صبح الأعشى ٥١٧/٦ .

(٥) سورة الأنبياء : الآية ١٠٥ .

الذى ما كان الإسلام يستطيع عليه صبراً ، وخوطف الدين بقوله : ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى ﴾ فالأولى فى عصر النبى والصحابة ، والأخرى فى هذه الدولة ، التى عتق فيها من رق الكآبة ، والزمان كهيته قد استدار ، والحق بيهجته قد استنار ، والكفر قد رد ما عنده من السفر .

والخادم بشرح هذا الفتح العظيم ، والنصر الكريم ، ما بشرح صدر المؤمنين ، وسود وجوه الكافرين ، ويورد من البشرى ما أنعم الله به فى يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر (إلى يوم الخميس منسلخه) وتلك ﴿ سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً ﴾ (١) عدموا فيها نفوساً وجسوماً ، فأصبحوا وقد هوروا فى الهاربة ﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ (٢) وأصبحت البلاد إلى الإسلام ضاحكة ، وكانت بالكفر باكية ، وفى يوم الخميس فتحت طبرية ويوم الجمعة والسبت كانت الكسرة التى ما أبقت منهم باقية ، لا يقوم لهم بعدها قائمة ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ﴾ (٣) وفى يوم الخميس سلخ الشهر، فتحت عكا بالأمان ، ورفعت بها أعلام الإيمان ، وهى أم البلاد ، وأخذت إرم ذات العماد . وصليب الصليبوت عندنا بأسور ، وقلب (ملك) الكفر لجيشه المنكسر مكسور ، وأنصار الصليب وأعوانه قد أحاطت بهم يد القبضة ، وغلق رهنه فلا تقبل فيه القناطر المقنطرة من الذهب والفضة . وطبرية قد رفعت أعلام الاسلام عليها . ونكصت من عكا (ملة) الكفر على عقبيها ، وعمرت حتى شهدت يوم الاسلام ، وهو خير يوميها وصارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر ، وصارت المفاخ مواقف لخطباء المنابر .

ومنه : وما يتأخر النهوض إلى البيت المقدس ، وهذا أوان فتحه وقد دام عليه ظلام الضلال ، وقد آن أن يسفر عن صبحه رمز السلام (٣٢ ب) .

(١) سورة الحاقة : الآية ٧ .

(٢) سورة الحاقة : الآية ٧ .

(٣) سورة هود : الآية ١٠٢ .

ذكر ما فتح من البلاد بعد عكا

وتفرقت العساكر في البلاد ، بأخذون الحصون والقلاع ، فأخذوا حيفا^(١) وقيسارية^(٢) وصفورية ، والناصرية^(٣) ومعليا^(٤) والفولة^(٥) وغيرها وسارت فرقة إلى نابلس ، ففتحوا قلعتها بالأمان ، ثم سار السلطان إلى جنين فنزل عليها يوم الأحد ، حادى عشر جمادى الأولى ، وهى قلعة منيعة ، فنصب عليها المجانيق ، وكان بها الأبطال ، فقاتلوا قتالاً شديداً ، وتسلمها يوم الأحد ، ثامن عشرة عنوة ، وقيل : إنه أخذها بالأمان ، ثم رحل فنزل على صيدا ، وتسلمها في غد يوم نزوله ، وهو يوم الأربعاء ، عشرين الشهر وقيل : إن صاحبها أخلاها ، ثم سار إلى بيروت ، فنازلها ليلة الخميس ، ثانى عشره ، وركب عليها المجانيق ، وداوم القتال عليهما ، حتى أخذها يوم الخميس ، تاسع عشرين . وكان صاحب جبيل من جملة الأسرى ، فبذلها فى أن يطلق ، فأجيب إلى ذلك ، وكان من أعظم الفرغ وأشدهم عداوة للمسلمين ، ولم تكن عاقبة إطلاقه حميدة . وأرسل السلطان فتسلم جبيل وأطلقه ، ولما فرغ من هذا الجانب رأى قصد عسقلان ، ولم ير الاشتغال بصور^(٦) بعد أن نزل عليها ، ثم رأى أن العسكر قد ذهب فى الساحل وذهب كل واحد يحصل لنفسه ، وكانوا قد ضرسوا من ملازمة القتال ، فرأى أن عسقلان أيسر من صور ، فأتى عسقلان ، ونزل عليه يوم الأحد ، سادس عشر جمادى الآخرة وتسلم فى طريقه مواضع كثيرة ، كالرملة

(١) حيفا : حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا . معجم البلدان ٣٣٢/٢ .

(٢) قيسارية : بلد على ساحل بحر الشام بعد فى أعمال فلسطين معجم البلدان ٤٢١/٤ .

(٣) الناصرة : قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً . معجم البلدان ٢٥١/٥ .

(٤) معليا : من نواحي الأردن . معجم البلدان ١٥٨/٥ .

(٥) الفولة : بلدة بفلسطين من نواحي الشام . معجم البلدان ٢٨٠/٤ .

(٦) صور : مدينة مشهورة مشرفة على بحر الشام . معجم البلدان ٤٣٣/٣ .

والداروم^(١) ونصب على عسقلاني المجانيق ، وقتلها قتالاً شديداً ، وتسلمها يوم السبت سلخ الشهر ، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة ، وبيت جبريل^(٢) ، وبيت الخليل^(٣) عليهما السلام ، والنظرون^(٤) بغير قتال ، وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة . وقال الدوادار : خمس وأربعون . وفوض القضاء والخطابة إلى جمال الدين عبد الله بن عمر قاضي اليمن . وتسلم السلطان هذه الأماكن في أربعين يوماً ، آخرها ثامن رجب .

وكتب القاضي الفاضل من مصر يهنئ بفتح عسقلان المملوك يقبل الأرض ويهنئ مولانا بفتح عسقلان ، عروس الشام . فيما ورد الخبر المسند عن النبي عليه السلام ، ودار الاسلام القرية العهد ، فلو استطاعت لقات : أهلاً وسهلاً بالإسلام ، ولو اتصل الإسلام بلسان ناطق لقال فيها كما قيل في سمي (٣٣ أ) مولانا : ﴿ يا بشرى هذا غلام ﴾^(٥) ، ومع أن مولانا - عز نصره - أوردتها النار ، لأنها كانت تصون أهل النار ، ورجمها بالمنجنيقات حد الزاني ، كأنها كانت عصمة الكفار ، وما بقى المملوك يرتاب في أن بين مولانا وبين مدن الفرنج أمارة ، فلذلك إذا رأت وجهه خرت بين يديه ساجدة ، وألقت ما فيها ، وتخلت في واحدة .

ومنه : وكان المملوك بأعلام المولى - أعز الله نصره - وقد طلعت في هاجرة الحرب على القدس بأصيلها ، وكأنه النواقيس المرغمة لأنوف المسلمين وقد أخرجتها سيوفه بصليلها ، والمملوك قد سمع يخبر عسقلان طائحاً ، ولم يقف عليه من كتاب من مولانا

(١) الداروم : ويقال لها الدارون ، وهي بعد غزة للقاصد إلى مصر . معجم البلدان ٤٢٤/٢ .

(٢) بيت جبريل : بليدة بين بيت المقدس وغزة . معجم البلدان ٥١٩/١ .

(٣) بيت الخليل : اسم موضع بقرب البيت المقدس فيه قبر الخليل إبراهيم عليه السلام . معجم البلدان

. ٣٨٧/٢

(٤) النظرون : موضع بالشام قرب دمشق . معجم البلدان ٤٢/٥ .

(٥) سورة يوسف : الآية ١٩ .

يكون مشروحاً شارحاً ، وقد ضيق عوائد الانعام صدره ، وتغير على رسم ما كان يخشى عليه دهرة .

وقال ابن الساعى^(١) يمدح السلطان ويذكر ما فتحه ، ويحث بها من مصر أيضاً ، وهي (٢) :

فقد قرت عيون المؤمنين
غداً صرف القضاء بها سنينا
يعز على العوالي أن يهونا

جئت عزماتك الفتح المبينا
رددت أخبذة الإسلام لما
وهان بك الصليب وكان قدماً

ومنها :

وفي جيد العلاء ثميناً
ترفع عن أكف اللامسينا
يرد الليث أن يرد العرينا
فكان نتاجها الحرب الزبونا
وغاية كل قاس أن يلينا

وصرت بوجنة الأيام خالاً
وما طبرية إلا هدى
فضضت ختامها قسراً ومن ذا
لقد أنكحتها سمر العوالي
فست حتى رأت كفاً فلانت

ومنها :

وترضى عنك مكة والحجون
لنادتك : ادخلوها آميناً

تهز معاطف القدس ابتهاجاً
قلو أن الجهاد يطرق نطقاً

ومنها :

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد بن رستم المعروف بابن الساعى ، المتوفى في القاهرة سنة ٦٠٤ هـ .
القصون اليانعة ص ١١٨ .

(٢) وردت في ديوانه ٤٠٦/٢ ، الروضتين ٨٤/٢ ، مفرج الكروب ١٩٨/٢ .

وفي صفة أتوك مُصدينا
كان صروفها كانت كمينا

ففي بيسان ذاقوا منك بوساً
لقد جاءتهم الأحداث جمعاً

ومنها :

يُحدث عن سناه طور سينا
نجوم ملوكها لك مذنونا (٣٣ب)
له هوت الكواكب ساجدنا
كما فضل العبير الراسمينا
فليس بضيق أجر المؤمنينا

وقد جردت عزماً ناصرباً
وأذعن كوكب لما تهادت
فكنت كـيوسف الصديق لما
لقد فضلت قوافيك القوافي
فاحسن واثقاً بالله صنماً

ذكر فتوح القدس الشريف

لما فتح الأماكن المحيطة بالقدس ، شمر عن ساق الجد في قصد القدس الشريف ، واجتمعت إليه العساكر المتفرقة ، فسار نحوه عملاً بقوله عليه السلام : « من فتح له باب خير فلينتهزه ، فإنه لا يعلم متى يغلق دونه » . ونزل عليه يوم الأحد خامس عشر رجب وكان المنجمون قد قالوا له تفتح القدس ، وتذهب عينك الواحدة ، فقال : رضيت أن أفتحه وأعمى فنزل بالجانب الغربي ، وكان مشحوناً بالمقاتلة ، ثم انتقل إلى شماله ، من باب العمود إلى برج الزاوية ، ومن هذا المكان أخذ الفرنج . وكان بالقدس ما يزيد على ستين ألفاً ، غير النساء والصبيان ، ونصب المجانيق ، وتعلق النقابون ، وقاتل الفرنج قتالاً شديداً ، فلما رأوا أن المسلمين ظهروا عليهم سقط في أيديهم ، وطلبوا الأمان ، واستقر الأمر أن يخرجوا بأموالهم ، سوى الخيل الحربية والسلاح وأن يؤدي كل واحد عشرة دنانير ، وقيل : عشرين وعن المرأة خمسة ، وعن الصبي أربعة ، وعن الطفل ديناراً ، وقيل : بل عن الأمة والطفل دينارين ، وقيل : بل استقر الحال على مائتي ألف وعشرين ألف دينار، وأن

(١) قمامة : هي كنيسة بيت المقدس ، يقولون إن بها قبر المسيح عليه السلام . معجم البلدان ٣٩٦/٤ .

تكون المهلة أربعين يوماً ، وأن تقر بأيديه قمامة^(١) وأماكن يزورونها ، ومن عجز أخذ رقيقاً ،
ومن أقام أخذت منه الجزية . وسلموا البلد يوم الجمعة سابع عشرين رجب ليلة المعراج ،
وهذا من الاتفاق العجيب ، وكان استيلاؤهم عليه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، فكانت
المدة اثنتين وتسعين سنة ، وكان فتحاً عظيماً شهده من أهل العلم وأرباب الخرق خلق عظيم
، بحيث لم يتخلف معروف من الصلحاء والعلماء ، وارتفعت الأصوات بالدعاء والتهليل ،
ودخل السلطان الصخرة ، وغسلها بالماء ورد . وقال بعضهم : غسلها بلحيته ، وهو يركى ،
ومحا الصور منها ، وكسر الصليبان ، وخرّب الداوية ، وعمر المسجد الأقصى ، وفرق ما أخذ
من الفرج ، وكان نيفاً وثلاثمائة ألف دينار ، على العلماء والصوفية ، وكان معه زهاء عشرة
آلاف عمامة ، وخلص (٣٤٤ أ) من الأسر ثلاثة آلاف أسير . وانتقل معظم الفرج إلى صور
وكان اجتماعهم سبباً لأخذهم البلاد فيما بعد . وبقي منهم خمسة عشر ألفاً لم يقدموا بما
عليهم ، فملكهم المسلمون ، ومنهم سبعة آلاف رجل ثمانية آلاف امرأة ، وذلك بعد أن
بذل ملكهم عن الفقراء ستين ألف دينار ، وكان أصحاب السلطان يخرجونهم في زى الجند
ويأخذون منهم شيئاً يسيراً في الخفية ، وبعض الأمراء يستهوب جماعة ، وبعد ذلك أسر ما
أسر . وقيل : إن المأسورين كانوا ستة آلاف ، وكان على رأس قبة الصخرة صليب عظيم من
الذهب ، فتسلق المسلمون وقلعوه ، والفرنج تنظر ، فصاح المسلمون والفرنج صيحة عظيمة
كادت الأرض أن تميد ، وكانوا (قد) عملوا في غربي الأقصى مستراحاً ، فأمر السلطان
بإزالته ، وكان نور الدين الشهيد قد عمل منبراً بحلب ، وتعب عليه مدة ، وقال : هذا
لأجل القدس ، فأرسل السلطان وجاء به من حلب ، وجعله في الجامع الأقصى . وكان
السلطان يرى فتح القدس بالسيف ، وكان به باليان بن بارزان صاحب الرملة ، فاجتمع
بالسلطان بعد أن طلب الحضور ، وقال له : أيها الملك إننا في هذه المدينة أم لا نحصى ،
وما فترت نياتنا عن القتال ، إلا رجاء في الإيمان ، وكراهية الموت ، فإذا علمنا أن الموت لا
يد منه ، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ودوابنا ، ونحرق جميع أموالنا ، ونخرب الصخرة
والأقصى ، ثم نقتل الأسرى ، وهم ستة آلاف أسير ، ثم نقاتلكم قتال من يحمي دمه ، فلا

يُقتل منا رجل حتى نقتل أمثاله ، ونموت أعزاء ، ولا نموت أذلاء ، فاستشار أصحابه ، فقالوا : نحسب أنهم أسرى بأيدينا ، فنبيعهم نفوسهم فرجع السلطان إلى ذلك . وخطب بالقدس يوم فتحه ، قيل : بل ثاني جمعة ، وقال الفاضل : رابع شعبان . وتناول جماعة للخطبة ، فذكر السلطان قول ابن الزكي :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتح القدس في رجب

فاستدعاه فخطب به . وقال ابن القادسي : إن السلطان خطب به ، وهو وهم .

نسخة الخطبة^(١) التي خطب بها ابن الزكي في ذلك اليوم : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ﴾^(٢) ﴿ الحمد لله رب العالمين • الرحمن الرحيم • مالك يوم الدين ﴾^(٣) ، ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾^(٤) ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من (٣٤ب) الذل وكبره تكبيراً ﴾^(٥) ، ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً • قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً • ما كثرت فيه أهدأ • وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً • ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾^(٦) ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾^(٧) ، ﴿ الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير • يعلم ما يلج في

(١) وردت في الروضتين ٢١٩/٢ ، وفيات الأعيان ٣٦٤/٣ ، كنز الدرر ٨٧ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٤٥ .

(٣) سورة الفاتحة : الآيات ٢ - ٤ .

(٤) سورة الأنعام : الآية الأولى .

(٥) سورة الإسراء : الآية ١١١ .

(٦) سورة الكهف : الآيات ١ - ٥ .

(٧) سورة النمل : الآية ٥٩ .

الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴿١﴾
الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رُسُلًا ﴿٢﴾ .

الحمد لله معز الدين بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومدبّر النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذى قدر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاض على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع ، والأمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع .

أحمد على إظهاره ، وإعزازة لأولياء الله ونصره لأنصاره ، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، دافع الشرك ، وداحض الإفك ، الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السموات العلى ، إلى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، ما زاغ البصر وما طغى .

صلى الله عليه وعلى خليفته أبى بكر الصديق ، السابق إلى الإيمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصليبان ، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذى النورين جامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، منزل الشوك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان .

يا أيها الناس : أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدوحة العليا لما يسره عليكم من استرداد هذه الضالة ، من الأمة الضالة ، وردها إلى مقرها من الإسلام ، بعد

(١) سورة سبأ : الآيتان ١ ، ٢ .

(٢) سورة فاطر : الآية الأولى .

ابتدائها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذي أذن أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإمالة الشرك عن طريقه ، بعد أن امتد عليه رواقه ، واستقر فيها رسمه ، ورفع قواعده على التوحيد ، فإنه بنى عليه (١٣٥) ، وأنه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه ، وهو موطن أبيكم إبراهيم ، ومعراج نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام ، وهو مقر الانبياء ، ومقصد الأولياء ، ومقر الرسل ، ومهبط الوحي ، ومنزل ينزل فيه الأمر والنهي ، وهو في أرض المحشر ، وصعيد المنشر ، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين ، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذي بعث الله منه عبده ورسوله ، وكلمته التي ألقاها إلى مريم ، وروحه عيسى ، الذي شرفه الله برسالته ، وكرمه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته ، فقال تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ﴾ (١) وقال : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (٢) .

وهو أول القبليتين ، وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تُشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد المواطنين إلا عليه ، لولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم في شرفها مبار ، فطوبى لكم ، من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوحات العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للإسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجازاكم الله عن محمد نبيه أفضل الجزاء وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء ، وأثابكم الجنة ، وهي دار السعداء ، فأقدروا - رحمكم الله - هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله

(١) سورة النساء : الآية ١٧٣ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٧٢ .

تعالى بواجب ذكرها ، فله المنة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح ، الذى فتحت له أبواب السماء ، وسلخت بأنواره وجوه الظلماء وابتهج به الملائكة المقربون ، ومرت به أعين الأنبياء المرسلين ، فماذا له عليكم من النعمة ، بأن جعلكم الجيش الذى يفتح على يديه البيت المقدس فى آخر الزمان ، والجند الذى يقوم بسيوفهم بعد فترة من الرسل أعلام الإيمان فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء ، أليس هو البيت الذى ذكره الله فى كتابه ، ونصر عليه فى خطابه ؟ فقال تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ (١) . أليس هو البيت الذى عظمته الملوك (٣٥ب) وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة (المنزلة) من إلهكم عز وجل ؟ أليس هو البيت الذى أمسك الله عز وجل فيه الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب ؟ أليس هو البيت الذى أمر الله تعالى موسى أن يأمر قومه باستنقاذه ، فلم يجبه إلا رجلاً ، وغضب عليهم لأجله فألقاهم فى التيه ، عقوبة العصيان ؟ .

فاحمدوا الله الذى أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل ، وقد فضلهم على العالمين ، ووقفكم لما خذل عنه من كان قبلكم من الأمم الماضين ، وجمع كلمتكم ، وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان وعن وسوف وحتى . فليهكنم أن الله قد ذكركم (به) فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم جنده ، وشكر لكم الملائكة المنزلون ، على ما أهديتهم إلى هذا البيت : من طيب التوحيد ، ونشر التقديس ، والتمجيد والتحميد ، وما أمطتم عن طرقة من اذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاسد الخبيث ، والآن تستغفر لكم أملاك السموات ، وتصلى عليكم الصلوات المباركات ، واحفظوا - رحمكم الله - هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا نعمة الله عندكم ، بتقوى الله تعالى التى من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعروقها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، وموافقة الردى ،

(١) سورة الإسراء : الآية الأولى .

ورجوع القهقري ، والنكول عن العدا ، وخذوا في انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقي من
 الفضة ، وجهدوا في الله حق جهاده ، وبيعوا - عباد الله - أنفسكم في رضاه ، الذي
 جعلكم من عباده وإياكم أن يستزلكم الشيطان ، وأن يتداخلكم الطغيان ، فيخيل لكم أن هذا
 النصر بسيوفكم الحداد ، ويخيولكم الجياد ، وبجلادكم في موضع الجلال والله ما النصر إلا
 من عند الله ، إن الله عزيز حكيم ، واحذروا - عباد الله - بعد أن شرفكم بهذا الفتح
 الجليل ، والمنع الجزيل ، وحكم بهذا النصر المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقترفوا
 كثيراً من مناهيه ، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه فتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة
 أنكاثاً ، أو كالذى آتينا آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين ، والجهاد
 الجهاد فهو أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم ، فانصروا الله ينصركم ، واذكروا الله
 يذكركم ، واشكروا الله يشركم ، فخذوا في حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء ، وطهروا
 بقية الأرض التى (١٣٦) اغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر ، واجتثوا أصوله ، فقد
 نادت الأيام بالثارات الإسلامية ، والملة المحمدية ، الله اكبر ، فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر
 ، أذل الله من كفر ، واعلموا - رحمكم الله - أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ،
 ومهمة فاخرجوا إليها هممكم وأبرزوها ، وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها ، فالأمور
 بأواخرها ، والمكاسب بذخائرها ، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخدول ، وهو مثلكم أو دون ،
 وكيف وقد أضحى وفى قبالة الواحد منكم عشرون ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إن يكن منكم
 عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ (١) أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره ، والازدجار
 بزواجره ، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن
 يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ﴾ (٢) .

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٥ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٦٠ .

إلى المضاجع ما اطمأنت به جنونها ، والى الصفائح ما غنيت به جيوبها ، وفاز منها بذكر
لا يزال الليل به سميراً ، والنهار به بصيراً ، والشرق يهتدى بأنواره ، بل إن بدا نور من ذاته
هتف به الغرب بأن واره ، فإنه نور لا تكنه أغساق السدف ، وذكر لا توازيه أوراق الصحف .
وكتاب الخادم هذا ، وقد أظفر الله بالعدو الذى تشظت قناته (شفقا) وطارت فرقه
فرقا ، وفل سيفه فصار عصاً ، وصدعت حصاته وكان الأكثر عدداً وحصاً ، وكلت
حملاته وكان قدراً يضرب فيه العنان بالعنان ، وعقوبة من الله ليس لصاحب يديها يدان ،
وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغصت عينه وكانت عيون السيوف دونها كثيفة
ونام جفن (٣٨ أ) سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون ، وجدعت أنوف
رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو زاعقة بالمنون وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت
الطامث ، والرب الفرد الواحد وكان عندهم الثالث ، وبيوت الكفر مهدومة ، ونيوب الشرك
مهتومة ، وطوائفه المحامية ، مجمعة على تسليم القلاع الحامية ، وشجعانه المتوافية ، مذعنة
لبذل القطائع الرافية ، لا يرون فى ماء الحديد لهم عصرة ، ولا فى نار الأكفة لهم نصرة ،
قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبذل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من
أيدى أصحاب المشامة إلى أيدى أصحاب الميمنة .

وقد كان الخادم لقيهم اللقاء الأولى ، فأمده (الله) بمداركته ، وأنجده بملاحتته ،
فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صرعة لا ينتعش بعدها بمشيئة الله كفر ، وأسر
منهم من أسرت به السلاسل ، وقتل منهم من قتلت به المناصل ، وأجلت المعركة عن
صرعى من الخيل والسلاح والكفار ، وعن المصاف يخيل بأنه قتلهم بالسيوف الأفلاق
والرماح الأكسار، قتلوا بشار من السلاح ، ونالوه أيضاً بشار، فكم أهلة سيوف تقارضن
الضراب بها حتى عادت كالعراجين ، وكم أنجم قنا تبادلت الطعام حتى صارت كالمطاعمين ،
وكم فارسية ركض عليه فارسها الشهم إلى أجل فاختلسته ، وفقرت تلك القوس فاها فإذا
قد نهش القرن على بعد المسافة واقتربته .

وكان اليوم مشهوداً ، وكانت الملائكة شهوداً ، وكان الضلال صارخاً ، وكان الإسلام مولوداً ، وكانت (ضلوع) الكفار لنار جهنم وقوداً ، وأسر الملك ويده أوثق وثائقه ، وأكد وصله للدين وعلائقه ، وهو صليب الصليبوت ، وقائد أهل الجبروت ، ما دهموا قط بأمر إلا وقام بين دهماتهم يسط لهم باعه ، وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه ، لا جرم أنهم تهاقت على ناره فراشهم ، ويجتمع على ضل ضلاله خشاشهم ، ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتالٍ وأصدقه ، يرونه ميثاقاً بينون عليه أشد عهد وأوثقه ، ويعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه .

وفي هذا اليوم أسرت سرايتهم ، ودُهبت دهاتهم ، ولم يُفلت منهم معروف إلا القومص ، وكان - لعنه الله - ملياً يوم الظفر بالقتال ، وملياً يوم الخذلان بالاحتتيال ، فنجا ولكن كيف ، وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف ، ثم أخذه الله بعد أيام بيده ، وأهلكه لموعده ، فكان لعدتهم فذلك ، وانتقل من ملك الموت (٣٨ ب) إلى مالك وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغاً ، البيضاء صنغاً ، الخافقة هي وقلوب أعدائها ، الغالبة هي وعزائم أولياتها المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها النشر وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر فافتتح بلد كذا وكذا ، وهذه كلها أمصار ومدن ، وقد تسمى البلاد بلاداً وهي مزارع وفُدن ، وكل هذه ذوات معاقل ومعاقر ، وبحار وجزائر ، وجوامع ومنابر ، وجموع وعساكر ، يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها ، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها ، ويحصد منها كفرةً ويزرع إيماناً ، ويحط من (منابر) جوامعها صلباناً يرفع أذاناً ، يبدل المذابح منابر والكنائس مساجد ، ويؤي أهل القرآن بعد أهل الصليبان للقتال عن دين الله مقاعد ، ويُقر عينه وعين أهل الإسلام أن يعلق النصر منه ومن عسكره بجار ومجرور ، وأن يظفر بكل سور ، ما كان يخاف زلزاله ولا زواله إلى يوم النفخ في الصور .

ولما لم يبق إلا القدس ، وقد اجتمع إليه كل شريد منهم وطريد واعتصم بمنعمته كل قريب منهم وبعيد ، وظنوا أنها من الله مانعهم ، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم ، فلما نزلها الخادم رأى بلداً كبلاد ، وجمعاً كيوم التناد ، وعزائم قد تألبت وتألقت على الموت فنزلت لعرصته ، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته ، فزاول البلد من (كل) جانب ، فإذا أودية عميقة ، ولجج وعرة غريقة ، وسور قد انعطف عطف السوار ، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار ، فعدل إلى جهة أخرى كان للمطالع عليها معرج ، وللخيل فيها متولج ، فنزل عليها واحاط بها ، وقرب منها ، وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ويزاحمه السور باكتافه ، وقابلها ثم قاتلها ونزلها ثم نازلها (وبرز إليها ثم بارزها) وحاجزها ، ثم ناجزها وضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح ، وصدع جمعها فإذا هم لا يبصرون - على عبودية الحد - عن عتق الصلح ، فراسلوه ببذل قطعة إلى مدة . وقصدوا نظرة من شدة وانتظاراً لنجدة ، فعرفهم الخادم في لحن القول ، وأجابهم بلسان الطول ، وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها ، وأوتر لهم قسيها التي ترمى (فلا تفارقها سهامها) ولا يفارق سهامها نصالها فصافحت السور (باكتافه) فإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك ، وقدم النصر نساً من المنجنيق يُخلد إخلاده إلى الأرض ، ويعلو علوه إلى السماء ، فشج مرادع أبراجها (١٣٩) وأسمع صوت عجيجها صم أعلاجها ، ورفع مثار عجاجها ، فأخلى السور من السيارة ، والحرب من النظارة ، وأمكن النقب أن يسفر للحرب النقب ، وأن يُعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب ، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله ، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أنمله ، وأسمع الصخرة الشريفة أئينه واستغاثته ، الى أن كادت ترق لمقتله ، وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن ييرح الأرض ، وفتح من السور باباً سد من نجاتهم أبواباً ، وأخذ يُنقب في حجره ، قال عنده الكافر : ﴿ ياليتنى كنت تراباً ﴾ فحينئذ يش الكفار من أصحاب الدور ، كما يش الكفار من أصحاب القبور ، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور .

وفى الحال خرج طاغية كفرهم ، وزمام أمرهم ، ابن بارزان سائلاً أن يؤخذ البلد بالسلام لا بالعنوة ، وبالأمان لا بالسطوة ، والقى بيده إلى التهلكة ، وعلاه ذل الملكة بعد عز الملكة ، وطرح جنبه إلى الأرض وكان جنباً لا يتعاطاه طارح ، وبذل مبلغاً من القطيعة لا يطمح إليها أمل طامح ، وقال : ههنا أسارى مسلمون يتجاوزون الألوف ، وقد تعاهد الفرنج على أنه إن هجمت عليهم الدار ، وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار ، بدئ بهم فمجلوا ، وثنى بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا ، ثم استقتلوا بعد ذلك ، فلا يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف ولا (يَفك) سيف من يد إلا بعد أن تقطع أو ينتصف ، فأشار الأمراء بالأخذ الميسور، من البلد المأسور ، فإنه لو أخذ حرباً فلا بد أن يقتحم الرجال والأجناد ، ويقال كفوا عنها فى آخر أمر قد نيل من أوله المراد ، وكانت الجراح فى العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفتكات ، وأثقل الحركات ، فقبل منهم المبدول عن يد وهم صاغرون ، وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرين ، وملك الإسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان ، لا جرم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهل الحق وأسخطهم ، فإنهم - خذلهم الله - حموها بالأسل والصفاح ، وبنوها بالعمد والصفاح ، وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديرة والاستبارية منها كل غريبة من الرخام الذى (لا) يطرد ماؤه ، ولا ينطرد لألاؤه ، وقد لطف الحديد فى تجزيعه ، وتفنن فى توشيعه، إلى أن صار الحديد الذى فيه بأس شديد ، كالذهب الذى فيه نعيم عتيد ، فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق وعمداً كالأشجار لها من التثبيت (٣٩ ب) أوراق ، وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود ، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود .

وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان فكادت السموات ينفطرن للسجوم لا للوجوم ، والكواكب منها تنتثر للطرب لا للرجوم ، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد ، وكانت طريقها مسدودة وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة ، وأقيمت الخمس وكان التثليث يُقعدا ، وجهرت الألسن بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها ، وجهر باسم أمير المؤمنين فى

وطنه الأشرف من المنبر ، فرحب به ترحيب من بر بمن بر ، وخفق علماء في حفافيه ، فلو
طار سروراً لطار بجناحيه .

وكتاب الخادم وهو مُحد في استفتاح بقية الثغور ، واستشراح ما ضاق بتمادي الحرب
من الصدور ، فإن قوى العساكر قد استنفدت مواردها ، وأيام الشقاء قد مردت مواردها ،
البلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها ، ونهبت ذخائرها ، وأكلت غلالها ،
فهى بلاد تُرفد ولا تُسترفد ، وتجم ولا تُستنفد ، ينفق عليها ولا ينفق منها ، وتجهز
الأساطيل لبحرها ، وتقام المرباط بساحلها ، ويذاب في عمارة أسوارها ، وممرات معاقلها ،
وكل مشقة بالإضافة إلى نعمة الفتح مُحتملة ، وأطماع الفرنج بعد ذلك غير مُرجئة ولا
معتزلة ، فإن يدعوا دعوة يرجو الخادم من الله أنها لا تُسمع ، ولن يكفوا أيديهم من أطواق
البلاد حتى تُقطع ، وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص ، ولا (بما
(سوى المشافهة تتخلص ، فلذلك نفذ الخادم لساناً شارحاً ، ومبشراً صادقاً ، يطالع بالخبر
على سياقته ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته ، وهو فلان ، والله الموفق .

آخر الرسالة الفاضلية . وعمل ابن الأثير رسالة ، وكذا كل واحد من أرباب صناعة
الانشاء . وللعقاد الكاتب كتاب سماه « الفتح القسى في الفتح القدسى » في مجلدين ،
وله - أعنى العماد - قصيدة في ذلك أولها^(١) :

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفساً
وأسال عنكم عافيات دوارس
أرى حدثان الدهر ينسى حديثه
تزلو الجبال الراسيات وثابت
بكت على مستودعات قلوبكم
وتعتاض من ذكراكم وحشتى أنسا
غدت بلسان الحال ناطقة خرساً
وأما حديث الفدر منكم فلا ينسى
رسيس غرام فى فوادى لكم أرسى ٤٠
كما قد بكت قدماً على صخرها الخنسا

(١) وردت فى الروضتين ١٠١/٢ ، معجم الأدباء ٨٨/٧ .

جعلت على حبي لكم مهجتي حبساً
وأشرف من أضحي وأكرم من أمسى
ويطشته الكبرى وعزته القسما
عدائك جن الأرض فيالفتك لا الانسا
فأنت الذي من دونهم فتح القدس
فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا
فلا بطرماً أبقيت فيها ولا قسا
فأنت الذي صيرت دينارهم فلساً

فلا تحبسوا عنى الجمول فإنى
رأيت صلاح الدين أفضل من غدا
سجيته الحسنى وشيمته الرضا
جنودك أملاك السماء، تظنهم
ولا يستحق القدس غيرك فى الورى
وظهرتهم من رجسهم بدمالهم
وعادات بييت الله أحكام دينه
فدمر على الباقيين واجتث أصلهم

ولابن سناء الملك يهنئ السلطان (١) :

يا منيل الإسلام ما قد تمنى
أو نهنيك إذ تملكتم عدنا ؟
إذ فتحت الشام حصناً فحصناً

ليت شعري بأى فتح تهنا ؟
أنهنيك إذ تملكتم شاماً ؟
قد ملكت الحنان قصراً فقصراً

ء

ذكر قصد السلطان صور:

رحل السلطان عن القدس يوم الجمعة خامس وعشرين شعبان، وحسن عنده قصد صور فوصلها غرة رمضان، وقيل : خامسه ، وسير لاحضار آلات القتال ولما تكاملت عنده نزل عليها فى ثانى عشر الشهر وقابلها وضايقها واستدعى أسطول مصر ، فكان محاصرها فى البر والبحر ، ثم سير من حاصر هونين (٢) فسلمت فى الثالث والعشرين من شوال ، ثم خرج أسطول صور فكبس أسطول المسلمين فى الليل وأخذ المقدم والرئيس وخمس قطع للمسلمين ، وقتلوا خلقاً كثيراً وذلك فى سابع عشرين رمضان ، فمظم ذلك على السلطان

(١) وردت فى ديوانه ص ٣٤٠ ، ومفرج الكروب ٢/٢٣٤ ، وكنت الدرر ص ٩١ .

(٢) هونين : بلد فى جبال عاملة مظل على نواحي مصر القرية منها . معجم البلدان ٥/٤٢٠ .

وكان الشتاء قد هجم ، والمساكر قد ضجروا ، والبلد حصين ، وهي في البحر مثل السفينة ولها طريق في البر وبها المركيس ، وكان شجاعاً حازماً ، وقد انضوى إليه جميع من بالساحل ، فرحل السلطان سلخ شوال ، وقيل : في ثاني ذي القعدة ، وحمل من الآلات ما قدر عليه واحرق الباقي ، وفي أثناء ذلك أتت السلطان (٤٠ ب) معاتبة من الخليفة بأمر منها : إرسال الرشيد بن البوشنجي ، ومنها أن من هرب والتجأ الى السلطان ألجأه ، ومنها : مشاركة الخليفة في اللقب ، ثم قال في الآخر : يفتخر علينا بالقدس ، وهل فتحها إلا بعساكر الديوان وتحت رايته ، فاستشاط السلطان غضباً ، وقد كان ينتظر أن تأتي الكتب أمرها ورد الميمنة ، وأحدق بها ، وهي مدينة راقبة على البحر ، ولها برجان كالقلعتين ، فما تم نصب الخيام حتى أخذوها بالسيف ، وقيل : إنهم طلبوا الأمان ، وقيل : إنهم أدخلوها لما سمعوا بوصول السلطان ، وأحرق البلد وأقام عليها إلى رابع عشر الشهر ، وجاء ولده الظاهر ثم سار يريد جبلة فمر على المراقب^(١) فوجد أهله قد أدخلوها فسار تحت المرقب وهو للأستبار فوجده لا يرام ولا أحد فيه مطمع ، وكان أسطول الفريخ قد جاء من صقلية اصطف المراكب ومنعوا العسكر من العبور ، فصف الدرق ، وعبروا وساروا إلى جبلة ، وكان بها مسلمون وقاض اسمه منصور بن نبيل ائتمنه صاحب أنطاكية^(٢) لحفظ البلد ، فخرج إلى السلطان وقيل : بل أرسل فهون عليه أمرها ، فساعة وصوله تسلمها بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر ، قيل : بل نازلها ثاني عشره ، وامتنع الحصن ، ثم سلم يوم السبت بالأمان ، وقيل : بل نزل عليه ثامنه ، وجعل عليها سابق الدين بن الداية^(٣) ، ثم سار إلى اللاذقية^(٤) فوصلها رابع عشرين وهو بلد كبير ، له قلعتان متصلتان على تل ، وهي من أحسن البلاد وأطيبها ، ففتحها يوم وصوله ، وقيل : بل أقام عليها أياماً وغنم المسلمون

(١) بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام . معجم البلدان ١٠٨/٥ .

(٢) نجر من الثغور الشامية . معجم البلدان ٢٦٦/١ .

(٣) سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيراز . النجوم الزاهرة ٥٩/٦ .

(٤) مدينة ساحل بحر الشام تعد في أعمال حمص . معجم البلدان ٥/٥ .

غنيمة عظيمة لأنها كانت بلد التجار ، وجد السلطان في محاصرة القلعتين حتى بلغ النقب طولاً ستين ذراعاً في عرض أربعة أذرع ، فلما رأوا الغلبة لاذوا بالأمان وذلك عشية يوم الجمعة خامس عشره ، فخرجوا بأموالهم وأهليهم ما خلا الفلال والآلات الحربية ، ورفع العلم الإسلامي يوم السبت ، وسلمها إلى ابن أخيه تقي الدين وكان عظيم الهمة في تحصين القلعة ، وقيل : بل إلى سنقر الخلاطى ، وشرع المسلمون في تشويبهها وقلع رخامها .

قال العماد : لقد كثر تأسفى على تلك العمارات كيف زالت ، وعلى تلك الأحوال كيف حالت ، ولكن عاد سرورى بأنها عادت للإسلام مراتع ولشموسه مطالع .
وكتب إلى اليمن يصفها فقال : هي مدينة جامعة ، وخطه واسعة ، معاقلها لا ترام ، وأعلامها لا تُسام ، وهي جنة وكان يسكنها أهل الجحيم ، وطالما كانت بالكفر دار يؤس فعادت بالإسلام دار نعيم .

ثم سار السلطان إلى صهيون^(١) فنزل عليها يوم الثلاثاء تاسع عشره سنة ، وضايقها فطلبوا الأمان فلم يجبههم إلا على أمان أهل القدس ، على الرجل عشرة دنانير وعلى المرأة خمسة وعلى كل صغير دينار من الذكر أو الأنثى ، فتسلمها يوم الجمعة ثانی جمادى الآخرة ، ثم حاصر القلعة فتسلمها بالأمان كأمان أهل البلد ، وسلم القلعة إلى ناصر الدين منكورس^(٢) وهي قلعة (٤١ ب) حصينة في طرف البلد ، خنادقها أودية هائلة ، ولا خندق من ناحية واحدة طوله ستون ذراعاً ، نقر في الحجر ، ولها ثلاثة أسوار وكان عليها علم عليه صليب ، فلما نازلها المسلمون وقع الصليب فاستبشر المسلمون ، ثم فرق السلطان

(١) حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام . معجم البلدان ٤٣٦/٣ .

(٢) ناصر الدين منكورس بن خارتكين : كان صاحب قلعة أبي قيس ، وكان أحد أصحاب صلاح الدين ،

سلمه صلاح الدين قلعة صهيون سنة ٥٨٤ هـ وكذلك حصن برزية . تاريخ أبي الفداء ٧٤/٣ .

عساكره فملكوا حصن بلا طنس^(١) وكانوا قد أخلوه ، وحصن العبد ، وحصن الجماهرتين ، ثم سار عن صهيون في جمادى الآخرة فوصل إلى قلعة بكاس^(٢) ، فنزلها يوم الثلاثاء سادس الشهر ، وهي قلعة حصينة على العاصى ولها نهر يخرج من تحتها وقاتلها قتالا شديداً فسلمت يوم الجمعة تاسعه ، فقتل أكثر من بها ، وأسر الباقون ، وغنم المسلمون جميع ما فيها ، وقيل : بل أخلوها وتحصنوا بقلعة الشفر^(٣) ، وهي فى غاية المنعة يعبر منها إلى قلعة بكاس بجسر ، وليس لها طريق فسلطت المجانيق عليها من جميع الجوانب فطلبوا الأمان وذلك يوم الجمعة ثالث عشره ، وقيل سادس الشهر ، وسألوا المهلة ثلاثة أيام ، وصعد العلم الإسلامى يوم الجمعة سادس الشهر ، وأرسل ولده الظاهر إلى سرمينية^(٤) فملكها ، واستنزل أهلها على قطيعة وهدم الحصن وكان بهذه الحصون الجم الغفير من أسارى المسلمين ، فأطلقوا وأعطوا الكسوة والنفقة وسار السلطان إلى برزية^(٥) وهي من الحصون المنيعة ويضرب بها المثل ، تحيط بها أودية من جميع جهاتها ، وعلوها خمسمائة ونيف وسبعون ذراعاً ، ونزل عليها يوم السبت رابع وعشرين فأخذوها عنوة يوم الثلاثاء سابع عشرين ، وأسر وقتل ، وكان بها زوج أخت صاحب أنطاكية ، وكانت عيا للسلطان فأسرها وزوجها وأولادها ثم أطلقهم وأحسن إليهم ، وبعث من وصلهم إلى أنطاكية فعظمت محبتها للسلطان .

ثم سار إلى درباسك^(٦) ونزل عليها يوم الجمعة ثامن رجب ، وهي قلعة منيعة وقاتلها

(١) حصن منيع بسواحل الشام من أعمال حلب . معجم البلدان ٤٧٨/١ .

(٢) قلعة من نواحي حلب على شاطئ نهر العاصى . معجم البلدان ٤٧٤/١ .

(٣) قلعة حصينة مقابلها أخرى يقال لها بكاس على رأس جبلين وهما قرب أنطاكية . معجم البلدان

٣٥٢/٣ .

(٤) بليدة مشهورة من أعمال حلب أهلها إسماعيلية . معجم البلدان ٢١٥/٣ .

(٥) هي قلعة منيعة من أنطاكية . النوادر السلطانية ص ٩٣ .

(٦) مدينة بينها وبين أنطاكية أربع فراسخ . معجم البلدان ٤٧٦/١ .

قتالا شديداً فطلبوا الأمان فلباهم بشرط ألا يخرج أحد إلا بشيابه ، وصعد العلم تاسع عشر ،
وقيل يوم الجمعة ثاني عشره وسلمها إلى علم الدين سليمان بن جندر ، وسار إلى
بغراس (١) وهي قلعة حصينة بالقرب من أنطاكية وتسلمها بالأمان على حكم أمان دريساك .

ثم سار يطلب أنطاكية وقد ضجر العسكر فأرسل صاحبها يطلب الأمان وأن يطلق كل
أسير عنده ، فأجابه ، واصطلحوا ثمانية أشهر وقيل : سبعة ، ثم رحل فسأله ولده الظاهر أن
يجتاز حلب ، فدخلها ثالث شعبان ، وقيل : حادي عشره ، فأقام بالقلعة ثلاثة أيام ، وقيل :
ليلة ، وودعه عماد الدين زنكي (٢) ومظفر الدين (٣) والأمراء ، فقدم لهم التحف ، وعاد
السلطان طالباً دمشق فاعترضه ابن أخيه تقي الدين وأصعده قلعة حماة ، وعمل له سماعاً
(من جنس ما يعمل الصوفية) فبات ليلة وأعطاه جيلة واللاذقية ، وجعل السلطان طريقه
إلى المعرة (٤) فزار عمر بن عبد العزيز (٥) والشيخ أبا زكريا يحيى المغربي ، وكان حياً من
أصحاب الكرامات وكان مع السلطان أبو فليته الحسيني (٦) صاحب المدينة ، وكان يتبرك به
وتيمن بطلعته ، ويرجع إلى قوله (٤٢ أ) ودخل دمشق في رمضان ، وقيل : قبله ، ثم
سار في أوائل شعبان إلى صفد (٧) فقابلها وتسلمها بالأمان في رابع عشر شوال ، ثم سار
إلى كوكب وضايقها والأمطار متوالية فلما أيقنوا بالغلبة طلبوا الأمان ، وكان بها الشجعان
فأمّنهم فساروا إلى صور وندم بعد ذلك على إطلاقهم ، واتفق أن مائتي فارس من الفرغ

(١) مدينة بينها وبين أنطاكية أربع فراسخ . معجم البلدان ٤٦٧/١ .

(٢) عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي ، ابن أخي نور الدين محمود ، صاحب سنجار ، كان عاقلاً
جواداً ، وكان صلاح الدين يحبه ويحترمه ، توفي سنة ٥٩٤ هـ . النجوم الزاهرة ١٤٤/٦ .

(٣) مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل .

(٤) مدينة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة . معجم البلدان ١٥٦/٥ .

(٥) هو الخليفة الأموي المتوفى سنة ١٠١ هـ بقرية دير سمعان من أعمال معرة النعمان . أبو الفداء

٢٠١/١ .

(٦) في الكامل ٢٠/١٢ ، أبو الفليته القاسم بن المهنا العلوي الحسيني .

(٧) مدينة في جبال عاملة المطلّة على حمص بالشام . معجم البلدان ٤١٢/٣ .

كمنوا للمسلمين فلقى رجل من المسلمين رجلاً منهم فأخذه ، وهيب عليه فأقر فأعلم السلطان بهم فأسرهم عن آخرهم ، ثم منَّ عليهم وتسلمها نصف ذى القعدة ، ثم نزل بالغور وأقام بالمخيم بقيته ، وأعطى المساكر دستورا مع أخيه العادل إلى زيارة القدس ، فدخلها ثامن ذى الحجة ، وخرج منها حادى عشر إلى عسقلان ، وأخذها مع أخيه وعوضه عنها الكرك ، وقد كان لما رحل إلى البلاد الشامية قد جعل عليها من يحصرها وهو الأمير سعد الدين كمشبا ، فلما فنيت أزوادهم طلبوا الأمان ، فتسلموا الكرك والشوبك وما بتلك البلاد ، قال ابن شداد : فى رمضان سلمت الكرك ، سلمها نواب صاحبها ، وخلصوه بذلك من الأسر، وكان فى الأسر من وقعة حطين .

قال جامعه : وفى هذا نظر ، فإنه تقدم أن صاحب الكرك قتله السلطان يوم حطين بيده . انتهى .

ثم سار السلطان إلى بلاد الساحل متفقداً أحوالها ثم دخل عكا فأقام بها إلى آخر السنة وودع أخاه العادل فإنه سار إلى مصر .

سنة خمس وثمانين

فيها رحل السلطان من عكا إلى دمشق فدخلها مستهل صفر وأقام بها إلى ربيع الأول ثم خيم بمرج عيون وحاصر شقيف أرنون^(١) وهو موضع حصين وذلك سابع عشر ربيع الأول ، وأقام أياما يباشر القتال والأمداد تصل إليه فلما تحقق صاحبه^(٢) أنه لا طاقة له به نزل بنفسه فلم تشعر به إلا وهو قائم على باب خيمته ، فأذن فى دخوله وأكرمه وكان من أكبر الفرغ وعقلاهم ، ويعرف بالعربية وعنده اطلاع على التواريخ والأحاديث ، حسن التانى ، فأكل مع السلطان ثم خلا به وذكر أنه مملوك السلطان ومجبه ، وأنه يسلم الحصن

(١) قلعة حصينة قرب بانياس من أرض دمشق . معجم البلدان ٣/٣٥٦ .

(٢) اسمه أرناط . الفتح القسى ٢٨٥ .

من غير تعب بشرط أن يعطى مكاناً بدمشق يسكنه فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الفرنج وإقطاعاً يقوم به فأجابه السلطان وقال : أهلى بصور وأشتهى أن تمهلنى حتى أتوصل إلى تخليصهم ، وأقام ينتظر الميعاد وهو قلق لقرب مدة الهدنة بينه وبين صاحب أنطاكية فسير ابن أخيه إلى مقابل أنطاكية وبلغ السلطان أن الفرنج اجتمعوا بصور ، وأنهم خرجوا فى أم لا تحصى ، وكان يخشى أن تترك الشقيف وراء ظهره فتقطع عنه الميرة ، وبلغه أن كلام صاحب الشقيف خديعة وأنه ممد فى تحصين حصنه فأحضره قبل انقضاء المدة بثلاثة أيام فقال : سلم الحصن . فقال : أهل الحصن لا يمكنونى ، فأمسكه السلطان ، فقال : اطلب القسيس إلى أسلم البلد ، فلما حضر إليه (٤٢ ب) ساره ، فلما راح إلى الحصن أظهر العصيان فسيره السلطان إلى سجن دمشق ، بعد الإهانة الشديدة ، ثم رحل السلطان لما بلغه خبر عكا ، ورتب من يمنع عن الشقيف الميرة .

ذكر محاصرة الفرنج عكا

كان قد اجتمع بصور أهل البلاد التى أخذها السلطان ، فأرسلوا إلى البحر يستجدون وصوروا صورة المسيح وصورة عربى يضربه ، وقد أدماء وقالوا : هذا نبي العرب يضرب المسيح فخرجت النساء من بيوتهن ووصل من الفرنج فى البحر عالم لا يحصى ، فلما أخذ السلطان القدس عظم عليهم فأخذ البطرک الذى فيه من معه من القساوس ، وخرج يحرض الملوك على الاجتماع ، لأخذ الثأر وتجهيز جميع الناس حتى النساء ومن لم يقدر أخرج عوضه أو أخرج مالا ، وكانت المراكب فى البحر كالجراد المنتشر ونزلوا على عكا ثامن رجب وقيل : نصفه .

وساروا من صور على طريق الإسكندرية فعز ذلك على السلطان فاستشار أصحابه وخرج يلحق عكا قبل وصولهم ، فوجدهم قد سبقوه ونزل السلطان على تل كيسان^(١) وكتب إلى

(١) موضع فى مرج عكا من سواحل الشام . معجم البلدان ٤٣/٢ .

المسلمين يستنجدهم فاسرعوا فأول من جاء تقي الدين ، ثم ابن زين الدين بعساكر الشرق ، ثم عسكر مصر فزحف عليهم مستهل شعبان وضايقتهم ، ولم يكن للمسلمين إلى عكا طريق فحلى طريق ، فدخلها المسلمون ومنهم أبو الهيجاء السمين ، وأرسل كميناً من العرب للحطابة ففعلوا وأخذوا منهم جماعة وأحضروا رؤوسهم إلى السلطان فأنعم عليهم وعزم على مقاتلة السلطان قبل تكملة العسكر ، فإن بعضهم كان في مقابلة طرابلس ، وشيء في أنطاكية ، وشيء في دمياط والإسكندرية ، فلما كان يوم الأربعاء حادى وعشرين شعبان خرج الفرنج بالراجل الفارس وكانوا ألفى فارس وثلاثين ألف رجل ، وقيل : كانوا مائة ألف ، وعبأ السلطان أصحابه ، وحملت الفرنج على المسلمين فنالوا منهم وهزموهم ، وانتهت الهزيمة إلى الأقحوانة^(١) واستشهد الأمير مجلى بن مروان ، والظاهر أخو الفقيه عيسى وجماعة ، ونحو مائة وخمسين ممن لا يؤبه إليه ، وانتهوا إلى التل وعليه خيمة السلطان ، فقتلوا بعض الحاشية ، وحملت عليهم طائفة من المسلمين فارتفعوا بهم وقتل منهم عشرة آلاف نفس ، وكان الذين ثبتوا مع السلطان يقدر بألف نفس فردوا مائة ألف ، وجافت الأرض بعد ذلك وأتى بعضهم يعزى الفقيه عيسى فقال : هذا يوم هناء لا يوم عزاء وأمر السلطان بالقتلى فألقوا في الماء الذى يشرب منه الفرنج ، وأسر مقدم الداوية الذى أسره السلطان ومن عليه ، وكان مع العدو نساء فى ذى الرجال ، وعزم السلطان على الحملة عليهم ، فرأى العسكر مشغولاً بما نهب من أموالهم ، فإن الأوباش^(٢) نهبوا الوطاق^(٣) عند الحروب وبقي اليزك^(٤) (٤٣ آ) السلطاني مانعاً للفرنج ، واتضح الطريق إلى عكا ودخلها السلطان بنفسه ودخل السوقية بالحوائج ، وكان السلطان يباشر القتال بنفسه ويصافحها بذاته ،

(١) موضع بالأردن على شاطئ بحيرة طبرية . معجم البلدان ٢٣٤/١ .

(٢) الأوباش : سفلة الناس وأخلاقهم .

(٣) الوطاق : لفظ تركى معناه الخيمة (محيط المحيط) .

(٤) اليزك : لفظ فارسى معناه : طلائع الجيش . مفرج الكروب ٤٨/٣ حاشية ١ .

ثم رأى التوسعة عليهم لعله يظفر بهم فارتفع إلى تل العياضية وبطل القتال ، وبقي بعضهم يتحدث مع بعض ، وخرج الصبيان يتصارعون .

وحكى الدوادار وقعة هائلة بعد ذلك فى الشهر ، ولعله خبط ولحق السلطان قولنج لتأخر إلى الخروبة^(١) رابع عشر رمضان ، فلما رحل تمكن العدو وحضروا الخنادق وجدوا فى حصار عكا ، وقدم أسطول مصر ومقدمه الحاجب لؤلؤ ، فأحرق عدة مراكب ودخل عكا ، وقدم العادل بمساكر مصر والأسلحة فقويت نفوس المسلمين ، وأتى السلطان حديث ملك الألمان وقيل : قدوم الأسطول والعادل وحديث الألمان فى السنة الآتية .

سنة ست وثمانين

ذكر عود السلطان إلى مقاتلة الفرغ بعكا وحديث ملك الألمان^(٢) وفيها بعد انقضاء صفر رحل السلطان عن الخروبة ، وعاد إلى قتال الفرغ على عكا ، فوجدهم قد عملوا قرب سورها ثلاثة أبراج ، طول البرج ستون ذراعاً جلبوا خشبها من الجزائر وشحنوها بالمقاتلة ولبسوا جلود البقر والطين بالخل ، لئلا يعمل فيه النار ، وطموا خندق عكا وسحبوا الأبراج على العجل فأقبلت أمثال الجبال فى كل برج خمسمائة مقاتل ، فأيس المسلمون من البلد وركب السلطان واجتهد أن يصل إلى البلد فلم يقدر ، ورموا النفط فلم يؤثر ، وكان بعكا شاب دمشقى يقال له على بن النحاس ، ليس له فى الديوان اسم فهياً ثلاثة قدور وقال لقراقوش : انصب لى منجنيقاً فانتهره ، وقال : قد عجز الصناع ، فمن أنت ؟ فقال : قد عملت شيئاً لله تعالى وما أريد منكم شيئاً وما يضركم أن أرمى بها فى سبيل الله فإن نفعت وإلا فاحسبني واحدا منهم ، فنصبوا المنجنيق فرمى البرج فاحترق بما فيه ، ثم فعل كذلك بالثانى والثالث فكبر المسلمون وكبر السلطان ، وطموه بالخلع فلم يأخذ شيئاً وقال : إنما فعلت هذا لله وكان ذلك يوم الجمعة عشرين ربيع الأول ، وقويت نفس المسلمين ، وفى

(١) الخروبة : حصن بسواحل بحر الشام مشرف على عكا . معجم البلدان ٢/٣٦٢ .

(٢) هو فردريك بربروس (ذو اللحية الحمراء) ، وهو أول من تحرك للحرب بعد هزيمة حطين .

ربيع الآخر قدم على السلطان العساكر : عسكر حلب وحمص وشيزر^(١) وسنجار^(٢) والموصل وغيرهم ، وقدم رسول الخليفة نقيب العلويين ومعه خمسة أحمال نפט ، وتوقيع بمشرين ألف دينار على التجار فشق ذلك على السلطان وقال : أنا في يوم واحد (٤٣ ب) أخرج أضعاف هذا ورد الجميع فأشير عليه بأخذ النفط ورد التوقيع ، وقال : رحم الله العاضد ، وصل إلى منه في عشرين يوماً ، ونحن على دمياط ألف ألف دينار ومثلها عروض .

وفي أثناء ذلك بلغ السلطان وصول ملك الألمان وذلك أنه قطع القسطنطينية في ستمائة ألف مقاتل ، وقيل : مائة ألف ، فخاف ملك القسطنطينية فقال : إنما جئنا نخلص القدس والصليب ، فاحتاج إلى مسألتهم وكتب إلى السلطان يعلمه بهم ويتعذر بالعجز عن منعهم ، وساروا طالبين الشام فوقع فيهم الوباء والغلاء فدفنوا كثيراً من سلاحهم ظناً منهم أنهم إذا عادوا أخذوه فأخذه المسلمون ، فلما قاربوا تونية^(٣) خرج إليهم ملك شاه لمنعهم فلم يمكنه ، وساروا إلى أنطاكية فنزلوا على نهر انطرسوس ، فنزل الملك ليسبح فنهوه فلم ينته ، سب فيه فأخذته الحمى ، وأقاموا عليه أياماً وأوصى إلى ولده ومات ، وقيل : إنه غرق ، فرجع بعض العساكر وبعضهم مال إلى ابن الملك الآخر ، فبقى الابن في قلعة ، قيل : إنه نيف وأربعون ألفاً ووقع فيه الوباء وتخطفهم عسكر حلب ، ووصل ابن الملك إلى عكا في ألف نفس ثم مات في ذى الحجة وقيل : إنهم ركبوا البحر ففرقوا ولم ينج منهم أحد فحزن الفرغ عليه ، وأشعلوا النيران وكفى الله شرهم وأقام السلطان والمسلمون على عكا في قوة وجدل ، والفرغ في ضعف ووجل ، والسلطان مستمر الاهتمام بالقول والعمل ، والوفود إلى أبوابه متواترة وصلاته إلى الخاصة والعامة متكاثرة ، وامتدحه الشعراء وذكروا مواقفه ،

(١) شيزر : قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعزة . معجم البلدان ٣/٣٨٢ .

(٢) سنجان : مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام . معجم البلدان ٣/٢٦٢ .

(٣) من أعظم مدن الإسلام بالروم . معجم البلدان ٤/٤١٥ .

وشكروا عوارفه فمن ذلك قصيدة الرشيد عبد الرحمن النابلسي^(١) أنشده إياها بمرج عكا ،
وأولها :

حدي الفانيات في القلب أنكى من شفار الضئى وأعظم فتكا
ومنها :

ويك يا قلب إن هفا بك وجد
أو تبدلت بالوصال صدودا
وعسى في لقائك الملك النا
أشرف العالمين حضرا وبدوا
خير من طبق البرية ملكا
ناصر الحق فهو ينقض ما تبر
ذو السطا برعب الأسود تحامت
من صلاح الأنام والدين والذند
أيها الناصر الذي خذل الكفا
والذي مده الاله بقـدس
ما تراه المضرب المهند حدا
ما عساه الطود الأشم ثباتا
قد قتلت الزمان يا ملك خبرا
وأنارت لك السمود فلو رمت
ليس ينفك عن رضى الله إن زح

فهو أمضى حكما وأعظم ملكا
طالما أضحك الزمان وأبكى
صر روح بمرج الهم عنكا
وأهر الأنام عجما وتركا
واسترق الأحرار بالجود ملكا
م أيدي عداه شزرا وحبكا^(٢)
والندى يخجل العهد أركا^(٣)
يا بقاؤه فطال عمرا وملكا
ر فا يستغرق بؤسا وضكا
نهكت قوة الضلالة نهكا
أنت أمضى شبا وأسرع بتكا^(٤)
أنت اسمى مضيا وأمتن سما
وعركت الأيام بالرأى عركا
اعتلقتا بنجمها لم يفتكا
زح ملك عنه العرى وألحقا

(١) عبد الرحمن بن بدر الحسن بن المفرج بن بكار ، رشيد الدين النابلسي ، الشاعر المجيد ، توفي سنة
٦١٩ هـ . فوات الوفيات ٥٣٢ .

(٢) شزرا : فتلا ، يقال جبل مشزور : أى مفتول ، مما يلى اليسار وقيل إلى فوق .

(٣) العهد : المطر ، أرك السحاب ، جاء بالمطر القليل الضعيف .

(٤) البتك : القطع .

طاب فـربك الثناء والناس لا شـ
يا مـميت الأـمـحـال يا مـحـى الآ
ما لجيش الضلال فى بحر هـك
صاح فـربهم داعى البوار فلأعـ
فـتـراهم من التـضـاؤل كالوهد
بـعـيون بـيـض يرون بها الـ
بهم يا هـمام قـد ضـاقت الأـر
أيقنوا بالبلاء وقـد كا
وعـدتهم بل أوعـدتهم نفوس
ولبيـض الـهـند الرقاق وسمر الـ
فـقـتـيل مـعـفر لـيس يؤذى
أنجاة وقـد طرحت عليهم
وتوخيـرتهم ببـيـض ظبـات
ظللتهم سماء جيشك تضلـبـ

ك دماء من بينها كنت مسكا
مال يا أظهر ابن أنثى وأرمى
لا يحلون للنجا منه قلعا
بن قذى وللسماع سكى
م خيالاً وكانوا تلح المناكب تمكا (١)
أيام مسودة ترى اللون حلكا
ض فأوسمته بواراً وهلكا
ن يقين الأوغاد من قبل شكا
كان مبعادها غروراً وإفكا
خط أتت رؤوسهم دون عكا (٢)
أسـرـر مـكـيل لن يلكا
كلـكـلا يهدم الجبال ويركا
كلها تهتك الضرائب هتكا
لا فدكت الأرض دكا

وقال أيضاً ، وقيل قالها فى فتح القدس ، وهو الصحيح (٤٤ ب) :

هذا الذى كانت الآمال تنتظر
هذا الفتوح الذى جاء الزمان به
يجل عليها عن مدح بحيط به
يا نعمة كبرت عند الأنام له
لا تروين للفتوح بعدها قصصاً
توضح الدهر عن يوم أغر به
يوم تعالى محلاً واستنار سناً

فليوف لله أقوام بما نذروا
إليك من هفوات الدهر يعتذروا
وصف وإن نظم المداح أو نشروا
قدراً لفى كل شكر عندها صفر
وإن تعاقم منها الخبر والخبر
يزهى ويفتخر الأصال والبكر
فدون مرتبتيه الأنجم الزهر

(١) تلح : طلع . تمك : جمع تامك وهو المرتفع .

(٢) الخط : مرفأ للسفن بالبحرين تنسب إليه الرماح .

جم ولكن لكسر ليس بنجبر
والنقع مرتفع والنصر منحذر
من حيث ما سرت فربك مسلك وعبر
والله لم يغفلهم بأس ولا وذر
آلام لم يثنه الخوف ولا حذر
نعمى من الله مرحوماً بها البشر
عروب ساعة وجه النصر مستتر
أمواج حتى إذا قابلتهم جزوا
لولاك ما هد من أركانها حجر
منه بلائع لا أنثى ولا ذكر
عمرت ما هدموا . هدمت ما عمروا
ونام من لم يزل حلفاً له السهر
بيت المحرم إحراماً ومعتبر
إيمان من بعد طى وهو منتشر
بعد الصليب به الآيات والسور
سيواك من قائم للهدى ينتظر
فيها لأعدائك الآيات والذر
على النورى يتكفيها البدو والحضر
به الممالك والأملاك تفتخر
فى الأرض إلا إلى نعماك يفتخر
أجر الجياد لنعم الصهر والمهر

يوم به التأم الكفار فى عدد
فالروع متصل والصبر منفصل
جاءوا كما أقبل الطود الأشم له
وجلتهم مثلما انقض القضاء فلا
بنفس حان على الإسلام محتمل الـ
حسنى إلى الخلق أهداها ملكهم
وعصبة من بنى أيوب كاشفة الـ
مدوا كما مد فيض البحر ملتظم الـ
لقد فتحت عصيا من ثغورهم
تركت أرضهم من طول ما عمرت
نقضت ما أبرموا ، أبرمت ما نقضوا
الآن قرت جنوب فى مضاجعها
الآن طاب إلى البيت المقدس كالـ
يا بهجة القدس إن أضى به علم الـ
يا نور مسجده الأقصى وقد رفعت
يا مالك الأرض مهدها فما أحد
أضى بنو الأصغر الأنكاس موعظة
صاروا حديثاً وكانوا قبل حادثة
هذا الهمام صلاح الدين أشرف من
دانت ودامت له الدنيا فما أحد
يا خاطباً جنة الفردوس مهدها

ثم انقطعت أخبار عكا عن السلطان ، فندب أقواماً للسباحة وأعطاهم المال فى أوساطهم
والطيور فى أعناقهم ، فنصب الفرغ الشبك فى البحر ، فإذا جاء سابع وقع فيها ، فامتنع
الناس وبعث قراقوش يشكو قلة الميرة ، فرتب السلطان بطسة^(١) كبيرة وجعل فيها نصارى

(١) البطسة : ذكر صاحب (محيط المحيط) أنها مأخوذة من الأسيانية ، ومعناها : السفينة الكبيرة .

من أهل بيرون^(١) كانوا أسلموا ، وقال : ارفعوا الصليبان كأنكم قاصدون الفرخ ففعلوا ، فخرج الفرخ من الشواني فقالوا : نراكم قاصدين البلد ، قالوا : وما اخذتموه بعد ! قالوا : لا . قالوا : وراءنا بطسة أخرى ردوها عن البلد ، فذهبوا عنهم فردوا القلوع إلى البلد ودخلوا الميناء وكبر المسلمون ووقع الباء والموت في الطائفتين فلما أعلموا السلطان أنشد :

أَتَلَانِي وَمَالِكَا وَأَقْتَلَا مَالِكَا مَعِي (٢)

يريد أنه رضى أن قد يتلف إذا أتلف الله أعداءه ، وطلبت العساكر الشرقية العودة إلى بلادها فقال السلطان : اصبروا إلى الشتاء فأقام صاحب سنجار ، وأما صاحب الجزيرة^(٣) فأصر على الرحيل ودخل وقبل يد السلطان وسار من ماعته وكتب السلطان إليه كتاباً أوله :

من ضاع مثلى من يدى له فليت شعرى ما استفادا (٤)

فلم يلتفت وسار ، فلقبه تقي الدين عند عقبة فيق^(٥) فأخبره الخبر فقال : ارجع يا صبي إلا رجعت مقهوراً فرجع ، وبقي السلطان والفرخ يتنازعون القتال إلى العشرين من جمادى الآخرة ، فخرجت الفرخ بالفارس والرجال ، فأزالوا العادل عن موضعه ، فعطف عليهم المسلمون وقتلوا منهم خلقاً عظيماً فعادوا إلى خنادقهم ، وحصل للسلطان مفرص فانقطع ، ولولا ذلك لكان الفيصل ﴿ ولكن ليقتضى الله أمراً كان مفعولاً ﴾^(٦) .

(١) بيرون : مدينة بين الديبل وبين المنصورة . تقويم البلدان ٣٤٨ .

(٢) البيت لعبد الله بن الزبير بن العوام . النجوم الزاهرة ١٤٥١ .

(٣) وهو سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي . النوادر السلطانية ص ١٤٥ .

(٤) ورد البيت في النوادر السلطانية ص ١٤٦ ، مرآة الزمان ٤٠٤/٨ .

(٥) مدينة بالشام بين دمشق وطبرية ، وعقبة فيق ينحدر منها إلى غور الأردن ومنها يشرف على طبرية وبحيرتها . معجم البلدان ٢٨٦/٤ .

(٦) سورة الأنفال : الآية ٤٢ .

ولما قوى الشتاء ، أرسل الفرنج مراكبهم إلى صور خوفاً عليها أن تنكسر ، فانفتح الطريق إلى عكا في البحر ، وأرسل البدل إليها ، وكان العسكر الخارج أضعاف الواصل ، فحصل التفريط بذلك وكتب السلطان إلى يعقوب (١) أمير المغرب يستنجده ، وأقام في جماعة يسيرة وفيها (٤٥ ب) استشهد بعكا جمال الدين محمد ، خرج في شاني يقاتل فأحاطت به مراكبهم وعرضوا عليه الأمان فقال : ما أضع يدي إلا في يد مقدمكم فجاء المقدم فأخذ بيده وعانقه وألقى نفسه في البحر ففرقا .

وفيها في ثامن شوال توفي زين الدين يوسف (٢) صاحب إربل بعسكر السلطان فأقطع إربل أخاه مظفر الدين كوكوبري ، وأضاف إليه شهرزور وأعمالها ، وأرجع حران (٣) والرها وأقطعها ومعها سميساط (٤) والمور تقي الدين ابن أخيه زيادة على ما بيده .
وفيها ، في ربيع الآخر تسلم السلطان الشقيف بالأمان بعد أن ضيق على صاحبها بدمشق ثم أطلقه فمضى إلى صور .

وفيها تسلم الشوبك أيضاً ، بعد حصار شديد بالأمان ، وقيل : بل في سنة أربع .

٤

سنة سبع وثمانين

ذكر استيلاء الفرنج على عكا ، فيها اشتد الحصار على عكا ، وكانوا قد أحاطوا بها من البحر إلى البحر وحفروا عليها خندقاً فلم يتمكن السلطان من الوصول إليهم ، وكانوا

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن المنصور بالله ، بويع له بمراكش بعد وفاة أبيه سنة ٥٨٠ هـ ، وتوفي سنة ٥٩٥ هـ . وفيات الأعيان ٤/٦ .

(٢) هو يوسف بن علي بن بكتين صاحب لابل ، وكان أميراً كبيراً شجاعاً مديراً . النجوم الزاهرة ٦/١١٢ ، الكامل ٥٦/١٢ .

(٣) مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور ، وهي قصبة ديار مصرية ، بينها وبين الرقة يومان . معجم البلدان ٢/٢٣٥ .

(٤) مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم . معجم البلدان ٣/٢٥٨ .

محاصرين لها شبه محصورين ، واشتد حصارهم لها في جمادى الآخرة ونصبوا المجانيق والسالق وممل المسلمين من التعب والسهر ، وكان الفرنج قد صنعوا تلالاً من التراب يقاتلون خلفه ، فلما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة خرج من عكا رجل عوام ومعه كتب إلى السلطان من المسلمين يذكرون حالهم وما هم فيه وأنهم قد أيقنوا بالهلاك ، ومتى أخذوا البلد عنوة ضربوا رقابهم . وأنهم صالحوا على أن يسلموا البلد ، وجميع ما فيه من الآلات والأسلحة ومائتي ألف دينار وخمسمائة أسير مجاهيل ، ومائة (أسير) معينين (من جماعتهم) وصليب الصليبوت ، على أن يخرجوا بأنفسهم ، وما معهم من الأملاك المختصة بهم وأهلبيهم ، وبضمنوا للمركيس - لأنه كان الواسطة - أربعة آلاف دينار ، فلم يرد على السلطان خبر أشد منه ، لأنه كان نقل إليها سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر . وقال : إني هاجم على القوم ، ويخرج المسلمون من البلد ، فقالوا : ما هذا مصلحة ، فركب السلطان لنجدتهم ، وإذا بأعلام الفرنج على السور ، وعلى القلعة ، وعلى الجامع ، وقد كانوا ركبوا ركة وصاحوا صيحة عظيمة ، وهجموا البلد ، وجاءت إلى الفرنج نجدة أخرى في البحر ، فخرج إليهم ابن المشطوب وطلب منهم الأمان فما أجابوه ، وقيل : بل أجابوه ، فلما ملكوا البلد كتبوا إلى السلطان ، فحصل ما أمكنه تحصيله ، وطلب منهم إطلاق المسلمين ، فقالوا سلموا إلينا المال والأسرى ، واقنعوا بأماننا ، فقال السلطان : أى أمانة لكم ونخاف من غدركم والبلد بأيديكم وتوقف الحال ، فلما كان يوم السبت سابع عشرين رجب خرج الفرنج من عكا ووقفوا وسط المرج ، وأحضروا (٤٦ أ) المسلمين ، وكانوا زهاء ستة آلاف ، وحملوا عليهم حملة رجل واحد ، ضرباً وطعنأ فقتلوهم ، والمسلمون يشاهدونهم ، فعادوا وأخبروا السلطان فبكى ، يقال : إنه لطم على رأسه ورتف لحيته ، ووقع العويل والبكاء فى العسكر ، وقيل : إنهم دخلوا البلد سابع عشر رجب ، وإنهم قتلوا أهل البلد ، وكانوا زهاء ثلاثين ألفاً ، وقيل : إنهم قتلوا البعض ، وأسروا البعض ، فلما كان غرة شعبان يوم الأحد رحلوا من عكا ، فساروا فى البر ، ومراكبهم فى البحر ،

وهم ثلاثة أقسام، فنزلوا نهر القصب ، وجرى بينهم وبين المسلمين قتال ، قتل فيه إياز الطويل^(١) وكان شجاعاً في دبوته^(٢) عشرة أرتال حديد ، قتل منهم جماعة ثم تقنطر^(٣) فقتلوه ، وحزن عليه السلطان ، وقيل : بل قتل في وقعة أرسوف^(٤) .

وقعة أرسوف

لما كان يوم السبت رابع عشر شعبان ، أصبح الفرنج على تعبئة ، وحصل بينهم قتال أزالوا المسلمين عن مواضعهم ، ووصلوا إلى السوق ، وقتلوا جماعة من السوقية ، وقتلوا خلقاً عظيماً . وثبت العادل ، وعسكر الموصل ومقدمهم علاء الدين بن مسعود ، فلقبه السلطان ذلك اليوم الملك السعيد ، ثم عاد عليهم المسلمون . ذكر ابن القادسي : أن السلطان انهزم ذلك اليوم ، وأنه رجع في عسكر الموصل ، وكانوا ألف فارس ، فقتل من الكفار مائة ألف وأربعين ألفاً . قال سبط ابن الجوزي : أما قوله إنه انهزم ، فما انهزم الناصر قط . وقد حكى ابن شداد - وكان حاضر الوقعة - قال : ثبت مع السلطان سبعة عشر رجلاً ، وأعلامه واقفة ، وكوساته تخفق ، فلما رهي ما نزل بالمسلمين صاح فيهم ، فلما رآه المسلمون تابوا إليه ، فترجع الفرنج إلى منازلهم ، وقتل من الفريقين جماعة . وأما قوله : قتل مائة وأربعين ألفاً فإنهم كانوا دون الثلاثين ألفاً . قال : ابن شداد : قتل خمسون أفرنجياً : وقيل : أقل ، ثم سار الفرنج إلى يافا ، فوجدوا أهلها قد أدخلوها ، فعزموا على عمارتها .

(١) إياز بن عبد الله الطويل ، أحد مماليك السلطان صلاح الدين ، كان بطلاً شجاعاً مقداماً فعل على عكا

ما لم يفعله غيره ، وتوفي سنة ٥٨٨ هـ . ابن الفرات المجلد الرابع ٩٧/٢ .

(٢) عصا من حديد في رأسها شيء كالكرة ، وهي فارسية .

(٣) تقنطر : سقط عن ظهر فرسه .

(٤) أرسف : مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا . معجم البلدان ١٥١/١ .

ذكر تخريب عسقلان والرملة وند

خاف السلطان أن تحدث بعسقلان ما حدث بمكا ، فاستشار أصحابه ، فأشاروا عليه بخرابها ، لعدة أمور ، منها : أن ينقطع الطريق إلى مصر ، وأن يستنزلوا على القدس ، فسار إليها ثامن عشر رمضان ، وقسم السور على الناس ، وبكى (٤٦ ب) وقال : والله فقد أولادى أهون على من هدمها ، فجعلوها دكا ، وأباح المسلمين ما فيها ، ثم رحل عنها ثاني رمضان ، وقيل غير ذلك . وتأسف الناس على عسقلان وباعوا المتاع بأبخس الأثمان ، حتى باعوا اثنتي عشرة دجاجة بدرهم ، وتشتوا في البلاد ، وذهب السلطان فخر بحصنها ، وكنيسة لد . قال الدوادار : وأمر السلطان بخراب غزة والداروم ، انتهى . ثم عاد السلطان إلى القدس ، وقرر أمره ، وعاد إلى مخيمه ثامن رمضان ، وقيل : غير ذلك . وفيها طلب الانكثار^(١) من العادل رسولا فعاد بالجواب : إن الفريقين قد هلكوا ، وخربت البلاد بينهما فتعيدوا لنا القدس والصليب ، ويكون من الأردن ، ومغرب لنا . وطلب اجتماعه بالسلطان ، فقال العادل : إن الملوك إذا اجتمعوا يقبح الحرب بينهم بعد ذلك . وقيل : إن العادل والانكثار اجتمعا ، وقال : إنما جئت لنصرة فرنج الساحل فردوا عليهم ما أخذتم واحقنوا الدماء ، فقال العادل : حتى اجتمع بالسلطان ، فلما وقف السلطان على الرسالة قال : القدس عندنا أعظم ما هو عندكم ، والبلاد في الأصل لنا ، والصليب هلاكه قربة عندنا ، فسير الانكثار إلى العادل : أن تتزوج بأختي ويكون مستقرها القدس ، يهبها أخوها البلاد ، وكذلك يهبك أخوك . فأجاب السلطان على ذلك ، فلما اجتمعوا للزواج ، وقد كان العادل والانكثار بهما كل وقت وبتهاديان ، وكانت خديعة منهما قال القسيسون : لا يمكن هذا إلا أن يتنصر العادل ، وإلا غضب المسيح على الانكثار ، فتوقف الحال ، فبقي كل يوم يقع بين الفريقين مناوشات ، فلقوا من ذلك شدة ، وأقبل الشتاء ، فأعطى السلطان العساكر

(١) الانكثار : هو ريجارد قلب الأسد ملك الإنجليز ابن هنرى الثامن . الفتح القس ٤٧٧ حاشية ١ .

دستوراً ، وسار إلى القدس لسبع بقين من ذى الحجة ، وكان هو وأولاده والعلماء ينقلون الحجارة ، فكان يجتمع عند العمالين في اليوم الواحد (ما) يكفى لعدة أيام .

وفيهما أرسل السلطان إلى ولده الظاهر يأمره بخراب حصن بغراس^(١) فبلغ ذلك ابن كيفون فسار وأخذها بلا قتال .

وفيهما قدم على السلطان قيصر شاه بن قلع أرسلان صاحب الروح وذلك أن والده فرق بلاده على أولاده ، وأعطى هذا ملطية^(٢) ، فألزم بعض إخوته والده بأخذها منه فالتجأ إلى السلطان ، فزوجه بنت أخيه العادل ، وعاد إلى ملطية ، وخرج السلطان ليودعه ، فلما ركب عضده قيصر شاه وسوى عليه ثيابه صاحب الموصل ، فقال بعض الحاضرين في نفسه : ما بقيت نبالي يا بن أيوب ، أى موة نموت ؟ يركبك ملك سلجوقى ، ويصلح قماشك ابن اتابك زنكى . وفيها عزل أبا حامد بن أبى عصرون وولى محبى الدين بن الزكى (١٤٧) .

سنة ثمان وثمانين :

قال فى المرأة : فيها خرجت قافلة عظيمة ، وكان يرتقب مجيئهم ، فبعث السلطان يحذرهم ، وخرج الأنكتار فى ألف فارس وألف راجل ، فكبسهم قبيل الصبح ، فالسعيد منجا بنفسه ، وكانت نوبة عظيمة ، ساقوا ثلاثة آلاف جمل ، وألفاً وخمسمائة فرس ، ومن البغال مثلها ، وخمسمائة أسير ، وألف ألف دينار ، ومن الثياب مثلها ، وكان فى القافلة فلك الدين أخو العادل لأمه ، فنجا على فرس ، وذلك فى جمادى الآخرة ، وبلغ السلطان فأسقط فى يده .

وعزم الفرغ على قصد مصر ، ثم عدلوا إلى القدس ، وشاهدوه ، ورجعوا إلى بيت نوبة^(٣) ، وجاءهم خلق عظيم ، وكان السلطان بالقدس ، فجاءه الأمراء وطببوا قلبه ، فلما

(١) بغراس : مدينة بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ . معجم البلدان ١٤٧/١ .

(٢) ملطية : إحدى مدن أرمينية . ١٩٢/٥ .

(٣) بليدة من نواحي فلسطين . معجم البلدان ٥٢٣/١ .

كان الليل مختلفوا ، وقالوا : لا نقيم إلا أن يكون السلطان معنا ، وإلا جرى علينا كما جرى على أهل عكا ، وبلغ السلطان ذلك فبعث إليهم (يقول) (١) : هذا مجد الدين بن فروخ شاه ابن أخي يكون عندكم ، وأكون أنا من وراء ، أذب عنكم ، فقالوا : إنما نخرج ونصدقهم الحملة ، فعز ذلك عليه بات ليلة الجمعة ساجداً باكياً ، وبعث الصدقات ، فلما كان الفجر دخل الأقصى ، فجاءه اليزك فأسروه أنهم ركبوا بأسرهم ، وبات السلطان ليلة السبت قلقاً ، فلما طلع الفجر جاء جرديك مسرعاً فقال : نهنيك (إنهم) رحلوا نحو الرملة ، فسجد ، وكشف أخبارهم ، فكان سبب رحيلهم أن السلطان طم ما حول القدس من الصهاريج والآبار ، فقال (لهم الانكثار) : من أين نشرب ؟ قالوا : من العيون قال : يتخطفوننا ، فحكموا (فيهم) ثلاثمائة نفس من علمائهم ، وحكم الثلاثمائة اثني عشر ، وحكم الاثني عشر ثلاثة ، على عاداتهم في التحكيم ، فباتوا يتشاورون ، ثم ترجع عندهم الرحيل ، فرحلوا نحو عكا ، وخرج السلطان فنزل على يافا ، وحصرها وملك المدينة ، وأشرف على أخذ القلعة ، فطلبوا الأمان ، ونهب المسلمون البلد ، فوقف بمالك السلطان على أبواب البلد ، من خرج ومعه شيء أخذوه ، فعز ذلك على الأمراء ، وكان (قد) بقي بالقلعة أربعون رجلاً ، فبينما هم كذلك إذ لاحت مراكب الفرنج ، فرأوا أعلام السلطان (عليها) فظنوا أنه قد أخذها ، فتوقفوا ، وقويت نفوس الذين بالقلعة ، فرمى واحد نفسه إلى الماء وأعلمهم ، فأرسوا إلى الميناء ، وكانت خمسة وثلاثين مركباً ، وصل الانكثار فهرب المسلمون ، وجاء الانكثار فنزل منزلهم ، ولم يكن معه سوى عشرين فارساً وثلاثمائة رجل ، فبعث إلى السلطان يقول : أنت سلطان عظيم ، ومعك هذا الجيش ، فكيف رحلت عند وصولي ، وليس معي أحد ؟ فغضب السلطان ، وبات على ذلك ، فلما أصبح ركب العساكر ، والانكثار (٢) على حالة لم يصل إليه أحد من الفرنج ، فحمل عليه المسلمون ،

(١) هو مجد الدين بهرام شاه بن فروخ شاه صاحب بعلبك ، والمتوفى سنة ٦٢٨ هـ ، وستأني ترجمته .

(٢) الانكثار : ملك إنجلترا .

فلم يتحرك ، فعظم على السلطان ، وصاح ويحكم ، وكم معه ؟ وأنتم عشرة آلاف وزيادة ، فلم يجبه أحد ، فقال له الجناح : قل هذا لماليكك الذين ضربوا الناس أمس وأخذوا كسبهم^(١) ، ويقال : إن الانكثار أخذ رمحه وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة فلم يتعرض له أحد ، وساق السلطان إلى الأطراف ونزل في خيمة صغيرة وحده ، ولم يتجاسر أحد أن يكلمه ، وجاءت رسل الانكثار في طلب الصلح .

ذكر عقد هدنة

وعود السلطان إلى دمشق وغير ذلك

وسبب ذلك أن الانكثار مرض وطال مرضه ، وأرسل إلى العادل أن يسأل السلطان في الصلح ، فلم يجبه ، وقال : متى حدث لى الموت لم يجتمع هذه العساكر ، ورأى أن تتم على الجهاد إلى أن نظهر البلاد منهم ، فرجعه عن ذلك الأمراء لنفاد نفقاتهم ، وطول تعبهم ، واجتمعوا للأيمان يوم الأربعاء ثاني عشرين شعبان ، ولم يحلف الانكثار ، بل أخذوا يده وعاهدوه ، واعتذر بأن الملوك لا تحلف ، وحلف ابن أخيه وعظماء الفرنج ، وكذلك لم يحلف السلطان ، بل حلف أخوه وأقاربه وعقدت هدنة عامة في البر والبحر مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أولها أيلول الموافق حادي عشرين شعبان . وقال الدوادار : إن المدة ثلاث سنين وثمانية أشهر ، أولها آخر شعبان . وإن السلطان حلف ، انتهى . على أن تستقر بيد الفرنج يافا^(٢) وقيسارية^(٣) وأرسوف وحيفا وعكا وأعمال ذلك ، وتكون عسقلان خراباً والرملة ولد^(٤) مناصفة .

(١) كسبهم : أى ما كسبه في الحرب .

(٢) مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين . معجم البلدان ٤٢١/٤ .

(٣) بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين . معجم البلدان ٤٢١/٤ .

(٤) قرية قرب بيت المقدس من ناحية فلسطين . معجم البلدان ١٥/٥ .

واشترط السلطان دخول بلاد الاسماعيلية^(١) في الهدنة ، واشترط الفرخ أنطاكية وطرابلس ، وألا يفسخها مجيء مجدة ، وطلبوا زيارة القدس ، فأذن لهم ، ثم رحل في رابع رمضان إلى القدس ، وأمر بتشيد أسواره ، وزاد في وقف مدرسته التي به ، وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تُعرف بـ « صند حنة » ، يذكرون بأن فيها قبر (٤٨ أ) حنة أم مريم ، ثم صارت في الإسلام دار علم ، فلما ملك الفرخ سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة أعادوها كنيسة ، فلما فتحه السلطان صيرها مدرسة ، وفوض تدريسها ووقفها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد .

ولما استقرت الهدنة أمر السلطان مائة حجار بتخريب عسقلان ، وأن يخرج من بها من النصارى ، وعزم على الحج والاحرام من القدس ، وكتب إلى أخيه صاحب اليمن بذلك ، فقال له الأمراء : لا تعتمد على الهدنة ، فانقطع شوقه عن الحج ، وأقام بالقدس ، وتأهب للمسير إلى مصر ، وأعطى البلاد دستوراً ، فلما بلغ السلطان رحيل الانكثار إلى بلاده مستهل شعبان ، قوى عزمه على أن يدخل الساحل جريدة ، فرحل من القدس خامس شوال إلى نابلس ، ثم إلى بيسان^(٢) ، ثم إلى كوكب ، فبات بقلعتها ، ثم رحل إلى طبرية ، ثم إلى بيروت ، ووصل إلى خدمته بيمند صاحب أنطاكية حادى عشرين شوال ، فأكرمه السلطان ، وفارقه غد ذلك اليوم . ودخل السلطان دمشق يوم الأربعاء لخمس بقين من شوال وفرح الناس به ، لأن غيبته عنهم كانت أربع سنين ، وزاد في العدل والاحسان ، وأعطى العساكر دستوراً ، فودعه ولده الظاهر وداعاً لا لقاء بعده ، وبقي عنده ولده الأفضل . وكان العادل قد سار من القدس إلى الكرك ، ثم عاد إلى دمشق طالباً البلاد الشرقية التي له ، فخرج السلطان إلى لقائه .

(١) سميت كذلك لأنها كانت بيد الإسماعيلية من الشيعة المنتسبين إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهم يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية ، ولهم عدة قلاع مضافة إلى طرابلس ، وقد أوضحها صاحب صبح الأعشى وبين موقعها . انظر صبح الأعشى ١٤٦ - ١٤٧ .
(٢) مدينة بالأردن بالقرب الشامي . معجم البلدان . ٥٢٧/١ .

وفيهما قال الدوادار : وصلت قافلة من مصر فخرج عليها الفرنج فجرد السلطان عسكرياً صحبة يازكج^(١) وسلم المسلمون بعد محاربة . قال : وفيها هربت جماعة من العرب إلى الفرنج ، ثم أرسلوا يطلبون الأمان على أن يسوقوا بما قدروا عليه ، فساقوا خمسمائة فرس . قال : وفيها جهز الانكثار اسلحة المسلمين التي نهبها في مركب ، وكانت شيئاً كثيراً ، فأرسل الله عليها ريحاً ففرق بما فيه ومن فيه .

وفيهما توفي سيف الدين علي بن المشطوب بنابلس ، وكانت إقطاعه ، فوقف السلطان ثلثها على صالح القدس ، وأقطع الباقي ولده عماد الدين أحمد وأميرين معه . وفيها وصل إلى السلطان كتاب من اليمن أن ثلاثة أنهار بالحبيشة تغيرت ، كانت عذبة ، فصار الواحد أجاجاً والآخر لبناً والثالث دماً .

سنة تسع وثمانين

ذكر وفاة الملك الناصر تغمده الله بالرحمة والرضوان (٤٨٨هـ) :

دخلت السنة والسلطان بدمشق على أحسن ما يكون من المسرة ، وخرج إلى شرقى دمشق يتصيد ، وغاب خمسة عشر يوماً ، وصحبه أخوه العادل ، ثم عاد إلى دمشق ، وودعه أخوه داعماً لا لقاء بعده ، ومضى إلى الكرك ، وأقام فيه حتى مات السلطان . وركب السلطان يوم الجمعة خامس عشر صفر ، وتلقى الحاج ، وبكى وتأسف لفوات الحج ، ووصل مع الحاج ولد أخيه سيف الإسلام . ثم عاد بين البساتين ، ودخل القلعة ، وكانت هذه آخر ركباته ، فلحقه ليلة السبت سادس عشر صفر كسل عظيم ، وغشيته نصف الليل حمى صفراوية ، وأجمع الأطباء على أنه لا يفصد^(٢) فخالفهم الرجى وفصده فكان سبب وفاته . ومن امارات حضور الأجل غيبة طبيبه الذي عرف مزاجه وكان يتغلب عليه اليبس ،

(١) سيف الدين يازكج الأسدي : أحد أمراء السلطان صلاح الدين ، توفي بمصر سنة ٥٩٥ . ذيل

الروضتين ص ٣٤ .

(٢) الفصد : شق العرق .

ولم يزل مرضه في تزايد حتى انتهى إلى غاية (الضعف) وبغيب ذهنه ، فلما كان (اليوم) التاسع من مرضه حدثت له غشية ، وامتنع من تناول المشروب ، واشتد الارجاف في البلد ، وغشى الناس من الحزن ما لا يمكن حكايته ، وحُقن في (اليوم) العاشر حقنتين فحصلت له راحة ، ثم عرق حتى نفذ من الفراش ، واشتد المرض ليلة الثاني عشر من مرضه ، وهي ليلة السابع والعشرين من صفر ، واستحلف الأفضل الناس لنفسه ، وكان عند السلطان الفقيه أبو جعفر إمام الكلاسة^(١) يقرأ القرآن فلما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ﴾^(٢) وكان قد غاب ذهنه ، فقال : صحيح . وتوفي يوم الأربعاء سابع عشرين صفر ، وقيل : خامس عشرين ، وقيل : رابع عشرين بعد صلاة الصبح وحضر وفاته القاضي الفاضل ، وغسله الخطيب الدولمي^(٣) خطيب الجامع ، وأخرج بعد صلاة الظهر ، وجميع ما احتاجه من الثياب أحضره الفاضل من جهة حل ، ودفن بدار البستان موضع جلوسه ، وقيل : موضع مرضه ، قيل : ودفن معه سيفه ، وإن الفاضل قال هذا يتوكأ عليه في الجنة ، وليس بصحيح . فإن الأفضل أرسله مع بقية سلاحه إلى بغداد ، وعاب الناس عليه ذلك . ونزل قبره وقت العصر ، وعمل الأفضل العزاء ثلاثة أيام ، وحزن الناس عليه حزناً لم يحزن قبله مثله ، ثم إن الأفضل عمل لوالده تربة مقابل الكلاسة ، وكانت داراً لرجل صالح ، ونقل إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين

(١) الكلاسة : هي مدرسة بجوار الجامع الأموي من شمال ، ولها باب إليه ، عمرها نور الدين الشهيد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

وسميت بهذا الاسم لأنها كانت موضع عمل الكلس أيام بناء الجامع ، ولما ملك صلاح الدين دمشق أمر بتجديدها وأول من صلى بها أبو جعفر أحمد بن علي القرطبي المتوفى سنة ٥٩٦ هـ .

انظر : الدارس في تاريخ المدارس ٤٤٨/١ .

(٢) سورة الحشر : الآية ١٢ .

(٣) هو عبد الملك بن زيد بن يسر العلبي الدولمي ، خطيب دمشق .

والدولمية قرية من قرى الموصل ، قدم دمشق واستوطنها وسار خطيبها ، توفي سنة ٥٩٨ هـ . وفيات الأعيان ٢٠٢/٦ ، النجوم الزاهرة ١٨١/٦ .

ومشى بين يدي ناهوته ، ووضع في (٤٩ أ) الجامع ، وصلى عليه القاضي محيي الدين بن الزكي ، وجلس ابنه للعزاء ثلاثة أيام ، وأنفقت أخته ست الشام أموالاً عظيمة .

قال العماد^(١) : « مات بموته رجاء الرجال ، وأظلم لغروب شمس فضاء الأفضال ، وغاضت الأيادي ، وفاضت الأعادي ، وانقطعت الأرزاق ، وأظلمت الآفاق ، وفجع الزمان بواحدة وسلطانه ، ورزى الإسلام بمشيد أركانه » .

ورثاه الشعراء ، وبكاه الفصحاء ، فمن ذلك قصيدة للعماد ، مائتان وعشرون بيتاً أولها:

والدهر ساء وأقلعت حسناته
له خالصة صلت نياته ؟
مبذولة ولربه طاعاته ؟
يرجى نداءه وتتلقى سطواته ؟
وسمت على الفضلاء تشريفاته ؟
أطواق أجساد الوري مناته
أجدي لطب الدهر تدبيراته
بالنصر حتى أغمدت صلحاته
حتى توارت بالصليح قناته
روحاته ميمونة ضحواته
بل عم كل العالمين مماته
أبدأ ، لماذا أسلمته حماته ؟
لما خلت من بدره داراته
أودي إلى يوم النشور رفاته
بهوى ولا تهوى بنا مهواته
فبنا بظم وتنتهى زخراته

شمل الهدى والملك عم شتاته
بالله أين الناصر الملك الذي
أين الذي كانت له طاعاتنا
أين الذي ما زال سلطاناً لنا
أين الذي شرف الزمان بفضله
أعلاق أعناق العدا أسيفه
لم يجد تدبير الطبيب وكم وكم
من في الجهاد صفاحه ما أغمدت
من في صدور الكفر صدر قناته
منصورة غدواته محمودة
لا تحسبوه مات شخص واحد
ملك عن الإسلام كان محامياً
قد أظلمت منذ غاب عنا دوره
دفن السماح فليس ينشر بعدما
ما كنت أعلم أن طوداً شامخاً
ما كنت أحسب أن بحراً ظامياً

(١) انظر الفتح القسى ١٥٤/٢ ، مرآة الزمان ٤٣١/٨ ، تاريخ ابن الوردي ١٥٤/٢ .

الدين بعد أبي المظفر يوسف
بحر خلا من وارديه ولم تزل
من لليتامى والأرامل راحم
لو كان في عصر النبي لأنزلت
بكت الصواهل والصوارم إذ خلت
يا وحشة الإسلام حين تمكنت
ما كان أسرع عصره لما انقضى
يا راعياً للدين حين تمكنت
ما كان ضرك لو أقيمت مُراعياً
فارقت ملكاً غير باق مُتعباً
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً

أقوت قواه انقضت ساحاته
مخطوفة موفودة حالاته (٤٩ب)
متعطف مفضوضة صدقاته ؟
في ذكره من ذكره آياته
من سلها وركوبها عزماته
من كل قلب مؤمن روعاته
فكأنما سنواته ساعاته
منه الذناب وأسلمته رُعاته
ديناً تولت منذ رحلت ولاته
ووصلت ملكاً باقياً راحاته
رضوان رب العرش بل وصلاته

وقال ابن الساعاتي يرثيه ويمدح ولده العزيز :

لئن كان ليل الحرب عرى غياهمه
وان كان ليل الغاب خلى عرينه
وان فارق الغمد المحلى حسامه
وان أقر القسطنطين منه فزانه
أقام عماد الدين رفع بناله
يرد الميون الشوس عنه كليله
كان شعاع الشمس بلباك دونه
ومن كان في السعى أبوه دليله
هو البحر حدث عنه غير مكذب
وقال ابن شمس الخلافة (١) :

فقد بان عن بدر السماء كواكبه
وغاب ، فهذا شبهه وكتائبه
فهذا حسام لا تقل مضاربه
منازله مأهولة وملاعبه
فما ضل مسعاه ولا ذل جانبه
من الحق نور ليس يعسده لازيه
ولم تر ملكاً حاجب الشمس حاجبه
تدانت له أسبابه وسياسته
فما تنقضى أيامه وعجائبه

(١) هو أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة أبو عبد الله محمد بن شمس الخلافة مختار الأفضلي الملقب
بمجد الملك ، ولد سنة ٥٤٣ هـ ، وتوفي سنة ٦٢٢ هـ . وفيات الأعيان ١/٣١٣ .

يشوب الرضى بالسخط والسلم بالحرب
ويشرق قبل الرى بالبارد العذب
فلا يد من أخذ ولا يد من سلب (٥٠ أ)
فللموت من ربي ، وللموت من ربي
وعاتبته دهرى لو غدا مجدياً عتبي
إليك فما سمى إلى ولا قلبى
ومسد بدأ منه إلى دافع الخطب
قلوب البرايا من رجاء ومن رعب
لينزله إلا على السهل والرحب
لخاب وليس البخل من شيم السحب
وحطت رحال الوفد فى الشرق والغرب
ولم يخل طرف من سهاد ومن سكب
ففاضت عليه أعين العجم والعرب
لسالت دموع المزن من أعين الشهب
بأصلب عزم من مقارية الصلب
فمخ ماجد ندب إلى ماجد ندب (١)

هو الدهر فاعلم ما على الدهر من عتب
يفص ولم يشبع بأطيب مطعم
وان هو أعطى أو كسباً متكلماً
فلا تأمن الموت شيخاً وبافماً
بكيت من الأيام لو ينفع البكا
فيأمرنى بالصبر ، والصبر معوز
أنت ترى كيف انبرى الخطب ثائراً
إلى الناصر الملك الذى ملئت به
كريم أتاه الموت ضيفاً فلم يكن
ولو خاب منه قبل ذلك سائل
قضى فانقضى المعروف وانقرض الندى
فلم يخل قلب من هموم ومن أسى
أفاض على الدنيا سجال نواله
ولو أنه يبكى على قدر حقه
وأصبح للبيت المقدس منقذاً
وان هو أوصى للمعزى بملكه

وكتب الفاضل إلى ولده الظاهر بطاقة ساعة موته (٢) : « لقد كان لكم فى رسول الله
أسوة حسنة » (٣) ، « إن زلزلة الساعة شىء عظيم » (٤) ، كتبت إلى مولانا السلطان ،
الملك الظاهر أحسن الله عزاءه ، وجبر مصابه ، وجعل فيه الخلف فى الساعة المذكورة ، وقد
زلزل المسلمون زلزلاً شديداً ، وقد حفرت الدموع المهاجر ، وبلغت القلوب الحناجر ، وقد

(١) ورد بعض أبيات هذه القصيدة فى الروضتين ٢٢٤/٢ .

(٢) وردت فى مرآة الزمان ٤٣٢/٨ ، وفيات الأعيان ٢٠٤/٦ ، النجوم الزاهرة ٥٣/٦ ، تاريخ ابن الوردى

١٥٣/٢ .

(٣) سورة الأحزاب : الآية ٢١ .

(٤) سورة الحج : الآية ١ .

ودعت أباك ، ومخدومي وداعاً لا تلاقى بعده ، وقبلت وجهه عنى وعنك ، وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة ، ضعيف القوة ، راضياً عن الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وبالباب من الجنود المجتدة ، والأسلحة المغمدة ، ما لا يدفع البلاد ، ولأملك يرد القضاء وتدمع العين ، يخشع القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وإنا عليك لمحزونون يا يوسف ، وأما الوصايا فما تحتاج إليها ، والآراء فقد شغلني المصاب عنها ، وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق (٥٠ ب) فما عدتم إلا شخصه الكريم ، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته ، وهو الهول العظيم .

وكتب الفاضل على قبره : اللهم فارض عن تلك الروح ، وافتح له أبواب الجنة ، فهو آخر ما كان يرجوه من الفتوح .

ذكر ما فتحه الملك الناصر من البلاد

أول ما فتح الديار المصرية والحجاز ومكة والمدينة ، ومن زبيد إلى حضرموت^(١) متصلاً بالهند . وفي الشام : دمشق وبعبك وحمص وحماة الساحل ، ونذكره قريباً . ومن الشرق : حران والرها والرقه ورأس عين وسنجان ونصيبين وحميلين والمورب وديار بكر وميافارقين وآمد^(٢) وحصونها وشهرزور والبوازيج^(٣) وخطب له (على المنابر) من باب همذان إلى الفرات ، ومن الفرات إلى حضرموت ، ومن الغرب إلى أفريقيا . ويقال : إنه فتح ستين حصناً ، وزاد على نور الدين بمصر والحجاز واللموت واليمن والقدس والساحل وديار بكر . ولو عاش لفتح الدنيا . وهو ونور الدين متقاربا السيرة في العدل ، وكلاهما لم يبلغ الستين

(١) حضرموت : ناحية واسعة في شرق عدن بقرب الساحل . معجم البلدان ٢٧٠/٢ .

(٢) آمد : أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذكراً . معجم البلدان ٥٦/١ .

(٣) البوازيج : بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث تصب في دجلة . معجم البلدان ٥٠٣/١ .

ملك مصر نحو أربع وعشرين سنة والشام قريباً من تسع عشرة سنة . ومدة عمره قريب من سبع وخمسين سنة .

وأما ما فتحه من البلاد الفرنجية على ما ساقه الدوادار : فحصن صفورية بالسيف ، حصن الطور تسليماً ، حصن دبورية^(١) بالسيف ، قلعة الفولة^(٢) تسليماً ، حصن عفر بلا^(٣) تسليماً ، حصن جنين تسليماً ، حصن مسطية تسليماً ، حصن كرك تسليماً ، حصن عفرى^(٤) بالأمان ، بيت لحم^(٥) حصن الغازرية تسليماً ، حصن الجليل^(٦) بالأمان ، حصن جبريل بالأمان ، قلعة تل الصافية^(٧) تسليماً ، حصن أيايا بالأمان ، قلعة الجيب فوقاني بالأمان ، حصن الجيب التحتاني^(٨) بالأمان ، حصن النطرون بالأمان ، حصن الداروم بلا قتال ، حصن المجدل ، حصن الأحمر بالسيف ، حصن لد بالسيف ، حصن ، حصن قلنسوة^(٩) بغير قتال ، حصن الفاقون كذلك ، حصن العون بالسيف ، حصن يبنى^(١٠) بالسيف ، قلعة الكرك بعد حصار سنة ونصف ، قلعة الشوبك بالأمان ، قلعة السلع^(١١) والوعيرة^(١٢) والجمع^(١٣) قلعة صغد بعد الحصار ، حصن يازور ، قلعة

-
- (١) دبورية : بليد قرب طبرية من أعمال الأردن . معجم البلدان ٤٣٧/٢ .
(٢) الفولة : بلدة بفلسطين من نواحي الشام . معجم البلدان ٢٨٠/٤ .
(٣) عفر بلا : بلد بنور الأردن قرب بيسان وطبرية . معجم البلدان ١٣١/٤ .
(٤) عفرى : حصن شمال القدس . النوادر السلطانية ٢٤٨ .
(٥) بيت لحم : بليد قرب البيت المقدس . معجم البلدان ٥٢١/٢ .
(٦) حصن الجبل : في ساحل الشام . معجم البلدان ١٥٧/٢ .
(٧) تل الصافية : حصن من أعمال فلسطين من نواحي الرملة . معجم البلدان ٤٢/٢ .
(٨) الجيب فوقاني والجيب التحتاني : حصنان بين المقدس نابلس . معجم البلدان ١٩٦/٢ .
(٩) قلنسوة : حصن قرب الرملة من أرض .
(١٠) يبنى : بليد قرب الرملة من أرض فلسطين . معجم البلدان .
(١١) السلع : حصن بوادي موسى قرب بيت المقدس . معجم البلدان ٢٣٦/٣ .
(١٢) العيرة : حصن قرب وادي موسى . معجم البلدان ٣٨٠/٥ .
(١٣) الجمع : قلعة بوادي موسى قرب الشبك . معجم البلدان ١٦٢/٢ .

هونين بالأمان ، قلعة تبنين تسليماً ، شقيف أرنون تسليماً اسكندرونة وقلعة أبي الحسن وحصن بلدة وحصن يحمور بالأمان . حصن بلياس . حصن صهيون وربضه بالسيف ، قلعة بلاطس (٥١ أ) حصن الجماهيرية^(١) ، قلعة الفيذوة ، قلعة بكاس ، قلعة الشفر ، بكسرايل^(٢) قلعة السرمانية ، قلعة البرزبق ودربساك وبغراس ، حصن الدامور والسرفند والشقيف بحصار ثلاث سنين ، الرملة بالسيف ، طبرية بالسيف ، عكا بالصلح ، حيفا وبافا وعسقلان وغزة^(٣) وصيدا وانطرسوس وجبله واللاذقية ونابلس وبيت المقدس .

ذكر ما بنى من الأماكن

لما ملك مصر لم يكن بها شيء من المدارس ، فعمر بالقرافة المدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعي بالقاهرة ، والمدرسة المجاورة للمشهد (المنسوب إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما) وجعل عليها وقفاً كبيراً والخانقاه المعروفة بـ « سعيد السعداء » وهي دار سعيد السعداء خادم (الخلفاء) المصريين ، ودار عباس وزير المصريين مدرسة للحنفية ولها وقف جيد ، والمارستان بالقاهرة داخل القصر وله وقف جيد ، والمدرسة التي بمصر المعروفة بـ « زين التجار » على المالكية ولها وقف جيد ، ومدرسة للمالكية أيضاً . وله بالقدس مدرسة وخانقاه ، وجدد أماكن كجامع عمرو وغيره ، وله المدارس والأوقاف بالأقطار ، ووقف الكثير على أبواب البر ، ووقف على البكرية والعمرية والشيبية ، ولم ينسب شيئاً من ذلك إلى نفسه فالمدرسة التي بالقرافة يقولون : الشافعي . والتي بجوار المشهد تعرف بالمشهد ، والخانقاه بسعيد السعداء ، ومدرسة الحنفية بالسيوفية ، والمالكية بهم ، والشافعية بزين التجار ، وهذه صدقة السر على الحقيقة . ومن العجب أن له بدمشق مدرسة يقال لها : الصلاحية منسوبة إليه ، ليس لها وقف ، وله بها مدرسة للمالكية لا تعرف به . ومع هذه المملكة

(١) حصن الجماهيرية : حصن قرب جبله من سواحل الشام . معجم البلدان ١٦٠/٢ .

(٢) بكسرايل : حصن من سواحل حمص مقابل جبله في الجبل . معجم البلدان ٤٧٥/١ .

(٣) بعد غزة ذكر الداروم ، وقد ذكرت سابقاً .

المتسعة لم يخلف سوى سبعة وأربعين درهماً وديناراً واحداً . وقال العماد : ستة وثلاثين ، ولم يخلف داراً ولا عماراً ، وهذا دليل قاطع على فرط كرمه .

ذكر بعض ترجمته مما لا يدخل تحت السنين وذكر قضاياه وكتابه

كان كثير التواضع واللطف ، قريباً من الناس ، رحيم القلب ، كثير الاحتمال والمداراة . يحب العلماء وأهل الخير ، ويقربهم ويحسن إليهم ، ويميل إلى الفضائل ، ويستحسن الجيد من الأشعار ويردها ، وكان كثيراً ما ينشد قول محمد بن الحسين الحميري ، وقيل : بل ابن خيران^(١) أمير المرية :

وزارني طيف من أهوى على حذر
فكدت أوقف من حولي به فرحاً
ثم انتهيت وآمالي تخيل لي
من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا ٥١ ب
وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
نيل العنى فاستحالت غبطني أسفا^(٢)

وكان يعجبه قول نشو الملك ابن المنجم في خضاب الشيب ، ولقد أحسن فيه :

وما خضب الناس البياض لقبحه
ولكنه مات الشباب فسودت
وأقبح منه حين يظهر ناصله
على الرسم من حزن عليه منازل^(٣)

(١) هو أبو محمد بن علي بن خيران العامري ، كان أميراً بالمرية من بلاد الأندلس ، وكان جده من سبي المنصور بن أبي عامر فنسب إليه . وفيات الأعيان ٢٠٧/٦ .
(٢) وردت هذه الأبيات في وفيات الأعيان ٢٠٧/٦ ، النجوم الزاهرة ٥٦/٦ ، الغيث المسجم ١٤٦/١ .
(٣) ورد البيتان في وفيات الأعيان ٢٠٧/٦ ، النجوم الزاهرة ٥٦/٦ .

فكان إذا قال : ولكنه مات الشباب يمسك كريمته^(١) وينظر إليها ويقول : إى والله
مات الشباب ا وذكر في الخريدة أن السلطان كتب في أول ملكه إلى بعض أصحابه :

أيها الغائبون عنا وان كنتم
إننى منذ فقدتكم لأراكم
تم لقلبي بذكركم جيرانا
بعيون الضمير عندى عيانا^(٢)

ومن محاسن السلطان أن صاحب ديوانه حوسب ، فخرج عليه تسعون ألف دينار فما
طلبها ، ولا أراه أنه عرف بها وولاه بعد ذلك ديوان جيشه ، وكان إذا فتح بلداً وهبه لبعض
أقاربه أو أتباعه . وقدم إليه مملوك قصة ، فقال : أنا الساعة ضجر ، فلم يؤخرها المملوك ،
وقدمها إلى وجهه فلما قرأ اسم صاحبها . قال : إى والله رجل مستحق ، ثم نظر ، فإذا
الدواة بعيدة فامتد على يده اليسرى حتى أخذ الدواة . وقال القاضي شهاب الدين : نفرت
بغلتى ، وأنا راكب فى خدمته ، فزحمت وركه ، حتى أقلقه من الوجع وهو يبتسم .
وبدلت فى خزائنه كيسين من الذهب بكيسين من الفلوس فلم يعمل فى المباشرين شيئاً
سوى صرفهم . وكان إذا عزم على أمر توكل على الله . ولا يفضل يوماً على يوم . وكان
حسن الأخلاق ، صبوراً على ما يكره ، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه ، يسمع ما يكره
فلا يتغير على قائلة . وكان يوماً جالساً فرمى بعض المماليك بعضاً بسموزة فأخطأته ووقعت
بالقرب من السلطان فالتفت إلى الجهة الأخرى ليتغافل عنها . وقرأ محضراً فى الفقه
تصنيف سليم الرازى^(٣) ومدحه جميع شعراء عصره وانتجموه من البلاد ، منهم العلم

(١) إى : لحينه .

(٢) ورد البيهقان فى الروضتين ٤١٠/١ ، ومفرج الكروب ١٧٢/١ ، وفيات الأعيان ٢٠٧/٦ ، النجوم
الزاهرة ٥٧/٦ ، تاريخ ابن الفرات ٦٦/٤ .

(٣) هو سليم بن أيوب بن سليم الرازى الشافعى ، فقيه أصله من الرى ، تفقه فى بغداد ورابط بشفر لور وحج
ففرق فى البحر عند ساحل جدة سنة ٤٤٧ هـ .

انظر : طبقات السبكي ١٦٨/٣ ، شذرات الذهب ٢٧٥/٢ .

الشاتاني (١) واسمه محمد ، أول القصيد :

أرى اللصر مقروناً برأيتك الصلوا
فيسر وأملك الدنيا فأنت بها أخرى ١٥٢

والمهذب عمر المعروف بابن الشحنة (٢) بقصيدته التي أولها :

سلام مشوق قد براه التشوق
على جيرة الحى الذين تفرقوا

ومنها :

وانى امرؤ احببتكم لمكارم
وقالت لى الآمال إن كنت لاحقاً
سمعت بها والأذن كالعين تعشق
بأبناء أيوب فأنت الموفق

ومدحه ابن قلاقس (٣) وابن سناء الملك ، وابن الذرورى (٤) ، وابن المنجم ، وابن
الساعاتى وابن البحرانى (٥) ، وابن دهن الحصى (٦) ، ومحمد الخيرانى (٧) ، وغيرهم ،

(١) نسبة إلى شاتان : وهى قلعة بديار بكر ، وهو الحسن بن على بن سعيد بن عبد الله ، أبو الحسن علم الدين ، كان أديباً شاعراً فاضلاً ، توفى سنة ٥٧٦ هـ . وفيات الأعيان ٢٨٦/١ ، وقد توهم المؤلف بأن اسمه محمد . انظر : معجم البلدان ٣٠٤/٣ .

(٢) المهذب أبو حفص عمر بن محمد بن على بن أبى نصر المعروف بابن الشحنة الموصلى . النجوم الزاهرة ٥٨/٦ .

(٣) هو أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن مخلوق بن على بن عبد القوى بن قلاقس ، كان شاعراً مجيداً ، توفى سنة ٥٦٧ هـ . وفيات الأعيان ٢١/٥ .

(٤) نسبة إلى دروة ، بلد باليمن وهو وجيه الدين على بن الحسن الذرورى ، من مشاهير الشعراء بمصر ، توفى سنة ٥٧٧ هـ . (الخريدة - قسم الشعراء) .

(٥) هو محمد بن يوسف بن حمد الملقب موفق الدين الأربلى الشاعر المشهور ، كان إماماً مقدماً فى علم العربية توفى سنة ٥٨٥ هـ . النجوم الزاهرة ٥٩/٦ حاشية ٦ .

(٦) هو الحسن بن هبة الله بن دهن الحصى الموصلى ، توفى سنة ٦٠٣ هـ . الفصون البالغة ص ٨١ .

(٧) فى وفيات الأعيان ٢١١/٦ ، محمد بن إسماعيل بن حمدان الخيرانى .

ومن مدحه ابن التعاويذي^(١) بقصيدتين الأولى على وزن قصيدة صردر^(٢) وأولها :
أكذا يجازى ود كل قرين
أم هذه شيم الأطباء العين
(وقصيدة سبط ابن التعاويذي) :

إن كان دينك في الصبابة ديني
والثم ثرى لو شارفت بي هضبه
وأنشد فوادى في الأطباء معرضاً
ونشيدتى بين الخيام ، وإنما
لولا العدا لم أكن عن الحاظها
لله ما اشتمت عليه قباهم
من كل تائهة على أترابها
خود ترى قمر السماء إذا بدت
غادين ما لمعت بروق ثفورهم
إن تنكروا نفس الصبا فلأنها
وإذا الركنائب في الجبال تلفتت
يا سلم إن ضاعت عهدى عندكم
أو عدت مغبونا فما أنا في الهوى
رفقا فقد عسف الفراق بمطلق الـ
ما لي ووصل الفانيات أرومه
وعلام أشكو والدماء مطاحة
هيهات ما للبيض في ود امرئ
ومن الهلية أن تكون مطالبى
ليت الضنين على المحب بوصله

فكف المطى برملى ببرين
أيدى المطى لثمته بجفونى
فبغير غزلان الصريم جنوبى
غالطت عنها بالضباء العين
وقدودها بجوازيء وغصون
يوم النوى من لؤلؤ مكنون
في الحسن غانية عن التحسين
ما بين سائلة لها وجبين
إلا استهلكت بالدموع جفونى
مرت بزفرة قلبى المحزون
فحنينها لتلفتى وحنينى
فأنا الذى استودعت غير أمين
لكم بأول عاشق مغبون
عبيرات فى أسر الفرام رهين
ولقد بخلن على بالماعون
بلحاظهن إذا لوين ديولى (٥٢ب)
أرب وقد أرى على الخمسين
جدوى بخيل أو وفاة خوون
لكن السماحة من صلاح الدين

(١) محمد بن عبد الله بن عبد الله المعروف بابن التعاويذي ، توفى سنة ٥٨٤ هـ . وفیات الأعيان ٩٠/٤ .
(٢) هو رئيس أبو منصور على بن الحسن بن الفضل الكاتب المشهور بصردر ، توفى سنة ٤٦٥ . النجوم
الزاهرة ٩٤/٥ .

وأما القصيدة الثانية فهي :

حَتَامَ أَرْضِي فِي هَوَاكَ وَتَغْضِبُ ؟
مَا كَانَ لِي لَوْلَا مَلَائِكُ زَلَّةِ
خَذَ فِي أَفَانِينَ الصَّدُودِ فَإِنْ لِي
أَتَقَنَّي أَضْمَرْتِ بَعْدَكَ سَلْوَةَ ؟
لِي فَبِكَ نَارُ جَوَانِحِ مَا تَنْظَفِي
أَنْسَيْتِ أَيَّامًا لَنَا وَلِيَالِيَا
أَيَّامَ لَا الْوَأَشَى بَعْدَ ضَلَالَةِ
قَدْ كُنْتُ تَنْصَلِفُنِي الْمَوْدَةَ رَاكِبَا
وَالْيَوْمَ أَقْنَعُ أَنْ يَمُرَ بِمُضْجَعِي
مَا خَلْتُ أَنْ جَدِيدَ أَيَّامِ الصَّبَا
حَتَّى أَنْجَلِي لَيْلَ الْغَوَايَةِ وَاهْتَدَى
وَتَتَأَفَّرُ الْبَيْضُ الْحَسَانَ فَأَعْرَضْتُ
قَالَتْ وَرَبِعْتَ مِنْ بِيَاضِ مَفَارِقِي
إِنْ تَنْقَمِي سَقَمِي فَخَصْرِكَ نَاحِلِ
يَا طَالِبَا بَعْدَ الْمَشِيبِ غَضَارَةَ
أَتُرُومُ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ تَعْمَدَا
وَمَنْ السَّلَفَاءُ وَقَدْ شَاكَ طَلَابَهُ
لَوْلَا الْهَوَى الْعَذْرَى يَا دَارَ الْهَوَى
كَلَّا وَلَا اسْتَجْدَيْتِ أَخْلَافَ الْحَيَا

وَالِي مَتَى تَجْنِي عَلَيَّ وَتَعْتَبُ ؟
لَمَا مَلَلْتُ زَعَمْتَ أَنِّي مَذْنُوبُ
قَلْبِي عَلَى الْعَمَلَاتِ لَا يَتَقَلَّبُ
هَيْهَاتَ ، عَطْفِكَ مِنْ سَلْوَى أَقْرَبُ
حَزْنًا وَمَاءَ مَدَامِعِ مَا يَنْضَبُ
لِلْهُوِّ فِيهَا وَالْبَطَالَةَ مَلْعَبُ
وَلَهِيَ عَلَيْكَ وَلَا الْعِذُولُ يُوْتِبُ
فِي الْحَبِّ مِنْ أَخْطَارِهِ مَا أَرْكَبُ
فِي النَّوْمِ طَيْفَ خِيَاكِ الْمَتَاوِبُ
يَبْلَى وَلَا ثَوْبَ الشَّبِيبَةِ يُسَلَبُ
سَارَى الدَّجَى وَانْجَابَ ذَاكَ الْغِيهَبُ
عَنِّي سَعَادَ وَأَنْكَرْتَنِي زَيْنَبُ
وَنَحُولِ جَسْمِي : يَا مَنْكَ الْأَطْيَبُ
أَوْ تَنْكَرِي شَيْبِي فَتُفْرِكِ أَشْنَبُ
مَنْ عَيْشُهُ ذَهَبُ الزَّمَانِ الْمَذْهَبُ
وَصَلَ الدَّمَى ؟ هَيْهَاتَ عَزَّ الْمَطْلَبُ
نَفْعًا تَطْلُبُهُ وَفُودَكَ أَشْيَبُ
مَا هَاجَ لِي طَرِبًا وَمَيْضَ خَلْبُ
وَنَدَى صِلَاحِ الدِّينِ هَامَ صَيْبُ (٥٣ أ)

أما قضائه ووزراؤه وكتابه ، فالقضاة : القاضي كمال الدين الشهرزوري ، وشرف الدين بن أبي عصرون ، وولده أبو حامد ، ومحيي الدين بن الزكي ، ووزيره الصفي بن القابض (١) وكتابه القاضي الفاضل والعماد الكاتب . وكان الفاضل هو المشار إليه لا يصدر السلطان إلا عن رأيه .

(١) صفي الدين أبو الفتح بن القابض المتوفى سنة ٥٨٧ . الفتح القسي ٥٧٦ .

ذكر أولاد الملك الناصر

وهم ثمانية عشر وبنثاً ، مات واحد منهم فى حياته وهو الصالح معين الدين حسن ،
وخلف الباقي . وقيل : سبعة عشر . وقيل : بل هم ستة عشر . وهم : الأفضل نور الدين
على ، وهو الأكبر ، ولد بمصر سنة خمس وستين . العزيز عماد الدين عثمان ، ولد بمصر
سنة سبع وستين . الظاهر غياث الدين غازى (ولد) بمصر سنة ثمان وستين . المعز فتح
الدين اسحاق ولد سنة سبعين المؤيد نجم الدين مسعود (ولد) بدمشق سنة إحدى وسبعين .
الأعز شرف الدين يعقوب (ولد) بمصر سنة اثنتين وسبعين . المفضل قطب الدين موسى
(ولد) بمصر سنة ثلاث وسبعين . الزاهر وقيل الزاهد فخر الدين ، وقيل بحير الدين داود
(ولد) بمصر سنة ثلاث أيضاً . الأشرف عز الدين ، وقيل نصير الدين محمد بمصر سنة
سبع وسبعين . المعظم فخر الدين توران شاه (ولد) بمصر سنة سبع أيضاً . الجواد ركن
الدين ، وقيل نجم الدين أيوب (ولد) سنة ثمان وسبعين . العادل ، وقيل الغالب ملك شاه ،
وقيل الغالب فروخ شاه (ولد) بالشام سنة ثمان أيضاً . عماد الدين شاذى وهو عمر ولم
يذكره بعضهم المنصور نصره الدين ، وقيل سيف الدين أبو بكر ، وقيل إنهما اثنان ، فأبو
بكر سيف الدين ، ونصرة الدين مروان ، ولد بخران بعد وفاة والده سنة تسع وثمانين ،
والبنت مؤنسة خاتون .

الأشقاء ، منهم ثلاثة : على ، خضر ، موسى . ثلاثة أيضاً : توران شاه ، ملك شاه ،
أبو بكر . اثنان : عثمان ، يعقوب ، اثنان آخر : غازى ، داود . اثنان آخر : محمد ، أحمد .
ويأتى ذلك مفصلاً .

ذكر ما تجدد بعد وفاته

استقر الأمر بعد وفاته بدمشق لولده الأفضل (نور الدين على) وهو ولي العهد وأكبر أخوته ، والمحلوف له (٥٣ ب) ، وعنده شقيقاه الظافر على بصري ، والمفضل . وبمصر العزيز عثمان . وبحلب الظاهر غازي ، وعنده أخوه الزاهر داود . وبحران والرها وميافارقين وجعبر^(١) والكرك والشوبك العادل أبو بكر . وحماة والمعرة وسلمية^(٢) ومنبج المنصور محمد . وبعليك الأمجد بهرام شاه ، وحمص والرحبة^(٣) المجاهد شيركوه (بن محمد بن شيركوه) وبيد جماعة من أمراءه بلاد ، منهم (سابق الدين عثمان بن الداية بيده شيزر وأبو قبيس . وناصر الدين بن منكورس صهيون وحصن برزية . وبدر الدين دلدريم^(٤) تل باشر^(٥) وعز الدين أسامة^(٦) كوكب وعجلون . وعز الدين بن المقدم بعين وكفر طاب وقامية^(٧) . وعين تاب^(٨) بيد ناصر الدين شحنة حلب .

ولما بلغ العادل وفاته عظم عليه وقدم على الأفضل معزياً ، وأقام وظيفة العزاء ، ثم توجه إلى بلاده الشرقية . وتأتى بقية الأخبار ، وأقول كما قال ابن خلكان : وعذرى فى تطويل هذه الترجمة قول المتنبي :

-
- (١) جمعبر : قلعة على الفرات بين بالس والرقه . معجم البلدان ١٤٢/٢ .
 (٢) سلمية : بليدة من ناحية البرية من أعمال حماة . معجم البلدان ٢٤٠/٣ .
 (٣) الرحبة : ناحية بين المدينة والشام . معجم البلدان ٣٣/٣ .
 (٤) هو بدر الدين بن دلدريم بن باروق المتوفى سنة ٦١١ هـ . أبو الفداء ١١٥/٢ ، مفرج الكروب ٢٢٤/٣ .
 (٥) تل باشر : قلعة حصينة وكورة واسعة شمالى حلب . معجم البلدان ٤٠/٢ .
 (٦) مات فى سجن الكرك سنة ٦٠٨ هـ ، وكان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل . مفرج الكروب ٢١٠/٣ .
 (٧) فامية : مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص . معجم البلدان ٢٣٣/٤ .
 (٨) عين تاب : قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية . معجم البلدان ١٧٦/٤ .

وقد أطلال ثنائى طول لابسه
ان الثناء على التنبال تنبال (١)

التنبال بكسر التاء: الرجل القصير .

ومنهم الملك العزيز طفتكين (٢)

وقيل : طفتكين بن أيوب بن شاذى ، الملك العزيز سيف الإسلام ظهير الدين ، صاحب اليمن أخو صلاح الدين ، سيره أخوه إلى سنة ثمان وسبعين وخمسة ليملكها ويقطع الفتن ، كان بها حطان بن سند الكنانى (٣) ، وعز الدين عثمان الزنجبيلى (٤) قد عادا إلى ولايتهما فإن الأمير الذى سيره السلطان على نيابة اليمن عزلهما ثم توفى ، فعادا إلى ولايتهما ، فوصل سيف الإسلام والفتن قائمة بينهما ، فتحصن حطان ببعض قلاع زبيد (٥) فلم يزل يتلطف به إلى أن نزل فأحسن صحبته ، ثم إنه طلب دستوراً للمسير إلى الشام ، فلم يجبه إلا بعد جهد ، فجهز حطان أثقاله قدامه ودخل ليسلم على سيف الإسلام فقبض عليه وأرسل فاسترجع أثقاله وأخذ جميع ماله ومن جملة ما أخذ من ماله سبعون غلاف زردية مملوءة ذهباً عيناً ثم سجنه ببعض القلاع وكان آخر العهد به ، وأما عثمان فإنه لما جرى ذلك لحطان خاف فسار إلى الشام وسير أمواله فى البحر ، فصادفهم مراكب فيها أصحاب سيف الإسلام فأخذوا كل ما لعثمان وصفت بلاد اليمن لسيف الإسلام من زبيد إلى حضرموت وقمع الخوارج ، وكان شجاعاً شهماً وقد تقدم بعض أخباره فى ترجمة

(١) ديوان المتنبي ص ٥٠٥ .

(٢) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ٤٥٣/٨ ، وفيات الأعيان ٢٠٦/٢ ، مفرج الكروب ٧٢/٣ ، النجوم

الزاهرة ١٤١/٦ ، البداية والنهاية ١٥/١٣ ، الكامل ١٢٩/١٢ ، تاريخ ابن الوردي ١٦١/٢ ،

شذرات الذهب ٣١١/٤٠ .

(٣) قتله طفتكين سنة ٥٧٨ هـ عندما ملك اليمن . كثر الدرر ص ٧٣ .

(٤) هرب من اليمن إلى دمشق وسكن فيها إلى أن توفى سنة ٥٨٣ هـ . الدارس فى تاريخ المدارس ٥٢١ .

(٥) مدينة مشهورة باليمن . معجم البلدان ١٣١/٣ .

أخيه الناصر ، وكان شديد السيرة مُضيّقاً على الرعية يشتري أموال (٥٤ أ) التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء ، وجمع من الأموال الآلاف ، وكان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره .

ولما بلغه وفاة أخيه الناصر خرج يريد مصر فأشار عليه رجل شريف : إنك تخرج لبلاد لا يعلم تحصل لك أم لا ؟ وتترك بلاداً بفتنٍ فرجع إلى رأيه وتوفى في شوال سنة ثلاث وتسعين خمسمائة بزبيد بالمنصورة التي أنشأها ، وكانت ولايته اليمن ست عشرة سنة .

وكان قد طرد شمس الملوك إسماعيل إلى الحجاز لأمر نقمه عليه فكان بالسرين^(١) فبعث إليه جمال الدين كافر وعرفه بوفاة والده فملك بعده ، ولما نفى الناصر ابن عتین إلى اليمن اتصل بسيف الإسلام ، وحصل له أموال عمل بها متجراً وعاد إلى مصر ، وصاحبها العزيز ابن الناصر فأخذ منه زكاة ماله على عادة التجار فقال ابن عتین^(٢) :

ما كل ما يتسمى بالعزيز لها أهل ولا كل يرى سحبه غدقة
بين العزيزين بون في فعالهما هناك يعطى ، وهذا يأخذ الصدقة

ومنهم الملك العادل محمد^(٣)

ابن أيوب بن شاذي العادل سيف الدين أبو بكر وكنيته أشهر من اسمه ، قيل : إن مولده فتوح الرها ، وكان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وقيل : إن مولده سنة أربعين ،

(١) السرين : بلفظ تثنية السر . بليد قريب من مكة على ساحل البحر . معجم البلدان ٢١٩/٣ .

(٢) ديوان ابن عتین ص ٢٢٣ .

(٣) انظر ترجمته في مرآة الزمان ٥٩٤/٨ ، وفيات الأعيان ٢٠٧/٢ ، ذيل الروضتين ١١١ ، الوافي بالوفيات ٢٣٥/٢ ، تاريخ أبي الفداء ١٥٨/٣ ، البداية والنهاية ٧٩/١٣ ، اليوك ١٩٠/١ ، الدارس ٢٦٢/٢ ، ابن إيسار ٧٥/١ ، ابن الوردي ١٩٢/٢ ، النجوم الزاهرة ١٦٠/٦ ، أخبار الأيوبيين

وكان نبيلاً حازماً سديداً الآراء ، ذا مكر وخديعة ، حسن التدبير خليقاً للملك حليماً صفوحاً ، عادلاً مجاهداً ديناً عفيفاً متصدقاً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر طهر جميع ولايته من الفساد والخمور والخواطىء والمخانيث والقمار والمكوس والمظالم ، وكان يحصل من هذه الجهات بدمشق خاصة مائة ألف دينار ، دخلت بعض المغانى عليه فى عرس فقال لها : أين كنت ؟ قالت : ما قدرت أن أجيء حتى وفيت ما على من الضمان فقامت قيامته ، وتوعد على ذلك أشد الوعيد ، وفعل فى غلاء مصر بعد موت العزيز ما لم يفعله غيره ، وكان يخرج بنفسه فى الليل ويفرق المال ، ولولاه - بفضل الله - لمات الناس كلهم ، وكفن فى تلك الأيام من ماله ثلاثمائة ألف من الغرباء ، وكان إذا مرض تصدق بجميع ما عليه ، وثبت على زكى الدين^(١) قاضى دمشق لبيت المال عشرين ألف دينار ، فشرع القاضى يستدينها من الناس فقالت له بعض حظاياها رأيت رسول الله ﷺ فى (٥٤ ب) المنام وهو يوصيك بالقاضى فأسقط ما عليه ورده للقضاء .

ومما يحكى من حلمه أن مجد الملك ابن شمس الخلافة^(٢) قال : حصلت لى ضائقة مالية شديدة فعملت قصيدة أهجوه بها وأهجو ولده الكامل أولها :

يا ظالماً لقب بالعدال وناقصاً لقب بالكامل
أهلكتما الآن جميع الوردى لا عشتما دهرأ إلى قاهل

وأكثر من سبه وأتيت دار الوزارة ودفعتها لصواب الخادم فى جملة القصص فدخل بها إليه وهى مختومة ففتحها وحطها تحت ركبته إلى أن قام من مجلسه وصار وقت الظهر وخرج العسكر فاستدعانى وقال : ما حملك على هذا ؟ قلت : الفقر والضايقة فإما أن تقتلنى فأستريح ، وإما أن يشملنى إنعام السلطان فأمر لى بمائة دينار فقلت ولا بد من

(١) ركن الدين والتصحيح من مفرج الكروب ١٣٤/٣ ، وكنز الدرر ص ١٥٣ .

(٢) هو الشاعر المشهور أبو الفضل جعفر بن شمس الدين ، الملقب بمجد الملك ولد سنة ٥٤٣ هـ وتوفى

سنة ٦٢٢ هـ بمصر . وفيات الأعيان ٣١٣/١ ، شذرات الذهب ٢٦٨/٥ .

مركوب ، قال : تدفع له بغلة فخرجت من بين يديه ، ثم خطر لي طلب زيادة فشاور على الخادم فأذن لي فدخلت وقلت : لم يشملني إنعام السلطان بقوت العائلة فأمر لي بخمسين إردب قمحاً فقلت : وعلف البغلة ، فأمر لي بعشرين إردب شعيراً فخرجت ، ثم قلت للخادم أعدني إليه ، قال : أظنك مجنوناً ، فقلت : لا بد من العود ، فاستأذن لي ثلاثة فدخلت وقلت : لا بد من الخلعة ، قال : لا يمكن هذا تسمع الناس هجوك لنا ونخلع عليك ، قلت : فيكون هذا القدر الذي تصدق به السلطان راتباً آخذه كل سنة ، فقال : أحضر مسودة هذه القصيدة ، فقلت : ليس لها مسودة إلا حفظي لها على لساني ، فقال : قطعه الله ، وخرجت من بين يديه وقبضت ما أمر لي به :

ولا بن عنين الهجاء الخبيث ، يهجو على عادته الخبيثة (١) :

إن سلطاننا الذي نرتجيه واسع المال ضيق الإنفاق
هو سيف كما يقال ولكن قاطع للرسم والأرزاق

وقد تقدمت أحواله زمن أخيه ، ونذكر الآن ما جرى له بعده فنقول : كان العادل بالكرك عند وفاة أخيه فلما سمع به دخل دمشق فعمل عزاءه وتوجه إلى بلاده الشرقية فلما وصلها ثار عليه المشاركة : صاحب الموصل وصاحب إربل وصاحب الجزيرة ، فأرسل يستنجد بأولاد أخيه فأتته العساكر وحصل لصاحب الموصل إسهال فرجع وتوفى في شعبان سنة تسع وثمانين ، ومن العجب أن بكتمر - صاحب خلاط (٢) - لما بلغه موت السلطان فرح به ، وأسرف في إظهار الشماتة ، وعمل له تختاً يجلس عليه وسمى نفسه عبد العزيز ولقبها بالسلطان المعظم صلاح الدين ، فقتل في جمادى الآخرة فكان بينهما (٥٥ أ) دون نصف سنة ، وما أعجل موت المتعادين ، قال بعضهم : لما بلغ العادل موت بكتمر

(١) ديوان ابن عنين ص ٢٣٩ .

(٢) خلاط : وهي قصة أرمينية الوسطى . معجم البلدان ٢/٢٨١ .

أرسل يطلب نجدة فأرسل إليه الأفضل أخاه الظنفر ، وابن المعظم فلما وصلوا إليه طلبوا منه نفقة فأرسل إليهم شيئاً فاستقلوه ورجعوا إلى دمشق من غير دستور ، ونزل الظاهر في لمة قليلة على جانب الفرات ، فتركه العادل ومضى إلى سروج^(١) فتسماها لم حصر الرقة فتسلمها وأعطاهم للظافر ، ثم نزل على نصيبين وأخذها فبدل له عماد الدين بن زنكى مالا فدفعها له ، وكذا الخابور ، ووعدته أنه إن ملك خلاط يعيد الرقة وسروج ، ووصل إليه صاحب إربل وساروا إلى خلاط ، فلم ينل منها غرضاً فعاد إلى الرها ، وأعطي العساكر دستوراً .

ذكر أخذ الفرنج بيروت وعودها في

سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

انقضت هدنة صلاح الدين في هذه السنة ، فقصدوا جبيل وأخذوها ، قيل : إن صاحبها باعها بخمسة آلاف دينار صورية^(٢) ، وقيل : إنه خرج إلى الحمام ، ولم يكن بقي بالقلعة سوى أربعة أكراد فاعتصموا بالحصن ومنعوا الوالي من الدخول إليه ، وسلموها للفرنج على ثلاث ضياع ملكاً بطرابلس ، وذلك في صفر ، ثم كبس عسكر الأفضل جبيل وملكوها وقتلوا قريب المائة وأسروا مثلها ، ثم قصد الفرنج بيروت في جمع عظيم وبها أسامة الجبلي^(٣) فهرب فقال بعض الدماشقة^(٤) :

سلم الحصن ما عليك ملامة
 إن أخذ الحصون لا عن قتال
 أبعد الله تاجراً سن ذا البه
 ما يلام الذي يروم السامة
 سنة سنها ببيروت سامة
 ع وأخرى بخزيه من أسامة

(١) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مصر . معجم البلدان ٢١٦/٣ .

(٢) نسبة إلى صور ، وهو الدينار الذي ضرب في أيام الدولة الفاطمية . مفرج الكروب ٧٦/٢ هامش ٦ .

(٣) اعتقله الملك العادل في سجن الكرك إلى أن مات سنة ٦٠٨ هـ . مفرج الكروب ٢١٠/٣ .

(٤) انظر الأبيات في مرآة الزمان ٤٥٣/٨ ، والروضتين ٢٣٣/٢ ، مفرج الكروب ٧٤/٣ ، البداية والنهاية

١٥/١٣ ، وابن المجلد الرابع ١٣٣/٢ .

وذلك سنة ثلاث ، وقيل : أربع ، وسار العادل ونزل بتل العجول وأنت النجدة من مصر
وصاحب القدس ، وصاحب نابلس ، ثم سار إلى يافا وهاجمها بالسيف وملكها وقتل
المقاتلة، وهذا الفتح ثالث فتح لها .

ذكر وقعة تبنين سنة أربع تسعين

نزل الفرنج على تبنين فأرسل العادل يستنجد بالعزیز ، فخرج إلى الشام ، وكانوا قد
ضايقوا الحصن ونقبوه ، وجعلوا النقب مآكن يستظلون بها من المطر ، وكانوا يتحدثون
مع المسلمين منها ، فلما اشتد على أهلها الأسر طلبوا الأمان ، فقال بعض فرنج الساحل
للمسلمين : إن أنتم سلمتم الحصن لهذا القسيس استأسركم فاحفظوا نفوسكم ، وكان اسم
هذا القسيس الخنصليين ، فعاد المسلمون (٥٥ ب) كأنهم يراجعون من في القلعة فلما
صعدوا امتنعوا وقاتلوا قتال من يحامى عن نفسه وجاء العزیز ، فلو تأخر يوماً واحداً لأخذوها،
وأرسل الله في تلك الليلة مطراً عظيماً وأوقع في قلوب الفرنج الرعب ، فتركوا المجانيق بحالها
والخيم وهربوا ، وعاد العزیز إلى مصر وترك غالب العسكر مع عمه ، وجعل إليه أمر الحرب
والصلح .

ومات في هذه الليلة سنقر الطويل ، فجعل العزیز أمر القتال إلى قطق مملوك فروخ شاه ،
ولما عاد العزیز مدحه ابن سناء الملك بقصيدة أولها :

أقدمت بالسعد وبالمغنم	كذا قدوم الملك المقدم
قميصك الموروث عن يوسف	ما جاء إلا صادقاً في الدم
اغثت (تبنين) وخلصتها	فريسة من ماضى صنيفم
شنشنة تعرف من يوسف	في النصر لا تعرف من اخزم

ثم طاول العادل الفرنج فطلبوا الهدنة ، واستقرت بينهم ثلاث سنين ، ورجع إلى دمشق،
ثم سار إلى ماردين وحصرها وملكها ولم يبق إلا القلعة .

ذكر حصار الأفضل دمشق في سنة خمس وتسعين

لما توفي العزيز بمصر واستخلف ولده محمد ، وجعلوا عمه الأفضل مدبره تنكر منه جهاركس^(١) وجماعة ، وساروا إلى الشام وكاتبوا العادل وهو محاصر ماردین ، وورد على الأفضل رسول الظاهر أخيه وابن عمه صاحب حمص ، يحثانه على قصد دمشق ، وكانت للعادل استنابه فيها العزيز ، وقيل : إن العادل كان يقف في خدمة العزيز كالبرددار^(٢) فلما ملك العزيز دمشق سنة اثنتين وتسعين ، كان يوماً في محل أنس والعادل على بابه فقال لولده المعظم عيسى : ادخل إليه وقبل يده ، واطلب منه دمشق فوهبها له ، فخرج الأفضل من القاهرة وأرسل نواب العادل يعلمونه فقارق ماردین ، وخلف عليها ولده الكامل ، وحضر جريدة فسبق الأفضل بيومين وقيل : إن الأفضل سبق وإنه نزل بالميدان الأخضر ، فأشار عليه جماعة أن يتأخر إلى مشهد القدم^(٣) ، ليصل إليه الظاهر فتأخر وجاء العادل فدخل دمشق فكانت مكيدة ، وجاء الظاهر وصاحب حمص ، وعسكر الحصون ، وزحفوا على البلد رابع عشر شعبان ، وقيل : إن الظاهر ومن (٥٦ أ) ذكر معه لم يكونوا قد وصلوا ، وهو الصحيح ، وقيل : إن المجد أخا الفقيه عيسى اجتمع ببعض الأجناد ففتحوا له باب السلامة^(٤) فدخل ، ووصل إلى باب البريد^(٥) فلما رأهم العامة استسلموا ونزلوا عن الأسوار وبلغ العادل الخبر فكاد يسلم لكنه تماسك ، ونزل من القلعة وجاء إلى باب جيرون ، والمجد قائم على فرسه يشرب فقاعاً^(٦) فصاح العادل : يا فعلة ، يا صنعة ، إلى هنا ! ولما رأى قلة

- (١) فخر الدين جهاركس مقدم الصلاحية وكبيرهم ، توفي سنة ٦٠٧ هـ . مفرج الكروب ٢٠٨/٣ .
 (٢) كلمة فارسية مركبة من كلمتين : « برده » ومعناها : الحجاب ، و « دار » ومعناها : المحافظ . ومحافظ الحجاب هو الحاجب أو الحارس . النجوم الزاهرة ١٢٦/٦ ، هامش ٢ .
 (٣) مشهد القدم : هو من الآثار التي في مدينة دمشق وغوطها مما يرجى فيه إجابة الدعاء عند القطيعة . يقال إن هناك قبر موسى بن عمران . تهذيب تاريخ مدينة دمشق ٢٣٦/١ .
 (٤) باب السلامة : سمي بهذا الاسم تفاقماً لأنه لا يتهدأ القتال على البلد من ناحية لما دونه من الأنهار والأشجار . تاريخ مدينة دمشق ١٨٦/١ .
 (٥) باب البريد : هو الباب الثاني لدمشق كما في نزهة الأنام في محاسن الشام ص ٢١ .
 (٦) الفقاع : شراب يتخذ من الشعير أو من الأثمار ، سمي به لما يملوه من الزبد .

عسكر المصريين وثب عليهم وأخرجهم ، وأغلق باب السلامة ، وجاء إلى باب الفراديس (١) فوجدهم قد كسوا الأقفال بالمرزبات (٢) فقال : من فعل هذا ؟ قالوا الحنابلة ، فسكت ، قال والده المعظم : لما وصلنا مدرسة الحنابلة رمى على رأس أبي حب (٣) الزيت فأخطأ فوقع على رقبة الفرس فوقع ميتاً فنزل عنه وغيره ولم ينطق ، وتأخر الأفضل إلى ذيل الكسوة (٤) ووصل الظاهر فعاد إلى مضايقة دمشق وكاد العادل أن يسلم لولا ما وقع بين الأخوين من الوحشة ، ولما اشتد الأمر على أهل دمشق وقطعوا أشجارها ومياها ، بعث العادل إلى الظاهر : إني أسلم إليك البلد ، فطمع الظاهر وأرسل إلى الفاضل يقول : أنت صاحب مصر فاترك لي دمشق ، فقال : دمشق لي عن أبي ، وإنما أخذت مني قهراً ، فوقع الخلف بينهما ، وقيل : بل سبب الوحشة أنه كان للظاهر مملوك يحبه اسمه أيك ، ففقدته ووجد عليه وتوهم أنه دخل دمشق فأرسل يكشف خبره ، واطلع العادل على القصة فأرسل إلى الظاهر يقول له : إن محمود بن الشكري أفسده ، وحمله إلى أخيك فقبض الظاهر على محمود وتغير على أخيه وترك القتال ، وانسلخت منه خمسة وخمسة وأربعون ألفاً من دمشق .

ذكر رحيل الأفضل والظاهر عن دمشق

في سنة ست وتسعين

وجاء العادل أجنادين القدس (٥) ، ثم وصل الكامل في تاسع عشر صفر بعسكر الشرق ،

(١) باب الفراديس : شمال دمشق منسوب إلى محلة كانت خارج الباب تسمى الفراديس . تاريخ مدينة دمشق ١٨٦/٢ .

(٢) جمع مرزبة : عصية من الحديد .

(٣) حب : جرة .

(٤) الكسوة : قرية هي أول نزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر . معجم البلدان ٤٦١/٤ .

(٥) أجنادين القدس : موضع بالشام من نواحي القدس . معجم البلدان ١٠٣/١ .

فتركوا المكان إلى مرج الصفر^(١) وأقاموا إلى آخر صفر ثم سارا إلى رأس الماء ليقبلا إلى آخر الشتاء ، ثم انثنى عزمهما فسارا إلى بلادهما ، واحضر العادل بنى الحنبلى وقال : ما الذى دعاكم إلى كسر باب الفراديس ومظاهرة أعدائى ، وكان الأفضل قد وعد الناصح بالقضاء ، والشهاب بالحسبة ، فقال الناصح : أخطأنا وما ثم إلا عفو السلطان ، فقال : ما بدا منى إليكم ما يوجب ذلك ؟ ولولا أن يقال إنى أقتل الفقهاء ما أبقيتكم ، ولكن البلد لكم هبوه لى ، فأخرجهم إلى حلب ، وجرت بعد هذا واقعة لطيفة فى سنة عشر وستمائة جاء شخص اسمه نصر يشكو الشهاب ابن الحنبلى للعادل (٥٦ ب) وكان أولاده وقوفا فقال : يا مولانا السلطان هذا الرجل الوقف معه مدة يأكله ولا يوصل إلينا شيئا ، فقال العادل : كم له معه سنة ، قال نصر : من كسرة باب الفراديس ، فقال الأشرف : ذا تاريخ مشؤوم ، فضحك العادل .

ذكر ملك العادل مصر فى سنة ست وتسعين وخمسمائة أيضا

لما سار الأفضل إلى مصر أرسل العادل يقول له : أنا لك مثل الوالد ، وعندى كل ما تريد ، فقال : إن صح هذا فابعد عنك أعدائى الصلاحية ، فحركوا العادل على المسير لمصر فسار خلف الأفضل فكان كلما سار الأفضل من منزله نزلها العادل فنزل الأفضل بلبيس ، والعادل السائح^(٢) فرجع الأفضل وضرب معهم مصافا كسروه فيه وتفرق جمعه ودخل

(١) مرج الصفر : موضع بدمشق . معجم البلدان ١٠١/٥ .

(٢) السائح : هذا الاسم كان يطلق على منطقة الأراضى الواقعة على جانبى الترعة السعيدية فى المسافة الواقعة بين ناحيتى سواده والصلاحية بمركز فاقوس بمديرية الشرقية . ولما تكلم المقرئ فى خططه ١٨٤/١ على بلدة الصالحة قال : إن الملك الصالح نجم الدين أيوب أنشأ الصالحة من سنة ٦٤٤ هـ بالسائح فى أول الرحل .

القاهرة ، وقيل إنه دخل القاهرة قبل ذلك ، وتفرق العسكر لأجل الربيع فأدركه عمه فخرج
 بمن عنده من العسكر فانكسر وانهزم إلى القاهرة ونازل العادل القاهرة ثمانية أيام ، وانفق
 الحال على العادل يعطى الأفضل ميافاقين وجبل جور وديار بكر ويأخذ منه مصر ، ودخل
 القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الأول ، ودخل الأفضل إلى صرخد ، وقيل إلى ميافاقين
 في ربيع الآخر ، ولم يف له عمه ، وقال له : كل من معك كاتبني إلا جهاركس وقدم
 العادل جهاركس ، ورد القضاء إلى صدر الدين بن درباس ، ووزر الصفي بن شكر^(١) قال
 العماد : أعط القوس باريها^(٢) واجر الأمور على أحسن مجاريها .

واستدعى العادل الكامل فخرج من دمشق ثالث شعبان ، وودعه أخوه المعظم ، قال
 العماد : وسرت معه وأنشدته^(٣) :

دعك مصر إلى سلطانها فأجبت دعاءها فهو حق غير مكذوب
 قد كاد يدركني دهري فأدركني محمد بن أبي بكر بن أيوب

ووصل إلى مصر عاشر رمضان والتقاء أبوه من العباسة^(٤) وأنزله بدار الوزارة ، وقد كان
 زوجة بنت عمه مؤنسة خاتون بنت الناصر فدخل بهلم ، وأقام العادل على أنه أتاك المنصور
 ابن العزيز بن الناصر ، ثم جمع الفقهاء وسألهم هل يجوز ولاية الصغير ؟ فقالوا : الصغير
 موكل عليه ، قال : فهل ينوب عنه الكبير ؟ قالوا : لا لأن ولاية الصغير غير صحيحة ،
 فقطع خطبة المنصور وخطب لنفسه ، ولولده الكامل بولاية العهد في شوال ، وصالحه
 صاحب حلب وخطب له وشرط عليه خمسمائة فارس من خيار عسكره يكون في خدمة
 العادل كلما اجتمع العسكر (٥٧ أ) .

(١) هو صفي الدين عبد الله بن علي بن شاعر المتوفى سنة ٦٢٢ . النجوم الزاهرة ٢٦٣/٦ .

(٢) انظر المثل في مجمع الأمثال ٣١٣/١ ، وجمهرة الأمثال ٧٦/١ .

(٣) البيان في مرآة الزمان ٤٧١/٨ ، الروضتين ٢٣٨/٢ ، النجوم الزاهرة ١٥١/٦ .

(٤) العباسة : أول ما يلقي القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية ، بينهما بين القاهرة خمسة عشر

فرسخاً . معجم البلدان ٧٥/٤ .

ذكر حصار الأفضل والظاهر دمشق في سنة سبع وتسعين وخمسمائة

دخلت سنة سبع والعاذل بمصر ، وعنده ابنه الكامل وهو نائبه لها ، وبحلب الظاهر ، وهو مجد في تحصينها خوفاً من عمه ، وبدمشق المعظم ، وبالشرق الفائز ، وبميفارقين الأوحـد ، أولاد العادل ولما توفي في هذه السنة عز الدين ابن المقدم وصارت البلاد وهي منبج وقلعة نجم وفاميه وكفر طاب لأخيه عبد الملك استقر بمنبج ، سار إليه الظاهر وحصرها وملكها وعصى عبد الملك بالقلعة ثم نزل بالأمان ، ثم سار إلى قلعة نجم فحصرها وملكها في رجب وأرسل إلى صاحب حماة يئذ له منبج وقلعة نجم على أن يسير معه إلى عمه ، فاعتذر باليمين فلما أيس منه سار إلى المعرة ، وأقطع بلادها واستولى على كفر طاب ثم سار إلى فامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم فامتنع فأحضر ابن المقدم من سجن حلب وضربه قدام قراقوش ليسلم فامتنع ، فضربه ضرباً شديداً فبقي يستغيث فأمر قراقوش بضرب النقارات حتى لا يسمع أهل البلد صراخه ، فرحل عنها إلى حماة وحاصرها لثلاث بقين من شعبان ، ونزل شمالي البلد وشعث التربة التقوية وبعض البساتين وزحف من جهة الباب الغربي وقاتل قتالاً شديداً وجرح بسهم في ساقه ، واستمرت الحرب إلى أيام من رمضان فلما لم يحصل على غرض صالح صاحبها على مالٍ ، قيل : إنه ثلاثون ألف دينار صورية ، ثم رحل إلى دمشق وسببه أن العادل لما ملك مصر شدد على أهلها فساءت ظنونهم ، ثم إن ميمون القصري^(١) عظم عليه استيلاء العادل على مصر وكان في نابلس وكتب إلى العادل :

(١) فارس الدين ميمون القصري أحد الأمراء بدولة الظاهر غازي بن صلاح الدين ، كما كان أميراً من أمراء العزيز عثمان بن صلاح الدين .
أقطعه العزيز عثمان نابلس بعد مقاتلة الفرغ سنة ٥٩١ هـ وتوفي سنة ٦١٠ هـ . مفرج الكروب ٢٢٠/٣ أبو الفداء .

« إنما نصرناك على موالينا لأجل العزيز وولده لثلا يزول ملكهم ، ولا بد أن تعيده ، فأجابه العادل جواب مغالط ، وأرسل الظاهر يطلب الصلح فرسم العادل ألا يدخل القاهرة ، فرجعوا من بلبس فاجتمعوا بميمون ورغبوه في خدمة الظاهر ، واجتمع الظاهر والأفضل على بعلبك ، وساروا إلى دمشق وبها المعظم وهو صغير ، والقائم بأمره فلك الدين سليمان^(١) أخو العادل لأمه ، فحاصرها حصاراً شديداً ولما تحقق العادل انحراف ميمون راسله ولاطفه فلم يرجع ، فخرج العادل مسرعاً من القاهرة ونزل على بلبس ولم يجسر على القتال ، ثم جعل يعمل الحيل إلى الفرقة بين الأخوين ويستفسد الأمراء ، ووعد الظاهر إن فارق أخاه (٥٧ ب) أن يملكه قطعة من الشرق ، وكاتب الظاهر قراجا^(٢) وجهاركس أن الأفضل يسلم إلى قراجا صرخد ، وكان بها الظاهر فغضب وانفصل عن أخيه ، ونقل الفضل والدته وأهله إلى حمص وتسلم جهاركس المال ، ثم أخذ في التفتيد ، وعلم أن الأفضل اطلع على باطنهما فهربا في الليل إلى نابلس ، وأعظم الناس غدرهما ، وأرسل الظاهر يوبخهما فأجاباه : إنه متى رجع دمشق كانا في خدمته ، وأصاب الظاهر سهم في رجله ، وخرج جماعة من عسكره فأنحل عزمه ، وقد كان اتفق الأخوان أن الأفضل يتسلم دمشق ، ثم يسيران وبأخذان مصر ويتسلمها الأفضل ، ويسلم دمشق للظاهر بحيث يبقى الشام جميعه للظاهر ، واستمرت المضايقة لدمشق وتعلق النقايبون بسورها فلما شاهدوا الظاهر ذلك حسد أخاه وقال : أريد أن اتسلم دمشق الآن ، فقال الأفضل : إن حريمى حريمك وهم على الأرض ، وهب هذا البلد لك فاجعله لى حتى نملك مصر ، فامتنع الظاهر وكان قتال العسكر إنما هو لأجل الأفضل ، فقال لهم : إن كان قتالكم لأجلى فاتركوا القتال وصالحوا العادل ، وخرجت السنة وهم محاصرون .

(١) وتنسب إليه المدرسة الفلكية في دمشق ، توفي سنة ٥٩٩ هـ . الدارس ٤٣١/١ .

(٢) الأمير زين الدين قراجا الصلاحى ، كان أميراً أديباً خبيراً عادلاً توفي سنة ٦٠٤ هـ . مفرج الكروب

ذكر رحيل الملكين عن دمشق في سنة ثمان وتسعين

في أول المحرم رحل الظاهر إلى حلب ، والأفضل إلى حمص ، وأرسل الأفضل يطلب من العادل سميح وسروج ورأس عين ، فأجابه ، وطلب الظاهر منبج وفامية وكفر طاب ، فأجابه ، وحلف لهما ، وبعد رحيلهما دخل العادل دمشق وسار ميمون القصرى مع الظاهر فاقطعه اعزاز ، ولما نزل منبج خرب قلعتها خوفاً من إخراجها منه ، واقطعها عماد الدين بن المشطوب وأرسل نائب ابن المقدم^(١) إلى الظاهر ليسلم فاميه ، على أن يعطى ابن المقدم اقطاعاً يرضاه ، فأقطعه الراوندان^(٢) وكفر طاب ومفردة المعرة ، وهى عشرون ضيعة ، ثم إن ابن المقدم عصا بالراوندان فسار إليه الظاهر واستنزله وأبعده ، فلحق بالعادل فأحسن إليه ، وسار العادل إلى حماة وقام صاحبها بجميع وظائفه وزوجه ابنته ، وبلغ الظاهر وصوله حماة فاستعد للحصار وراسله ولاطفه وأهدى إليه ووقع الصلح وانتزعت منه مفردة المعرة ، واستقرت لصاحب حماة ، وقلعة نجم سلمت للأفضل ، ولما استقر الصلح رجع العادل إلى دمشق وأقام بها ، وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية والمصرية فى ملكه (٥٨ أ) .

وفى هذه السنة اقطع العادل بلاد بشارة لجهاركس وهى تبنين وهونين ، فامتنع بشارة وارسل إليه الظاهر نجدة وبلغ ذلك العادل فجهز عسكرياً وافراً فساروا إلى تبنين فحاصروها مدة ثم عجزوا وتركوها ، وفيها اعتقل العادل المؤيد والمعز أولاد أخيه الناصر .

سنة تسع وتسعين وخمسمائة

فيها توفى فلك الدين ابن سليمان أخو العادل لأمه ، وهو الذى تنسب إليه المدرسة الفلكية بدمشق .

(١) نائب شمس الدين ابن المقدم هو قراقوش . مفرج الكروب ١٣١/٣ .

(٢) الراوندان : قلعة حصينة وكورة من نواحي حلى . معجم البلدان ١٩/٣٠ .

وفيهما أرسل العادل إلى ولده الأشرف يأمره بحصار ماردین فحصرها ثم أرسل الظاهر الصلح فأجابہ العادل علی أن یحمل إلیه صاحب ماردین مائة وخمسين ألف دينار ، ویخطب له بیلاده ، وأن یأتی إلی خدمته متى طلبه ، واستقر الصلح .

وفیهما أخرج العادل المنصور محمد بن العزیز عثمان ابن الناصر یوسف من مصر إلی الشام فسار بوالدته وأخوته وأقام بحلب عند عمه ، وقیل : إنه أرسله إلی الرها .

وفیهما استرجع العادل ما بید الأفضل وهی رأس عین وسروج وقلعة نجم ، ولم یترك له غیر سمیساط فأرسل الأفضل والدته إلی صاحب حماة لیرسل معها من یشفع فیہ ، فأرسل معها القاضی زین الدین ابن هندی إلی العادل فلم یجبها ، ورجعت خائبة ، قال ابن الأثیر: عوقب البیت الصلاحي بمثل ما فعله والدهم لما خرج إلیه بیت الأتابک ومن جملتهم بنت نور الدین الشهید ، یشفعن فی إبقاء الموصل لعز الدین فردهن ثم ندم فجوزی ولده الافضل ، ولما جرى ذلك أقام الأفضل بسمیساط وقطع خطبة عمه وخطب لركن الدین صاحب الروم .

سنة ستمائة واحدى وستمائة ،

فی سنة ستمائة اجتمع الفرنج لقصد بیت المقدس فخرج العادل من دمشق وجمع العساكر ونزل الطور^(١) قبالة الفرنج إلی آخر السنة ، ثم كانت الهدنة بینه وبنهم فی سنة احدی وستمائة ، وسلم إلیهم یافا ونزل عن مناصفة لد والرملة إلی مصر ، واعطی العساكر دستوراً ، وسار إلی مصر أقام بدار الوزارة .

وفی سنة اثنتین وستمائة توفی الأمير بدر الدین ممدود - شحنة دمشق - ابن الحاجب مبارک بن عبد الله فی یوم الأحد خامس رمضان ، وتوفی أخوه شقیق الأمير سعد الدین مسعود - صاحب صفد - بصفد یوم الاثنین خامس شوال ، وكانا أمیرین کبیرین ولهما

(١) الطور : جبل مطل علی طبرية الأردن ، سى الملك المعظم عيسى بن أبى بكر بن أبوب قلعة حصينة وأنفق علیها الأموال البجمة وأحکمها عابة الإحكام . معجم البلدان ٤٧/٤ .

مواقف كثيرة مع صلاح الدين ، وأمهما أم فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب فهذا
ذكرتهما (٥٨ ب) .

ذكر خروج العادل إلى الشام في سنة ثلاث وستمائة

سار العادل من مصر إلى الشام ، ونازل في طريقه عكا وسببه أن صاحب قبرص أخذ
عدة من أسطول مصر ، وقد كانوا أيضاً قد ملكوا فوة^(١) من مصر في سنة ستمائة ، وأقاموا
بها خمسة أيام ، فأرسل العادل في رد ما أخذ إلى صاحب عكا ، فاعتذر أن أمير قبرص
ليس إليه ، فسار إليه فصالحه صاحبها على إطلاق جمع من الأسرى ثم سار إلى دمشق
وحضر إليه صاحب حماة وشكا الظاهر فتغير العادل عليه .

واتفق إغارة أهل طرابلس على حمص فعظم ذلك عليه فسار إلى أن نزل ببحيرة
قدس^(٢) بظاهر حمص واستدعى العساكر فأتته ، وأقام إلى آخر رمضان ثم سار إلى حصن
الأكراد وقاتله أشد القتال ، وفتح برج أغناز^(٣) قريباً من حصن الأكراد ، وأخذ منه سلاحاً
ومالاً وخمسمائة رجل ، ثم نزل القليعات^(٤) فتسلمه وأطلق صاحبه وأخذ ما فيه وخربه ،
ثم نزل طرابلس فحصرها وقطع أشجارها وعاد عنها في أواخر ذي الحجة .

وحكى بعضهم ذلك في سنة أربع .

وقال الرشيد النابلسي يمدح العادل :

(١) فوة : بليدة على شاطئ النيل نواحي مصر . معجم البلدان ٢٨٠/٤ .
(٢) بحيرة قدس : وهي بين حمص وجبل لبنان . معجم البلدان ٣٥٧/١ .
(٣) أغناز : بلدة بين حمص الساحل . معجم البلدان ٢٢٢/١ .
(٤) القليعات : قلعة بالقرب من حصن الأكراد . النجوم الزاهرة ١٥٠/٧ ، حاشية ٨ .

خشعت لهيبة مجدك الأبصار
ودنا لك الفرض السعيد وأصبح الـ
وتظافرت لك بالظهور على العدا
أمن الحوادث من بساحتك احتفى
ووفى بذمتك الزمان وصرفه
دانت لك السبع الشداد كأنما
فإذا رماح الخط نحوك أشرعت
وإذا الجياد ثنت إليك شكيمها
وإذا غضبت على الملوك فإنه
ولأنت سيف الدين والدنيا الذى
ملك ملائكة السماء جنوده
خطبته آفاق البلاد لملكها
وقضت له السبع الكواكب بالذى
رب الجحافل زلزلت من وطنها
مثل البحور الزاخرات يدها
طاشت عقول المارقين لهول منـ
فاستعصموا بالعفو منه ولم يكن
حتى غدوا خضع الرقاب منكسى الـ
ومنها :

فى كل يوم غارة شعواء لا
فمعاقل مهجورة ومنازل
ومنها :

فلها الزمان بشاشة وطلاوة
بالعادل الملك الذى لعذاته
المائح الأبصار ما طمحت ومن
الساتر العورات عن أعدائه
الخاشع الصوام والمجتهد الـ

وعنت لدولة ملكك الأمصار
جد السعيد ودانت الأقطار
همم بها تتخاذل الأنصار
فكان جارك للمجرة جار
وهو المضيع ذمامه الفدار
بمرادك الفلك العلى يدار
فظوالها عما تروم قصار
غلبت عليها كربة وعثار
هلك دنا منها وحنان يوار
فى الشرك أرفق حدة الجبار
وعبيده الأيام والأقدار (٥٩ أ)
وترقبته العيون والأبكار
تهواه منها والذى تختار
لما سرى وارتجت الأقطار
من حيث شاء من الجيوش بحار
ظفره وحصارت منهم الأفكار
توب لتعصمهم ولا استعبار
أعناق فى جبهاتهم آثار

تألوا وتقع للهباج منار
مهدومة بعد الأنيس قنار

وعلى البلاد وأهلها أنوار
ذل على طول المدى وصفار
يعطى مدى ما تطمح الأبصار
تزوى السعد وتكشف الأستار
قوام والمتبئل الصبار

الخارق المعادات بالجود الذي
الملقح الحرب العوان وقاعها
الضارب الشوهاء إثر الطعنة الـ
نشوان من خمير المكارم والملا
تسقى ذوابلهُ الدماء فمالها
وهي الممالك لم تشد أركانها
ومنها :

يا آل أيوب الأولى لولا هم
يا أعدل الأملاك ليس لدهرنا
ومنها :

أنت الذي ما للنجوم الزهر في
تتراجع الأبصار عنك حسيرة
لا مجد يخطر في رداء جلاله
أيام دولتك الربيع وما سوى
ما حاجة الدنيا وجودك هائل
لا يستطاع مذاك في شرف ولا
سبحان مُعطيك الذي لم يعطه

سنة أربع وستمائة

في الخافقين لعرفه إنكار
فتح الممالك كلها أبحار
غوهاء فيها يفرق المسبار
عظفا وما دارت عليه عقار
إلا رؤوس المارقين ثمـار
إلا الصوارم والقنا الخطار

عفت العلوم وعرفت الأشعار
إلاك نهـاء ولا أمار

عالي المحل بحيث طار مطار (٥٩ ب)
وتعموم فيك فتفرق الأفكار
ذو مجد إلا وهو منك معار
أفمالك الحسنى لها أزهار
أن تستهل بوابلها الأمطار
لك يوم حلبيته يشق غبار
بشر تعالى الواحد القهار

دخلت والعاذل على بحيرة قدس ، ثم دخل دمشق ، وأتاه بها التشريف من الخليفة
الناصر صحبة الشيخ شهاب الدين السهروردي^(١) فبالغ العادل في إكرام الشيخ ، والتقاء إلى
القصير^(٢) ووصل من صاحب حماة وصاحب حلب ذهب وجوهر لينثر على العادل إذا

(١) أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله شهاب الدين السهرودي ، توفي سنة ٦٣٢ هـ .

وفيات الأعيان ١١٩/٣ .

(٢) القصير : أول منزل لمن يريد حمص من دمشق . معجم البلدان ٣٦٧/٤ .

لبس الخلعة فلبسها ونثر ذلك عليه ، وكان يوماً مشهوداً ، والخلعة هي : جبة سوداء أطلس بطراز مذهب ، وعمامة سوداء بطراز مذهب وطروق ذهب مجوهر ، وسيف جميع قراهه ملبس ذهباً ، وحصان أشهب بمركب ذهب ، ونشر على رأسه علم أسود مكتوب فيه بالبياض اسم الخليفة ، ثم خلع (رسول الخليفة) على الأشرف والمعظم الوزير ابن شكر عمامة سوداء ، وثوباً أسود واسع الكم) وركب العادل وولداه ووزيره ووصل التقليد وخطب : « بالملك العادل شاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين » ثم توجه (الشيخ شهاب الدين إلى الكامل بمصر فخلع عليه » .

وفيهما اهتم العادل بقلعة دمشق ، وألزم كل واحد من ملوك بيته بعمارة برج ، ودخلت سنة خمس والعادل بدمشق ، وقال الدوادار : وفيها خرج العادل إلى الشام ، وكان أكبر البواعث ما حصل من الوحشة بينه وبين الظاهر وهو من الخبط .

ذكر ملك العادل الخابور ونصيبين في سنة ست وستمائة

وسببه : أن قطب الدين زنكى - صاحب سنجار - كان بينه وبين نور الدين صاحب الموصل عداوة ، واتفق أن العادل زوج ابنه بنت نور الدين فأرسل نور الدين إلى العادل بأن يتعاضداً ويأخذ بلاد قطب الدين ، وتكون الجزيرة لنور الدين ، فأجابه العادل وأنه يعطى البلاد إذا ملكها لولده الذى هو زوج بنت نور الدين ، ويكون مقامه فى خدمته بالموصل ، وتحالفاً على ذلك (٦٠ أ) فقصد الخابور فأخذه ، فلما سمع نور الدين بوصوله واستشار كبار دولته فبينوا له فساد رأيه فى اتفائه مع العادل وقالوا له : فات الأمر إلا أن تقف معه على ما استقر بينكما لكلا يجعل ذلك حجة ، ويستدئ بك ، هذا والعادل قد ملك الخابور ونصيبين ، وسار إلى سنجار فحصرها فى ربيع الأول وعزم صاحبها أن يسلمها بعوض فمنحه من ذلك الأمير أحمد بن يرنقش وقام بحفظ البلد ، وجهز نور الدين ولده ليسير إلى

العادل مع عسكر فيبينما هم على ذلك إذ جاءهم أمر لم يكن في حسابهم ، وهو أن مظفر الدين صاحب إربل أرسل وزيره إلى نور الدين يئذل له المساعدة على منع العادل ، فوصل الوزير ليلاً فوقف مقابل دار نور الدين وصاح فحمل في سفينة واجتمع بنور الدين ، فأجابه وحلف وعاد الوزير من ليلته ، واجتمع مظفر الدين ونور الدين بعساكرهما بظاهر الموصل وسببه : أن صاحب إربل أرسل يشفع في صاحب سنجار وكان يظن أنه لو شفع في نصف مملكة العدل لشفعه لأثره الجميل عنده ، فلم يشفعه العادل فأرسل مظفر الدين إلى صاحب حلب وصاحب الروم بالاتفاق ، فأجاب كل منهما وتداعوا إلى الحركة ووصل رسول الخليفة فأجاب أولاً بالرحيل ثم امتنع ، وأطال الأمر لعله يبلغ غرضاً ، وحاصر عسكر العادل وكان أسد الدين يدخل الأغنام والأقوات سنجار ظاهراً فلما لم ينل غرضاً أجاب إلى الصلح على أن يكون له ما أخذ ، وتحالفوا كلهم على أن يكونوا يداً واحدة على الناكث ، وعاد العادل إلى دمشق في سنة سبع وستمائة ، وقيل : ثمان ، وكان الظاهر قد استعد للقتال وبرز من حلب ثم اصطالحا ، ثم عاد العادل إلى مصر في سنة سبع المذكورة .

سنة ثمان وستمائة

فيها قبض المعظم على أسامة (١) - صاحب كوكب (٢) وعجلون (٣) - وحبسه بالكرك إلى أن مات ، وبه انقرضت الصلاحية ، وحاصر الحصنين المذكورين وتسلمهما ، وأخرب كوكب وأبقى عجلون ، وقيل : إن العادل بنفسه حاصر كوكب ثم أخذ القليعات وأخربها ، وإن ذلك سنة تسع ، وإن قيمة ما أخذ من القليعات ألف ألف درهم .
وقال الرشيد النابلسي بمدح العادل :

-
- (١) انظر سبب قبض الملك المعظم على أسامة في مفرج الكروب ٢١٠/٣ .
(٢) كوكب : اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية . معجم البلدان ٤٩٤/٤ .
(٣) عجلون : حصن وريضة في جبل الغور الشرقي قبالة بيسان . تقويم البلدان ٢٣٤ .

وفى لك المسعدان : النصر والظفر
فغير بدع وقد جدت سعودك أن
أشرقت فى ظلم الأيام مزدهراً
قسوت بل لنت بل مازجت ذاك بذا
لا زلت تصدر بالآمال ساعة لا

ومنها :

لله ما أنت سيف الدين من بشر
خطب طرا وطفى حتى نهدت له
وشامخان رقيعا الأوج بجسر عن
فى ذروتى مشمخر العز دونهما
أوردت حصنك من تلك الحصون منى
وكان أهلهما قد أكدا حلفا
يا ويحهم أوغرتهم منى شمخت
ولو صدمت به السد الذى اطأدت
أو رام شامخة الأهرام حل بها
بل لو دعوت النجوم الزهر لا بتدرت

ومنها :

لقد رأى كوكب فى نفسه عجباً
أضرمت جذوة بأس فى جوانبه
طوقته بمجانيق تلين لها
أنحت عليه بمثل الشهب قاذفة
أضحت مخانيق فى أعناق مضبته
بادرتهم برجال لا ينهتهم
معودين قراع الموت ، قد ألقوا
جيش إذا جاش طامى لجه غرقت

وظاوع العاصبان : الدهر والقدر
دانت لك الأمتان : البدو والحضر
فأبلس الليران : الشمس والقمر
فافتن فى راحتك : النفع والضرر
ورد يسوغ ولا عن مورد صدر

لا تستطيع الذى يستطيعه بشر
فلان جامحه إذا سهل الوعر
أن يستطيعهما التأميل والنظر
من أن ينالا تنال الأنجم الزهر
لولاك عز على وراها الصدر
أن ليس ينقص عن أمريهما المرر
مع اعتزامك واستفوتهم حدر
قطراه لاندك منه القمر والذير
ما ليس تبقى غواده ولا تذر
إليك من جنبات الأفق تبتدر

وكاد كوكبه الدرى ينكدر
أنفاسها فى نفوس الشرك تزدر
غلب الحديد ولا يستمسك الحجر
فجسمه بصعيد الأرض منعطر
عقود خيلك مسعوداً بها الثغر
من رأيك الحزم أو من كلك البدر
ألا يروعهم خوف ولا زعر
فى جنب تياره الأفهام والفكر

ومنها :

صرف المقادير أو أحداثها فتروا
فسراً إليك سطا للأسد تفتسر
أمضى ، وقد كلت الهدية البتر
لا تجتنى للقنا من غيرها ثمر
ومانع الجم يعطى وهو يعتذر
تلقى على مجدك الآيات والسور
ما غلت الورق أو ما أوردى الشجر

لقد بطشت بهم بطشاً لو أنهم
فاستشعروا الذل جلباباً وقادهم
له صدرك ما أفضى ، وعزمك ما
يا دوحة للعلى شماء باسقة
يا راجح الحلم يعطو وهو مقتدر
صلى الاله على عليك وافتتحت
ودمت تخدمك الدنيا ودولتها

وفيهما قبض على ابن جهاركس وأخذ معامله ، وهى بانياس وما معها ، وأعطاهما العزيز
عماد الدين عثمان ، وأعطى صرخد أيك المعظمى وأعطى ابنه المظفر الرها وميافارقين .

وفيهما عزل وزيره ابن شكر . غير ذلك : وفى سنة تسع توفيت والدته العادل ودفنت
جوار الإمام الشافعى ، وبنى عليها القبة المعروفة بالشافعى ، وأجرى الماء إليها من بركة
الحبش^(١) وانفق على ذلك جملة كبيرة ، ونقل الناس الأبنية من القرافة الكبيرة^(٢) إلى
هذه القرافة منذ ذلك الوقت ، وفيها أيضاً عمر العادل قلعة الطور ، وفى سنة إحدى عشرة
عاد العادل من الشام إلى مصر . وقال الدوادار : وفى سنة اثنتى عشرة توجه العادل إلى
الاسكندرية ، لأنه اجتمع فيها من تجار الفرنج ثلاث آلاف رجل وملكان من ملوكهم ،
وعزموا على أن يشوروا بأهل الاسكندرية ، فامسك العادل التجار واستنصفى أموالهم ، واعتقل
الملكين ، وعاد إلى القاهرة .

(١) بركة الحبش : هى أرض اسعة طولها نحو ميل مشرفة على نيل مصر خلف القرافة . معجم البلدان
٤٠١/١ .

(٢) القرافة : خطة بالفسطاط من مصر وبها قبر الإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ، وفيها
مدرسة للفقهاء الشافعية . معجم البلدان ٣١٧/٤ .

سنة أربع عشرة وستمائة

دخلت والعاذل بمصر وقد انفسخت الهدنة بينه وبين الفرنج ، وجاء ملك الهنكر (١) في خمسة عشر ألف مقاتل ، فخرج العادل من مصر ، فنزل الفرنج عين الجالوت (٢) ، وقصدوا العادل ، وكان بيسان ، وقيل : بناهلس : فرأى مالا قبل له فتأخر ، فقال له المعظم إلى أين ؟ فشتمه بالعجمية وقال : بمن أقاتل ؟ أقطعت الشام ممالكك وتركت أولاد الناس الذين يرجعون إلى أصل . وساق فعبر الشريعة ، وجاء الفرنج إلى بيسان ، وكان بها من الأموال ما لا يعلمه إلا الله فأخذوه ، وارتفع العادل إلى عجلون وترك المعظم قرب القدس خوفاً عليه . وأقام الفرنج على بيسان ثلاثة أيام ونزل العادل رأس الماء ، وصعدوا إلى خربة اللصوص ، وأقاموا ثلاثة أيام يأسرون وينهبون ، ثم نزلوا الغور ، وأقاموا إلى يوم الأحد ثاني رمضان . وكان كثير الضباب ، فما أحس بهم أهل الغور إلا وهم قد الصقوا (٦١ ب) رماحهم بالسور ، فخرج إليهم المسلمون بالفارس والراجل فرموهم إلى أسفل ، فلما كان رابع رمضان صعدوا وأصقوا سلماً بالسور فقاتلهم المسلمون قتالاً لم يجر في الإسلام مثله ، ورموا السلم بالنفط فاحترق ، وقتل عنده جماعة من أعيان الفرنج ، وبكوا وصاحوا ، واغلقوا الباب ، وبتوا يداوون جرحاهم ، وجبن جماعة عن القتال ، ثم تعاقدوا على أن يقاتلوا قتال الموت ، وكان فيه أبطال المسلمين ، وقال الأمير الحلبي :

قل للخليفة لا نالت عساكره لها إلى النصر إصدار وإيراد
إن الفرنج بحصن الطور قد نزلوا فلا تفلن فحصن الطور بغداد

وأوقد الفرنج النيران فلما كان يوم الخميس سادس رمضان رحلوا طالبين عكا ، وصعد المعظم الطور وبكى واطلق الخلع ، وانقضت السنة وهم على عكا .

(١) الهنكر : يقصد بلاد هنكاريا أو المجر الحالية . مفرج الكروب ٣٢٠/٢ .

(٢) عين جالوت : بليدة بين بيسان وناهلس من أعمال فلسطين . معجم البلدان ١٧٧/٤ .

سنة خمس عشرة وستمائة

دخلت والعاذل بمرج الصفر ، فاستدعى المعظم وقال : أخشى أن يكون الطور سبباً لخراب الشام ، وفيه أبطال المسلمين وسلاح الدنيا ، ومن المصلحة خرابه ، فتوقف ، وبقي أياماً لا يدخل على أبيه ، فبعث إليه وأرضاه ووعدته ببلاد ، فأجاب ، وبعث ما فيه إلى البلاد.

ونزل الفرنج على دمياط ، وهي المعروفة بالمنصورة الأولى ، يوم الثلاثاء ثالث ربيع الأول ، فبعث العادل العساكر ، وهو بمرج الصفر ، إلى ولده الكامل ، فسار الكامل ونزل قبائلهم أربعة أشهر . واتصل القتال بينهما أياماً ، وعملوا برجاً من خشب في بطسة ، وأصقوه إلى برج السلسلة^(١) وقتلوا إلى أن ملكوه .

ذكر وفاة الملك العادل

لما اشتد حصار دمياط سار العادل ليمد ولده بالعساكر ، فوصل إليه الخبر بأنهم ملكوا برج دمياط ، فانزعج ، ودق بيده على صدره ، ومرض ، وأقام إلى يوم الجمعة ، سابع أو ثامن جمادى الآخرة ، فتوفى بعالقين عند عقبة فيق^(٢) ، ولم يعلم بموته غير كريم الدين الخلاطى ، فأرسل الطير إلى المعظم بناهلس ، فجاء يوم السبت واحتاط على الخزائن ، وصبر العادل وجعله في محفة ، وعنده خادم يروح عليه ، ودخلوا به دمشق يوم الأحد ، والناس يسلمون على الخادم ، وهو يومئ إلى ناحية العادل ، ودخلوا به القلعة (وكنموا موته) ولم

(١) برج السلسلة : جاء في كنز الدرر ص ١٥ (إن هذا البرج كان قفل الديار المصرية ، وذلك أنه كان برجاً عالياً ، وفي ناحيته سلسلة وسلسلة تمتد إحداها على النيل إلى دمياط ، تمتد الأخرى على النيل إلى الجزيرة بمنعان من عبور المراكب إلى بحر النيل المالح .
(٢) عقبة فيق : بالقرب من غور الأردن معجم البلدان ٢٨٦/٤ .

يجدوا له كفنًا ، فأخذوا عمامة الفقيه ابن فارس (٦٢ أ) فكفنوه بها ، وأخرجوا قطعاً من مخدة (فلفوه به) وسرق بعضهم فأساً من الخندق فحفر به ، ودفن بالقلعة .

قال جامعة الفقير : ونظير هذا أن بعضهم قال : رأيت قماش هشام بن عبد الملك قبل أن يلى الخلافة ، وقد حج ، على ستمائة جمل . ثم رأته يوم مات استولى ابن أخيه الوليد ابن يزيد على خزائنه ، وكان بينهما نفس فامتنع من تكفينه ، حتى كفته بعضهم لغل ماله انتهى .

ولما دفن قام المعظم وشق ثيابه ، عمل له العزاء ثلاثة أيام ، وكذا فى الدنيا كلها ، وصلى عليه ببغداد ، ولم يتخلف إلا الخليفة ، وكذا فى غيرها . ونقل إلى التربة التى بنيت فى مجاورة مدرسته ، سنة تسع عشرة وستمائة . ومدة ملكه بمصر تسع عشرة سنة وشهراً وتسعة عشر يوماً وقسم البلاد بين أولاده للكامل (محمد) مصر وللمعظم (عيسى) دمشق والساحل والكرك والشبك ، وللأشرف (موسى) ميافارقين وخلاط وبعض الجزيرة ، وللحافظ (أرسلان شاه) جعبر . وكان له من الذكور ستة عشر ذكراً غير البنات ، وفضلهن ضيفة خاتون ، وقيل سبعة عشر ، وقيل تسعة عشر ، ونحن نذكر من نسبه إليه : المعظم شمس الدين مودود ، الكامل ناصر الدين محمد ، الأشرف مظفر الدين موسى ، المغيـث شهاب الدين محمود ، الفائز سابق الدين ابراهيم ، المزم مجير الدين يعقوب ، الحافظ نور الدين أرسلان شاه ، الناصر صلاح الدين خليل ، الأ مجد تقى الدين عباس أصغرهم ، الأ وحـد نجم الدين أيوب ، المعظم شرف الدين عيسى ، الأ مجد مجد الدين حسن توفى فى حياة أبيه ، العزيز عماد الدين عباس صاحب بانياس المظفر شهاب الدين غازى ، القاهر وقيل : تاج الملوك بهاد الدين اسحاق ، الأ فضل وقيل : المفضل قطب الدين أحمد توفى بمصر أيام أخيه الكامل ، المغيـث فتح الدين عمر مات فى حياة أبيه ، وخلف ولداً لقب بلقبه الصالح عماد الدين اسماعيل ، القاهر بهاء الدين خضر ، القاهر اسماعيل لعله الذى قبله . الأشقاء منهم ثلاثة : العزيز والمعظم والأ مجد ، ثلاثة أيضاً : غازى ، يعقوب ، اسحق . ولم

ير أحد من الملوك المشهورين في أولاده من الملك والظفر ما رآه العادل . ولقد أجاد ابن
عنين في قصيدته التي مدحه بها ، أولها (١) :

وعليهم لو سامحوني بالكرى
في كل ناحية تشرف منبراً (٦٢ب)
شك يُريب بأنه خير الورى
في الفضل ما بين الثريا والثرى
في الكتب عن كسرى الملك وقبصرا
يروى ، فكل الصيد في جوف الفرا
ملك يجر إلى الأعادى عسكرا
بدراً ، فإن شهد الوغى ففضنفر

ماذا على طيف الأحبة لو سرى
العادل الملك الذي أسماؤه
ما في أبي بكر لمعتقد الهدى
بين الملوك الفاهرين وبينه
نسخت خلاله الحميدة ما أتى
لا تسمعن حديث ملك غيره
وله الملوك بكل أرض منهم
ومن كل وضاح الجبين تخاله

ومن العجائب أنه لم يحضر وفاته أحد من أولاده ، وخلف سبعمائة ألف دينار عيناً
احتوى عليها المعظم .

ومنهم ست الشام (٢)

ست الشام بنت أيوب بن شاذى ، شقيقة شمس الدولة ، عاقلة ، كثيرة البر والصلاة
والاحسان ، وكان يعمل في دارها في كل سنة من الأشربة والعقاير بالكوف الدنانير وتفرقها
على الناس . وكان بابها ملجأ للقاصدين ، ومفرجاً للمكروبين . وهى أم حسام الدين
محمد بن عمر بن لاجين . وتزوجها ناصر الدين ابن عمها اسد الدين محمد بن شيركوه

(١) ورد في ديوان ابن عنين ص ٣ .

(٢) ترجمتها في مرآة الزمان ٦٠٦/٨ ، ذيل الروضتين ١١٩ ، ابن كثير ٨٤/١٣ ، الدارس ٢٧٧/١ ،
كنز الدرر ٢٠٤ ، النجوم الزاهرة ٢٤٦/٦ ، شذرات ٦٧/٥ .

صاحب حمص وبنت له مدرسة وتربة على الشرف الشمالي من دمشق ، ووقفت عليها وعلى المدرسة الجوانية^(١) أوقافاً كثيرة ، وتوفيت في ذى الحجة سنة ست عشرة وستمائة ودفنت بتربتها وكانت لها جنازة عظيمة ، اجتمع لها ولأختها محارم من الملوك ما لم يجمع لأحد لأن فاطمة بنت عبد الملك كان لها ثلاثة عشر خليفة ، وكذا بنت صاحب ماردين . وست الشام كان لها نيف وثلاثون محرماً (من الملوك) سوى أولادهم . قال جامعه : وقريب من هذا المنصور محمد بن أبي عامر بنواحي فاس كان له أكثر من ألفي امرأة محارم ، ومن الرجال كذلك .

ومنهم ربيعة خاتون^(٢)

ربيعة خاتون بنت أيوب بن شاذي ، تزوجت سعد الدين بن أنر وتزوج صلاح الدين عمته ، ثم مات ، فتزوجها مظفر الدين صاحب إربل ، فأقامت بها ، ثم قدمت دمشق ، فخدمتها العاملة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي^(٣) ، وحصل لها منها أموال عظيمة ، ووقفت مدرسة للحنابله وجعلت عليها الأوقاف ، وحصل لها بعدها شذائد وحُبست بالقلمة ثلاث سنين ثم أطلقت (٦٣ أ) وتزوجت الأشرف صاحب حمص وسافر بها إلى الرحبة

(١) في الدارس في تاريخ المدارس ٣٠١/١ • المدرسة الجوانية إنشاء ست الشام بنت نجم الدين ، وكانت هذه المدرسة داراً جعلتها بعدها مدرسة ، وفيها توفيت ونقلت إلى تربتها بالشامية البرانية .

(٢) ترجمتها في مرآة الزمان ٧٥٦/٨ ، ذيل الروضتين ١١٧ ، مختصر أبي الفداء ١٧٤/٣ ، ابن الوردي ٢٥١/٢ ، الدارس ٨٠/٢ ، النجوم الزاهرة ٣٥٣/٦ ، الشذرات ٢١٨/٥ .

(٣) أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي ، عالمة من دمشق لها تصانيف ، وكانت في خدمة ربيعة خاتون ، ولما ماتت الخاتون سنة ٦٤٣ هـ وقعت من أجلها في المصادر وحُبست ثلاث سنين في القلمة ثم أفرج عنها وتزوجها الأشرف صاحب حمص وسافرت معه إلى الرحبة وتل باشر ، وهناك توفيت سنة ٦٥٣ هـ من آثارها مدرسة دار الحديث بدمشق . (القلائد الجوهريّة ٨٤ ، الدارس ٨٠/٢ ، ١١٢ ، البداية والنهاية ١٧٠/١٣) .

وماتت بها سنة ثلاث وخمسين وستمائة . وظهر لها من الأموال بدمشق ما يساوي ستمائة ألف دينار غير الاملاك والأوقاف ، وكانت فاضلة لها تواليف .

وتوفيت ربيعة بدار العقيقى بدمشق سنة ثلاث سنة وأربعين وستمائة ، وقد جازت الثمانين ، وبين وفاتها ووفاء والدها ست وسبعون سنة . قال الدوادار لها تواليف ومجموعات .

فيا مانع الاسلام صبياً فإنما
ولو كان غير الموت دافعت دونه
وغادرت جفن الأفق بالسمر أو طفا
ولكنه دهر إذا ما نعيمه
بصيرك فى كل المواطن يقتدى
بطعن برد السمهرى مقصداً
وخذ المواضى بالنجيع مورداً
تحول بؤساً هدا ما كان مشيداً

ومنهم الملك الظاهر^(١)

غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك الظاهر ، غياث الدين ، ابن الملك الناصر الأيوبي ، صاحب حلب ، ولد نصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة بمصر . كان مهيباً ، ذا سياسة وفطنة ، ودولته معمورة بالعلماء والفضلاء والأكابر ، محسناً إلى الرعية والى الوافدين عليه . حضر معظم غزوات والده ، وضم أكابر الامراء بمعهده ، وهو الذى جمع شمل البيت الأيوبي ، وكان فى دولته من أرباب العمائم : القاضى بهاء الدين بن شداد ، والشريف النسابة ، وبنو العجمى ، وبنو القيسرانى ، وبنو الخشاب ، وغيرهم . وكان ملجأ للغرباء ، وكهفاً للفقراء ، يزور الصالحين يتفقدهم ، ويغيث اللهوفين ويرفدهم . وكان يتوقد فطنة وذكاء ، سريع الادراك ، أتى يوماً بامرأة كذبت واعترفت بالكذب ، فسأل

(١) انظر : أخبار الأيوبيين ١٣٠ ، شذرات الذهب ٥٥/٥ ، الدارس ٢٤٢/١ ، مفرج الكروب ٢٣٧/٣ ، البداية والنهاية ٧١/١٣ ، الكامل ٣١٧/١٢ ، كنز الدرر ١٨٤/٧ .

القاضي (ابن شداد) ما يجب عليها ؟ قال : التعذيب ، قال : تضرب بالدرة شريعة ، ويقطع لسانها سياسة فقال بعض الحاضرين : الشريعة هي السياسة الكاملة (وما عداها يكون نفاضياً) فأدبت خاصة . وكان فيه إقدام على سفك الدماء ، ثم أقصر عنه عند الموت . وقد فرقنا أخباره فيما مضى وبأني بقيتها . ومدحه جماعة وذكرنا بعض ذلك فيما مر . وما يحكى من مآثره أن ابن عمه الأشرف لما قدم عليه في (٧٩ أ) سنة خمس وستمائة متوجهاً إلى بلاده الشرقية ، أنزله الظاهر بالقلعة ، وبالغ في إكرامه ، وقام لعسكره بجميع ما يحتاجون من الطعام والحلوى والعلوفات ، وكان يحمل إليه كل يوم خلعة كاملة ، وهي : غلالة^(١) وقباء وسراويل وكمه^(٢) وفروة وسيف ومنطقة ومنديل وسكين ودلكش^(٣) وحصان وخمس خلع لأصحابه . أقام على ذلك خمسة وعشرين يوماً ، وقدم له تقدمه جليلة وهي : مائة ألف درهم ، ومائة بقجة ، مع مائة مملوك . منها : عشر بقج في كل واحدة ثلاثة أثواب أطلس^(٤) وثوبان خطائي^(٥) ، وعلى كل بقجة جلد قندس^(٦) كبير . ومنها : عشر في كل واحدة منها عشرة أثواب عتابي خوارزمي ، على كل بقجة جلد قندس كبير ، ومنها : عشر في كل واحدة عشرة أثواب عتابي^(٧) بغدادي وموصلی ، وعليها عشرة جلود قندس صغار ومنها : عشرون في كل واحدة خمس قطع سوسى وديقى أربعون في كل واحدة خمسة أقبية ، وخمس كمام . وحمل إليه خمس حصن عربية بعدتها ، وعشرين إكديشاً ، وأربعة قطر بغال ، خمس بغلات فاتقات بالسروج اللجم المكفتة وقطارين من الجمال ، وخلع على أصحابه مائة وخمسين خلعة ، وقاد إلى أكثرهم بغلات وأكاديش .

(١) الغلالة : شعار بلبس تحت الثوب . تاريخ ابن الفرات ٧٣/٥ .

(٢) الكمة : القلنسوة المدورة . المعجم المفضل بأسماء الملابس ص ٢١٣ .

(٣) دلكش : لفظ فارسي معناه الجعبة أو الكنانة التي توضع فيها النشاب أو القسي . مفرج الكروب .

(٤) أطلس : نوع من الملابس ويعمل به في مدينة تبريز كما ذكره باقوت في معجمه ٨٢٢/١ .

(٥) الخطائي : نوع من الثياب يصنع في مدينة تبريز .

(٦) القندس : كلب الماء .

(٧) نسبة إلى محلة في بغداد في الجانب الغربي ، وقد اشتهرت هذه المحلة بإنتاج نوع من النسيج .

ومن محاسنه أنه أجرى الماء من جيلان إلى حلب ، وغرم على ذلك أموالاً كثيرة
وبقى البلد يجرى الماء فيه ، وذلك سنة خمس وستمائة .

ذكر وفاته

لما كان صبيحة السبت ، خامس عشرين جمادى الأولى ، سنة ثلاث عشرة وستمائة ،
ابتدأ به حمى حادة ، ولما اشتد مرضه أحضر القضاة والأكابر ، وكتب اليمين : أن يكون
الملك بعده لولده الصغير العزيز محمد ، ثم من بعده لولده الكبير الصالح صلاح الدين
أحمد^(١) ، وبعدهما لابن عمهما المنصور محمد بن العزيز . وجعل الحكم إلى شهاب
الدين طغرل الخادم^(٢)

وهذه وعدة في حلب قل أن يموت سلطان ويخلف ولداً صغيراً إلا ويكون أتابكه
خادماً .

وفي ثالث عشر جمادى الآخرة أقطع الظافر خضر كفر سودا وأخرجه من حلب في
ليلته بالتوكيل .

واشتد مرضه ، منع الناس الدخول عليه ، وتوفى يوم الثلاثاء العشرين من جمادى
الآخرة . وكان عمره اربعاً وأربعين سنة وشهوراً ، ومدة ملكه بحلب إحدى وثلاثون سنة
وقال الحلبي يرثيه^(٣) :

سَلِ الْخَطْبُ إِنْ أَصْفَى إِلَى مِنْ يَخَاطِبُهُ
نَشْدَتِكَ عَاتِبَهُ عَلَى نَائِبَاتِهِ
أَرَى الْيَوْمَ دَسْتُ الْمَلِكِ أَصْبَحَ خَالِباً
فَإِنْ يَكُ نُورٍ مِنْ شَهَابِكَ قَدْ خَبَا
بِمَنْ عَلَّقْتَ أَنْبِيَابَهُ وَمَخَالِبَهُ
وَإِنْ كَانَ نَائِي السَّمْعِ عَمَّنْ يُعَاتِبُهُ
أَمَا فَبِكُمْ مِنْ مَخْبَرِ أَيْنِ صَاحِبِهِ؟
فَبِأَيِّ طَالَمَا جَلَى دَجَى اللَّيْلِ ثَائِبَهُ

(١) مات سنة ٦٥١ هـ . انظر وفيات الأعيان ١٠/٤ .

(٢) مات سنة ٦٣١ انظر النجوم الزاهرة ٢٨٦/٦ .

(٣) وردت هذه الأبيات في وفيات الأعيان ١٧٩/٣ ، مفرج الكروب ٢٤٦/٣ ، كنز الدرر ١٨٦ ، تاريخ

ابن الفرات ٢٠٤/١/٥ .

وقد لاح بالملك العزيز محمد
فتى لم يفته من أبوه وجده

صباح هدى كنا قديماً نراقبه
إباء وجد هالها من بغالبه

ومنهم الملك الأفضل (١)

على بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك الافضل ، نور الدين أبو الحسن ، ابن
الملك الناصر . ولد بمصر سنة خمس وستين (وخمسمائة) وهو أكبر الأخوة ، والمعهود
إليه بالسلطنة ، وكان فاضلاً شاعراً ، حسن الخط ، قليل الحظ ، وفى ذلك يقول (٢) :

لعمساه من أهل الشبوية يحصل
ولك الأمان بأنه لا ينصل

يا من يسود شعره بخضابه
ها : فاخترصب بسواد حظى مرة

ويقول أيضاً (٣) :

لا دراكه يوماً يرى وهو طالبى
تمكن يوماً من نواصى النواصب

أما آن للسعد الذى أنا طالب
ترى هل يرىنى الدهر أيدى شيعتى

قال جامعه : والأصل فى قلة حظه الفضل ، ولم تزل الفضائل تأخر ، أما سمعت

قولهم :

(١) انظر : شذرات الذهب ١٠١/٥ ، النجوم الزاهرة ٢٦٢/٦ ، كنز الدرر ٢٧٥ ، البداية والنهاية

١٠٨/١٢ ، تاريخ ابن الوردي ٢١٠/٢ ، ذيل الروضتين ١٤٥ ، وفيات الأعيان ٩٥/٣ ، السلوك

٢١٦/١

(٢) وردت الأبيات فى المختصر ١٣٥/٣

(٣) ردت فى السلوك ٢١٧/١ ، الفيت المسجم ٧٨/٢ .

وما نهنت في طلب ولكن
على حر تؤخره المحاسن

علام تحركي، والحظ ساكن
أرى نذلاً تقدمه المساوي
وما أحسن الأرجاني في قوله (١) :

جهلى كما قد ساءنى ما أعلم
حبس الهزار لأنه يترنم

لو كنت أجهل ما أقول لسرنى
كالصعو يرتع في الرياض ، وإنما

وأحسن من ذلك كله قول المقام العادلى من جمع باسمه هذا الكتاب خلد الله ملكه:
وهذا باب واسع ، ولولا أن يقال مادح نفسه لذكرت أشياء ، وما أشبه قضية الأفضل
بابن المعتز (٢) ولكن كما قال بعضهم : « ادركته حرفة الأدب » انتهى .

ومن شعره ما كتبه إلى الخليفة (٣)

عثمان ، قد غصباً بالسيف حق على
من الأواخر ، ما لاقى من الأول

مولاي إن أبا بكر وصاحبه
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي
فكتب الامام الناصر جوابه :

بالود يُخبر أن أصلك طاهر
بعد النبي له يئثر بناصر
وابشر فناصرك الامام الناصر

وافى كتابك يا بن يوسف معلنا
غصبوا عليا حقه إذ لم يكن
فناصر فإن غداً عليه حسابهم

(١) الأرجاني : هو ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين ، ولد سنة ٤٦٠ هـ وتوفي سنة ٥٤٤ هـ بمدينة نستر ، وهي مدينة مشهورة بخوزستان ، وهو إقليم واسع بين البصرة وفارس وتولى نيابة القضاء بها ، وكان فقيهاً شاعراً . وفيات الأعيان ١٥١/١ .

(٢) هو عبد الله بن المعتز بالله بن المتوكل ، أديب شاعر ، ولي الخلافة بعد عزل المقتدر يوماً واحداً ، ثم خنقه مؤسس الخادم سنة ٢٩٦ هـ . الأغاني ٢٧٤/١٠ ، ابن خلكان ٧٦/٣ ، تاريخ بغداد ٩٥/١٠ ، المنتظم لابن الجوزى ٨٤/٦ ، البداية والنهاية ١٠٨/١١ .

(٣) انظر : وفيات الأعيان ٤٢٠/٣ ، ثمرات الأوراق ٢٣ ، تاريخ ابن الوردي ٢٦٢/٢ .

وكتب إلى بعض أصحابه : أما أصحابنا بدمشق فلا علم لي بأحد منهم وسبب ذلك
أن (١) :

أى صديق سألت عنه فلى الأذى
وأى ضد سألت حالته
ذُل وتحت الخمول فى الوطن
سمعت ما لا تحبه أذنى

وقد ذكرنا أخباره مفصلة فيما مضى ، وهنا نذكر بعضها : لما توفى أخوه العزيز سنة
خمس وتسعين (وخمسمائة) ملك بعده ابنه المنصور محمد ، فلم يلبث إلا هنيئاً حتى
تحركت عليه جماعة ، فقالوا : لا بد من مُدبر واستشاروا الفاضل ، فأشار بالأفضل ، فجاء
من صرخد لليلتين بقيتا من صفر متنكراً ، خوفاً من أصحاب عمه ، ووصل بلبيس خامس
ربيع الأول واستتاب الأفضل أخاه الظافر ، ولما قرب القاهرة تلقاه أخوه المؤيد وجهاركس ،
وعمل كل منهما ضيافة ، فحلف المؤيد بالطلاق أنه لا بد أن يبدأ به فغضب لذلك
جاركس ، وأخذ دستوراً أن يتأخر بالشرقية ليصلح بين العرب ، فلما انفصل عن الأفضل
ركب هو وقراجا ، ولحق بالقدس ، وقيل : إن جهاركس كتب إلى عسكر دمشق : إن
الأفضل إن حكم قتلنا فركب عسكر دمشق فقاتهم ، ورأى الأفضل النجاب فرده ، فقال
جهاركس للنجاب : ما أسرع ما وصلت ؟ فحكى له القصة فهرب ، وفى هذا الكلام
خلل . وتلقى المنصور عمه فلما رآه نزل ومشى بين يديه إلى دار الوزارة ، وزينت البلد ،
ونزل الأفضل دار البستان التى عمرها العزيز (٧٠ ب) . وشرع فى الاطلاقات ، وأرسل إلى
عمه يبذل الطاعة ، وحذف من الخطبة الترحم على الناصر والعزيز ، وخطب باسم الأفضل ،
وامتدحه شعراء العصر ، وأدباء المصر ، فمن قصيدة للنابلسي :

(١) وردت هذه الأبيات فى الكامل فى التاريخ ٤٢٩/٩ ، كنز الدرر ٢٧٦/٧ ، المختصر ١٣٥/٣ .

رويدكم إن الهوى مسلك وعمر
أسير القوائى فيه ليس يفتدى
وما هى إلا نظرة سلكت دمي
وما كان ، لولا أن يظهرها الهوى
فلله بالفسطاط أرغد عيشة
ومنها :

فيا حبذا مصر وساكن أرضها
وليلة زارت والنجوم كأنما
وعقد الثريا فى أنيق نظامه
وللزهرة الغراد فى القرب رجفة
وجنح الدجى فى عنفوان شبابه
أو الملك نور الدين أشرق قادمًا
طوى من أعالي مصر عشرين رحلة
فوافى إليها وهى ترقب قربه
وفى طرفها ألا إلى وجهه قذى
فشرفها منه أغر متوج
وقلدها سيفاً من العز صارمًا
وكانت عروس الدهر تطلب كفاها
ومنها :

هو الفيث واقاها على ظمأ بها
حليم على الجانى وطوراً يعاقب
تفرق طعماء لدى السخط والرضا
يلين ويقسو للعفاة وللعدا
بليغ ، يقول الفصل ناطق فضله
رحيب الذرى والباع والباس والندى
يجود ولا وعد فأما وعوده
ضلالاً لمن بالبحر قاس يمينه

يضل به الهادى ويستعبد الحر
ومتولها فى دينه دمه هدر
وحاذرتها لو أنه ينفع الحذر
لغائية ، نهى على ولا أمر
حظيت بها لوعاد يوماً بها العمر

وساحتها فالنخل فالليل فالقصر
على روضة خضراء من زهرها زهر
بطابقه من أنجم النثر والنثر
مخافة أن ينقض منقضها النسر
فما كذبت عيناي إن طلع الفجر
بصاحبه الأقبال والفتح والنصر
فكان لموتى الفقر فى ظيها نشر
وليس لها عن أن يواصلها صبر
وفى سمعها إلا إلى ذكره وقر
به تشرف الأمصار جمعاء لا مصر
به حق لو تاهت له التيه والفخر
فزف إليها الأمد الأفضل الغمر

فبشرها بالفوئ من وجهه البشر
وخيرفتى من عنده الخير والشر
فذا سانع حلو وذا سانع مر
فلى راحتيه النفع للناس والضر (١٧١أ)
فمعروفه بر ومنطقة در
وأرحب منها فضله الجم والصدر
فحاشا وفيها من مواقبتها غدر
ومن جوده فى كل أنملة بحر

إليه بنى الآمال من كل وجهة
فتى يهب الجم الفطير وقلته
هو الفمر قد أفنى الكنوز مواهباً
بمينا لو أن الدهر ملك بمينه
ومنها :

أنجل صلاح الدين والملك الذي
عدلت فلا جور وصلت فلا أذى
ففى غضب الشيطان بأسك والندى
لأنتم بنى أيوب خير عصابة
سما علاً يهدى مصابيح ألقها
وقال يمدحه بقصيدة منها :

الأفضل ابن أبيه أفضل ذى ندى
ملك إذا وقف الملوك بهبابه
غيبث إذا سحت سحاب جوده
وللبشر فى قسماته نور - الى
ومنها :

يقظ تنبه للثناء وكسبه
فإذا اقتنى الملك الكنوز رأيت
مهلاً على علوت حتى مالذى
كم لج جيش للفرجة خضته
فنظمته بالرمح وهو مبدد
صلت سيوفك حين صلت ركعاً
ومنها :

أشرقت فى الزمن البهيم كما بنا
فألبه بك يا بن من لسيوفه
لو كان حلمك للجبال موطداً
لو كان جودك للسحاب مظاهراً

فإحسانه المد الذى ماله جزر
بان كثيراً من مواهبه نذر
أفى قلبه حقد على المال أو غمر؟
لأصبح موهوباً وإن عظم الدهر

زكا النجل من أولاده وزكا النجر
وقمت فلا زرع وجدت فلا فقر
وفى طاعة الرحمن سرى والجهر
لها الحمد بعد الله والمدح والذكر
ويهدى لنا من سحبتها النائل الدثر

نسخت وعود الجود منه نقود
عابت مولى والملوك عبيد
جزر الحيا ولراحتيه مدود
مأ يرتجى الراجون منه - يزيد

حين الملوك عن الثناء رقود
خرقاً بما ملكت يداه بجود
شرف إلى حيث ارتقت صعود
والدارعون بجانبه ورود
ونثرته بالسيف وهو عقود (٧١ب)
فيهم فهمهم إليك سجود

للصبح فى غسق الظلام عمود
أبدأ رقاب المشركين حصود
لم تُلّف بالزلزال وهى تميد
ما زالت الأنواء وهى تجود

أو كان عزمك للصوارم لم تحط
أو كان بأسك للأسود لما احتمت
ومنها :

يوماً بهن ولو أحطن غمود
من خوف بأسك بالعمرين أسود
معنى أنى شدى غريد
عبقاً وخطاي النسيم ركود
وتمزق الأيام وهو جديد
فمن العجائب أن يقال قصيد
ما عن صفاتك للكمال محيد

فتمل منى كل بكر طائر الـ
شعر بضوع ثناك فى أثنائه
يكسى على مر الزمان طلاوة
در تنظم من علاك فریده
لا تحسبن لك فى الكمال مشاركاً

ثم جهز عسكرياً فى سنته مع الظافر للقدس ، وأرسل من فيه إلى الأفضل : قد غررت
بنفسك فلا تطمع فى ملك أبدأ . وأوقف المظربة ومنية الباسك والرباع المسوغة وغيرها على
سور القاهرة ومصر والمهتان . وقد ذكرنا أحواله كاملة . وكان أولاً بالشام وهو السلطان ، ثم
تعرض صرخد ، ثم حكم مصر نيابة ، ثم تعرض عنها ميافارقين وحانى وسميساط^(١) ، ثم
أخذ منه ذلك غير سميساط ، ولما قصد ملك الروح حلب ، سنة خمس عشرة ، وتسلم
منها رعيان^(٢) وسلمها إلى الملك الأفضل ثم أخذها منه فى سنته ، ولم يتحرك بعدها فى
طلب ملك إلى أن مات بسميساط ، ولم يكن له غيرها . ومات فجأة يوم الجمعة ، فى
ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، ونقل إلى ظاهر حلب فدفن بها ، وعمره سبع
وخمسون سنة . وكان حسن السيرة ، تجمعت فيه الفضائل والأخلاق الحسنة .

ومنهم الملك المعز

إسحاق بن يوسف بن أيب بن شاذى الملك المعز ، فتح الدين ، أبو يعقوب ، ابن الملك

(١) سميساط : قلعة فى بر الشام على الفرات . وفيات الأعيان ٤٢١/٣ .

(٢) رعيان : بلدة بين حلب وسميساط قرب الفرات . معجم البلدان ٥١/٣ .

الناصر . ولد سنة سبعين (وخمسمائة)^(١) وسمع ابن برى^(٢) وحدث ، وكان فاضلاً ،
حسن الذاكرة ، نزل عند أخيه الظاهر (٧٢ أ) بحلب في حرمة تجمل ، تقنطر به^(٣)
فرسه في الصيد ، فمات في ذى الحجة ، سنة خمس وعشرين وستمائة ، وله سبع
وخمسون سنة ، قال الذهبي ، وعلى ما حكيناه من مولده تكون له خمس وخمسون .

ومنهم الملك الظافر^(٤)

خضر بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك الظافر ، وقيل : الظاهر ، مظفر الدين ،
أبو الدوام ، وأبو العباس ، ابن الملك الناصر ، المعروف بالمشمر ، وإنما قيل له ذلك لأن أباه
لما قسم البلاد بين أولاده ، قال : وأنا مشمر ، فغلب عليه هذا اللقب .

ولد بالقاهرة خامس شعبان سنة ثمان وستين (وخمسمائة) وهو شقيق الأفضل . حج
على تيماء سنة عشر وستمائة ، فلما وصل إلى بدر وجد عسكر الكامل قد سبقه خوفاً على
اليمن منه ، فقالوا : ارجع ، فقال : قد بقى بينى وبين مكة مسافة مسيرة ، والله ما قصدى
إلا الحج ، فقيدونى حتى أقضى مناسكى وأعود ، فلم يلتفتوا إليه ، فأراد أن يقاتلهم فلم
يكن له بهم طاقة ، فعاد بلا حج ، وتوفى في جمادى الآخرة ، سنة سبع وعشرين وستمائة
بحران عند ابن عمه الأشرف ، ولم يكن الأشرف ملكها ، وإنما مجتازاً بها عند دخوله بلاد
الروم .

(١) انظر : ترويح القلوب ٩٥ .

(٢) ابن برى : هو عبد الله بن برى بن عبد الجبار ، أبو محمد المقدسى المصرى النحوى اللغوى ، لم يكن
فى الديار المصرية مثله ، أجاز لأهل عصره ، توفى سنة ٥٨٢ هـ . وفيات الأعيان ١٠٨/٣ .

(٣) تقنطر : قنطر الفارس : سقط عن ظهر فرسه إلى قدامها .

(٤) انظر : ترويح القلوب ٩٤ ، وفيات الأعيان ٢٠٥/٧ ، الدارس والمدارس ١٨٧/٢ .

ومنهم الملك الزاهر^(١)

داود بن يوسف بن أيوب بن شاذي ، الملك الزاهر ، وصحفه بعضهم الزاهد ، فخر الدين ، وقيل : مجير الدين ، ابن الملك الناصر .

ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وكان صاحب البيرة^(٢) مرض بالعسكر الكالي ، وحمل إلى البيرة ، فاستدعى ابن اخيه العزيز بن الظاهر ، وكان الظاهر شقيقه ، فأوصى له بالبيرة وبخزائنه وقلاعه ، وعين لأولاده شيئاً من ماله . ثم توفي سنة الثنتين وثلاثين وستمائة ، وتسلم العزيز البيرة . وله ولد اسمه أسد الدين .

منهم الملك المحسن^(٣)

أحمد بن يوسف بن أيوب بن شاذي ، الملك المحسن ، زين الدين ، وقيل : ظهير الدين ، وقيل : ثمين الدين ، أبو العباس ، الملك المحسن ، ابن الملك الناصر .

ولد سنة سبع وسبعين وخمسمائة بمصر ، سمع الحديث بدمشق من صدقة الحراني^(٤) وحنبل^(٥) .

(١) انظر : تاريخ ابن الوردي ٢٣٠/٢ ، المختصر ١٥٦/٣ ، مفرج الكروب ٤٢٤/٢ ، السلوك ٢٥٠/١ ، وفيات الأعيان ٢٥٧/٢ .

(٢) البيرة قلعة بقرب سميساط من ثغر الروم على الفرات . وفيات الأعيان ٢٥٨/٢ .

(٣) ترجمته في مفرج الكروب ٢٤٥/٢ ، النجوم الزاهرة ٢٩٨/٦ ، شذرات الذهب ١٦٢/٥ .

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الحسن بن صدقة الحراني ، توفي سنة ٥٨٤ هـ . النجوم الزاهرة ١٠٩/٦ .

(٥) حنبل بن عبد الله بن الفرغ بن سعادة ، توفي سنة ٦٠٤ هـ . النجوم الزاهرة ١٩٥/٦ .

وابن طبرزد^(١) ، وبمصر من البوصيري^(٢) وغير واحد ، وعنى بالحديث ، وطلب
وكتب واستنسخ وقرأ على الشيوخ . وكان مليح الكتابة ، جيد النقل ، متواضعاً ، متزهداً ،
حسن الأخلاق ، مفضلاً على أصحاب الحديث وعلى الشيخ ، حصل الكتب النفيسة ،
والأصول (٧٢ ب) المليحة ، ووجد المحدثون به راحة عظيمة ، وجاهاً ووجاهة ، وهو
السبب في مجيء حنبل وابن طبرزد ، وكان يكثّر التحرى في القراءة . وسمع بمكة من
الحصري^(٣) ، وببغداد من الداہرى . مثل عنه الحافظ الضياء^(٤) فقال : سمع وحصل
الكتب ، وانتفع الخلق بإفادته ، وطلب الحديث على وجهه . وقال السيف بن المجد^(٥) إنه
كان يميل إلى التشيع ، روى عنه أبو نصر الشيرازي^(٦) ، وهو أكبر منه ، والقاضى
العديمى .

توفى بحلب رابع محرم سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وحمل إلى الرقة فدفن بها بقرب
عمار بن ياسر^(٧) .

-
- (١) أبو حفص عمر بن محمد بن معمر المعروف بابن طبرزد ، محدث كبير توفى سنة ٦٠٧ هـ . النجوم
الزاهرة ٢٠١/٦ .
- (٢) عبد الله بن علي بن ثابت بن مسعود الأنصاري الخزرجي ، أبو القاسم البوصيري ، حدث بالقاهرة
والإسكندرية ، توفى سنة ٥٩٨ هـ . النجوم الزاهرة ١٨٢/٦ ، شذرات ٣٣٨/٤ .
- (٣) الحافظ أبو الفتح نصر بن أبي الفرج البغدادي المقرئ ، توفى سنة ٦١٩ هـ . النجوم الزاهرة ٢٥٤/٦ .
- (٤) الحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد الدمشقي الصالحى ، ولد سنة ٥٦٩ هـ ، له تصانيف كثيرة
في أجزاء عديدة ، توفى سنة ٦٤٣ هـ . الوافى بالوفيات ٦٥/٤ ، فوات الوفيات ٤٢٦/٣ ، النجوم
الزاهرة ٣٥٤/٦ .
- (٥) الإمام الحافظ سيف الدين أحمد بن المجد الحنبلى ، ولد سنة ٦٠٥ هـ ، كتب وصنف توفى سنة
٦٤٣ هـ . النجوم الزاهرة ٢٥٣/٦ .
- (٦) أبو نصر محمد بن هبة الله بن محمد الشيرازي ، توفى سنة ٦٣٥ هـ . النجوم الزاهرة ٣٠٢/٦ .
- (٧) عمار بن ياسر بن عامر الكندي ، صحابى ، وهو أحد السابقين إلى الإسلام والجهريه ، توفى سنة
٣٧ هـ . صفوة الصفوة ١٧٥/١ .

ومنهم الملك المعظم^(١)

توران شاه بن يوسف بن أيوب بن شاذي ، الملك المعظم ، ابن الناصر ، أبو المفاخر ،
فخر الدين .

ولد بمصر سنة سبع وسبعين ، وهو آخر من بقى من أخوته . سمع الحديث بدمشق
من محيي الثقفى ، وأجازه ابن هري ، وانتقى له الديمياطى^(١) وحدث بدمشق وحلب .
روى عنه الديمياطى . وكان كبير البيت الأيوبي وكان الناصر ، وهو ابن ابن أخيه ، يحترمه
ويجله ويثق به ويتأدب معه . وكان يتصرف فى الخزائن والأموال والغلمان ، قد حضر غير
مصاب ، وسنذكر بعض ذلك .

وكان ذا شجاعة وعقل ، وكان مقدم الجيش الحلبى من زمان طويل ، وهو كان
المقدم لما التقوا مع الخوارزمية سنة سبع وثلاثين بقرب الفرات ، فأسر يومئذ وهو مشخن
الجراح ، وانهمز عسكره هزيمة قبيحة . ولما استولى التتار على حلب ، وهذلوا السيف ،
اعتصم بقلعتها ، ثم سلمها بالأمان ، وأدركه الأجل على قرب ذلك . قال الذهبى : ولم
يكن عادلاً وربما تعاطى المحرم . فإن الديمياطى يقول : أخبرنى فى حالة الاستقامة .

قال جامعه : وهذا لا يصلح دليلاً .

توفى سابع عشرين ربيع الأول ، سنة ثمان وأربعين وستمائة بحلب ودفن بدهلين داره ،
وله ثمانون سنة .

(١) ترجمته فى ذيل مرآة الزمان ١٥/١ ، السلوك ٤٤١/١ ، النجوم الزاهرة ٩٠/٧ ، شذرات ٢٩٢/٥ ،
ترويح القلوب ص ١٠٠ .

(٢) هو عبد المؤمن بن أبى الحسن بن شرف الديمياطى ، توفى سنة ٧٠٥ هـ . طبقات الشافعية ١٠/٤ ،
الدرر الكامنة ٤١٧/٢ ، البداية والنهاية ٤٠/١٤ .

ومنهم الصالح اسماعيل^(١)

ابن يوسف بن أيوب بن شاذي ، معين الدين ، مات في حياة أبيه .

ومنهم الأعز يعقوب^(٢)

ابن يوسف بن أيوب بن شاذي ، شرف الدين . ولد بمصر سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ومنهم المفضل موسى^(٣)

ابن يوسف بن أيوب بن شاذي ، قطب الدين ، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وهو شقيق الأفضل والظاهر .

ومنهم الأشرف محمد^(٤)

ابن يوسف بن أيوب بن شاذي ، عز الدين ، وقيل : نصر الدين ولد الشام سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وهو شقيق المحسن .

-
- (١) انظر : ترويح القلوب ٩٦ .
(٢) في ترويح القلوب ص ٩٤ ، توفي سنة ٦٢٤ هـ ، وفي الدارس في تاريخ المدارس ١٨٧/٢ ، توفي سنة ٦٢٧ هـ .
(٣) توفي سنة ٦٣١ هـ . انظر السلوك ٢٤٩/١ ، ترويح القلوب ص ٩٣ .
(٤) توفي سنة ٦٠٥ هـ . انظر ذيل الروضتين ص ٦٧ ، الوافي بالوفيات ٢٥١/٥ .

ومنهم الجواد أيوب^(١)

ابن يوسف بن أيوب بن شاذى ، ركن الدين ، وقيل : نجم الدين ولد سنة ثمان وسبعين وخمسمائة .

ومنهم العادل

وقيل : الغالب ملك شاه^(٢)

ابن يوسف بن أيوب بن شاذى ، ناصر الدين ، وقيل : هو الغالب فروخ شاه . ولد بالشام سنة ثمان وسبعين وخمسمائة .

ومنهم عماد الدين شاذى^(٣)

ويسمى عمر بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، ولم يذكره بعضهم .

ومنهم المنصور أبو بكر^(٤)

ابن يوسف بن أيوب بن شاذى ، نصرة الدين . وقيل : سيف الدين . وقيل : بل إنهما اثنان ، فأبو بكر سيف الدين ، ونصرة الدين ابراهيم . وقيل : مروان . ولد بحران بعد وفاة والده سنة تسع وثمانين وخمسمائة .

-
- (١) مفرج الكروبي ٤٢٥/٢ ، ترويح القلوب ص ٩٥ ، ولم يذكر سنة وفاته .
(٢) ترويح القلوب ص ٩٦ ولم يذكر سنة وفاته .
(٣) ترويح القلوب ص ٩٧ ، ولم يذكر سنة وفاته .
(٤) ترويح القلوب ص ٩٦ ، ولم يذكر سنة وفاته .

فهؤلاء أولاد الناصر صلاح الدين الذكور . ولم يكن له من الإناث سوى بنت واحدة
وهي : مؤنسة خاتن بنت يوسف بن أيوب بن شاذي تزوجها ابن عمها الكامل محمد ابن
العادل أبي بكر بن أيوب ، ودخل بها سنة ست وتسعين وخمسمائة . آخر أولاد الناصر
يوسف .

ومنهم الملك المعز^(١)

اسماعيل بن طفتكين بن أيوب بن شاذي ، الملك المعز ، شمس الملوك ، ابن العزيز
صاحب اليمن ، ورد بغداد فأكرم مورده ، وتلقى بالاكرام والانعام . وكان منهما في
اللهو والشرب ، قليل الخير ، طرده والده إلى الحجاز لأمر نقمه عليه ، فكان بالسرين ،
وكتب الخليفة إلى أبيه منشوراً بالرضاء عنه ، ولما توفي أبوه سنة ثلاث وتسعين ، كان
بالسرين ، ارسل إليه جمال الدولة كافور من عرفه بوفاء والده ، فحضر وملك اليمن ، ثم
ادعى أنه أموي ، ورام الخلافة ، ولبس شارتها ، وكان طول الكُم نحو عشرين ذراعاً ،
وسمى نفسه المهدي ، وأرسل إليه عمه العادل ينهيه عن ذلك وينكر فعله . وقيل : ادعى
النبوة . وخرج عن طاعته جماعة من ممالك أبيه ، واقتتلوا معه فانتصر عليهم ، ثم اتفق
جماعة من الأكراد معهم وقتلوه سنة ثمان ، وقيل : تسع وتسعين وخمسمائة بالقور من
أعمال زبيد ، وداروا برأسه زبيد ونهبوها سبعة أيام ، وأقاموا أخاه الناصر أيوب .

(١) وفيات الأعيان ٥٢٤/٢ ، مفرج الكروب ١٣٦/٣ ، السلوك ١٥٩/١ ، العبر ٣٠١/٤ ، بلوغ المرام
ص ٤١ ، النجوم الزاهرة ١٨١/٦ ، المعقود اللؤلؤية ٢٩/١ ، ذيل الروضتين ص ١١ ، شذرات
الذهب ٣٣٤/٤ ، أبو الفداء ١٠٢/٣ .

ومنهم الملك الناصر^(١)

أيوب بن طفتكين بن أيوب بن شاذى ، الملك الناصر سيف الدين ابن العزيز صاحب اليمن ، لما قُتل أخوه الممزرُتب فى الملك ، وذلك سنة ثمان وقيل : تسع وتسعين وخمسمائة ، وأقام بأناهيته مملوك والده سيف الدين بكتمر سنقر ، ثم مات سنقر بعد أربع سنين ، وتزوج أم الناصر أمير يقال له : غازى بن جبريل ، وقام بالدولة ، ثم سمى الناصر فى كوز فقاع^(٢) على ما قيل ، وبقي غازى ملك اليمن ، ثم قتله جماعة العزيز بسبب قتله الناصر ، وبقيت اليمن خالية بغير سلطان ، فغلبت أم الناصر على (٧٣ ب) زبيد ، وكانت تنتظر وصول أحد من بنى أيوب ، فتزوج به وتملكه ، إلى أن ملكها سليمان بن شاهنشاه بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب .

وقال الدوادار : فى سنة عشر وستمائة ، وفيها بدأ الخلف بين الناصر وأمرائه ، ومنشأ الخلاف أن فخر الدين بكتمر أفسد الممالك ، وانحاز إلى الحزور مخالفاً ، وقصدهم السلطان فانهزموا ، وتوجه بكتمر إلى الحجاز بما معه من المال ، فاستلبه أصحاب مكة ، وأرادوا أن يملكوا عليهم المعظم سليمان ، فجلس فى ربيع الأول من هذه السنة .

أولاد العادل أبى بكر :

ومنهم الملك الأوحده^(٣)

أيوب بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك الأوحده ، نجم الدين ، ابن الملك العادل ،

(١) توفى سنة ٦١١ هـ . انظر السلوك ١٦٠/١ ، المعقود اللؤلؤة ٢٩/١ ، ترويح القلوب .

(٢) الفقاع : الشراب يتخذ من الشعير أو من الأثمار ، سمي به لما يعلوه من الزبد .

(٣) مرآة الزمان ٥٦١/٨ ، ذيل الروضتين ص ٨١ ، مفرج الكروب ٢٠٨/٣ ، كنز الدرر ١٧٥/٧ ، أبو

الفداء ١١٣/٣ ، النجوم الزاهرة ٢٠٧/٦ ، العبر ٣١/٥ ، البداية والنهاية ٦٤/١٣ ، ابن الفرات المجلد

الخامس ١٠٥/١ ، شذرات الذهب ٣٧/٥ .

ملك خلاط سنة أربع وستمائة ، سببه : أنه كان بميافارقين ، فسار منها وملك موش (١) ، فلما ملكها طمع في خلاط ، فسار إليها ، فهزمه صاحبها بلبان ، فعاد إلى بلاده ، وجمع وحشد ، وسير إليه أبوه جيشاً ، فقدم خلاط ، واقتل هو وصاحبها ، فانهزم بلبان واعتصم بالقلعة ، واستنجد بمغيث الدين (طغرل شاه بن قلع أرسلان) صاحب الروم فحضر بنفسه ، فاجتمعا وهزما الأوحده ، وحصروا موش ، وأشرفا على أخذها ، فغدر الرومي وقتل صاحب خلاط طمعاً في البلاد ، وسار إلى خلاط فمنعه أهلها ، فلما لم ير في البلاد مطعماً عاد إلى بلاده ، وأرسل أهل خلاط إلى الأوحده يستدعونه ، فحضر وملكها بعد يأسه منها ، وملك أكثر أعمالها سوى اليسير (منها) وكره الملوك مجاورته خوفاً من أيه . وكذلك خافه الكرج (وكرهوه) فتابعوا الغارات على بلاده ، وهو مقيم بخلاط لا يقدر على مفارقتها ، فلقى المسلمون من ذلك أذى شديداً ، وكانوا جبابرة ، ثم انتصر عليهم ، وملك حصن أوان وهو من أعظم حصونهم ، وذلك أنه اجتمع إليه جمع كبير ، فأرسل إليه أخاه الأشرف (موسى) فاجتمعا في عسكر كبير ، وحصروا قلعة أوان وملكها . ولما كان سنة ست ، وقيل : سبع وستمائة ، نزل الكرج على خلاط في خلق عظيم ، فتحصن الأوحده بالقلعة ، وحصر الملك البلد ، وأشرف على أخذه ، فسكر ذات يوم ، وجاء إليه المنجم فقال له : البشارة ، ما تببت الليلة إلا بقلعة خلاط ، فركب في جيوشه ، وقيل : بل سكر فحسن له السكر قصد البلد ، فقصدتها في عشرين فارساً ، فخرج إليه المسلمون فرأوا ما لا قبل لهم به ، فبينما هم كذلك إذ عثر به الفرس ، فقتل عليه جماعة من خواصه ، أخذ أسيراً فما بات إلا بالقلعة فرد خمسة آلاف أسير (من المسلمين) ومائة (٧٤ أ) ألف دينار ، وعقد الهدنة ثلاثين سنة ، وأن يزوج ابنته بالأوحده ، وأطلق .

وكان الأوحده فيه عسف وظلم ، فلم يطل عمره ، وابتلى بأمراض مزمنة ، وكان يتمنى الموت ، وقد استزار أخاه الأشرف من حران عنده أياماً ، واشتد مرضه ، وطلب الأشرف العودة لكلا يتخيل منه الأوحده ، فقال له الأوحده : (يا أخى لم تلح في الرواح) والله إنى

(١) موشى : بلدة من ناحية خلاط بأرمينية . معجم البلدان ٢٢٣/٥ .

ميت وأنت تأخذ البلاد ، وكان الأوحى قد صاغ للأشرف طلعة ذهب خمسمائة مثقال
برسم السنجق ، وبقيت فى الخزانة ، وانشغلوا بمرضه فلما توفى وملك للأشرف خلاط
كان أول ركوبه بتلك الطلعة .

وتوفى الأوحى بملازكرد^(١) فى ربيع الأول سنة تسع وستمائة . وقال ابن واصل :
سنة سبع . ومدة ملكه نحو خمس سنين . وأحسن الأشرف إلى أهل خلاط ، فأحبوه
وسروا بموت الأوحى .

ومنهم الملك الفائز^(٢)

ابراهيم بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك الفائز ، سابق الدين ، أبو اسحاق ، ابن
العادل . أقام فى الديار المصرية مدة ، وكان قد انتظم له أمر الملك بعد أبيه على مصر لولا أن
الكامل تدارك ذلك على يد أخيه المعظم . فبعثه أخوه الكامل إلى أخيه الأشرف بالموصل
يستنجده ، فأدركه أجله بسنجار . وقيل : بينها وبين الموصل . فيقال : إنه سمُ فرد إلى
سنجار ، ودفن بمدرسة والده قطب الدين صاحب سنجان ، ثم أخرجته بدر الدين لؤلؤ^(٣)
إلى ظاهر البلد ، ودفن عند تربة عز الدين زكى . مات سنة سبع عشرة وستمائة .

ومنهم الملك المفضل^(٤)

أحمد بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك المفضل ، وقيل : الأفضل العادل .
توفى بالفيوم سنة تسع عشرة وستمائة ، ونقل إلى القاهرة .

(١) ملازكرد : قلعة من أعمال خلاط . وفيات الأعيان ١/١٤٤ .

(٢) ترجمته فى ذيل الروضتين ص ١٢٢ ، مفرج الكروب ٦٨/٤ ، الوافى بالوفيات ١٢٤/٦ ، البداية

والنهاية ٩٢/١٣ ، الدارس فى تاريخ المدارس ٣١٦/١ ، النجوم الزاهرة ٢٤٩/٦ .

(٣) بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله صاحب الموصل ، توفى سنة ٦٥٧ هـ . النجوم الزاهرة ٧٠/٧ .

(٤) ترجمته فى ذيل الروضتين ص ١٣٣ ، مفرج الكروب ٢٧٥/٣ ، النجوم الزاهرة ٢٥٤/٦ .

منهم الملك المعظم (١)

عيسى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك المعظم ، شرف الدين ، ابن الملك المعظم ، العالم الفقيه ، المجاهد الغازى ، النحوى اللغوى .

ولد بالقاهرة سنة ست وسبعين ، ونشأ بالشام ، قرأ القرآن ، وتفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة على جمال الدين الحصىرى (٢) واعتنى بالجامع الكبير (٣) وصنف له شرحاً ، وانفرد عن بنى أيوب بالمذهب (الحنفى) فإنه لم يكن فيهم حنفى غيره ، بل كلهم شافعية ، وعوتب فى ذلك ، فقال : أما ترضون أن يكون فيكم واحد مسلم ؟ ولما وقف على « تاريخ بغداد » (٤) وجد فيه مطاعن على أبى حنيفة -رضى الله عنه- فرد عليه فى كتاب سماه « السهم المصيب فى الرد (٧٤ ب) على الخطيب » (٥) .

قال جامع الفقير : ولا بن الجوزى أيضاً كتاب مسمى بهذا الاسم ، وملكته ، ورأيت كتاب المعظم .

وحفظ المسعودى ، والايضاح لأبى على ، وكان يحب الفقهاء ويحرضهم على الاشتغال ويقول : من حفظ « الجامع الكبير » أعطيته مائة دينار ، ومن حفظ « الايضاح » (٦) أعطيته مائتى دينار ، فحفظ الكتابين جماعة كبيرة ، ووفى لهم ، وكان

(١) ترجمته فى مرآة الزمان ٦٤٤/٨ ، ذيل الروضتين ص ١٥٢ ، مفرج الكروب ٢٠٨/٤ ، وفيات الأعيان ٤٩٤/٣ ، السلوك ٢٢٤/١ ، أبو الفداء ١٣٨/٣ ، الدارس فى تاريخ المدارس ٥٧٩/١ ، كنز الدرر ٢٨٧/٧ ، الجواهر المضيئة ٤٠٢/١ ، القلائد الجوهريّة ص ١٤٣ ، شذرات الذهب ١١٥/٥ .

(٢) جمال الدين بن أحمد الحصىرى شيخ الحنفية فى عصره ، توفى سنة ٦٣٦ هـ . النجوم الزاهرة ٣١٢/٦ .

(٣) الجامع الكبير فى فقه الحنفية للإمام المجتهد أبى عبد الله محمد بن الحسن الشيبانى الحنفى المتوفى سنة ٢١٧ هـ .

(٤) تأليف الإمام الحافظ أبى بكر أحمد بن على بن لاهت .

(٥) طبع بعنوان الرد على أبى بكر الخطيب البغدادى بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣٢ .

(٦) يقصد الإيضاح فى النحو لأبى على بن حسن بن أحمد الفارسى النحوى المتوفى سنة ٢٧٧ هـ .

عنده جماعة من الفضلاء لا يفارقونه سفرأ ولا حضراً ، وكان قد أمر الفقهاء أن يجردوا له مذهب أبي حنيفة دون صاحبيه فجرد ذلك في عشر مجلدات سماه « التذكرة » فكان لا يفارقه سفرأ ولا حضراً قال سبط ابن الجوزى : فكتب على ظهر كل مجلدة « أنها حفظة عيسى بن أبي بكر بن أيوب » فقلت له : ربما يؤخذ عليك لأن أكبر مدرس في الشام يحفظ « القدورى »^(١) مع تفرغه ، وأنت - مع شغلك بالملك - تحفظ عشر مجلدات ، فقال : ليس الاعتبار بالألفاظ وإنما الاعتبار بالمعاني ، أسألني عن جميع مسائلها ، فإن قصرت كان الصواب معكم ، وإلا فسلموا لى . وقرأ الأدب والنحو على تاج الدين الكندى^(٢) ، أخذ عنه كتاب سيويه ، وشرحه للسيرافى ، والحجة فى القراءات لأبى على ، والحماسة . وسمع المسند على حنبل^(٣) بدمشق ، وأعطاه جملة من المال ، سيرة ابن هشام على ابن المحلى بمصر ، وغير ذلك .

قال سبط ابن الجوزى : إنه لا يقيم وزن الشعر فى بعض الأوقات مع أن له تصنيفاً فى العروض ، وله ديوان شعر . وقال بعضهم : إنه كان يجيد النظم ، ذكر أنه كان نازلاً بناهلس مرة وفى عسكره بهاء الدين القيسرانى ، فكتب إلى العظيم^(٥) :

أضحت له الدنيا تزف عروسا
للناس أظهر حاسدوها بوسا
فيه الكؤوس كواكبها وشموسا

يا أيها الملك المعظم والذى
أوليتنى نعماً إذا أظهرتها
فليهنك اليوم الذى أطلعت
فكتب إليه المعظم :

أبدأ بؤسس مجدها تأسرنا
تعلو وربك بالثنا مانوسا

يا من تفرد بالفضائل دائماً
لا زلت فى درج المكارم راقبنا

(١) مختصر القدورى فى فقه الحنفية للإمام أبى الحسين أحمد بن محمد القدورى البغدادى المتوفى سنة ٤٢٨ ، وهو كتاب قيم مشهور لدى الحنفية شرحه كثيرون .

(٢) هو زيد بن الحسن بن زيد الكندى النحوى ، توفى سنة ٦١٢ هـ . النجوم الزاهرة ٢١٦/٦ .

(٣) هو أبو حنبل بن عبد الله فرج البغدادى ، توفى سنة ٦٠٤ هـ .

(٤) هو القاضى أبو محمد عبد الله بن محمد بن المحلى ترويح القلوب ص ٧٣ .

(٥) وردت الأبيات فى مفرج الكروب ٢١٧/٤ .

فكتب إليه ابن القيسراتي :

مدح بمدح يستطاب ولا أرى ما بين دراهمنا وفلوسنا

فأمر له المعظم بقماش وذهب قيمته ألف دينار ، ثم قال للرسول قل له : فلوس بيننا .

وقدم في أيامه البدر بن المسجف^(١) الشاعر من الشرق ومعه قماش فمسه ابن المبنى ،

فكتب إلى المعظم :

وأحبنا كل منقبة وفضل

ونصبنا للحياة وجزم فعل

حرام كله من غير حل

بحج ولا بصوم ولا يصلى

أجل زكاتكم عن مال مثلي^(٢)

أيا ملكاً أباد عداه قهراً

ومن هو كالمسيح اسماً وفعلأ

يكلفني البهاء زكاة مال

وكيف يجود بالزكوات من لا

فجد بهبات مالكم فإلى

فكتب المعظم على رأسها يؤخذ منه العشر .

وكان المعظم شجاعاً مقداماً ، كثير الحياء ، متواضعاً ، مليح الصورة ، ضحوكاً ،

غيبوراً ، جواداً ، حسن العشرة ، محافظاً على الصحبة والمودة . سافر على فرس واحد من

دمشق إلى إسكندرية إلى أخيه الكامل . وكان إذا خرج إلى الفزاة لا ينام إلا على زرديته .

ولا يقطع الاشتغال بالقرآن والجامع الكبير (وكتاب) سيبويه ، وكان يقضى حوائج الناس

كل يوم إلى الظهر . وكان في أيام الفتح مع الفرغ يرتب النيران على الجبال من نابلس إلى

عكا . وكان بجبل عكا جواسيس لهم مع نساء عكا علامات ، فإذا عزم الملك على إخراج

مائة أوقدت المرأة شمعة ، وإن كانوا مائتين أوقدت شمعتين ، وتشير إلى الناحية التي

(١) هو عبد الرحمن بن أبي القاسم بن غنائم بن يوسف ، الأديب بدر الدين بن المسجف ، كان أديباً ظريفاً

خليفاً ، توفي سنة ٦٣٥ هـ . فوات الوفيات ٢٨٢/٢ .

(٢) وردت الأبيات في مرآة الزمان ٦٤٥/٨ ، فوات الوفيات ٢٨٥/٢ .

يقصدونها . وكان يعطى النساء جملة كثيرة . قال أبو المظفر : قلت له : هذا إسراف لا يحل ، فقال : أنا أعطى الكثير باليسير . لما عزم الانبرور على كبس الشام بعث فارساً يجس له الخبر ، فبعثت إلى امرأة مستحسنة منهم تخبرني فأرسلت إليها الثياب الحرير وغيره وأشياء كثيرة ، فدخل إليها ذلك الفارس وهو موجه إلى الشام ، فرأى ما أدهشه ، فقال : من أين لك هذا ؟ قالت : من عند فلان ، فصلب على وجهه ، ولا زالت المرأة تلاطفه إلى أن صار إذا أرسل معه للملك كتاباً ، جاء به إليها مختوماً ، فترسل به إلى . قال سعد الدين (مسعود) والى خولان : كنت والياً بالشوبك ، وكان بها راهب متفرد ببعض الجبال فجاءني كتاب المعظم بنفيه ، فنفيته ، فغاب مدة ، وجاءني (٧٥٥) كتابه : أعده إلى مكانه ، وتوصى به ، فبحثت عن القصة ، فإذا به قد بعثه يكشف أخبار الانبرور ، إنما نفاه لكلا يتهم ، وأطلق له أرضاً ، وأعطاه مائة دينار .

وهبه العزيز ابن الناصر دمشق سنة اثنتين وتسعين ، واستقل بها عند وفاة الده في سنة خمس عشرة وستمائة ، واحتاط على ما خلفه ، وكان سبعمائة ألف دينار عيناً ، وكان الكامل مشغولاً بالفرنج ، وشق عليه ذلك لما علم به ، وبعث إليه الخلع ، وقال : أدركني وكان الكامل يخشاه ويداربه ، وكان هو أيضاً يدارى الكامل ويخطب له في بلاده ، وربما لم يذكر اسمه ، ويدارى الأشرف ، وهالكب عليه خوارزم شاه في الباطن ، وهو الذي ساعد الكامل ، ولولاه لخلع . وكان الكامل يقول : من حفظ عليّ البلاد ، وأحياني بعد الموت غيره ؟ وكان يقول : من أنبت الشعر على رؤوسنا إلا هو ؟ وكان الأشرف يقول : الله بيني وبين الساعة التي ولدت فيها ، معناه : أنه ولد قبل المعظم بقليل ، فكان يقف فوقه لأجل السن . وكان الظاهر - صاحب حلب يقول : هو عين البلاد ، وواسطة العقد ، ولولاه لما مر لي بحلب قرار وخاطبه الخليفة بشهريار الشام ، معناه الملك .

ولما ولي في سنة خمس عشرة أبطل المكوس ، ورد المظالم ، وسار إلى بانياس فأخربها ، وكذا تبنين ، وتسلم الحصون ، وأعطى بلاد جهاركس لأخيه العزيز ، وزوجه ابنة

جھارکس، وقد كسر الإفرنج غیر مرة . التقاهم مرة على القیمون^(۱) قتل مائة ، وأسر مائة دخل بهم القدس منكسة أعلامهم وأخرب قیساریة والشفر ودعوتی وحصوناً كثيرة .

وحكى عن نفسه فقال : كان بالغور حرامی يقال له : قندیل ، یقطع الطريق فی مائة فارس ، فسمعت أن الفرنج قاصدون القدس ، فخرجت بعد الظهر ، وقلت للجماعة : اتبعونی ، وسقت ، فبینما أنا بین بیسان وأریحا^(۲) ، وقد نسیت قندیل ، وإذا به فی مائة فارس ، ولم یکن معی عشرة أنفس ، فوقفت وصحت ، ذلك أنت قندیل ؟ ویده قوس لو ضرب به فی الجبل لنفذ ، ونزل إلیه بعض الممالیک ، وکنفه بوتر ، ومسکت البوتر ، وهو ساکت ، ونزلت فاراً ، فجاءنی فسلمته لهم ، قلت هو برؤوسکم ما أعرفه إلا فی القدس ، فلما كان الغد جاءوا به ، فقلت : اشنقوه ، وكان شاهاً ملیحاً فقال : یا خونند عوض ما تشنقی أبقنی أحمی بلادک ، وأجاهد الکفار ، فرق له قلبی ، وخلعت علیه ، ونزل الغور فأمنت الطرق . لما (۷۶ أ) نزلت الفرنج الطور ، حفظ الباب ، وجاهد جهاداً عظیماً ، فلما رأى الغلبة خرج فقتل منهم جماعة ، ثم استشهد .

وكان مع شهامته ، عظم هیبته ، قلیل التکلف ، حلیماً ، لا یركب بالسناجق^(۳) فی الغالب ، بل یركب فی جمع قلیل ، وعليه قباء^(۴) أبيض وکلوته^(۵) صفراء بلا شاش ، ولا یطرق بین یدیه كما جرت عادة الملوك ولما زار القدس كان الرجال والصبیان یزاحمونہ فی

(۱) حصن یقع بالقرب من الرملة من أعمال فلسطين . انظر معجم البلدان ۴/ ۴۲۴ .

(۲) اریحا : مدينة فی الغور من أرض الأردن . معجم البلدان ۱/ ۱۶۵ .

(۳) السناجق : فردة سنجق : وهو اللواد (فارسیة) .

(۴) القباء : لوب أبيض یلبس فوق القميص على شکل معطف ، من أنواع الأقبیة المختلفة . انظر المعجم

المفضل باسماء الملابس عند العرب ص ۲۸۴ .

(۵) الكلوته : غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة . مفرج الکروب ۴/ ۱۷۲ ، حاشیة ۲ . والشاش : قطعة

القماش التي تحیط الكلوته . المعجم المفضل باسماء الملابس ص ۲۰۰ .

الأقصى ولا يردهم أحد عنه ولما كثر ذلك منه ضرب به المثل . فكان الإنسان إذا فعل فعلاً لا تكلف فيه يقولون : فعل فعلاً معظمياً .

ومما نقم عليه أنه ألبس القاضي زكى الدين القباء والكلوته^(١) في سنة ست عشرة ، وكان في قلبه منه أشياء يمنعه من إظهارها وجود والده ، فاتفق موت العادل ، ومرض ست الشام عمه المعظم ، وكانت أوصت بدارها مدرسة ، وأحضرت القاضي وأوصته ، وبلغ المعظم ، فعز عليه ، وقال : يحضر دار عمتي بغير اذني ؟ ثم إن القاضي أحضر جابي المدرسة العزيزية^(٢) وطلب الحساب ، وضربه بين يديه ، فوجد المعظم سبيلاً إلى إظهار ما في نفسه ، وكان الجمال المصري^(٣) عدو القاضي ، فجاء فجلس عند القاضي وبعث المعظم بقجة فيها قباء وكلوته ، وأمره أن يحكم بين الناس ، وهما عليه ، فلبسهما من خوفه ، وحكم بين اثنين ، وأضر ما عليه حضور المصري ، ثم إن القاضي مرض ، ورمى كبده ، وكانت واقعة شنيعة ، وندم بعدها .

وكان ابن عنين الشاعر قد تزهد ، فبعث إليه قنينة خمر ونرداً ، وقال : سبح بهذه ، فقال ابن عنين في ذلك^(٤) :

يا أيها الملك المعظم سنة
تجرى الملوك على طريقك بعدها
أحدثتها تبقى على الآباد
خلع القضاة وتحلة الزهاد

(١) كان ذلك سبب موت القاضي زكى الدين بن محيى الدين ، إذ إن ما أمر بلبسه لم يكن من لياب القضاة ، فعده إهانة وتحقيراً ، وانصرف إلى داره ومرض ومات كمدأ ، وكان ذلك سنة ٦١٧ هـ . انظر مرآة الزمان ٣٩٧/٨ .

(٢) المدرسة العزيزية : جوار المدرسة المعظمية بالصالحية ، انشئت سنة ٦٢١ هـ . الدارس في تاريخ المدارس . ٥٤٩/١ .

(٣) جمال الدين يونس بن بدران المصري قاضى القضاة بدمشق ، توفي سنة ٦٢٣ هـ . البداية والنهاية . ١١٥/١٣ .

(٤) ديوان ابن عنين ص ٩٢ .

ذكر ما بنى من الأماكن

بنى مدرسة بقاسيون ، ودفن فيها والدته وأخاه المغيث ، ومدرسة القدس ، ودار المضيف ، واعتنى بأرض الحجاز ، وبنى حمامين بمعان^(١) للرجال والنساء ، وأقام لهم ضيافة ، وأباحهم الحمامين ، وذرع طريق الحجاز من الجابية^(٢) إلى مكة ، وحفر المصانع ، وأوقف عليها ضياعاً ، وعلى المدارس وحج سنة إحدى عشرة ، وعمر المسجد عند جعفر الطيار^(٣) ، وأقام الضيافات للزوار ، وبنى سور دمشق والطارمة التي على باب الحديد^(٤) . والطيارة عند باب السر وبنى الخان على باب الجابية الدار والجينية والقيسارية وغير ذلك .

ذكر وفاته

كان قد جهز العسكر إلى نابلس ، ومرض في نصف شوال ، وكان عنده رسل الخوارزمي^(٥) (٧٦ ب) ففرم عليهم في تسعة أشهر تسعمائة ألف درهم ، وكان مرضه دوستارياً ، واشتد مرضه ، ورمى قطعة من كبده ومصرانا ، وكثرت الأقوال ، إنه سم ، واتهم به جماعة ، كان يتيمم كل صلاة ، وكان يقول : ما فاتني صلاة قط ، وسهر الليلة التي مات فيها ، وغفى عند الفجر ، وانتبه وقد كادت الشمس تطلع ، فلم يقدر على

(١) معان : مدينة في طرف بادية الشام للقاء الحجاز من نواحي البلقاء . معجم البلدان ١٥٣/٥ .

(٢) الجابية : قرية من أعمال دمشق شمال حوران . معجم البلدان ٩١/٢ .

(٣) هو جعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ هاجر إلى الحبشة في الهجرة الأولى ، ثم عاد منها قتل في موقعة مؤتة سنة ٨ هـ . الإصابة ٢٣٧/١ ، صفوة الصفوة ٢٠٥/١ ، حلية الأولياء ١١٤/١ .

(٤) باب الحديد : جاء في نزهة الأنام في محاسن الشام ص ٢٧ ، من أبواب دمشق ، الباب الحديد وهو الآن خامر بالقلمة والذي أحده الأتراك في دولتهم ثم صحفته العوام بالحديد .

(٥) السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه ملك بلاد أذربيجان وأران وبعض بلاد الكرج وعراق المعجم وغيرها ، وكان متزوجاً من إحدى بنات الملك المعظم . مفرج الكروب ٢٠٤/٤ .

التيمم فصلى بالإيماء ، وكان يقول دائماً : « ما أظن ملكاً يدخل الجنة » ويقول : « الموت خير من الحاجة إلى الناس » ويقول : « قد صح عن النبي ﷺ أنه لا يجمع غبار في سبيل الله ، ودخان جهنم في منخري عبد أبداً ، وكم في منخري من تراب (في سبيل الله) .

وتوفى يوم الجمعة ، أول الحجة ، وقيل : بل في ذي القعدة ، سنة أربع وعشرين وستمئة ، وأوصى أن لا يُدفن بالقلعة ، بل على باب ترهة والدته تحت الشجرة ، فلم تفتقد وصيته ، ودفن بالقلعة ، ثم أخرج بعد مدة ، لما ملك الأشرف ، على حال غير مرضية ، وبين يديه نصف شمعة ، وطلب الحمالون ما يربطون به النعش ، فقالوا لهم : اربطوا بعمائمكم . ودفن مع والدته بالقبة وعمل له العزاء ثلاثة أيام ، وجرى على الرعية من وفاته ما لم يجر على غيره خرجت بنات الملوك ، شاقات لاطمات شهراً كل ليلة في الأسواق . وكان محسناً إلى الرعية ، ذاباً عن حريمهم ، رفيقاً بهم ، يعرف صغيرهم وكبيرهم ، يحضر مجالس الوعظ ، حضر يوماً عند سبط ابن الجوزي ، فأنشد قصيدة جده التي أولها :

سلام على الدار التي لا أزورها على أن هذا القلب فيها أسيرها
فبكي حتى افتضح ، فقال له : لا نسي الله لك موافك في رضائه ، وسهرك الليالي في جهاد أعدائه .

وكان له من الولد أربعة مات أحدهم صغيراً بعده بقليل ، والناصر وكان يلقب أولاً بالحاكم داود ، وهو أكبرهم ، مولده سنة ثلاث وستمئة ، وأمه تركية . والمغيث شهاب الدين عبد العزيز ، وأمه تركية (أيضاً) توفى سنة تسع وأربعين وستمئة بالشرق ، وخلف عدة أولاد . والقاهر بهاء الدين عبد الملك ، وأمه رومية . وخلف (الملك المعظم ابن العادل أيضاً) عدة بنات ، قيل : تسع ، وقيل : إحدى عشرة ، أحدهن زوجة خوارزم شاه لم يتفق حملها إليه . ومات المعظم سنة تسع وأربعين ومدة ملكه تسع سنين وشهور ، وولى بعده ولده الناصر . ولابن عُنَيْن يرثي المعظم ويمدح الناصر (١) :

(١) وردت في ديوان « ابن عُنَيْن » ٥٩ .

يا دهر ويحك ما عدا فيما بدا
 أغمدت سيفاً مرهفاً شطراته
 فافعل بجهدك ما تشاء فالني
 ما خلته بلني وأبقي بعده
 لهلي على بدر تغيب في ثرى
 أبقيت لي يا دهر بعد فراقه
 وجوى يوجج بين أثناء الحشا
 لو كان خلق بالمكارم والتقى
 أو كان شق الجيب ينقذ من ردى
 أو كان ينجى عنك دفع بالقنا الـ
 ولقد تمننت أن تكون فارس
 أبقيت حتى نثرة وطمرة
 كم ليلة قد بت فيها لا ترى
 تحمي حمى الاسلام منتصراً له
 ولرب ملهوف دعاه لحادث
 ولطالما شمتنا بوارق كفه
 يا مالكا من بعد فقدى وجهه
 أعزز على بأن يزورك راثياً
 كم مورد ضنك وردت وطعمه
 وعزيز قوم مترف سربته
 أركبته حلقات أدم قصرت
 لولا دفاعك بالصوارم والقنا
 وديار مصر لو دنت عزماته
 ولأمست البيض الحرائر بينهم
 ولأصبحت خيل الفرنج مغيرة
 وينغر دمياط فكم من بيعة
 جلبت ليل الكفر عنها فانطوى

أرسلت سهم الحادثات فأقصدا
 قد كان في ذات الإله مجرداً (٧٧ أ)
 بعد المعظم لا أبالي بالردى
 يا بوس دهرى ما أمر وأنكدا
 رمس ويحر في ضريح الحدا
 كبدا مقرحه وجلفنا أرمدا
 ناراً تزايد بالدموع توقدا
 يبقى لكنت مع الزمان مخلدا
 شقت عليك بنو أهلك الأكيد
 خطى غادرت الوشيح مقصدا
 من آل أيوب الكرام لك الفدا
 وحزنت حتى ذابلاً ومهددا
 إلا ظهور الأعوجية مرقدا
 بعزالم تستقرب المستبعدا
 جلل فكان جوابه قبل الصدى
 فتهمت سحائبها علينا عسجدا
 جار الزمان على بعدك واعتدى
 من كان زارك بالمدايح منشدا
 مر وقد عاف الكماة الموردا
 ذلاً وكان الطاغى المتمردا
 عنه الخطى من أشقر أو أجردا
 عن حوزة الاسلام عاد كما بدا
 عن نصرها لتحكمت فيها العدى
 فيها إماء والموالى أعبددا
 تجتاب ما بين البقيع إلى كدى (٧٧ ب)
 عبد الصليب بها وكانت مسجدا
 وأنرت في عرصاتها فجر الهدى

ولقد شهدتك يوم قيسارية
فجعلت عاليها مكان أساسها
قل للأعداء إن فقدنا سيداً
الناصر الملك الذي أضحى برو
أعلى الملوك محلة وأسدهم
ماضى العزائم لا يرى في رأيه
يقظ يكاد يريه ثاقب رأيه

والشمس قد نسج القتام لها ردا
وأنت كالأخشاب فيها الجلمدا
يحمى الديار فقد وجدنا سيداً
ح القدس في كل الأمور مؤيداً
رأياً وأشجعهم وأنداهم يدا
يوم الكريهة حائراس مترددا
في يومه ما سوف يأتيه غدا

وتأتى بقية أخباره .

ومنهم الملك الأشرف (١)

موسى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك الأشرف ، أبو الفتح ، شرف الدين ،
وقيل : مظفر الدين .

ولد بالقاهرة ، وقيل : بالكرك ، سنة ثمان وسبعين (وخمسمائة) (٢) وقيل : ست .
وكان أول أمره بالقدس تحت حكم ابن الزنجبلى ، وأول ما ملك الرها ، سيره إليها والده
سنة ثمان وتسعين ، ثم أضيفت إليه حران ، وكسر أرسلان شاه (٣) - صاحب الموصل -
سنة ستمائة ، وذلك أن ابن عمه قطب الدين محمد خطب للعادل ، فصعب على أرسلان ،
وقصد نصيبين ، وهى لمحمد ، واستنجد محمد بالأشرف ، فسار إليه ، هو وأخوه الأوحى ،
فالتقوا ، فانهزم صاحب الموصل هزيمة قبيحة ، ودخل الموصل ، وليس معه غير أربعة
أنفس ، وكانت هذه الواقعة أول ما عرف من نجابة الأشرف ، فإنه لم تهزم له راية بعد ذلك .
قال المعظم : « أنا أخذت له حران والرها والشرق وجهزته من عندى ، وتنقلت به الأحوال

(١) انظر : تاريخ الصالحية ٩٥/١ ، امراء دمشق ٩٥ ، ذيل الروضتين ١٦٥ .

(٢) انظر : مفرج الكروب ٢٩/٣ ، كنز الدرر ٧٠/٧ .

(٣) هو صاحب الموصل ، مات سنة ٦٠٧ هـ . انظر : وفيات الأعيان ١٩٣/١ .

حتى صار شاه أرمن^(١) ، وملك خلاط ، سنة تسع ، وكسر الروم ، والخورزمي ، وأخاه شهاب الدين ، وسنذكر ذلك .

وكان جواداً حياً عادلاً سخياً ، لو كانت الدنيا بيده ودفعتها لأجل الناس ما استكرها ، ميمون الطلعة ، ما كسرت له راية قط . ولما مرض أخذ بعض مماليكه منجقه ليكره ، وقال : ما يحمله غيره ، فقال : لا تفعل ، فوالله ما كسر قط . وكان يحضر (٧٨ أ) مجالس الوعظ ويكي ، ويعتق ، وكان عفيفاً عن المحارم وقال سبط ابن الجوزي : اجتمعت به في خلاط ، فعتب على المعظم في قصة بلغته عنه ، ثم قال : والله ما مددت يدي إلى حريم أحد قط ، لا أنثى ولا ذكر ، ولقد كنت يوماً قاعداً هنا إذ دخل الخادم فقال : على الباب عجوز تذكر أنها من عند بنت شاه أرمن (صاحب خلاط) تذكر أن الحاجب علياً قصدها وأخذ ضيعتها ، وقصد هلاكها ، وما تتجاسر أن تظهر خوفاً منه ، فكتب باطلاق القرية ونهى الحاجب عنها ، قالت العجوز : فهي تسأل الحضور بين يديك ، فعندها سر ، ما تذكره إلا للسلطان ، فقلت : باسم الله ، فغابت ساعة ، ثم جاءت فدخلت ، ومعها امرأة ما رأيت أحسن منها ، ولا أظرف ، وكان الشمس تحت نقابها ، فخدمت ، فقامت لها (لكونها بنت شاه) وقلت : أنت في هذا البلد وما علمت بك افسفرت عن وجه أضاءت منه المنظرة ، فقلت : غطى وجهك ، وأخبريني حالك ، فقالت : أنا بنت صاحب هذه البلاد ، ومات أبي ، وتغيرت الدول ، وكان لي ضيعة أعيش منها ، فأخذها الحاجب ، وما أعيش إلا من عمل النقش ، وأنا ساكنة في دور الكرى ، فبكيت ورق قلبي ، وكتبت لها توقيماً بالوصية والضيعة ، وأمرت لها بقماش ودار تصلح لها ، وقلت : باسم الله في حفظ الله ، فقالت العجوز : ياخوند^(٢) ما جاءت إلى خدمتك إلا حتى تحظى بك الليلة ، فساعة سمعت كلامها وقع في قلبي تغير الزمان ، وأن يملك خلاط غيري ، وتحتاج بنتي

(١) لقب يطلق على امراء وحكام خلاط .

(٢) بمعنى : الفارس أو الأمير أو السيد بلغة الفارسية .

إلى أن تقعد مثل هذه القعدة ، فقلت : معاذ الله ، والله ما هو شيمتى ، ولا خلوت بغير محارمى ، فغذيتها وانصرفى ، وهى العزيزة الكريمة ، ومهما كان لها من الحوائج ينفذ ، فقامت وهى تبكى ، وتقول بالأرمنية : صان الله عاقبتك كما صنتنى . فلما خرجت قالت نفسى : فى الحلال مندوحة عن الحرام ، تزوجها ، فقلت : ويحك يا نفس ، أمن المروءة والله ما فعلته أبداً .

وقال : كان لى مملوك ، مات وخلف ولداً ، لم يكن فى زمانه أحسن منه ، وكان من لا يفهم باطنى يتهمنى ، وكان عندى أعز من الولد ، وبلغ عشرين سنة ، وضرب غلاماً فمات ، فاستغاث أولياؤه ، فقلت : اثبتوا القتل ، فاثبتوه ، وجاءوا يطلبون الثأر فاجتمع عليهم مماليكى ، وقالوا : نعطيكم عشر ديات ، فأبوا ، فسلمته إليهم فقتلوه ، ولو طلبوا ملكى دفعته إليهم ، ولكن خفت الله أن أمنعهم حقهم لغرض نفسى .

وقدم عليه النظام بن أبى الحديد^(١) ومعه نعل النبى - صلى الله عليه وسلم - فأحضره وقام قائماً ، ونزل من الايوان فقبله ووضع على عينيه ، وهكى ، وخلع على النظام وأعطاه (٧٨ ب) نفقة ، وأجرى عليه جراية ، وقال : هذا النظام يطرق البلاد ، وما يقيم عندنا ، وأنا أوثر أن يكون عندى قطعة منه ، فبات مفكراً ، ثم رجع عن ذلك الخاطر ، وقال : ربما يجيء من بعدى فيفعل كذلك ، فيؤدى إلى استئصاله فتركه . وقال : من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، فمات النظام بعد شهر ، وأوصى بالنعل له . ولما فتح دمشق اشترى دار قايماز النجمى^(٢) وجعلها دار حديث ، وترك الفعل فيها ، ونقل إليها الكتب الثمينة .

(١) هو أبو العباس أحمد بن عثمان بن أبى الحديد المتوفى سنة ٦٢٥ هـ . الدارس ٢٩٥/٢ .

(٢) هو المجاهد الدين قايماز بن عبد الله ، كان عاقلاً أديباً فاضلاً فى الفقه على مذهب أبى حنيفة ، وبنى عدة جوامع وربط ومدارس ، توفى سنة ٥٩٥ هـ . مفرج الكروب ١٠٣/٣ ، أبو الفداء ٩٧/٣ .

وكان ذكياً ، فطناً ، حسن العقيدة ، جميل الطوية ، يميل إلى أهل الدين والصلاح والعلم ، يحسن إليهم ، ويזורهم ، ويتفقدهم بالمال ، وطول ليالي رمضان لا يغلط باب القلعة ، وجفان الحلوى خارجة إلى الجامع والربط ، سعيد الحظ ، تتفق له أشياء خارقة ، اتفق أنه توجه إلى خلاط زائراً لأخيه الأوحى ، وعائداً من مرض أصابه ، وأقام عنده إلى أن دخل الحمام ، فأراد الانصراف إلى بلاده ، فقال له الطبيب : أقم الليلة ، فإنه ميت لا محالة ، فمات في تلك الليلة ، واستولى الأشرف على خلاط ، وقد حكينا ذلك بقريب من هذا .

وفي سنة سبع عشرة كان الأشرف بحران ، وكان قد أقطع عماد الدين ابن المشطوب رأس عين ، فخرج على الأشرف ، وحسن لصاحب سنجار الخروج أيضاً ، فخرج بدر الدين^(١) من الموصل وحضر ابن المشطوب بتل أعفر^(٢) ، وأخذه بالأمان ، ثم قبض عليه ، وأعلم الأشرف ، فسر بذلك ، ثم سار واستولى على دنيسير^(٣) وقصد سنجار ، فأجاب الأشرف إلى صاحبها محمود بن قطب الدين ، يسأل أن يعطى الرقة عوض سنجار ، فأجاب الأشرف إلى ذلك ، وتسلم سنجار مستهل جمادى الأولى ، وقيل : رابعه ، وقيل : مستهل صفر ، وهذا من سعادة الأشرف فإن أباه نازلها في جموع عظيمة ولم يملكها ، وملكها الأشرف بأهون سعى . ثم سار إلى الموصل ، ووصل إليها تاسع عشر جمادى الأولى ، وكان يوم نزوله يوماً مشهوداً ، وتسلم قلعة تلعفر ، وملك الخابور ومعظم الجزيرة . وكان ينتقل إليها ، وأكثر مقامه بالرقة لكونها على الفرات ، وملك دمشق سنة ست وعشرين (وستمئة) وبأى ذلك مفصلاً .

وفي سنة ست وعشرين أيضاً قصد خوارزم شاه^(٤) خلاط وحصرها والأشرف لا يمكنه

(١) بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله الأنابكي صاحب الموصل ، توفي سنة ٦٥٧ هـ . النجوم الزاهرة ٧٠/٧ .

(٢) تل أعفر : قلعة وريض بين سنجار والموصل . معجم البلدان ٣٩/٢ .

(٣) بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين . مفرج الكروب ٢٩٤/٤ .

(٤) وهو جلال الدين بن علاء الدين خوارزم شاه . مفرج الكروب ٢٩٤/٤ .

مفارقة الشام لأمر ، وهجمها بالسيف ، وفعل في أهلها ما فعله التتر من الأسر والقتل ، فلما جرى ذلك ، اتفق الأشرف وكيقباد ملك^(١) الروم على خوارزم وذلك لقرب الروم من ملك خوارزم وخوفهم منه . واجتمع الملكان ، وسارا إلى (٧٩ أ) خلاط ، والتقوا في تاسع عشرين رمضان سنة سبع وعشرين ، فولى الخوارزميون منهزمين ، وهلك غالب عسكره قتلاً وتردياً من رؤوس الجبال ، وضعف جلال الدين عقيها ، وملك الأشرف خلاط وهي خراب ياب ، ثم وقعت المراسلة بين الملوك وتحالفوا أن أحداً منهم ما يتعرض لبلاد الآخر .

ذكر ما بنى من الأمكنة

بنى مسجد أبي الدرداء بقلعة دمشق ، وزخرفه ، وكان غالب مقامه به ، والمسجد الذى عند باب النصر ، ومسجداً خارج الباب الصغير ، ومسجد القصب بالعقبة ، وخان الزنجارى ونى فى بستان النيرب بنياناً عظيماً ، ودار الحديث الأشرفية . وكان بالعقبة ظاهر دمشق خان يعرف بابن الزنجارى ملآن من أنواع الملامى والفسوق ، فقيل له : إن مثل ذلك لا يليق ، فهدمه وجعله جامعاً وسماه الناس « جامع التوبة » وكان بالشام رجل يعرف بالجمال السبتي ، يقال : إنه كان يلعب فى صباه بالجفانة ثم اشتهر بالصلاح ، فلما عمر السلطان الجامع ولاء الخطابة ، فلما توفى الجمال ، تولى موضعه العماد الواسطى الواعظ ، وكان يهتم بالخير ، وكانت دمشق يومئذ للصالح إسماعيل ، فعمل عبد الرحيم بن الزويتينة^(٢) الرحبي أبياتاً هي :

(١) كيقيباد بن كيخسروا بن قلع أرسلان السلجوقى صاحب الروم ، توفى سنة ٦٢٤ هـ . شذرات الذهب . ١٦٨/٥ .

(٢) عبد الرحيم بن على ، جمال الدين بن الزويتينة - تصغير زيتونة - الرحبي ، كانت وفاته بعد الخمسين وستمائة . فوات الوفيات ٣١٨/٢ .

يا ملبكاً أوضح الـ
جامع التوبة قد
قال قل للملك الصا
يا عماد الدين يا من
كم إلى كم أنا في
لى خطيب واسطى
والذى قد كان من قب
فكما نحن فما زلـ
ردنى للنمط الأو

حق لدينا وأبانه
قلدى منه أمـانه
لح أعلى الله شأنه
حمد الناس زمانه
ضُر ويؤس وأمانه؟
يمشق الشرب ديانه
ل يفتى بجنانه
نا ولا أبرح حـانه
ل واستبق ضمـانه

ذكر وفاته

مرض في رجب مرضتين مختلفتين ، في الأعلى والأسفل ، وكان الجرائحي يخرج
العظام من رأسه ، وهو يسبح الله ، وكان يتحامل إلى أن غلب ، فلما أيس قال لوزيره جمال
الدين بن جرير في ايش تكفنونى ؟ قال : حاشاك ، قال : دعنى من هذا فما بقيت قوتى
تحمل أكثر من نهار غد ، فقال : عندنا فى الخزانة نصابى ، قال : حاشا لله أن أكفن من
هذه الخزانة وكان عماد الدين بن موسك حاضراً ، فقال له : قم فاحضر الوديمة فأحضر
مئزر صوف أبيض ، فيه خرق الفقراء وطاقياتهم ، مثل مسعود الرهاوى وغيره ، وكان فيهم
إزار عتيق ، فقال : هذا يكون على جسدى ، فإن صاحبه كان من الأبدال ، وأحرم فيه
عشرين حجة . ثم مات يوم الخميس رابع محرم ، سنة خمس وثلاثين وستمائة ، وكان
آخر كلامه : لا إله إلا الله .

قال المؤيد^(١) : كما منهمكاً فى اللذات (٧٩ ب) وسماع الأغاني ، فلما مرض أقطع

(١) المؤيد : هو عماد الدين اسماعيل أبو الفداء . انظر المختصر فى أخبار البشر ١٦٠/٣ .

عن ذلك ، أقبل على الاستغفار إلى أن توفى ودفن بالقلعة ، ثم نقل إلى تربته بالكلاسة ، في جمادى الأولى ، ولم يخلف سوى بنت واحدة وهى ملكة خاتون ، أوقف عليها أبوها فى سنة اربع وثلاثين دار فروخ شاه^(١) التى يقال لها « دار السعادة » وبستان النيرب ، وأوصى لها بجميع الجواهر ، وذلك فى مرضه ، وأعتق مائتى مملوك وجارية ، وفرق البلاد ، وملك دمشق بعده الصالح إسماعيل بعهد منه ، ومدة عمره نحو من ستين سنة ، وملكه لدمشق ثمانى سنين وشهور ، وقال التلعفرى^(٢) يرثيه :

أكذا تهدم المنون الجبالا ؟
 أكذا تحطم الرزايا العوالى ؟
 أكذا ترجع البحار ، وقد فا
 أكذا تفرب الكواكب فى التر
 ومنها :

أى مجد للناس بالملك الأشد
 أى ملك من الملوك عظيم
 كشف الموت شمس أفق المعالى
 وهوى بعد فقد موسى أبى الفت
 آخرها :

جادت الحطرة التى ضمنت جسد
 وأقامت عليك سحب الحبالا
 ولما كان بعد موته بأيام ، قدم رجل من حران ، كان له على الأشرف فى عمل ما
 مائتى درهم ، فجاء إلى قبره وجعل يكي ويقول : كان لى عليه رسم ، فقال بعض

(١) فروخ شاه ابن شاهنشاه بن أيوب المتوفى سنة ٥٧٨ هـ .

(٢) محمد بن يوسف بن معمود ، شهاب الدين التلعفرى المتوفى سنة ٦٧٥ هـ . فوات الوفيات ٦٢/٤ ،

النجوم الزاهرة ٢٥٥/٧ ، الشذرات ٢٤٩/٥ ، طبع ديوانه فى بيروت سنة ١٩١٠ ، ولم ترد هذه

القصيدة فيه .

أصحابه: هو ذا يسمعك فإن أراد يعطيك ، هو يعطيك ، فانكسر قلبه ، وخرج إلى السوق ، فالتقاء تاجر من أهل بلده ، قال : كم انتظرتك ، قد جاءت لك من الزكاة مائتا درهم وشقاق لأولادك وهي رسم لك في كل سنة .

وقال بعض الصالحين : لما مات الأشرف رأيت عليه ثياب خضر وهو يطير مع جماعة من الأولياء فقلت : يا موسى إيش تعمل مع هؤلاء وأنت كنت تصنع وتفعل ، فالتفت إلي وقال : الجسد الذي كان يفعل تلك الأفاعيل تركناه عندكم ، والروح التي كانت تحب هؤلاء صارت معهم .

وكان - رحمه الله - في (٨٠ أ) غاية السماحة ، واسع الصدر ، كريم الأخلاق ، لا يوجد في خزانته شيء من المال مع اتساع مملكته ، ولا تزال عليه ديون للتجار . ولقد رأى يوماً في دواة كاتبه وشاعره الكمال ابن النبيه^(١) قلماً واحداً فأنكر عليه ذلك ، فأنشده في الحال :

قال الملك الأشرف قولاص رشداً أقلامك يا كمال قلت عددا
جاويت لعظم كتب ما تطلقه تحفي فتلقف فهي تلقى أبدا

ويقال : إنه طرب ليلة على بعض الملامى ، فقال لصاحب الملهى تمن ، فقال : تمنيت خلاط ، فأعطاها إياه ، وكان النائب عليها الحاجب على بن حماد الموصلى ، فعوضه عنها جملة كبيرة ، وله في ذلك غرائب .

ولابن عنين يهجو ، وذلك أنه لما ملك دمشق دخل عليه فلم ير منه ما كان يرى من المعظم ، فقال^(٢) :

(١) على بن محمد بن الحسن ، كمال الدين ابن النبيه ، مدح بنى أيوب واتصل بالملك الأشرف موسى وكتب له الانشاء ، وسكن نصيبين وتوفي بها سنة ٦١٩ هـ . فوات الوفيات ٦٦/٣ .

(٢) ديوان ابن عنين ص ١٣٢ .

لنلقنا من شدة الضر والبلوى
حيارى فلا من يهديه ولا ملوى

وكنا نرجى بعد عيسى محمداً
فألقنا في تبه موسى كما ترى

ومنهم الملك الكامل^(١)

محمد بن أبى بكر محمد بن أيوب بن شاذى ، السلطان الملك الكامل ابن العادل .
ولد سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وهو أحد أخوته بعد ممدود ، وعهد إليه أبوه لما رأى من
عقله . وكان شجاعاً مهيباً ذكياً فظناً يحب العلماء والأماثل ، يلقى عليهم المشكلات ،
ويتكلم على صحيح مسلم بكلام حسن ، وثبت فى نوبة دمياط ، وأنفق كل ما فى خزائنه .
وأما عدله فإنه المنتهى . حضر إليه غلام ، وقال : استاذى استخدمنى بنى مئة أشهر يقوم
الأمير (٨١ أ) حتى تتفق على المنجنيقات ، فركب مسرعاً ، واستدرجه المعظم حتى
أخرجه عن الخيام ، فأحاط به عسكر المعظم ، وأركبوه بغلة ، فقال : ما معى أحد من
غلمانى ولا قماشى ، قال : كل قماشك يتبعك ، لا يضيع لك خيط ، وأعطاه خمسمائة
دينار ، وسفر إلى الشام ، وأرسل الكامل يستدعى الصفى بن شكر ، وكان أبوه قد نفاه ،
فعاد وقد قل بصره ، فجى من أموال التجار شيئاً يقال له التبرع .

ذكر أخذ الفرنج دمياط فى سنة ست عشرة

ولما حصل الخلل فى عسكر الكامل ، قوى طمع الفرنج ، واشتدت مضايقتهم لدمياط ،
وقد عجز أهلها ، وأكلوا الميتة ، وحصل لهم وباء عظيم ، فأرسل الأمير جمال الدين الكنانى
قصيدة على لسان دمياط فى سهم نشاب وهى^(٢) :

(١) ترجمته فى مرآة الزمان ٧٠٥/٨ ، ذيل الروضتين ١٦٦ ، مفرج الكروب ٢٧٤/٣ ، وفيات الأعيان
٧٩/٥ ، الحوادث الجامعة ١٠٧ ، الوافى ١٩٣/١ ، الدارس ١١٧/٢ ، امرؤ القيس ٧٩ ، عبر
الذهبي ١٤٤/٥ ، النجوم ٣٠١/٦ ، ابن كثير ١٤٩/١٣ ، ابن الهيثم ١٨/١ ، السلوك ٢٦٠/١٩٤ ،
كنز الدرر ٣٢٦/٧ ، أخبار الأيوبيين ١٤٤ ، شذرات ١٧١/٥ .

(٢) وردت فى السلوك ١٩٩/١ .

يا مالكي ادمياط ثغر هُدمت
 بِقُربك من أذكى السلام تحية
 ويقول عن بعد ، وانك سامع
 يا أيها الملك الذي ما إن يرى
 هذا كتاب موضع عن حالتى
 أشكو إليك عدو سوء أهدقت
 فالهر قد منعت إليه طريقه
 فخضوعه باد على أبراجه
 ولو استطاع لأم بابك لانذا
 ورسوله فى أن تجيب سؤاله
 فقد انتهت أداواؤه وتحكمت
 ويلى له رمق يسير يرتجى
 فاحرس حماه بعزيمة يشفى بها
 فالله أعطاك الكثير بفضله
 فالعذر عن نصر الإله ودينه
 فالدين ناظره إليك محددى
 ولئن قعدت عن القيام بنصره
 ودهت قوى القرآن فيه ورفعت
 وعلا صدى الناقوس فى أرجائه
 هذا وحقق وصف صورة حاله
 وكفاك يابن الأكرمين بأنه
 حقق رجاءه فيك يا من لم يخب
 واذا يوم البعث فعلاص صالحاً

شرفاته وكان تُجث أصوله
 كالملك طاب دُقبه وجليله
 حتى كأنك جاره ونزله
 بين الملوك شبيهه وعديله
 ما ليس يمكنى لديك أقوله
 بجميعة فرسانه وخيوله
 والبحر عز لنصره أسطوله
 وحنينه وبكازه وعـويله
 لكنه سدت عليه سبيله
 دين الإله وخلقه ورسوله
 علاته ونحا عليه نحوه
 أن يشتفى لما دعاك عليه
 داء ، فمثلك يرتجى تعليله
 ورضاه من هذا الكثير قليله
 ما شاع عند المسلمين قبوله
 معاً إن يمل من الدموع هموله
 جفت نضارته وبان ذبوله
 صلبانه وتلى به إنجيله
 وخلقى على سمع الورى تهليله
 حلقاً وجملكه وذا تفصيله
 أضحى عليك من الورى تعويله
 أهدأ لراجى جوده تأمـيله
 الله ضامن أجره وكفـيله

فأمر الكامل أهل مصر والقاهرة بالخروج إلى المنصورة ، فخرجوا ، وأرسل إلى أخيه

الأشرف يستدعيه ، وتابع الكتب إليه ، وكان مما كتب إليه هذه الأبيات (١) :

(١) وردت فى الحوادث الجامعة ١٠٧ ، السلوك ١٩٧/١ ، خطط المقرئى ٣٧٦/٢ ، البداية والنهاية

١٤٩/٣ ، الدارس ٢٨٠/٢ .

يا مسعفى إن كنت حقاً مسعفى
واحثت قلوبك مرقلاً أو موجفاً
واطو المنازل ما استطعت ولا تُتخ
واقر السلام عليه من عبد له
وإذا وصلت إلى حماه فقل له
إن تات عبدك عن قريب تلقه
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه

فأرحل بغير تلبث وتوقف
بتجشم في سيرها وتعسف
إلا على باب الملك الأشرف
متوقع لقدمه متشوف
عنى بحسن توسل وتلطف
ما بين حد مهذب ومثقف
بك في القيامة في عراض الموقف

وأرسل المعظم ابن الجرخى في خمسمائة راجل، فهجموا على الخنادق، وقتل ابن الجرخى ومن معه، وصفوا رؤوس القتلى على الخنادق، وكانوا قد طموها، وضعف أهل دمياط، وعجز الكامل عن نصرتهم، فأرسلوا إلى الفرنج أن يسلموا البلد ويخرجوا بأهلهم ومالهم، واجتمع الأقساء وحلفوا على ذلك، وفتح لهم أهل البلد دمياط، ورفعوا اعلامهم، وغدروا بأهله، ووضعوا فيهم السيف، وياتوا تلك الليلة يفجرون بالنساء بالجامع، وأخذوا كثيراً من المصاحف (٨٢ أ) والرؤوس^(١) إلى الجزائر، وجعلوا الجامع كنيسة، وكان أبو الحسن بن قفل^(٢) بدمياط، فسألوا عنه، فقيل لهم: هذا رجل صالح من مشايخ المسلمين يأوى إليه الفقراء فما تعرضوا له، ووقع على المسلمين كآبة عظيمة، وبكى الكامل بكاء شديداً ثم تأخر عن تلك المنزلة، وكان المعظم يقول: لو كان الدعاء ينفع لسمع دعاء أهل دمياط. ثم قال الكامل للمعظم: قد فات ما ذبح، والمصلحة أن تنزل إلى الشام، تشغل خواطر الفرنج، وتستجلب العساكر، وكان دخولهم لها في شعبان، وقيل: في عاشر رمضان. ولما ملكوها قوى طمعهم في مصر، وابتنى الكامل مدينة عند مفرق البحرين سماها « المنصورة » يحمل منها، وكتب المعظم إلى سبط ابن الجوزى أن

(١) أبى : رؤوس القتلى .

(٢) هو أبو الحسن على بن أبى القاسم الدمياطى المعروف بابن قفل ، حدث المنذرى عنه في معجمه ، توفي

سنة ٦٤٧ هـ . النجوم ٢٣٨/٦ حاشية ٢ .

يحرص الناس على الجهاد ، ويقول : إني كشفت ضياع الشام فوجدتها الفى قرية ، منها ألف وستمائة أملاك لأهلها والباقي سلطانية ، وكم جهد ما يخرج منها ؟ فتقاعد الناس عن المسير .

ذكر تخريب القدس

وكان المعظم لما رأى قوة الفرنج ، وبلغه أن طائفة عازمة على قصد القدس ، وكان به العزيز عثمان ، فكتب إليه بخراجه ، فتوقف ثم أرسل كتاباً آخر ، فشرعوا فى السور أول يوم المحرم ، ووقع فى البلد ضجة مثل يوم القيامة ، خرج الناس إلى الصخرة ، فقطعوا شعورهم ، ومزقوا ثيابهم ، بحيث امتلأت الصخرة من الشعور ، وخرجوا وتركوا أموالهم وما شكوا أن الفرنج تُصبحهم ، والنساء يشققن ثيابهن ويربطنها على أرجلهن (من الحفا) ومات خلق عظيم من الجوع والمعطش ، ونهبت الأموال ، وبلغ قنطار الزيت عشرة دراهم ، والنحاس الرطل بنصف درهم ، وأكثر الشعراء فى ذم المعظم .

فقال بعض الفضلاء^(١) :

فى رجب حلل الحمرا وأغرب القدس فى المحرم

ذكر فتح دمياط

وفى سنة ثمانى عشرة قوى طمعهم فى مصر ، وتقدموا إلى جهتها ، ووصلوا المنصورة ، واشتد القتال بين الفريقين ، برأ وبحراً ، وكتب السلطان متواترة إلى أهل بيته ، والأشرف متقاعد ، فسار إليه المعظم وألزمه ، فسار واستصحب عسكر حلب ، وكذلك الناصر صاحب حماة ، وكان خائفاً من الكامل أن ينزع حماه منه ويسلمها لأخيه ، فحلف له الأشرف أنه ما يمكنه ، سار صاحب بعلبك ، وصاحب حمص ، والمعظم بعسكر

(١) ورد فى النجوم ٢٤٥/٦ ، البداية والنهاية ٨٣/١٣ .

الشام ، ووصلوا إلى الكامل وهو بالمنصورة ، فركب والتقى أهل بيته وأكرمهم ، وقويت نفوس المسلمين ، وضعفت نفوس الكفار ، ولما شاهدوا من كثرة المسلمين وتجاهلهم ولا سيما عسكر الأشرف ، فإنه كان في تحمل زائد ، واشتد القتال (٨٢ ب) والرسل مترددة في الصلح ، على أن يسلموا القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية ، وجبله وجميع الفتوح الصلاحى ما عدا الكرك والشوبك ، على أن يسلموا دمياط ، فلم يرضوا إلا بالكرك والشوبك زيادة ، وثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب أسوار القدس . وبينما الأمر كذلك إذ عبر جماعة من المسلمين من بحر المحلة إلى الأرض التي عليها الفرنج ، ففجروا فرجة عظيمة وكان ذلك في قوة زيادة النيل ، وهم لا خبرة لهم بأمر النيل ، فركب الماء تلك الأرض ، وصار حائلاً بينهم وبين دمياط وانقطع عنهم الميرة ، فهلكوا جوعاً ، وبعثوا يطلبون الأمان على أن ينزلوا عن جميع ما بذله المسلمون لهم ويسلموا دمياط ، ويعقدوا مدة الصلح وكان فيهم عدة ملوك كبار ، نحو عشرين ملكاً ، واختلفت الآراء في إعطائهم الأمان ، ثم اتفقوا على ذلك لطول القتال لأنه كان لهم ثلاث سنين وشهور في القتال ، فأجابهم الكامل حرصاً على أخذ دمياط ولو أمهلهم يومين لأخذهم قهراً ، وطلب الفرنج رهينة ، فبعث لهم ابنه الصالح أيوب وابن أخيه شمس الملوك وحضر من الفرنج رهينة ملك عكا ، وملك رومية الكبرى وغيرهم ، وكان ذلك سابع رجب ، وسلمت دمياط تاسع عشره وقيل : ثالثه ، وقيل : تاسع عشر شعبان ، وقيل : حلفوا ألا يقصدوا الديار المصرية أربعين سنة . وجلس الكامل لهم مجلساً عظيماً في خيمة ومد سماطاً وأحضر ملوك الفرنج ووقف الأشرف موسى عن يمينه والمعظم عيسى عن شماله ، وقام راجع^(١) الحلبي فأنشد :

(١) شرف الدين راجع بن إسماعيل الحلبي ، كان فاضلاً جيد النظم عذب الألفاظ حسن المعاني ، توفي بدمشق سنة ٦٢٧ هـ . فوات الوفيات ٧/٢ ، النجوم ٢٧٥/٦ ، عبر الذهبى ١٠٨/٥ .

هنيئاً فإن السعد راح مُخلداً
 حباناً إله الخلق فتحاً بدا لنا
 تهلك وجه الدهر بعد قطوبه
 ولما طفى الخضم بأمله الـ
 أقام لهذا الدين من سل عزمه
 فلم ينج إلا كل سلو مجدل
 ونادى لسان الكون في الأرض رافعاً
 أعباد عيسى إن عيسى وحزبه

وقد أنجز الرحمن بالتصر موعدا
 مهبناً إنعاماً وعزاً مزيداً
 وأصبح وجه الشرك بالظلم أسوداً
 طففاً وأضحى بالمراكب مزيداً
 صقلاً لما سل الحمام مجرداً
 ثوى منهم أو من تراه مقبداً
 عقيرته في الخافقين ومنشداً
 وموسى جميعاً يخدمون محمداً

وأشار عند ذكر عيسى إلى المعظم ، وعند ذكر موسى إلى الأشراف ، وعند ذكر محمد

إلى الكامل ، وقيل : إن هذا البيت لشرف الدين جبارة^(١) من قصيدة أولها :

أبى الوجد إلا أن أبيت مسهداً

ومنها :

لقد جهل الفرنج موضعه الذي
 وكل شجاع كان يحكى عطارداً
 أعباد عيسى جاء عيسى برغمكم

سقاكم كؤوس الخوف ملاء من الردى
 ذكاء فلما أن رآه تبلداً
 مغسى جميعاً بنصران حمداً

لواء نصرك في الهجاء منشور

ومنها :

به غدا الثغر للإسلام مبيتسما
 بعد الأناجيل آيات القرآن به
 يقول محرابه لو كان بسمعنا

بعد العيوس وفيه الله مذكور
 تنلى وقد نسخ الناكوس تكبير
 محمد ناصر الشرع منصور

(١) شرف الدين علي بن إسماعيل بن جبارة ، شاعر فاضل ، توفي بالقاهرة سنة ٦٣٢ هـ . نكت الهميان

ولا بن عنين من قصيد (١) :

سلو صهوات الخيل يم الوغى عنا
غداة لقينا دون دمياط جحلا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة
تداعوا بأنصار الصليب وأقبلت
فما برحت سمر الرماح تتوشهم
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى
لقد صبروا صبورا جميلا ودافعوا
بدا الموت من زرق الأسنة أحمرأ
وما برح الإحسان منا سجية
أسود الوغى لولا وقائع سمرنا
يسير بنا من آل أيوب ماجد
كريم الثنا عار من العار باسل
مآثر مجد خلدتها سيوفه
وقد عرفت أسبافنا ورقابهم
منحناهم منا حياة جديدة
ولو ملكوا لم يأتلوا في دماننا

وقال ابن عنين يمدح الأشراف :

كسما بما ضمت أباطح مكة
لو لم يقم موسى بنصر محمد
لولا ما ذل الصليب وأمله

وقال يمدحه أيضا بقصيدة مطولة أولها :

إذا جهلت آياتنا والقتنا اللدنا
من الروم لا يحصى يقينا ولا قنا
ودينا وإن كانوا قد اختلفوا لسنا
جموع كأن الموج كان لها سفنا
بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
وكيف يذوق النوم من عدم الأمانا
طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
فألقوا بأيديهم الينا فأحسننا
توارثها عن صيد آياتنا الأبننا
لما ركبوا قيدا ولا سكنوا سجننا
أبى عزمه أن يستقر به مفنى
جميل المحيا كامل الحسن والحسنى
لها نيا يفنى الزمان وما تفنى
مواقعهم منا فإن عاودوا عدنا
فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو غا ولكننا ملكنا فأسجنا

ويمن حواه من الحجيج الموقف
لرقى على درج الخطيب الأسقف
في ثغر دمياط وعز المصحف

(١) ديوان ابن عنين ٢٩ .

لم يبق في الدنيا فقيراً مرملاً
ونهجت للناس الطريق الأمثلاً
مصر وأخمل ذكره وتبدلاً
أعلاجها محراب عمرو هيكلاً

يا أيها الملك الذي إنعامه
لقد اتقى الله حق تقائه
لولاك لانفصمت عرى الإسلام في
وتحكمت فيها الفرنج وغادرت

ثم دخل الكامل دمياط ومعه ملوك أهل بيته ، وكان يوماً مشهوداً ، وأذن للملوك في
العودة إلى بلادهم .

ذكر ما جرى بين

الكامل والأشرف والمعظم

وعاد المعظم إلى الشام وأقام الأشرف عند أخيه بمصر ، وتصافيا واتفقا على المعظم فلما
علم المعظم ذلك وكان قد ظهر بالشام جراد لم يعد مثله أظهر أن يبلاد المعجم طيراً يقال له :
السمرمر يأكل الجراد ، فأرسل الصدر البكري محتسب دمشق إلى المعجم وأمره أن يحمل
من ماء عين هناك يجتمع عليه السممر في قوارير وتعلق على رؤوس الرماح ، فلما رآه
السممر تبعها وكان مقصوده أن يبعث البكري إلى الخوارزمي فيتفق معه على أخويه ، فقل
الجراد في غيبة البكري ، فلما رجع ظهر للناس وللكامل ذلك عملت الأشعار وولاه المعظم
شيخ الشيوخ .

وفي سنة ثلاث وعشرين نازل المعظم حمص ، وقد اتفق مع خوارزم شاه وصاحب
إربل أن يكونوا بدأ واحدة ثم رحل عن حمص لكثرة ما مات من خيله ، وورد عليه الأشرف
طلباً للصالح وبقي في الظاهر مكرماً وفي الباطن كالأسير ، وأما الكامل فإنه تخيل من
عسكره فلم يمكنه مفارقة مصر ، ولما رأى الأشرف أنه لا خلاص له إلا بالإجابة للمعظم
حلف له أن يعاضده على الكامل ورحل في جمادى الآخرة سنة أربع وعشرين ، فكان عند

المعظم نحو عشرة أشهر ، ولما استقر ببلده رجع عما كان بينه وبين المعظم وتناول في إيمانه أنه مكره ، ولما تحقق الكامل اعتضاد المعظم بجلال الدين ، خاف وكتب إلى ملك الفرنج أن يقدم عكا ليشغل سر أخيه ، ووعده أن يعطيه القدس ، فسار الأنبرور إلى عكا ، وبلغ المعظم ذلك فكتب الأشرف واستعطفه فعاجل المعظم قاطع الآجال ومخترم الرجال وتوفى سنة أربع وعشرين .

ذكر تسليم القدس للفرنج في سنة ست وعشرين

لما قدم الأنبرور^(١) لم يمكن الكامل دفعه لما تقدم معه من الاتفاق ولأن القتال يؤدي إلى فوات أغراضه عمر سور صيدا وكانت مناصفة ، وأخرجوا المسلمين منها ، وكان الأشرف والكامل بظاهر غزة ، وذلك أنه خرج سنة خمس وعشرين لينزع دمشق من الناصر داود ، والرسول مترددة في تسليم القدس ، وأبى ملك الفرنج أن يرجع إلى بلاده إلا بما وقع عليه الشرط في تسليم القدس وبعض الفتوح الصلاحي ، وأبى الكامل تسليم ذلك كله وتقرر الأمر في ذلك أن يأخذ القدس على شريطة أن يبقى خراباً ، ولا يكون للفرنج شيئاً من قرايا الخارجية ، وأن يكون مقامه بالبيرة من عمل القدس ، وأن الحرم الشريف بما حواه يكون بأيدي المسلمين لا يدخله الفرنج إلا للزيارة ، وقيل : بل أعطوهم من القرايا ما هو على الطريق من عكا إلى القدس ، ورأى الكامل أن يرضيهم بذلك ويهادنهم مدة ، وهو قادر على اجتماعها متى شاء ، وإنه متى شاققهم انفتح باب محاربة واتسع الخرق ويفوت غرضه وكان الرسول بينهما فخر الدين ابن الشيخ^(٢) وكان يجري بينه وبين الملك محاورات في أشياء شتى ومسائل حكمية ، ثم حلف الملكان ، وكان الفرنجي يقول : لولا

(١) الأنبرور : هو الإمبراطور فردريك الثاني صاحب صقلية (العرب في صقلية للدكتور إحسان عباس ص ٣١٩ .

(٢) فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ أبي الحسن محمد بن عمر ، كان عاقلاً جواداً خليفاً بالملك ، توفى سنة ٦٤٧ هـ . النجوم الزاهرة ٦/٣٦٣ .

أني أخاف انكسار جامي عند الفرغ لما كلفت السلطان شيئاً من ذلك ، ونودي في البلد
 بخروج المسلمين فخرجوا ووقع الضجيج والبكا ، وانكر الناس على الكامل هذا العمل ،
 وتسلمه الفرغ في ربيع الآخر ، وأخذ الناصر دارد في التشنيع على عمه ، وكان بالشام
 سبط ابن الجوزي وله قبول عظيم في الوعظ فأمره أن يعمل مجلساً في ذلك ، فعمل ولم
 يتخلف عنه أحد وكان من كلامه : وانقطعت من البيت المقدس وفود الزائرين ، يا وحشة
 المجاورين ! كم كانت لهم في تلك الأماكن من ركعة ، كم جرت لهم على تلك المساكن
 من دعة ، تالله لو صارت عيونهم عيوناً لما ونت ، ولو انقطعت قلوبهم أسفاً لما اشتفت ،
 أحسن الله عزاء المؤمنين يا خجلة ملوك المسلمين ، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات ،
 ومثلها تنقطع القلوب من الحسرات ، ومن ذلك قوله :

على قبة المعراج والصخرة التي تُفاخر ما في الأرض من صخرات
 مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقرر العرصات

وأكثر الشعراء من ذلك فمنه قول بعضهم :

عزيز علينا أن نرى القدس تخرّب وشمس مبانیه تزول وتغرب
 وقلت له : منا الدموع لأنه على مثله تجرى الدموع وتسكب

وحكى أن فقيراً بات بالقدس فسمع قائلاً يقول في الليل :

إن لم يكن بالشام قل نصيري وتهدمت ثم دام هلوكي
 فلقد أصبح الغداة خرابي سمة العار في جباه الملوك

ولما تم ذلك استأذن الأنبرور السلطان في زيارة القدس ، فأذن له وصحبه شمس الدين
 قاضي نابلس ، فلما رأى الكتابة على القبة قال : ما هذا ؟ قالوا : طهر هذا البيت المقدس
 صلاح الدين من المشركين . فقال : ومن هم المشركون ؟ وقال : هذه الشبايك التي على

أبواب الصخر من أجل إيش ؟ قالوا : من العصافير . قال : قد جاء تكلم الخنازير ، وكان السلطان قد أمر القاضي ألا يؤذن المؤذنون في الحرم ، وهو فيه ، فنسى القاضي فطلع المؤذن في السحر وقال : ﴿ ما اتخذ الله من ولد ﴾ (١) ، ﴿ ذلك عيسى ابن مريم ﴾ (٢) إلى أشباه هذا فعظم على القاضي ونهى المؤذن ، فلما كان الليلة الثانية قال : يا قاض أمين الرجل الذي تكلم البارحة بذلك الكلام ؟ فقال : السلطان أمرنا ألا يتكلم به في حضورك ، قال : أخطأتم . تبطلون شعائر دينكم لأجلى ؟ أنت لو كنت عندي بيلدى بطلت الناقوس لأجلك فإن أول ما تنقصون عندنا (٣) وأقام ليلتين ، وفرق على خدمة المسجد والمجاورين كل واحد عشرة دنانير ثم رجع إلى يافا وتوجه الكامل إلى الشرق .

ذكر فتح آمد في سنة تسع وعشرين

وقيل : في سنة ثلاثين ، توجه الكامل والأشرف لانتزاع آمد من المسعود ممدود الأرتقى وكان قد أساء السيرة ، وتعرض لنساء الأكاير وشكى ذلك للكامل ، وتقدم الأشرف إلى دمشق وعبر الكامل الكرك ، واهتم الناصر داود به ، وبالحق في تعظيمه وعقد عقده على عاشوراء شقيقة العادل ، وعبر الكامل الفرات ومعه الناصر داود ، ونازل آمد يوماً واحداً ، ووعد صاحبها إقطاعاً بمصر ، فأذعن للتسليم ، وسلم إليه آمد وقلاعها غير حصن كيفا ، وقيل : بل به ، ووجد في قصره خمسمائة حرة من بنات الناس للفراش وعاد الأشرف إلى دمشق والكامل إلى مصر وأقام بتلك البلاد الملك الصالح .

ذكر مسير الكامل إلى الروم في سنة إحدى وثلاثين

وسبب ذلك أن كيقباز بن كيخسرو - ملك الروم - تعرض لخلاط فرحل الكامل ،

(١) سورة المؤمنون : الآية ٩١ .

(٢) سورة مريم : الآية ٣٤ .

(٣) في مرآة الزمان ٦٥٧/٨ (الله الله فان لا تفعلوا فإن أول ما تنقصون عندنا) .

واجتمع عليه الملوك من أهل بيته ونزل شمالي سلمية في رمضان ، وتقدم إلى جهة الدريندات فوجد الطرق صعبة وقد حفظها الروم ورموا بها الأخشاب فنزل الكامل على النهر الأزرق^(١) وفي خدمته ستة عشر دهليزاً لسته عشر ملكاً فمن ذلك إخوته الأربعة الأشرف صاحب دمشق ، والمظفر صاحب ميافارقين ، والحافظ صاحب جعبر ، والصالح إسماعيل ، وأولاد صلاح الدين الثلاثة : المعظم أرسله ابن أخيه العزيز مقدماً على عسكر حلب ، والزاهر صاحب البيرة ، والمفضل موسى صاحب سميساط ، والصالح أحمد ابن الظاهر غازي صاحب عين تاب^(٢) ، والمظفر صاحب حماة ، والمجاهد صاحب حمص ، والناصر صاحب الكرك ، فأرسل الكامل بعض العسكر إلى حصن منصور^(٣) وهو من بلاد كيقباز فهدمه ، وجاء إليه صاحب خربوت^(٤) وهو من بني أرتق ، وقال : ادخل الروم من جهتي ، فقطع السلطان الفرات وسار إلى السويداء^(٥) وقدم جاليشه^(٦) مع صاحب حماة ، تقدير الفين وخمسمائة فارس ، وقيل : بل خمسة آلاف ، فأقبلت عساكر الروم في اثني عشر ألفاً فاقتتلوا إلى آخر النهار فانهزم المظفر ودخل إلى قلعة خربوت وهو صاحبها ، ودخل بقية العسكر الربيض^(٧) ففتحه الروم واسروا من فيه ووصل كيقباز فنصب على القلعة تسعة عشر منجنيقاً ودام الحصار أربعة وعشرين يوماً ، واشتد الأمر على من بالقلعة لكثرتهم فإنه اجتمع فيها أكثر من اثني عشر ألفاً وعُدم الماء والزاد فأخرج المظفر نصف من بها ثم ضاق به الأمر فطلب الأمان له ولصاحب القلعة ونزل إليه ثالث ذى القعدة فأكرمه وخلع

-
- (١) النهر الأزرق : نهر في طرف بلاد الروم من جهة حلب . معجم البلدان ٣١٧/٥ .
(٢) عين تاب : مدينة حصينة بين حلب أنطاكية . معجم البلدان ١٧٦/٤ .
(٣) حصن منصور : من أعمال ديار مضر غربي الفرات . معجم البلدان ٢٦٥/٢ .
(٤) خربوت : مدينة في أقصى ديار بكر من بلاد الروم . معجم البلدان ٣٥٥/٢ .
(٥) بلدة مشهورة في ديار مضر قرب حران . معجم البلدان ٢٨٦/٣ .
(٦) الجاليش : الراية العظيمة في رأسها خصلة الشعر . صبح الأعشى ٨/٤ .
(٧) الربيض : ما حل المدينة من خارج .

عليه وقدم له تختا وتسلم خربوت وقلاعها وكانت سبعة ، والتزم بالمعوض ولم يف ، وأطلق المظفر بعد يومين ففرح به الكامل ، وكان المسكر الكامل قد فسدت نياتهم لما بلغهم أن الكامل يريد أن يحتصن عنده من الغلاء فضعف عن لقاء الروم وحصل هو عزيمة من الناصر داود ، وألزمه بطلاق ابنته فطلقها وأبنت طلاقها رجع كل واحد من الملوك إلى بلده في سنة اثنتين وثلاثين ، واستولى كيقباز على حران والرها بعد المحاصرة .

ذكر مسير الكامل إلى الشرق ثانياً في سنة ثلاث وثلاثين

سار الكامل واستصحب أخاه الأشرف ونازل الرها وتسلمها وهدم قلعتها ، ونازل حران وتسلمها وقبض على أجناد كيقباز ، وسيرهم إلى مصر ولم يستحسن الناس منه ذلك ، وأخرب دنيشير سوى قلعتها وعاد إلى دمشق فأقام بها إلى آخر السنة ، ورجع إلى مصر سنة أربع وثلاثين .

ذكر ما حصل من الوحشة بين الملوك في سنة أربع وثلاثين

وسببه : أن الأشرف أرسل يطلب من الكامل الرقة بسبب العليق فأرسل إليه عشرة آلاف دينار ، فردها وقال : هذه أعطيها لأمير واحد من أمرائي . فاغتاظ الكامل وقال : يكفيه عشرة المغاني وتعلم صنعتهم ، فلما سمع الأشرف قال : سوف أعرفه قيمته فأرسل إلى الملوك من أهل بيته وأخته صاحبة حلب^(١) وصاحب حمص ، وصاحب الروم ، وتوسط صاحب حمص إلى أن أجاب صاحب حماة وهو في الباطن مع الكامل لأنه خاله ، وملكه حماة وزوجه بنته ، وانتظمت الكلمة فيبينما هم في ذلك مات صاحب الروم ، وولي ولده فحددوا معه الانفاق ، وأما الناصر داود فإن الأشرف أرسل إليه يدعو إلى الموافقة على أن يكون ولي عهده وأن يزوجه ابنته ، فعند وصول رسوله ورد رسول الكامل يقول : لما التجأت إلى الأشرف لما مات أبوك وتركت جانبي غدر بك ، أنا أخلص لك الشام منه فاستشار

(١) هي ضيفة خاتون . أبو الفداء ١٥٨/٣ .

الناصر والدته فأشارت بالكامل فتوجه إليه ، والتقاء الكامل وزينت القاهرة ونزل بدار الوزارة
وخلع عليه خلعة السلطنة ، وحمل العادل ولد الكامل الفاشية بين يديه ، ثم بعده الجواد إلى
القلعة، وجدد عقده على عاشوراء ، وكتب الناصر بذكر ما عامله به الكامل ، وفي جملة
كتابه :

سيعلم قوم خالفوني وشرقوا وغربت أنى قد ظفرت وخابوا

قال جامعه : لو أطاع الأشرف ، وأرسل إلى الكامل يقول :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت إن ترشد غزية أرشد^(١)

لكان خيراً له . انتهى .

وأرسل الملك إلى الكامل : قد اتفقت كلمتنا وطب منك أنك لا تعود وتخرج من
مصر ، فتحلف لنا على ذلك . فقال الكامل : احلفوا أنكم لا تقصدون بلادى وأنا
أوافقكم ، ولما بلغه الرسول بكى وضحك ، وقال : أبكاني اختلاف ملوك الإسلام ،
واضحكنى كوننا الجميع مشايخ . وما بقى لنا فسحة فى الأجل نحتمل القال والقبيل ،
وكتب فى جوابهم :

تجمعتم من كل أوبٍ ووجهة على واحدٍ لا زلتم قرن واحدٍ

فبينما هم فى ذلك ، مات الأشرف فى المحرم سنة خمس وثلاثين ، وأوصى إلى أخيه
الصالح إسماعيل فلما ملك أرسل إلى الملوك أن يكونوا على ما كان عليه الأشرف ، فأجابوا

(١) البيت لدريد بن الصمة . الأسمعيات ص ١٠٧ .

وامتنع صاحب حماة وانحاز إلى الكامل وأرسل يعتذر أنه ما وافق إلا من الخوف على بلاده
فقبل عذره .

ذكر مسير الكامل إلى دمشق في سنة خمس وثلاثين ووفاته فيها

فسار الكامل إلى دمشق ومعه الناصر ، وكان بمجلون نائب الأشرف ، فتسلمها الناصر
على مالٍ سلمه للنائب ولم ينكر الكامل ذلك .
ولما وصل الكامل إلى دمشق دخل إليها أيك المعظم^(١) - صاحب صرخد - معاضداً
للصالح ، وجاءت نجدة من حمص وحلب ، وتهيأ الصالح ونازله الكامل وزحف الناصر من
جهة العقبية وكاد يملك البلد ، فلم يعجب الكامل ذلك وسير إليه من رده وخرج الصالح
من غد ذلك اليوم بالحرافشة ، فأحرق العقبية وأخرب أيضاً قصر حجاج^(٢) ، والشاغور^(٣)
وغيرهما ، وأصبح أصحاب الأملاك يشحذون وربما احترق البيت بأهله ، حكى أن رجلاً
كان له عشر بنات فلما أحس بالنار قال لبناته : اخرجن ، قلن : لا والله النار ولا العار ،
فأحرقوا وصادر الصالح جماعة من أهل دمشق وبعث صاحب حمص رجالة تزيد على
خمسين لنجدة دمشق فظفر بهم الكامل وشنقهم بين البساتين ، ولم تكن هذه عادته ،
وإنما كان شديد الحنق على صاحب حمص .

وفي مدة الحصار أرسل إلى المظفر توقيعا بسلامية ، فتسلمها ، وأذعن الصالح للصلح
على أن يعرض عنها بعلبك والبقاع^(٤) مضافا إلى بصرى^(٥) والسواد^(٦) فأجيب إلى ذلك ،

-
- (١) أب منصور عز الدين أيك المعظمي صاحب صرخد ، توفي سنة ٦٤٦ هـ . الدارس ٥٥/١ .
(٢) قصر حجاج : محلة كبيرة في ظاهر باب الجابية من مدينة دمشق . معجم البلدان ٣٥٧/٤ .
(٣) الشاغور : محلة بباب الصغير من دمشق وهي في الظاهر المدينة . معجم البلدان ٣١٠/٣ .
(٤) البقاع : موضع قريب من دمشق . معجم البلدان ٤٧٠/١ .
(٥) بصرى : موضع بالشام من أعمال دمشق . معجم البلدان ٤٤١/١ .
(٦) السواد : موضع قرب البلقاء سميت بذلك لساد حجارنها . معجم البلدان ٢٧٢/٣ .

وكان المتوسط بينهما محبب الدين بن الجوزي^(١) وكان قد ورد رسولا من الخليفة ليصلح بين الملوك وهم الأشرف وأخوه الكامل وابن عمهما العزيز ، وعلاء الدين كيقباز صاحب الروم ، فاتفق وفاة الأربعة في وقت تقارب فقال فيه ابن المسجف الشاعر^(٢) :

يا إمام الهدى أبا جعفر المد
ما جرى من رسوك الآن محبب الـ
جاء والأرض بالسلطين ترمى
أففر الروم والشام ومصر
صور من له اللخار الأثيل
دين في هذه البلاد قليل
وغدا والديار منهم طول
أف هذا مفسل أم رسول

ورجعنا إلى ما كنا فيه ، وتسلم الكامل دمشق تاسع عشر جمادى الأول وتقدم إلى المظفر بمنازلة حمص ، فأسقط في يد المجاهد ، وأرسل يتضرع فما أجاب ضراعتة ولم يلبث غير أيام حتى مرض ومات ، وفرح المجاهد فرحاً عظيماً وسببه : أنه لما دخل القلعة أصابه زكام فدخل الحمام وصب على رأسه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة إلى معدته وحصلت له حمى ، نهى الأطباء عن القيء فخالفهم وتقياً فمات لوقته ، حادى عشرين رجب ، وبين موته وموت الأشرف نحو ستة أشهر ، وما أسرع صوت المتعادين ، وعمره نحو ستين سنة ، وحكم في مصر أربعين سنة ، عشرون خلافة ، وعشرون نيابة ، فحكمه كحكم معاوية بالشام ، وقال ابن واصل يرثيه ويمدح ولده الصالح :

ولو خلد الملك العظيم جلا
لخلد فينا الكامل الملك الذى
ولكن قضاء الله ما عنه معدل
فمن بعده حار الدليل وأظلمت
حوى الملك وانقادت إلى أمره الأمم
له خضعت غلب الممالك والقمم
ولا مؤئل مما به الله قد حكم
صباح المعالى وانقضت دول الكرم

(١) هو أبو المظفر يوسف ابن الشيخ جمال الدين أبى الفرج ابن الجوزى . مفرج الكرب ١٤/٤ .
(٢) انظر الأبيات فى فوات الوفيات ٢٨٦/٢ ، وأبى الفداء ١٦٤/٣ ، وابن الوردي ٢٤١/٢ ، ونسبها اليوينى فى ذهل مرآة الزمان ٣٣٤/١ إلى الملك الناصر داود بن عمسى .

فقلت له : أيوب قالوا : نعم نعم
وعادوا إلى ما عودوه من النعم
لنا بعده بدر جلا الشك والظلم
بدا الملك الباقي وذاك الذي انصرم
وجاد ثرى الماضى حيا هاتل الدير

فمن لهنى الآمال بعد محمد
صدقت وأبدوا فرحة ومسرة
وما كان إلا الشمس غابت وقد بدا
فحسن وحزن ، فرحة بعد ترحة
فدام لنا الباقي سعيدا مخلدا

وملك بعده الشام الجواد كما يأتى ، وكان للكامل من الولد : أبو بكر ولى عهده ،
والصالح أيوب ببلاد الشرق ، والمسعود يوسف صاحب اليمن مات فى حياة أبيه ، وعدة
بنات.

ومنهم الملك العزيز^(١)

عثمان بن أبى بكر بن أيوب شاذى ، الملك العزيز ، عماد الدين ابن الملك العادل ،
شقيق المعظم عيسى ، كان صاحب بانياس وتبنين ، وهو الذى بنى الصبية .
كان عاقلا قليل الكلام مطيحا للمعظم ، أرسل إليه ولد الأمجد^(٢) صاحب بعلبك :
إنى قد نشرت باب السر ، فسر إلينا وقت المحر فساق أول الليل من الصبية ، والمسافة بعيدة
فجاءهم وقد طلع الشمس فقات الغرض ونزل مقابل بعلبك فأرسل الأمجد إلى الناصر داود
أن رحل العزيز عنى ، فأرسل من رحله غصبا فرحل إلى بانياس وما عاد دخل دمشق إلا فى
خدمة الكامل فإنه سار إليه إلى القدس وكان أحد الأسباب فى أخذ دمشق من الناصر^(٣) ،

(١) ترجمته فى مرآة الزمان ٤٧٨/٨ ، البداية النهاية ١٣٧/١٣ ، النجوم الزاهرة ٢٨١/٦ ، الدارس

٥٤٩/١ ، القلائد الجوهريّة ١٣١ ، شذرات الذهب ١٣٦/٥ .

(٢) الملك الأمجد بهرام شاه بن فروخ شاه المقتول سنة ٦٢٨ هـ .

(٣) الملك الناصر داود بن عيسى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

وقتل الأمجد ولده .. ومات العزيز يوم الاثنين عاشر رمضان سنة ثلاثين وستمائة بيستانه بيت لهيا^(١) وحمل إلى قاسيون^(٢) فدفن عند والدته ، وكان له من الولد الظاهر نجم الدين أيوب فولى بعد أبيه ، ثم توفى سنته ، ولى أخوه السعيد بن العزيز^(٣) .

ومنهم الملك الحافظ^(٤)

أرسلان شاه بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، الملك الحافظ نور الدين المعادل ، صاحب قلعة جعبر^(٥) تملكها دهرأ طويلاً ، وكانت بها خزانة عظيمة لوالده ، فلما توفى أخذها ، فلما كان آخر أمره أصابه فالج ، وخاف من تغلب أولاده عليه فأرسل إلى أخته صاحبة حلب ، نزل عن جعبر لها وتعرض أعزاز وبلاداً معها ، ليكون بلاده قريباً من حلب فلا يمكن لأولاده التعرض لها وقيل : بل خاف من الخوارزمية لأنهم عبثوا ببلاده ، وخاف من ابنه أن يسلم القلعة إليهم ، وقدم حلب واجتمع بأخته ، وسكن عزاز وتوفى بها سنة أربعين وستمائة ، وقيل : في ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين ، وخرج الناصر - صاحب حلب - وصلى عليه ، ونقل فدفن في المكان الذي أنشأته أخته ويسمى بالفردوس ، وله أولاد وتسلم الناصر عزاز .

(١) بيت لهيا : قرية مشهورة بغوطة دمشق . معجم البلدان ٥٢٢/١ .

(٢) قاسيون : هو الجبل المشرف على مدينة دمشق . معجم البلدان ٢٩٥/٤ .

(٣) الملك السعيد حسن بن عبد العزيز ، توفى سنة ٦٥٨ هـ . النجوم الزاهرة ٩٢/٧ .

(٤) ترجمته في مفرج الكرب ٢٧٥/٣ ، تاريخ ابن الوردي ٢٤٦/٢ ، ترويح القلوب ص ٦٠ .

(٥) جعبر : قلعة على الفرات بين هالس والرقه قرب صفين . معجم البلدان ١٤٢/٢ .

ومنهم الملك المظفر^(١)

غازى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك المظفر صاحب ميفارقين ، شهاب الدين ابن الملك العادل .

كان جواداً شجاعاً شهماً ذكياً ، يحفظ الأشعار ويحكى الحكايات ، ومن نظمه :

ومن عجب الأيام أنك جالس
فسيرك يا هذا كسير سفينة
على الأرض فى الدنيا وأنت تسير
بقوم جلس والقلوع تطير^(٢)

وله :

ولما^(٣) التقينا بعد بعدٍ تحدرت
فقلت لها : يا عين هذا لقائنا
دموعى إلى أن كدت بالدمع أغرق
فكالت : ألسنا بعده نتطرق ؟

وكتب على تقويم :

إذا أردت اختيار السعد فيه فقل
صل إلى الله فيما أنت فاعله
على الذى فى يديه السعد اتكل
فما إلى النجم لا قول ولا عمل^(٤)

وكان بيده الرها سروج ، وكانت ميفارقين وخلاط للأشرف ولم يكن له ولده فجعله

(١) مرآة الزمان ٧٦٨/٨ ، ذيل الروضتين ص ١٥١ ، السلك ٣٢٢/١ ، البداية والنهاية ١٧٤/٣ ، كنز

الدرر ٣٥٧/٧ ، ابن الوردي ٢٥٠/٢ ، شذرات ٢٣٣/٥ .

(٢) البيتان فى مرآة الزمان ٧٦٩/٨ ، البداية والنهاية ١٧٤/١٣ .

(٣) البيتان فى مرآة الزمان ٧٦٩/٨ .

(٤) البيتان فى مرآة الزمان ٧٦٩/٨ .

ولى عهده ، وأعطاه ميارفارقين وخلاط ، هي بلاد تضاهاى ملك مصر ، فلما حصلت الرحشة بين المعظم والأشرف حسن المعظم للمظفر العصيان على الأشرف ، واتفق مع المظفر صاحب إربل ، وكان صاحب الموصل منتصباً إلى الأشرف ، فسار صاحب إربل وحاصر الموصل عشرة أيام ، وذلك فى سنة إحدى وعشرين ، انشغل الأشرف عن مقصد خلاط ، فلم يلتفت الأشرف إلى الموصل ، وحاصر خلاط وتسلمها ، وأقام المظفر فى القلعة إلى الليل ، ونزل إلى الأشرف واعتذر فقبله وأقره على ميارفارقين واسترجع ما سواها ، وحج من ميارفارقين سنة ست وعشرين ، وكان ثقله ستمائة جمل ، ومعه خمسون هجيناً ، على كل هجين مملوك ، وزار علياً والحسين ، وبعث إليه الخليفة بفرسين وبغلة والفى دينار ، وأوصى أمير الحاج بخدمته ، وتصدق فى الحرمين ، وعاد على غير الطريق الأول ، فكاد يموت عطشاً .

وملك أرزن^(١) من ديار بكر من صاحبها حسام الدين ، هو من بيت كبير يقال لهم : بيت الأحذب ، وعوضه عنها حانى^(٢) وذلك فى سنة سبع وعشرين .
خرج هارباً من التتر يستنجد الملوك فتوفى ، قيل : فى سنة اثنتين وقيل : خمس ، وقيل : ست وأربعين وستمائة ، ورثاه بعضهم بقوله^(٣) :

ألا روى الإله تراب قبر	حللت به شهاب الدين غازى
وأسكنك الملك جنان عدن	وكان لك المكافى والمجازى
فضلت الناس مكرمة وجوداً	فما لك فى البرية من موازى
وكنت الفارس البطل الممدى	مهد القرن فى يوم البراز(٨٨ أ)
تجدله بابيض مشرفى	وتطعنه بأسمر ذى اهتزاز

وكان له من الولد الكامل محمد ، وهو القائم بعده ، وعمر مات فى حياته .

(١) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط لها قلعة حصينة . معجم البلدان ١٥٠/١ .

(٢) حانى : مدينة معروفة بديار بكر . معجم البلدان ٢٠٨/٢ .

(٣) الأبيات فى مرآة الزمان ٧٦٩/٨ .

ومنهم الملك الصالح^(١)

اسماعيل بن أبي بكر بن شاذي ، الملك الصالح ، عماد الدين ، أبو الخيش ، ابن الملك العادل ، صاحب بعلبك وبصرى ودمشق . ملك دمشق بعد أخيه الأشرف ، وبقي أياماً ، ثم لم يلبث أن نازل أخوه الكامل دمشق فأخذها ، وعرضه بعلبك ، وذلك سنة خمس وثلاثين ، ثم هجم هو وصاحب حمص على دمشق وتملكها سنة سبع وثلاثين ، وبدت منه هنات عديدة ، واستعان على حرب ابن أخيه بالفرنج وأطلق لهم حصن الشقيف ، ثم أخذت منه دمشق سنة ثلاث وأربعين ، وذهب إلى بعلبك فلم يقر له قرار ، والتفت عليه الخوارزمية ، وتمت له خطب طويلة ، فالتجأ إلى حلب ، وراحت منه بصرى ، وبقي في خدمة ابن ابن أخته^(٢) فلما سار الناصر لأخذ الديار المصرية ، كان معه الصالح ، فأسر فيمن أسر ، وجاءوا به إلى المعز أيك ، فقال المعز لابن أبي علي : يا خوند حسام الدين أما تسلم على المولى الملك الصالح ؟ قال : فدنوت منه وسلمت عليه ، وكان يوماً مشهوداً ، وقد زينت القاهرة ، ودخل المعز والصالح محتاط به قدامه ، وإلى جانبه ابن أبي علي^(٣) ، قال : فقلت له : هل رأيتم القاهرة قبل اليوم ؟ قال : نعم رأيتموها مع العادل وأنا صبي ، ومروا به على تربة ابن أخيه الصالح أيوب ، فصاحت غلمان أيوب يا خوند أين عينك تبصر عدوك ؟ ثم اعتقل بالقلعة أياماً ، ثم أتاه ليلة سبع وعشرين ذي القعدة ، وقيل : سلخه ، جماعة فأركبوه وأخرجوه من باب القلعة ، وكان قاعداً بمصر قصباً إلى جهة القرافة ، فأطفأوا المشعل ، وكان آخر العبدية ، فقيل : إنه خنق كما خنق هو الجواد ، وقيل : ذبح . وكان ملكاً

(١) ترجمته في ذيل الروضتين ١٨٦ ، مفرج الكروب ٢٧٥/٣ ، السلوك ٣٧٨/١ ، البداية والنهاية

١٧٩/١٢ ، الدارس ٣١٦/١ ، شذرات ٢٤١/٥ ، أخبار الأيوبيين ١٦٣ ، ترويح القلوب ٦١ .

(٢) هو الناصر يوسف صاحب حلب الشهباء . الدارس ٣١٦/١ .

(٣) حسام الدين محمد بن أبي علي الهذلي نائب السلطنة بمصر ، توفي سنة ٦٥٨ هـ . النجوم الزاهرة

. ٩٣/٧

شهماً يقطاً محسناً إلى جنده ، كثير التجميل ، وكانت أمه أحظى الحظايا عند أبيه ، ولها مدرسة وترية بدمشق . وله من الأولاد : السعيد عبد الملك ، والمسعود محمود .

ومنهم الملك المعز^(١)

يعقوب بن أبي بكر بن شاذى ، الملك المعز ، مجير الدين ، ابن الملك العادل ، توفى سنة أربع وخمسين وستمائة .

ومنهم الملك ممدود^(٢)

ابن أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك المعظم ، شمس الدين ، له محل حسن بالقرافة (٨٨ ب) توفى فى حياة أبيه ، وخلف ولده يونس .

ومنهم المغيـث محمود^(٣)

ابن أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، شهاب الدين .

ومنهم الناصر خليل^(٤)

ابن أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، صلاح الدين .

(١) ترجمته فى ذيل مرآة الزمان ٣٧/١ ، البداية والنهاية ١٩٥/١٣ ، الدارس ٢٦٨/٢ ، شذرات ٢٦٦/٥ .

(٢) ترجمته فى مفرج الكروب ٢٧٤/٣ ، النجوم ١٧٢/٦ ، ترويح القلوب ٦٢ .

(٣) مفرج الكروب ٢٧٣/٣ ، وفيه توفى سنة ٦٣٠ هـ . ترويح القلوب ٦١ .

(٤) ترجمته فى النجوم ١٧٣/٦ ، ترويح القلوب ٦٣ .

ومنهم الأماجد حسن^(١)

ابن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، مجد الدين ، توفي في حياة أبيه .

ومنهم القاهر خضر^(٢)

ابن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، بهاء الدين .

ومنهم المغيث عمر^(٣)

ابن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، فتح الدين ، مات في حياة أبيه وخلف ولداً لقب بلقبه .

ومنهم القاهر

وقيل : تاج الملوك ، اسحاق^(٤)

ابن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، بهاء الدين .

ومنهم الأماجد عباس^(٥)

ابن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، تقي الدين ، أصغر أخوته فهؤلاء أولاد العادل أبي بكر على اختلاف فيهم ، وكان له عدة بنات .

-
- (١) ترجمته في مفرج الكروب ٢٧٤/٣ ، ذيل الروضتين ص ٦٧ ، وفيه توفي سنة ٦٠٥ هـ . النجوم الزاهرة ١٧٢/٦ ، السلوك ١٩١/١ ، ترويح القلوب ٦١ .
- (٢) ترجمته في النجوم الزاهرة ١٧٢/٦ .
- (٣) توفي سنة ٦٠٦ هـ . انظر ترجمته في ذيل الروضتين ٦٧ ، مفرج الكروب ٢٧٣/٢ ، الدارس ٥٨١/١ ، النجوم الزاهرة ١٧٢/٦ ، القلائد الجوهرة ١٤٤ ، ترويح القلوب ٦٠ .
- (٤) وهو المغيث شهاب الدين محمود توفي سنة ٦٣٠ هـ . مفرج الكروب ٢٧٣/٣ .
- (٥) توفي سنة ٦٢٨ هـ . تنظر ترجمته في ذيل الرضتين ١٦٠ ، مفرج الكروب ٢٧٤/٣ ، النجوم الزاهرة ١٧٢/٦ ، ترويح القلوب ٦٢ ، ذكر المؤلف سهواً ترجمة لإسماعيل بن أبي بكر بعد هذه الترجمة وقد سبقت ترجمته .

منهم غازية خاتون^(١)

بنت أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، زوجة ابن عمها الظاهر غازي ، زوجها بها والده
الناصر صلاح الدين ، ودخل بها يوم الأربعاء ، سادس عشرين رمضان ، سنة اثنتين وثمانين
وخمسمائة ، توفيت معه ، ووفاته سنة ثلاث عشرة وستمائة ، وتزوج بعدها أختها .

ومنهم ملكة خاتون^(٢)

بنت أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، بنت الملك العادل ، زوجة المنصور محمد ،
صاحب حماة ، ووالدة المظفر محمود ماتت ولبس زوجها الحداد ، وهو ثوب أزرق وعمامة
زرقاء ، وأنشد الشعراء في ذلك ، فمن ذلك قصيدة لحسام الدين الكردي^(٣) مطلعها :

الطرف في لجة والقلب في معر له دخان زفير طار بالشرر
ومنها :

ما كنت أحسب أن الشمس قد غربت حتى رأيت الأجي ملقى على القمر
لو كان من مات بلدى قبلها لمدى أم المظفر آلاف من البشر

توفيت بحماه في غيبة ولدها سنة ست عشرة وستمائة .

ومنهم ضيفة خاتون^(٤)

بنت أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، الملكة صاحبة حلب ، بنت الملك العادل . مولدها

(١) توفيت سنة ٦٠٩ هـ . تنظر ترجمتها في الدارس ٢٦٨/٢ .

(٢) ترجمتها في مفرج الكروب ٦٥/٤ ، ابن الوردي ١٩٨/٢ ، الدارس ٢٦٨/٢ .

(٣) حسام الدين خشتري بن تليل الكردي الحكيم الأربلي ، من بني مران ابن الحكم ، ولد بمصر سنة

٥٧٨ هـ ، توفى سنة ٦١٩ هـ بإربل . ذيل مرآة الزمان ٢٢٨/٢ .

(٤) ترجمتها في كنز الدرر ٣٥١/٧ ، أبو الفداء ١٧١/٣ ، ابن الوردي ٢٤٧/٢ ، الدارس ٢٦٨/٢ ،

أخبار الأيوبيين ١٥٤ .

سنة إحدى ، أو اثنتين وثمانين (وخمسمائة) بقلعة حلب ، حين كان أبوها ملكاً لحلب ، وكان عند أبيها حنيف ، فسماها حنيفة . وكان ابن عمها الظاهر غازي متزوجاً باختها غازية خاتون ، فماتت معه ، فلما ماتت ارسل الظاهر القاضي بهاء الدين بن شداد يخطبها ، فأرسلها أبوها في سنة تسع وستمائة ، وكان العقد على خمسين ألف دينار ، وكان معها من القماش خمسون بطلاً ، ومئة بختي ، وثلاثمائة جمل ، ومن الكجاوات وغيرها ما يحمله مائة جمل ، كان معها مائة جارية وصيفات ، ومائة آخر يعملن الصنائع البديعة واحتفل (١٨٩) الظاهر احتفالاً عظيماً ، وقدم لها خمسة وخمسين عقد جواهر قيمتها مائتي ألف وستون ألف درهم ، وعصابة مجوهرة ، وعشر قلائد عنبر وخمس عشرة مذهب ، ومائة وخمسين قطعة من الذهب والفضة ، وعشرين تختاً من الثياب الفاخرة ، وعشرة خدام ، وعشرين جارية ، وأولادها الملك العزيز محمد سنة عشر ، فلما مات سنة أربع وثلاثين وخلف ولده الناصر يوسف ، تصرفت حنيفة خاتون في الملك تصرف الملك ، وقامت بالملك أحسن قيام ، وترجمتها مفرقة . وحصل لها قرحة في مرق^(١) بطنها ، فماتت بفعله حلب سنة أربعين وستمائة . ومن العجب اتفاق مكان مولدها ووفاتها ، وعمرها نحو تسع وخمسين سنة ، ومدة ملكها نحو ست سنين ، وخلفت ابن ابنها المذكور .

ومنهم زوجة قيصر شاه^(٢)

ابن قليج أرسلان صاحب الروم ، قدم على عمها الناصر صلاح الدين سنة سبع وثمانين وخمسمائة فزوجه ابنة أخيه العادل أبي بكر بن أيوب ، وما أدري ما اسمها .
آخر أولاد العادل أبي بكر .

(١) مرق : بتشديد القاف ، هو ما سفلى البطن عند الصفاق أسفل من السرة . السان ١٠/١٢٢ .

(٢) لم أجد لها ترجمة في المراجع .

ومنهم محمد بن ست الشام^(١)

بنت أيوب بن شاذي ، الأمير حسام الدين بن عمر بن لاجين ، صاحب نابلس .
(كان) شجاعاً مقداماً وجواداً ، له مواقف مع خاله صلاح الدين ، توفي ليلة الجمعة ،
تاسع رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة بدمشق ، وهي الليلة التي توفي فيها المظفر عمر
بن شاهنشاه بن أيوب ، ففجع صلاح الدين بابن أخيه وابن أخته في ليلة واحدة ، ودفن
بالتربة التي أنشأها والدته بظاهر دمشق .

التركمان ، حتى قيل : إن مقدمهم قال لغازي : أنا أكرس الحلبين بالخورازمية الذين
معي ، وكان معه سبعون ألف جويان سوى الجفالة ، فالتقاهم صاحب حمص في صفر
فانكسر غازي (٨٩ ب) وشرع الحلبيون في النهب ، وحازوا جميع ما في عسكر غازي
وأخذوا النساء الخوارزميات ، ونزل صاحب حمص في خيمة غازي ، وغنموا ما لا يعد ولا
يحصى ، وبيعت الأغنام بأبخس الأثمان ، ثم إنه صالح الصالح وأيوب وكسر معه الخوارزمية
الكسرة العظمى بعيون القصب ، واتخذ عنده قداماً ، فقدم من بلاده إلى دمشق ، وأرسل
يستأذنه في القدوم عليه ، وأن يستمر في خدمته ، وسلمه قلعة شميميش^(٢) ، ولما قدم
دمشق قام ابن أبي علي بوظائفه كلها ، وكان قد علق به مرض السل ، فمات يوم الأربعاء
حادى عشر صفر ، سنة أربع وأربعين وستمائة بالنيرب^(٣) وحمل إلى حمص فدفن بها ،
وقيل : إنه كان عاملاً على أخذ دمشق ، ولو عاش أياماً أخذها . وكانت ولايته ست سنين

(١) ترجمته في النادر السلطانية ١٩٣ ، الفتح القسى ٥٧١ ، القلائد الجوهرة ١٨٧ ، ابن الفرات المجلد
الرابع ٤٩/٢ .

(٢) الأصل شميميش ، والصيغة المثبتة في السلوك ٤٤٦/١ ، زبدة الحلب ٢٣٤/٣ ، هي إحدى بلاد
كورة حمص .

(٣) النيراب : قرية مشهورة بدمشق . معجم البلدان ٣٣٠/٥ .

ونصفاً ، قيل : عشر سنين وهو غلط . وكان محسناً إلى رعيته ، سمحاً حليماً بخلاف أبيه وكان له من الولد الأشرف موسى^(١) وهو الذي قام بعده .

ومنهم الملك الصالح^(٢)

اسماعيل بن شيركوه بن شاذي ، الملك الصالح ، نور الدين ابن المجاهد ابن القاهر ابن المنصور ، نشأ بحمص وانتقل عنها ، وخدم مع الناصر يوسف صاحب حلب والشام وكان عاقلاً حازماً سائساً ، فلما أخذ هولاكو الشام داجل التتار وحسن للناصر التوجه إلى هولاكو ، وتوجه في صحبته ، فلما قدموا عليه أحسن إليهم ، فلما بلغه كسرة عين جالوت غضب وقتلهم في أوائل سنة تسع وخمسين وستمئة .

ومنهم الملك الزاهر^(٣)

داود بن شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي ، الملك الزاهر ، مجد الدين ابن القاهر بن المنصور . توفي ليلة الأربعاء ثاني عشر جمادى الآخرة سنة الثنتين وتسعين وستمئة بيستانه بالسهم المعروف بيستان أسامة ظاهر دمشق ، ودفن بترتبه بسفح قاسيون .

ومنهم الملك الأمجد^(٤)

بهرام شاه بن فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي ، الملك الأمجد ، مجد الدين ، أبو المظفر ، صاحب بعلبك ، أعطاه الناصر يوسف عم أبيه بعلبك بعد وفاة أبيه سنة ثمان وسبعين (وخمسمئة) وكان أديباً فاضلاً شاعراً محسناً جواداً كاتباً ممدحاً ، وهو أشعر بني أيوب وشعره مشهور ، وله .

(١) مظفر الدين موسى ابن الملك المنصور إبراهيم ملك حمص بعد وفاة أبيه ، توفي سنة ٦٦٢ هـ . النجوم الزاهرة ٢١٧/٧ .

(٢) ترجمته في ذيل مرآة الزمان ١٢٦/٢ ، النجوم الزاهرة ٢٠١/٧ ، السلوك ١٦١/١ .

(٣) ترجمته في البداية والنهاية ٣٢٣/١٣ ، الدارس ٥٨١/١ ، ابن الفرات ١٦١/٨ ، القلائد الجوهريّة ١٤٥ .

(٤) ترجمته في مرآة الزمان ٦٦٦/٨ ، الحوادث الجامعة ٢٦ ، تاريخ أبي الفداء ١٤٦/٣ ، فوات الفيات

١٥٠/١ ، مرآة الجنان ٦٥/٤ ، البداية والنهاية ١٣١/١٣ ، المسجد المسبوك ٤٤٦ ، السلك ٢٤٠/١

النجوم الزاهرة ٢٧٥/٦ ، الشذرات ١٦٩/٥ ، مفرج الكرب ٢٨٤/٤ .

الطبقة الثالثة

فمنهم الملك المجاهد^(١)

شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى ، الملك المجاهد أسد الدين ابن القاهر ابن المنصور . ولاء الناصر يوسف حمص بعد موت أبيه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة . وكان شجاعاً شهماً مقداماً يباشر الحرب بنفسه : وحفظ المسلمين من الفرنج والعرب ، أما من ناحية الفرنج فبنى الأبراج على مخائض العاصى ، ويركب بنفسه إلى قتال العرب من ناحية البرية ، وكانت بلاده طاهرة من الخمر والخواطىء والمكوس ، وكانت بنو أيوب تخافه لأنه كان يرى أنه أحق بالملك منهم ، لأجل جده شيركوه . وكان الكامل على قصده كما يأتى ، يقول : والله لأمحون أثره ، فبعث إليه بنسائه وأمواله فلم يقبل ، فبينما هو يزن المال فى الأكياس ليرسلها له وقعت بطاقة فيها وفاة الكامل ، فرد المال إلى الخزان ، وفرح فرحاً عظيماً ، ولعب بالكرة وهو فى السبعين . وجاء بعد ذلك إلى دمشق وجلس عند قبر الكامل وتصرف فى أمواله .

وكان ديناً عاقلاً معاشراً العلماء والفقهاء جواداً متصدقاً ، إلا أنه كان ينسى المحبوس . بلغه يوماً أن الفرنج أخذوا قفلاً فى وادى الربيعه واستاقوه يرددون حصن الأكراد ، فلحقهم قبل وصولهم ، وأسروهم جميعهم ، وخلص القفل منهم . وكان فى القفل رجل صوفى ، فأخبر المجاهد أن رجلاً من الفرنج ما زال يضعفه إلى أن وصل السلطان ، وكان الصوفى

(١) انظر : شذرات الذهب ١٨٤/٥ ، ذيل الروضتين ١٦٩ ، مرآة الزمان ٧٣١/٨ ، وفيات الأعيان

١٧٥/٢ ، البداية النهاية ١٥٤/١٣ ، النجوم الزاهرة ٣١٦/٦ .

غليظ الرقبة ، فقال المجاهد للصوفى : افعل به كما فعل بك ، وسلمه الصوفى ، فما زال يضعفه إلى باب حمص . قال الملك المؤيد^(١) وكان عسوقاً لرعيته ، ومنع النساء أن يخرجن من باب حمص مدة ولايته .

ومات بحمص يوم الثلاثاء عشرين رجب سنة سبع وثلاثين وستمئة ودفن بها ، ومدة حكمه (٦٣ ب) سبع وخمسون سنة ، وسنه نحو لمان وستين وقد مر بعض أخباره ، ويأتى بقيتها ، وله من الولد المنصور ابراهيم وهو الذى قام بملك حمص بعده ، الصالح اسماعيل ، والزاهر داود .

ومنهم الملك العز^(٢)

فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى ، عز الدين ، أبو سعد ابن نور الدولة الأيوبرى ، صاحب بعلبك ، أقطعه عمه صلاح الدين إياها سنة خمس وسبعين ، وناب بدمشق عنه سنة ست وسبعين (وخمسمائة) .

وفى سنة سبع سار إلى الكرك ، فنهب وقتل ، وفتح الشقيف ، وقد مضى ذكر بعض أخباره ، وكان من الأفاضل الأمثال ، كثير الصدقات ، متواضعاً ، سخياً ، جواداً ، مقداماً ، متصلاً من المظالم ، شاعراً فصيحاً ، وشعره مدون . قال العماد : أنشدنى ونحن بين يدي السلطان^(٣) :

إذا شئت أن تُعطى الأمور حقوقها
فلا تصنع المعروف مع غير أهله
وتوقع حكم العدل أحسن موقعه
فظلمك وضع الشيء فى غير موضعه

(١) انظر : المختصر ١٦٥/٣ .

(٢) انظر : شذرات الذهب ٢٥٩/٤ ، المعبر ٢٣٣/٤ ، الدارس ٥٦١/١ ، النجوم الزاهرة ٩٦/٦ ،

الروضتين ٣٣/٢ ، السلوك ٧٩/١ .

(٣) وردت الأبيات فى مرآة الزمان ٣٧٢/٨ .

قال جامعه : وفي المثل ، أربعة أشياء ضائعة : سراج في شمس ، وحساء تذف إلى
أعمى ، وزرع في سبخة ، ومعروف مع من لا يشكره ، انتهى .

وقال في وصف دمشق^(١) :

دمشق سقاك الله صوب غمامة فما غائب عنها لدى رشيد
عسى مسعد لي أن أبيت بأرضها إلا أننى لو صح لي لسعيد

مات بدمشق في حال نيابته في جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، ودفن
بقبته على الميدان ، وبلغ السلطان خبره ، وهو ببلاد الجزيرة ، فأبقى بعلبك على ولده
الأمجد بهرام شاه ، وأرسل ابن المقدم إلى نيابة دمشق ، وكان عزيزاً عنده ، وهو ثقة من
بين أهله .

ومنهم الملك المظفر^(٢)

عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى ، الملك المظفر تقي الدين بن نور الدولة . وكان
شجاعاً ، شديد البأس ، ركناً عظيماً من أركان البيت الأيوبي ، وعنده فضل وأدب ، وله
شعر حسن ، كسر عسكر الروم ، وكانوا عشرين ألفاً بألف ، وقد تقدمت أخباره في سيرة
عمه (٦٤ أ) صلاح الدين ، سار إلى البلاد التي زادها إياه عمه ، وهي حران وغيرها ،
فامتدت عينه إلى البلاد المجاورة ، واستولى على السوهداء^(٣) وحانى^(٤) ، وأيقع مع
بكتمر^(٥) صاحب خلاط ، فكسره وحصره في خلاط ، وتملك معظم البلاد ، ثم رحل

(١) وردت الأبيات في مرآة الزمان ٣٧٨/٨ .

(٢) انظر : كنز الدرر ١١٠ ، البداية والنهاية ٣٤٦/١٢ ، النجوم الزاهرة ١١٣/٦ ، شذرات الذهب

٢٨٩/٤ ، العبر ٢٦٢/٤ ، طبقات ابن الوردي ١٤٨/٢ ، الروضتين ١٩٤/٢ .

(٣) تقع بالقرب من حران . انظر معجم البلدان ٢٨٦/٣ .

(٤) مدينة تقع بديار بكر . انظر معجم البلدان ٢٠٨/٢ .

(٥) انظر : النجم الزاهرة ١٢٣/٦ .

ونزل ملازكرد^(١) وضايقتها ، وكان في صحبته ولده المنصور محمد ، فمرض للمظفر مرض وتزايد به حتى توفي في يوم الجمعة لاحدى عشرة بقية من رمضان سنة سبع ، وقيل : ست وثمانين وخمسمائة ، فأخفى ولده موته ، ورحل من ملازكرد ووصل به إلى حماة . قيل : إنه دفن بميافارقين ثم نقل ودفن بظاهر حماة ، وبنى إلى جانبه مدرسة ، واتفق أن حسام الدين محمد ابن ست الشام - اخت صلاح الدين - مات في الليلة التي توفي فيها المظفر ، فأصيب السلطان بيوم واحد باين أخيه وابن أخته .

ولما مات المظفر أرسل ابنه يشترط شروطاً ، نسبة السلطان فيها إلى العصيان ، وكاد أمره أن يضطرب فراسل عمه العادل أن يستعطف خاطر السلطان ، فما برح العادل يراجع اخاه حتى أقر للمنصور حماة وسلمية والمعرة ومنبج ونجم ، وارتجع البلاد الشرقية ، وأقطعها العادل بعد أن أخذ ما للعادل بالشام ، خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ونصف خاصه بمصر ، وأن يكون عليه كل سنة عشرة آلاف غرارة للقدس .

ولما استقر ذلك سار العادل إلى البلاد الشرقية ، وعاد في آخر جمادى الآخرة ، سنة ثمان وثمانين ، وصحبته المنصور ، فلما رآه السلطان نهض إليه واعتنقه وغشيه بالبكاء وأكرمه وأنزله مقدمة عسكره .

ومنهم الملك العزيز^(٢)

عثمان بن يوسف بن شاذى ، الملك العزيز ، عماد الدين ، ابن الملك الناصر ، ولد سنة سبع وستين (وخمسمائة) بمصر ، وهو شقيق الأعز يعقوب ، وقد ذكرنا أحواله زمن أبيه ، ونذكر الآن ما اتفق له بعده . فنقول : لما بلغه وفاة أبيه سنة تسع وثمانين جلس للعزاء ، وكان بمصر ، وأخذ بالعزم ، وقرر أمور دولته ، ومحا المظالم ، وخلع على الأمراء ، وجهاز

(١) انظر : معجم البلدان ٢٠٢/٥ .

(٢) انظر : شذرات الذهب ٣١٩/٤ ، بدائع الزهور ٧٣/١ ، المختصر ٩٥/٣ ، المعبر ٢٨٧/٤ ، البداية والنهاية ١٨/١٣ ، الدارس ٣٧٨/١ ، مرآة الزمان ٤٦٠/٨ .

عشرة آلاف دينار لتنفق في عسكر القدس ، وخطب له فيها ، وأرسل إليها عسكراً ، أما الأفضل وهو المعهود إليه فإنه استوزر ضياء الدين بن الأثير ، فحسن له القبض على كبراء دولته ، فهرب أكثرهم إلى مصر . قال العماد : وتفرد الوزير بوزره ، ومد الجزرى (٦٤ ب) في جزره .

ولما اجتمعت الأمراء بمصر حسنوا للعزیز الانفراد بالسلطة ، ووقعوا في أخيه الأفضل فمال إلى ذلك . وحصلت الوحشة بين الاخوين ، فلما كان سنة تسعين حاصر الفرنج جبيل ، فخرج العزيز من مصر ، وخلف بالقاهرة قراقوش ، واحتاط على القطيبات بالفرج ، وخرج الأفضل لتخريب كوكب ، ونزل على رأس الماء ، وأرسل الظاهر ، فاتفقوا على أن ينزل لها الأفضل عن اللاذقية وجبله ، وأن ينجده الظاهر .

ونزل العزيز ميدان الحصى ، واقطع بلاد الشام . وشرع في جمع الرجال ، وكتب إلى عمه العادل : « إني ما خرجت إلا لخلاص جبيل ، فبلغنى أن الأفضل خالف علينا ، وأراد تسليم البلاد إلى الكفار ، فاحوجت الضرورة إلى أن سقت إليه ، وبلغنى أنك تريد أن تدخل بينى وبينه - وحاشاك من ذلك - وأنا خير لك منه ، وإن أردت أن تكون أنت السلطان فأنا راض بذلك » . وكتب للظاهر ولغيره ، وترددت الرسل في الصلح ، وبذل الأفضل كل مراد من سكة وخطبة ، فامتنع إلا يسلم ذلك . فأرسل الأفضل يستحث عمه الظاهر والمنصور ، وجاء العادل من الفرات واجتمع بالظاهر ، ونزلوا جميعاً حماة ، وكتب العادل : إن وصولي للإصلاح . فكتب إليه العزيز كتاباً بخطه بالابتهاج بمقدمه ، والرجوع إلى رأيه ، وحلف له على الوفاء ، ولما وصل العادل أصلح بين الأخوين . وكتب العزيز إلى نوابه ألا يمنعوا الأفضل شيئاً من إقطاعاته . ورحل العزيز إلى مصر بعد أن تقرر الحال على أن العادل يخطب للعزيز ، وأن العزيز يمدد بألف فارس لفتح خلاط . وخرج الظاهر والأفضل لوداع العزيز ، ثم رحل العادل إلى الشرق ، فأنزله الظاهر قلعة حلب ، وحلف أنه لا يصعد إليها إلا إن وهبها له العادل ، فقال النابلسي يذكر الحال ، ويمدح الظاهر :

أنجز الدهر فيكم مرمادي
ورجمتم إلى مكارم كانت
وتعاهدتم عهد وفاءٍ
وتسمنتم من العز هُضبا
لم يكن لائقاً بنجل صلاح الـ
حاش لله ما عهدنا النجوم الزـ
أرايت الأشبال تخرج يوماً
أبما والد به رحم
بدأ الخير للعباد وما منـ
بابي من عليه أجمعت الآ
لهو الظاهر الذي أظهر ا
والذي حل من مكارمه الذر
مرض الحق ثم صح فقد
خلة ساء صنعها فاستحالت
كدرت بعض ما صفا من قلوب
دولة ألف المحبة فيها
خال قوم أن يخضوا زبدة القصد
يا لها من غواية لم يكن إلا
آل أيوب طال باع الملك
شدتم ذروة العلاء بعد ما أشـ
فرق ما بينكم وبين ملوك الـ
لو تصورتهم بحسوراً لكانوا
بذلوا طارف الندى وبذلتهم
أيقظوا رقدة النهى للأمانى
جردوها عزائماً قاطعات
قلما ترتقى السعود صموداً

بعد طول الأبراق والاعواد
لعلاكم مذ كنتم خير عادٍ
جمعت شملكم لكبت الأعادي
ينظر النجم أوجه من بعد
دين حال معدومة بفساد
هر يدعى في شملها بسداد
خُلِقها عن خللق الأساد
الله البرايا وأبما أولاد
هم سوى عائد بما هو يادي
راء إذ صح فيه كل اعتقاد
له به معجز النهى والسداد
وة ، فالناس حوله كالوهاد
قرت عيون الأبناء والمواد
خلة ذات صفة ووداد
زال ما استشعرت من الأحقاد
رأيك الجزل بعد طول شراد
د بها فانثنوا عن الأقصاد
ك فيها الهادي إلى الرشاد
إن جنحتم لرقدة الأكباد
لغت وزالت أركانها لانهداد
أرض فرق الأرواح والأجساد
لسواق في نكح وثماناد
ما وجدتم من طارف وتلاد
وافتحوا مقلة الوغى للجهاد
ليس تفضى السيوف في الأغمام
بسوى البيض أو بسمر الصعاد

فابثوثها مثل الجراد جيوشاً
 ليس فيها إلا جواد من الأب
 لا تنوا في رعاية الدين والدن
 لك فيها إن شئت أعلا محل
 ومتى دان للفتى العدل والاح
 أنت نجم ، رجم لماردة الان
 أنت يا خير من مضى خير آت
 لست أبغى لك المزيد من اللـ

تحجب الأرض عن جيوش الجراد
 عطل مستوطن لظهر جواد
 يسا بذب عن الهدى وذياد
 غير مستبعد وأوطا مهاد
 حسان دانت له رقاب العباد
 من ولطالب الهدى منك هاد
 أنت يا خير حاضر خير باد
 ه فما في علاك من مستزاد

ولما انفصلت العساكر عن دمشق ، شرع الأفضل في اللهو واللعب واحتجب وانقطع
 إلى لذاته ، فسمى الملك النوام ، وأشاع ندماؤه أن عمه العادل حسن له ذلك ، وكان يعلمه
 بالخفية ، فأنشد عمه :

فلا خير في اللذات من دونها ستر^(١)

فقبل وصية عمه ، ثم إنه أظهر التوبة ، وأزال المنكرات ، وشرع في نسخ مصحف

بيده .

ذكر نزول العزيز الشام ثانياً سنة إحدى وتسعين

تغيرت قلوب جماعة من أمراء الأفضل ، واتصلوا بالعزيز ، وحنوا له قصد دمشق ،
 فخرج إليها في قوة عظيمة ، فاستجد الأفضل بعمه العادل ، وجد العادل في السير ، فسبق
 العزيز بيومين ، ونزل العزيز الفوار^(٢) وكاتب العادل العزيزية واستمالهم ، فلما كان ليلة
 الاثنين رابع شوال سار أبو الهيجاء وجهاركس إلى دمشق ، وكاتبوا أكثر العسكر ، فلم يبال
 العزيز بانصرافهم ، وقال : صفونا من أقدارهم . وتحالف العادل والأفضل أن يكون ثلث

(١) انظر : ديوان أبي نواس ٢٨ .

(٢) مكان قرب دمشق كان مركزاً للعساكر . انظر . مفرج الكرب ٢٢٧/١ .

دمشق للعادل والباقي للأفضل ، وخاف العزيز من الذين بالقاهرة أن يفعلوا كما فعل الذين معه ، فرحل إليها ، فلما وصلها خرج إليه الأمراء ، فأكرمهم ، وسار الأفضل والعادل في أثر العزيز، وأرسلا إلى القدس وتسلماها ، واتفقا على أن يملك الأفضل مصر ، ويعطى دمشق للعادل . ولما وصل العزيز إلى مصر أرسل عسكرياً (٦٦ أ) إلى بلبس فالتقوا واستظهر العزيز عليهم ، وندم الذين جاءوا العادل ، فخاف العادل من غدرهم وأراد الأفضل القتال ، فمنعه ، وقال : مصر لك متى شئت . وكاتب العزيز في الباطن ، وأمره أن يرسل الفاضل في الصلح . وكان قد اعتزل امرهم لما رأى فساد احوالهم ، فدخل عليه العزيز ، وتوجه الفاضل وأصلح بينهم على أن يكون للعادل اقطاعه بمصر ، وأن يكون مقيماً بها ، وأن يعفو العزيز عن الأسدية ، وأن يرجع الأفضل إلى بلاده .

ذكر ملك العزيز دمشق سنة اثنتين وتسعين

تجدد للعادل سوء ظن في الأفضل ، واتفق مع العزيز أن يخرجها معاً ويملكها العزيز ويسلمها للعادل ، وتكون الخطبة للعزيز بسائر البلاد ، فلما وصلا غزة أرسل الأفضل يستعطف عمه فسير إليه : بأنه لا بد من اجتماع الكلمة ، وقد كان الظاهر أرسل للأفضل : أخرج عمنا من بيننا ونحن ندخل تحت كل ما تريد ، وأنا أعرف به منك ، وأقرب لمملكته ، فإنه عمي كما هو عمك ، وأنا زوج ابنته . وقال الأفضل : أنت سعي الظن في كل أحد ، أي مصلحة لعننا في أذيتنا ؟ ولما قربوا من دمشق صلى الأفضل في الجامع ، وجمع الأمراء واستشارهم ، فأشاروا عليه بطاعة العزيز ، فلما نزلوا على دمشق استمالوا ابن الحمصي^(١) وكان الأفضل يعتمد عليه ، فلما كان يوم الأربعاء سادس عشرين رجب ، وقيل : سابع عشرين . وذكر في المرأة ذلك في سنة تسعين . ركب العزيز والعادل وجاءوا إلى باب دمشق ، وفتح ابن الحمصي ، ودخلا البلد من غير قتال ، ونزل الأفضل إليهما

(١) انظر : الكامل في التاريخ ١٢ / ١٢٢ .

وهكى بكاء شديداً ، فأعطاه العزيز صرخد ، فانتقل إليها بأهله ، وأخرج وزيره (١) في صندوق خوفاً عليه من القتل ، وكان للظافر (٢) حصنة مع الأفضل فأخذت منه بصرى فلاحق الظاهر وأقام عنده . وكان العزيز قد اتفق مع العادل أنه يقيم بدمشق والعادل يكون نائبه بمصر ، ثم ندم ، فأقام العادل بدمشق وقطع حكمه بمصر ، ورحل العزيز عنه يوم الاثنين تاسع شعبان إلى مصر ، وأقام العزيز بدمشق أربعة أيام ، واجتاز العزيز في طريقه إلى مصر بالقدس وعزل عنه أبا الهيجاء وولى سنقر الكبير ، ومدة ملك الأفضل ثلاث سنين وأشهر .
ونفى العادل ابن الحمصي من دمشق .

ذكر وفاة العزيز في سنة خمس وتسعين وخمسمائة

خرج إلى الفيوم يتصيد ، فركض خلف ضبي ، فكبا به فرسه ، فدخل القربوس في فؤاده ، وقيل : بل تقنطر وحم ، وركب إلى القاهرة ، فسقطت شهوته ، ووصل إلى الأهرام وقد تزايد به المرض (٦٦ ب) فتحامل وركب إلى داره فتوفى ليلة الأحد عشرين محرم ، وقيل : سابع عشر منه ، وقال ابن القادسي : وقع فاندقت عنقه وبقي أربعة أيام ومات وأوصى إلى أمير اسمه يازكش فوثبت عليه الأسيدي فقتلته ، وليس بصحيح .
وكان منه سبعا وعشرين سنة وشهوراً ، ومدة ملكة ست سنين إلا شهراً . وكان لطيفاً ، كثير الخير ، رفيقاً بالرعية ، حليماً سمحاً في غاية الكرم ، أنفق جميع ما عنده حتى لم يبق بالخرزاة درهم .

جاء رجل إلى يازكش وقال : عندي للسلطان عشرة آلاف دينار ولك ألف ، على أن توليني الصعيد ، فقال العزيز : والله لا بعث دماء المسلمين وأموالهم بملك الدنيا ، وكتب ليازكش بألف دينار . وحكاها بعضهم على صفة أخرى ، فقال : كان عبد الكريم بن علي

(١) انظر : المختصر في أخبار البشر ١٩٢/٣ .

(٢) انظر : المختصر في أخبار البشر ١٩٢/٣ .

البيسانى أخو الفاضل يتولى الحكم والاشراف بالجزيرة فحصل أموالاً عظيمة ، وكان الناس يحترمونه لأجل أخيه ، فجرت بينهما نبوة انحط بها عند الناس فصرف عن عمله وكان مزوجاً بامرأة من قوم كبار يعرفون ببني ميسر ، فرحل بها إلى الاسكندرية وأساء عشرتها ، واتصل خبرها بأبيها ، فمضى إليها وأثبت عند الحاكم ضررها ، وأنه حصرها فى مضيق ، فمضى القاضى إلى داره ، ورام فتح الباب فمسر . فاحضر الشهود ، ونقب البيت ، وأخرجها وسلمها إلى أبيها ، وسد البيت ، فخرج عبد الكريم إلى جهاركس وبذل فى قضاء الإسكندرية أربعين ألف دينار ، ولجهاركس خمسة آلاف دينار ، فاجتمع بالعزير وقال : « هذه خزانة مال قد أتت بك بلا طلب » فأطرق العزير ساعة وقال : « أعد المال إلى صاحبه ، وقل له : اياك والعود إلى مثلها . فما كل ملك عادل ، ومعاذ الله أن أبيع أهل الإسكندرية بمال » قال (جهاركس) (١) فوحمت ، فلما رآنى قال : أظنك أخذت شيئاً على الوساطة ، قلت : نعم ، خمسة آلاف دينار فأطرق ثم قال : أعطاك شيئاً تنتفع به مرة ، وأنا أعطيك شيئاً تنتفع به مراراً ، فوقع لى على جهة بخطه ، فكنت استغلها سبعة آلاف دينار كل سنة .

ولما قصده أخوه أحمد بذلت له الرعية أموالها لمحببتها فيه فامتنع مع شدة حاجته إليها فاشير عليه ، أن يقترض من الفاضل ، وكانت أمواله عظيمة ، فاستحى ، فألحوا عليه فأرسل خلفه ، فلما حضر لم يتمالك من الحياء ، ودخل دار الحرير ، ثم شجعه الأمراء ، فخرج وقال له - بعد أن أظن فى مدحه - أيها القاضى إن الأمور قد ضاقت علينا ، وقلت الأموال عندنا ، وليس لنا إلا حسن نظرك ، واصلاح هذا الأمر إما بنفسك أو برأيك أو بمالك . قال الفاضل : جميع ما أنا فيه من (٦٧ أ) نعمتكم ، ونحن نقدم أولاً الرأى (٢) والحيلة فإن احتيج إلى المال فهو بين يديك .

ووهب دمشق للمعظم ، وكان يطلق عشرة آلاف دينار وعشرين ألف دينار ، ومدحه

القاضى الفاضل بقوله (٣) :

(١) انظر : مفرج الكروب ٨٤/٣ .

(٢) انظر : مفرج الكروب ٨٤/٣ .

(٣) انظر : ديوان القاضى الفاضل ١٨٩/١ .

الحسن جاد على الأحاب فزادوا
 فيهن من شبه الغزلان أربعة :
 وقد بكت لضنى المشاق أربعة :
 همى بهم زائد ، زادته أربعة :
 وكيف يُبقى على العينين أربعة :
 هبهات يصدق منك الظن أربعة :
 له من الكواكب الدرى أربعة :
 له إذا ملّ سيف المدح أربعة :
 ولى من الدهر عما رمت أربعة :
 ولى عن السعى فى المرجو أربعة :
 وللعزيز من الملوك أربعة :
 تجمعت فى مديحى فيه أربعة :
 جواب راوى ثنائى فيه أربعة :
 أيامنا والليالى فيه أربعة :
 فلم يطف باعتقاد الخلق أربعة :
 الأمن فى الأرض ما سلكت أربعة :
 ما دون منقطع فى الأرض أربعة :
 تحمى به من بلاد الله أربعة :
 إن يبق فيها بقايا فهى أربعة :
 يدبر ، الملك من عثمان أربعة :
 يثنى عليه من الأوقات أربعة :
 تتدى بجودك عام المحل أربعة :
 وفيه من صادقات السحب أربعة :
 وأوصاف إنعامه الموصوف أربعة :
 أعطى العزيز عزيز النصر أربعة :
 ونشرت عزمه بالنصر أربعة :
 به لنار العدا فى الحرب أربعة :

لكن أحبائنا فى الحسن ما جادوا
 نفر وطيب ، وأحداق ، وأجباد
 طب ، وفرش ، وسمار ، وعواد
 ينمى ، ويهمى ، ويستشرى ، ويزداد
 عدأ ، ودمع ، وإطراق ، وتسهاد
 عهد ، وود ، وأقوال ، وميعاد
 نشر ، وشكر ، وإصدار ، وإيراد
 غيظ ، ووثب ، وإيقاد ، وإزياد
 كد ورد ، وأقصاء ، وأقصاد
 بأس ، وبأس ، وإخلال ، وإخلاد
 قلب ، ونطق ، وأخلاق ، وإحماد
 سبك ، ونظم ، وإنشاء ، وإنشاد
 نسخ ، ودرس ، وتكرير ، وإيراد
 فعل ، وأنس ، وأعراس ، وأعياد
 نصب ، ورفض ، وإشراك ، وإلحاد
 بو ، وبحر ، وأغوار ، وأنجاد
 ليث ، وذئب ، وقطاع ، ومراد
 مصر ، وشام ، وخراسان ، وبنفاد
 تتأى فتفتح تستعصى فتتقاد
 حزم ، وعزم ، وأفكار ، وأرصاد
 يوم ، وشهر ، وأعوام ، وآباد
 أفق ، وأرض ، وأنفاس ، وأكباد
 فيض ، وسيل ، وإبراق وإرعاد
 سار ، وثاو ، ومنقص ، ومعتاد
 عدل ، وبأس ، وإرفاق ، وإرفاد
 سعى ، وسعد ، ورايات ، وأعواد
 رفع ، وخفض ، وإطفاء ، وإيقاد

رفع ، وخفض ، وإطفاء ، وإيقاد
 رقى ، وجند ، وأنصار ، وأعضاء
 لطف ، وعطف ، وتشريف ، وإرشاد
 راء ، وراو ، ومداح ، وأشهاد
 راضو ، وراج ، وقوام وسجاد
 كنز ، وحرز ، وأبراك ، وأمداد
 هم ، وغم ، وأوجال ، وأنكاد
 ضعفى ، ولهفى ، ورواد ، ووراد
 قتلى ، وأسرى ، وهراب ، وحياد
 هام ، وأيد ، وأسواف ، وأغماد
 بيض ، وسمر ، وأغلال ، وأصفاد
 سحب ، وروض ، وأقمار ، وأطواد
 نجل ، وصنو ، وآباء ، وأجداد
 بيض ، وسمر ، وأمجاد ، وأنجاد
 وثب ، وضخم ، وأعجال ، والتاد
 نطق ، وحوال ، وأرواح ، وأجساد
 أهل ، وصحب ، وأعداء ، وحساد

به لئار العدا فى الحرب أربعة :
 أما الملوك لمولانا فأربعة :
 هذا ، وفيك لهم بالحق أربعة :
 لك الرعية يوم العرض أربعة :
 كما هم بك فى دنياك أربعة :
 وعندهم من ندى نعماك أربعة :
 فما يصيبهم ما عشت أربعة :
 بأوى إلى بابك المفتوح أربعة :
 قلب عداتك فهى اليوم أربعة :
 تشقى بمساعدك المسعود أربعة :
 وحكمت بك فى الكفار أربعة :
 لله فى الأرض من ذا البيت أربعة :
 توارثت بك ملك الأرض أربعة :
 سيما رجال بنى أيوب أربعة :
 وفيهم من خلال الأسد أربعة :
 يا من يحدث عن جدواه أربعة :
 يسرنى ، ويسوء القوم أربعة :

ولما مات العزيز فجعت به الرعية فجعة عظيمة ، وقال ابن الساعى يريه :

فسلم على الدنيا سلام مودع

وسار مسير الشمس فى كل موقع
 وأجراً من لئث العرين وأشجع
 لديه ولا الحبر الخطيب بمصقع
 وما لها من فرقة وتجمع

خلا الأست من ذاك الجناب الممنع
 ومنها :

مضى بعد ما عمت سراياه والندى
 فجعنا بأندى من بنان سحابة
 هو الخطب لا المرء الفصيح بمدرة
 ثوى الجود والملك الرحيم بحفرة

آخرها :

برأى جميع أو بقلب مشيع

فن ذا برد الخطب تدمى شباته

ورثاه آخر بقصيدة منها :

دين لن ترانى سـالـ

بعد فقد الملك العزيز عما الـ

ولاكبه لولها كاللـالى

كان جيد الزمان حال فأضحى

وكتب الفاضل إلى العادل يعزیه : أدام الله تعالى أيام مولانا الملك العادل ، وفدت

النفوس نفسه الكريمة ، وأحياء الله حياة طيبة ، يقف فيها المواقف الجسيمة ، وينقلب

عنها بالأمر السالمة ، والعواقب السليمة ، ولا نقص الله له عدداً ولا عدداً ، ولا أعدمه نفساً

ولا ولداً ، ولا كدر له مشرباً ولا مورداً ، وأعظم أجره فى ولده العزيز .

رحم الله ذلك الوجه ونضره ، وإلى سبيل الجنة يسره ، وكتب فيها :

فعلما البلى عن وجهه الحسن

وإذا محاسن وجهه بليت

وكانت مدة مرضه بعد عوده من الفيوم اسبوعين ، وأحزن القلب ، وأبكى العين ،

ودفن بجوار الإمام الشافعى ، وخلف من الأولاد : المنصور محمد ، ونصر على ولايته ، وهو

القائم بعده . على ، عمر ، إبراهيم ، عيسى ، محمود ، فرخشاه ، يوسف ، يونس ، اخوان

صغيران ، ثلاث إناث .

ومنهم الملك المؤيد

مسعود بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك المؤيد نجم الدين ، ابن الملك الناصر ،

ولد بدمشق سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، وهو شقيق الظاهر ، أرسله الظاهر إلى

(٦٨ ب) عمه العادل لما نزل على منجار يشفع فى السنجارية ، فمات فى تلك السفرة .

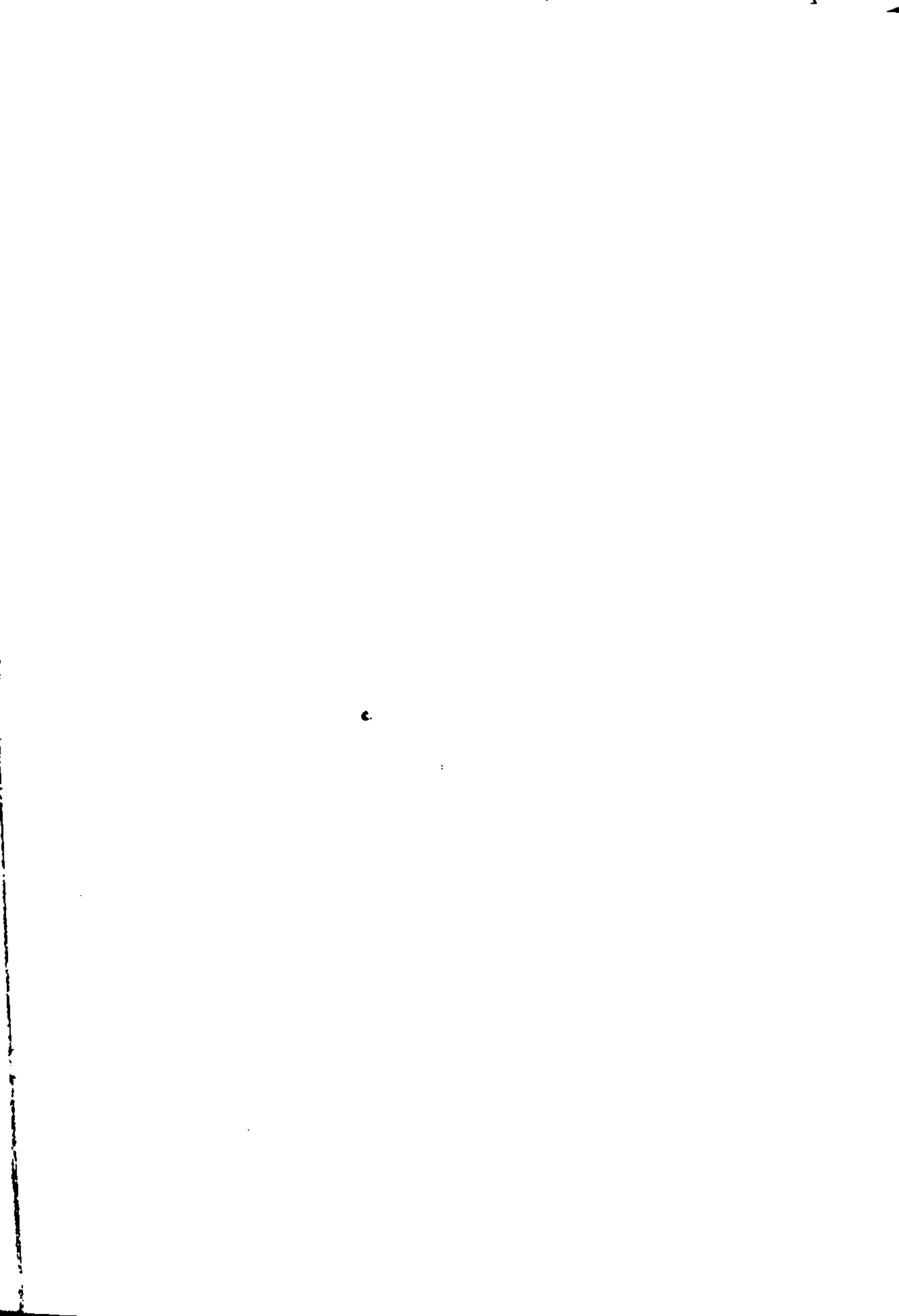
فجىء به رأس عين ، وحمل إلى حلب فدفن بها ، ووفاته سنة ست وستمائة ، وقال ابن

الحلى يريه من قصيد (١)

وفوق نحو الملك سهماً مسددا ؟
ومد إلى تشتيت شمل الهدى بدا
وطار إلى أن جاز نسرأ وفرقدا ؟
ومن غيض البحر الذى كان مزبدا ؟
إذا عم جـدب لا تغب له بدا

تُرى من على نفس العفلا جار واعتدى
ومن هد ركن المجد بعد بنائه ؟
ومن دكدك الطود الأشم وقد رسا
ومن حجب البدر الذى كان مشرقاً
ومن حبس الغيث الذى كان نووه

(١) انظر : مفرج الكروب ١٩٨/٣ ، تاريخ ابن الفرات ٩٧/١ .



الطبقة الرابعة

فمنهم الملك المنصور^(١)

إبراهيم بن شيركوه بن محمد بن شاذى ، الملك المنصور ، ناصر الدين ، ابن المجاهد ، ابن القاهر ، ابن المنصور ، صاحب حمص ، وليها بعد وفاة والده فى عشرين رجب سنة سبع وثلاثين وستمائة . كان ملكاً شجاعاً ، على الهمة ، وافر الهيبة ، له أثر عظيم فى هزيمة جلال الدين خوارزم شاه . كان موافقاً للصالح إسماعيل ، ثم لفته عنه الصالح أيوب ، وكسر الخوارزمية بالشرق مرتين ، وأضعف أمرهم ، لا سيما فى سنة أربعين ، فإنه سار بجيش آمد ، واجتمع بمسكر الروم ، فصادف إغارة التتر على خرتبرت^(٢) فخافهم وساق وقصد الخوارزمية ، وهم مع المظفر غازى ، ومعه خلق لا يحصون من ديوان فمن جيد شعر^(٣) .

-
- (١) انظر : شذرات الذهب ٢٢٩/٥ ، الوافى بالوفيات ٢٠/٦ ، المختصر فى أخبار البشر ١٧٦/٣ ، النجوم الزاهرة ٣٥٦/٦ ، البداية والنهاية ١٧٢/١٣ ، مرآة الزمان ٧٦٤/٨ ، وفيات الأعيان ١٧٥/٢ .
- (٢) بالفتح والسكون وفتح التاء المثناة وباء موحدة مكسورة وراء ساكنة وتاء مثناه من فوقها . اسم أرمنى وهو الحصن المعروف بحصن زياد الذى لجمىء فى أخبار بنى حمدان فى أقصى ديار بكر من بلاد الروم بينه وبين ملطية مسيرة يمين . انظر . معجم البلدان ٤١٥/٣ .
- (٣) وردت هذه الأبيات فى مفرج الكروبي ٢٨٦/٤ ، وديوانه ٢٨٥ .

هي عنى الحمى ، وأهل المصلى
كان أغلى الأوقات فى النفس قدراً

ومنها :

هل إلى ذلك الزمان سبيل
بت والبرق لا أمل دموعى
مستهماً ألقى الغرام بجسم
ذا عليل من حرقه البين والهجو
أبها الناظمون هذا قريض
يتمشى على السماك افتخاراً
ويفرض إلى من ليس يدري
بقريض إذا كسا الشعر عزا
ما تسمى فى حلبة الشعر يوماً

ومنه (١) :

لكم فى فؤادى شاهد ليس يكذب
ولى شهود الوجد خد مخد
ولى بالرسوم الخرس من بعد أهلها
وان عن ذكر الراحلين عن الحمى
فريع أناجيه ، وقد ظل خالياً

ومنها :

حنين إذا جد الرحيل رأيتـه
وشوق إلى أهل الديار يحثـه
وما مزنة أرخت على الدار ويلها
باغزر من دمعى وقد أخفر السرى

زماناً بالرقمتين تولى
فتلاشى زمانه واضمحلا (٩٠ أ)

وضلال أن تقتضى الشوق هلا ؟
عند إمضائه ولا البرق ملا
منذ أبلاه هجركم ما أبلا
ر بغير الترابكم لن يبلا
دق فى صنعه القريض وجلا
ثم يضحى منه عليكم مطلاً
صنعة الشعر أن يكون مدلاً
قالليه كساه هونا وذلاً
سابقاً ، لا ولا استحث فصلى

ومن دمع عينى صامت وهو معرب
وقلب على نار الغرام يقلب
غرام عليه ما أزال أؤنب
وقفت فلا أدري إلى أين أذهب
ودمع أعانيه وقد بات يسكب

بنطسى فى إثر الظمان يلعب
غرام إلى العذرى يعزى وينسب
ففى كل أرض جدول ينسب
وأمت نياق الطاعنين تغرب

(١) وردت هذه الأبيات فى ديوانه ٢٨٦ .

ومنه دوبيت (١) :

ما أغفلني فيه وما أنساني
بأعمر فهل بعدك عمر ثاني

كم يذهب هذا العمر في الخسران
ضربت زماني كله في لعب
ومنه دوبيت أيضا (٢) :

كي تجتمع الأرواح بالأبدان
هذا غلط عمري قصير فاني

يا ليتهم عادوا إلى الأوطان
كم رام بي العذول عنهم بدلا

وكان يجيز الجوائز السنية على المدح ، ومدحه جماعة منهم ابن عنين فقال (٣) :

مضيت قدما وظلت الرواة ورا
من العواصم طام يقذف الدرا
فيه فباتت تهاى الشمس والقمر
ماروت ما نهيا فيه ولا أمرا
فلم تكن لحسود في علاه مرا

لما تخبرني أروى قصائده
فاعجب لبحر غدا في رأس شاهقة
شعرتت الشعرى لشركتها
سحر ولكن هاروتا وصاحبه
كم قمت في مجلس السادات أنشده

وكان المعظم (٤) يحبه ويحترمه ويقبل يده ، وكان يتعذر على الكامل والأشرف والمعظم ،
وكان في قلب شيركوه صاحب حمص عليه أحقاد قديمة كما يكون بين الأهل ، فلما

(١) الديوان ٣٩٥ ، مرآة الزمان ٦٦٦/٨ ، البداية والنهاية ١٣٢/١٣ ، النجوم الزاهرة ٢٧٥/٦ ، الدارس
١٧٠/١ .

(٢) الديوان ٣٩٥ ، مرآة الزمان ٦٦٦/٨ .

(٣) ديوان ابن عنين ٥٨ .

(٤) المقصود هو المعظم عيسى بن أبي بكر صاحب دمشق .

مات المعظم ثارت الأحقاد الخفية ، وحاصره الأشرف تسعة أشهر ، وساعده عليه شيركوه
فملكها الأشرف وسلمها لأخيه الصالح (اسماعيل)^(١) وذلك في سنة سبع وعشرين ،
ومدة ملكه بيملكك تسع وأربعون سنة ، وقيل : خمسون . وعوضه الزيداني^(٢) وقصير
دمشق^(٣) ومواضع آخر وأقام الأمجد بداره بدمشق المعرفة بدار السعادة ، فاتفق أنه سرقت
له حياصة^(٤) ودواة نساى مائة دينار فاتهم بعض مماليكه ، وأخذ وحبس في مرقده^(٥) ،
وهدد بقطع اليد ، فلما كانت ليلة الأربعاء ثانی عشر شوال سنة سبع ، وقيل : ثمان
وعشرين وستمائة ، جلس على عادته تجاه الخزانة التي فيها المملوك ، عنده عباس وابن
فهد^(٦) اليهودى ، وبيده الاسطراب ، وكان يلعب مع عباس بالنرد ، فقال وابن فهد :
هذه ساعة سعيدة لو أردت فيها أخذ دمشق أخذتها . فقال : لا تكلمنى قد تعين لى القلب
وكان مع المملوك سكين صغيرة فعالج الباب وهجم على الأمجد وأخذ سيفه ، فضربه به ،
فصاح ، ثم ضربه أخرى ، فقطع يده ، ثم طعنه فى خاصرته ، ثم انهزم فصعد السطح ،
ورمى بنفسه فمات ، قيل : إن الغلمان قطعوه ، والجزاء من جنس العمل .
كان له ولد شاب مليح قتله : وقيل : خنقه ، وقيل : بنى عليه حائطاً ، سبق ذلك فى
ترجمة العزيز ابن العادل . دفن الأمجد بتربة والده عند الشرف (٩١ أ) الشمالى . رآه بعض
أصحابه فى النوم ، فقال : ما فعل الله بك ؟ فقال^(٧) :

(١) الإضافة من فوات الوفيات ١٥٠/١ .

(٢) الزيدانى : كورة مشهورة بين دمشق وحلب . انظر : معجم البلدان ١٣٠/٣ .

(٣) قصير دمشق : ضيعة أول منزل لمن يريد حمص من دمشق . انظر : معجم البلدان .

(٤) حياصة : حزام .

(٥) فى مفرج الكروب ٢٨٤/٤ (مرقدها بان الدار التي هو نازل بها) .

(٦) فى مرآة الزمان ٦٦٧/٨ (ابن فهدا) .

(٧) انظر : شذرات الذهب ١٢٦/٥ ، المدارس ١٧١/١ ، فوات الوفيات ١٥١/١ ، مرآة الزمان ٦٢٧/٨ .

زال على ذلك الرجل
عشت لما مت بها رجل

كنت من ذنبي على وجل
أمنت نفسي بوالقها

ومنهم أحمد بن عمر^(١)

ابن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي ، الأمير ابن الملك المظفر قتل في وقعة الرملة ، سنة ثلاث سبعين وخمسمائة ، وكان من أحسن الشباب ، أول ما قد تكاملت لحيته أمره أبوه بالحملة على الفرخ ، فحمل وقاتل ، وأثر فيه أثراً عظيماً . عاد فأمره أبوه بالعود إليهم ، فقتل شهيداً .

ومنهم الملك المنصور^(٢)

محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي ، الملك المنصور ابن الملك المظفر صاحب حماة . كان شجاعاً عالماً ، يحب العلماء ، ورد إليه منهم جماعة كبيرة مثل الشيخ سيف الدين الأمدى^(٣) ، وكان في خدمته قريب مائتي متعمم من النحاة والفقهاء

(١) انظر : كنز الدر ٦٣/٧ ، مفرج الكروب ٦٠/٢ ، ترويح القلوب ١٠٦ .

(٢) انظر : تاريخ ابن الوردي ٢٠٠/٢ ، البداية والنهاية ٩٣/١٣ ، النجوم الزاهرة ٢٥٠/٦ ، ذيل الروضتين ١٣٤ ، فوات الوفيات ٤٥٩/٤ ، وفيات الأعيان ١٢٩/٣ ، مفرج الكروب ٧٧ ، السلوك ٢٠٥/١ ، المختصر في أخبار البشر ١٢٥/٣ .

(٣) أبو الحسن علي بن محمد بن سالم ، المعروف سيف الدين الأمدى ، كان إماماً بارعاً لم يكن في زمانه من يجاربه في علم الكلام ، توفي سنة ٦٣٦ هـ . انظر . وفيات الأعيان ٤٥٥/٢ ، طبقات السبكي ١٢٩/٥ ، النجوم الزاهرة ٢٨٥/٦ ، ميزان الاعتدال ٤٣٩/١ .

وغيرهم ، وصنف عدة مصنفات مثل « المضمار » (١) في التاريخ ، وطبقات الشعراء ، (٢) وكان معنياً بحمارة بلده ، والنظر في مصالحه ، وهو الذي بنى الجسر عند حمص ، واستقر له بعد وفاة والده حماة والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم ، فلما فتح يارين أكرمه عمه العادل أن يردها على صاحبها ابن المقدم فعرضه عنها (قلعة) نجم ومنبج ، وجرت له خطوب مع الفرنج ، وكان ينظم الشعر ، واقتتل هو والفرنج على يارين في ثالث رمضان سنة تسع وتسعين (وخمسمائة) ، وقد اجتمعوا من حصن الأكراد وطرابلس ، فانهزم الفرنج ، وقتل وأسر ، وكان يوماً مشهوداً ، وفي ذلك يقول بهاء الدين أسعد السنجاري (٣) :

ما لذة العيش إلا صوت معمعة
يا أيها الملك المنصور تصبح فتى
اعزم ولا تترك الدنيا بلا ملك
يا أوحد العصر ، يا خير الملوك ومن
ينال فيها المنى بالبيض والأسل
لم يلوه عن وفاء كثرة العذل
وجد فالملك محتاج إلى رجل
فان البرية من جافٍ ومنتعلي

والله يقاتل قتاله ، وهي طويلة .

لم خرج الفرنج من حصن الأكراد والمرقب والساحل ، وأوقعوا مع المنصور ، وهو يارين ، بعد الوقعة الأولى بثمانية عشر يوماً ، فانتصر ثانياً وانهزم الفرنج هزيمة قبيحة ، وفيها يقول سالم بن سعادة الحمصي من قصيدة (٩١ ب) :

أمن اللواحق أن يفوق أسهما
فتانة للحظ بل فتاكة
أضحيت فيها مفرماً كمحمد
ريم برامة ما رمى حتى رمى
ما جار قاضيهن تحكما
لما غدا بالأريحية مفرماً

(١) هو كتاب مضمار الحقائق ، نشر جزء منه الدكتور حسن حبش (القاهرة ١٩٦٨) .

(٢) أسعد بن يحيى بن موسى السلمي السنجاري ، فقيه وشاعر ، ولد بأرسل سنة ٥٢٣ هـ ، توفي بسنجار

سنة ٦٢٢ هـ . انظر : وفيات الأعيان ١٩٣/١ ، البداية والنهاية ١١٠/٣ ، شذرات الذهب ١٠٤/٥ ،

ووردت هذه الأبيات في مفرج الكروب ١٤٤/٣ ، وابن الفرات المجلد الرابع ٢٥٣/٢ .

جيشاً حتى البحر الخضم حرمرها
ليلاً واطلعت الأهلة أنجماً

وسننت منتقما بساحل بحرهما
أسدلت في الآفاق من هبواته

ثم كانت بينه وبينهم هدنة في سنة ستمائة ، وقيل : إحدى وستمائة بعد أن أغاروا على حماة ، ووصلوا إلى قرية الرقيط^(١) وامتلات أيديهم من المكاسب ، وفي تلك السنة سار المنصور إلى مصر ، وكان عنده استشعار من الكامل ، فلما وصل إليه ، أحسن إليه إحساناً كثيراً ، وأقام في خدمته شهوراً ، ثم خلع عليه وعلى أصحابه ، ورد إلى حماة ، وتوفي في ذي القعدة سنة سبع عشرة ، وقيل : ست عشرة وستمائة . وكان مرضه إحدى وعشرين يوماً بحمى حادة ، وعمره خمسون سنة وشهور ، وملكه تسع وعشرون سنة ، فإنه ولي في سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، واستقر بعده ولده الناصر قليج أرسلان ، ولم يكن ولي عهده ، وإنما كان العهد للمظفر محمود ، وكان غائباً عند خاله الكامل بمصر .

ومنهم الملك المنصور^(٢)

محمد بن عثمان بن يوسف بن أيوب بن شاذي ، الملك المنصور ابن الملك العزيز بن الناصر ولد في جمادى الأولى سنة خمس ثمانين وخمسمائة . ولما مات أبوه في سنة خمس تسعين ، اتفق الأمراء وأقاموه ، وركب بشعار السلطنة بمصر يوم الثلاثاء ، ثاني عشرين محرم ، ولقب أولاً بالناصر ، ثم كره موافقة الخليفة في اللقب ، وكتب كتاباً إلى العادل يعزبه ويخبره ، ثم تحركت جماعة وقالوا : لا بد من مدبر ، فأشار الفاضل بعمه الأفضل ، فجاء متنكراً من العادل ، ثم وثب العادل على الأفضل وأقام بأتاكية

(١) هي ضيعة بالقرب من حماة . انظر : مفرج الكروب ١٦٣/٣ .

(٢) انظر : مفرج الكروب ٨٧/٣ ، السلوك ١٤٥/١ - ١٥٣ ، البداية والنهاية ١٨/١٣ ، ابن لياس

٧٤/١ ، النجوم الزاهرة ١٤٦/٦ . توفي سنة ٦٢٠ .

المنصور ، ثم جمع الفقهاء أفتوه بأنه لا يجوز ولاية الصغير ، فخلعه في شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة ، ثم أخرجه في سنة تسع وتسعين إلى حلب ، وقيل : بل حبسه بحران ، ثم أطلقه ، ورسم عليه ، فهرب إلى عمه الظاهر بحلب فأعطاه اقطاعاً ، قد تقدم شرح ذلك كل .

ومنهم على وعمر وإبراهيم وعيسى^(١)

ومحمود وفرخشاه ويوسف ويونس

وأخوان صغيران وثلاث إناث

أولاد عثمان بن يوسف بن أيوب بن شاذي ، الملك العزيز ابن الناصر .

ومنهم الملك العزيز^(٢)

محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب بن شاذي ، الملك العزيز غياث الدين ابن الملك الظاهر ابن الناصر ، صاحب حلب . ولد خامس ذي الحجة ، سنة عشر وستمائة ، من ضيفة خاتون بنت الملك العادل ابن أيوب ، واحتفل والده لمولده ، وصاغ له من الذهب والفضة طيوراً ووحوشاً على ما يمكن أن يعرف ، وعمل له عشرة مهود من الذهب والفضة سوى (ما عمل من) الأبنوس والعود والصندل . ونسج له ثلاث فرجيات^(٣) من اللؤلؤ ،

(١) ذكرهم صاحب كتاب ترويح القلوب ص ٩٠ ، ولم يذكر سنوات وفاتهم .

(٢) انظر : ذيل الروضتين ١٦٥ ، الحوادث الجامعة ٩٦ ، مرآة الزمان ٧٠٣/٨ ، الوافي بالوفيات

٣٠٦/٤ ، السلوك ٢٥٣/١ ، أبو الفداء ١٥٨/٣ ، ابن الوردي ٢٣/٢ ، البداية والنهاية ١٤٥/١٢ .

شذرات ١٦٨/٥ ، النجوم الزاهرة ٢٩٧/٦ ، كنز الدرر ٣١٨/٧ .

(٣) جمع فرجية وهو ثوب فضفاض له كمان واسمان طويلان يتجاوزان قليلاً أطراف الأصابع . انظر

المعجم المفضل بأسماء الملابس ٣٦٥ .

في كل فرجية أربعون حبة من الياقوت والبلخش والزمرد^(١) ، وعمل له ثلاث سيوف غلفها وقبضاتها ذهب مرصع بالجواهر النفيس ، وثلاثة رماح ذهب أستها جواهر . ولما توفي أبوه ، سنة ثلاث عشرة ، عهد إليه وسنه ستان وأشهر وجعل طفريل الخادم أتابكه ، ولما ولي طمع كيكاورس^(٢) ملك الروم في الاستيلاء على حلب ، فاستدعى الأفضل ، وانفق معه على أن يفتح بلادها ، ويسلمها للأفضل ، ثم يفتح البلاد الشرقية التي بيد الأشرف ويتسلمها كيكاورس ، فسارا وأخذوا رعبان وتسلمها الأفضل ، فمالت قلوب أهل البلاد لذلك ، ثم فتح تل باشر ولم يسلمها للأفضل ، ففكر خاطر الأفضل أهل البلاد منه .

ووصل الأشرف ومعه مانع أمير العرب في جموع عظيمة ، وكان الرومي قد سار إلى منبج وتسلمها بنفسه أيضاً ، ونزل الأفضل وادي بزاعة ، وأيقع بعض عسكر الأشرف بمقدمة عسكر الرومي ، فانهزمت ، وأخذ منها أسرى ، وأرسلوا إلى حلب ، ودقت البشائر ، ولما بلغ ذلك كيكاورس . وهو بمنبج ولي منهزماً ، وتبعه الأشرف يتخطف أطراف عسكره ، ثم حاصر تل باشر واسترجعها كذا رعبان ، وذلك في سنة خمس عشرة . وفي سنة تسع وعشرين فك العزیز الحجر عن نفسه واستقل بالأمر . وكان حسن الصورة ، كريماً عفيفاً ، حسن السيرة ، وحكى الحلبيون أن أحواله تغيرت ، خرج في سنة أربع وثلاثين إلى حارم للصيد ، واغتسل بماء يارد فحم ، ودخل حلب ، وقد اشتد به المرض ، فتوفي في ربيع الأول عن ثلاث وعشرين سنة وشهور ، ومدة ملكه قريب العشرين سنة ، رتب بعده ولده الناصر يسف ، وله من العمر نحو سبع سنين ، وأخبار العزیز مفرقة .

(١) البلخش جواهر أحمر شفاف يضاهي فائق الياقوت في اللون والرونق . انظر . نخب الذخائر في أحوال الجواهر لابن الأکفانی .

(٢) كيكاورس بن كيخسرو بن قلع أرسلان صاحب الروم . كان جباراً ظالماً سفاكاً للدماء ، توفي سنة ٦١٥ هـ . النجوم الزاهرة ٦/٢٢٣ .

ومنهم الملك الصالح^(١)

أحمد بن غازي بن يوسف بن أيوب بن شاذي ، الملك الصالح صلاح الدين ابن الظاهر ابن الناصر . مولده (٩٢٠ ب) سنة إحدى وستمئة عهد إليه أبوه بالسلطنة بعد أخيه الصغير العزيز محمد ، فوض إلى الأتابك طغريل - مدير حلب - الشفر وبكاس في سنة تسع عشرة ، فسار من حلب وملكهما ، وأضاف إليه الروج^(٢) ومعرة مصرين ، ثم انتزع الشفر وبكاس في سنة أربع وعشرين ، وعوضه عينتاب^(٣) والراوندان^(٤) .

ومنهم الملك الناصر^(٥)

يوسف بن غازي بن يوسف بن أيوب بن شاذي ، الملك الناصر صلاح الدين بن الظاهر بن الناصر ، ولد سنة تسعين وخمسمئة ، فقال الرشيد النابلسي يهنئ والده من قصيدة :

أضاء لك الأقبال اتسق السعد
وجاءت لك الدنيا بما أنت أهله
تأرج عرف الدهر لا الزهر عندما
وأصبح قلب الوفد ولهان خائلاً
وأجز ما كنت أملت له الوعد
فجد لك الأقبال واقتبل الجد
تبلج وجه الجو وابتمم المجد
ويشر وفداً بالفنى والمنى وفد

(١) انظر : السلوك ٣٨٩/١ ، الوافى بالوفيات ٢٧٦/٧ ، والثابت أنه مات سنة ٦٥١ هـ ، وقيل سنة ٦٥٢ هـ .

(٢) بلدة صغيرة تقع غربى مدينة حلب . انظر . معجم البلدان ٧٦/٣ .

(٣) قلعة تقع بين مدينتى أنطاكية حلب . انظر . معجم البلدان ١٧٦/٤ .

(٤) قلعة صغيرة تقع قرب حلب . انظر . معجم البلدان ١٩/٣ .

(٥) له ترجمة فى مفرج الكروب ١٦٦/٣ .

ومنها :

وقمص أثواب الردى كل قومص
وصب على الأعداء سوط مذلة
فلو نام في أرض الفرنجة فارس

ومنها :

تباشرت الدنيا بمولد يوسف
له نجم منك أشرف زاهراً
كفلت برد الناصر الملك للورى
وما كانت الأيام تسخو بمثله
خلفت صلاح الدين بابك يا ابنه
وحدثنى يا سعد عنهم فزدتنى

ومنها :

ألا هكذا تسمو البدر بنورها
قدمت غياث الدين في قل دولة
تزين التهاني ما حبيت مبهواً

وأضحى كنوداً كل من اسمه كند
وأنافهم رغم وأوجههم ريد
لما كان إلا العبد رؤياه والقيد

فركب به يحدو وسفر به يشدو
فبات لبدر التم من وجده جد
وغادرتة حياً وقد ضمه لحد
فاعجزت حتى صار منك له تد
فقام مقام البحر منهمر عد
جنونا فزدنى من حديثك يا سعد (١)

ألا هكذا تفرمى بأشبالها الأسد
تدين لها شيب الممالك والمرد
منازل عز ملؤها المدح والحمد

ومنهم الملك الصالح (٢)

اسماعيل بن على بن يوسف بن شاذى ، الصالح بن الأفضل على . توفى سنة سبع
وللاثين وستمائة .

(١) انظر : ديوان العباس بن الأحنف ٥٨ .

(٢) له ترجمة في ترويح القلوب ٩٦ .

ومنهم أسد الدين (أرسلان)^(١)

ابن داود بن يوسف بن أيوب بن شاذي ، الأمير ابن الملك الزاهر ابن الناصر . قتل لما استولى التتر على حلب سنة ثمان وخمسين وستمائة .

ومنهم تاج الملوك^(٢)

ابن توران شاه بن يوسف بن أيوب بن شاذي ، تاج الملك ابن المعظم بن الناصر . توفي سنة ثمان وأربعين وستمائة .

ومنهم أبو بكر بن محمد^(٣)

ابن يوسف بن أيوب بن شاذي ، الأمير ابن الملك الأشرف ابن الناصر . ولد بمصر سنة سبع وتسعين (وخمسمائة) ونشأ بحلب ، وسمع من عمر وحنبل ، ودخل بغداد أيام المستنصر ، وسمع بها من أصحاب ابن الزاغوني كان أميراً جليلاً ، له حرمة وافرة . توفي بحلب سنة سبع وخمسين وستمائة وله ستون سنة .

ومنهم بنت أيوب^(٤)

ابن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، بنت الملك الأوحده ابن المعادل .

(١) له ترجمة في ترويح القلوب ٩٨ ، ذيل مرآة الزمان ٤٢٩/١ .

(٢) لم نثر له على ذكر وترجمة .

(٣) انظر : ترويح القلوب ٩٦ ، ذيل مرآة الزمان ٣٤٩/١ .

(٤) لم نثر له على ذكر أو ترجمة .

ومنهم الملك المغيث^(١)

عبد العزيز بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى . الملك المغيث ، شهاب الدين ابن المعظم بن العادل . توفى سنة تسع وأربعين وستمائة ببلاد الشرق ، له عدة أولاد منهم إسماعيل^(٢) .

ومنهم الملك الناصر^(٣)

داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك الناصر ، صلاح الدين ، أبو المظفر ، وكان يلقب أولاً بالحاكم ، ابن المعظم ابن العادل ، صاحب الكرك ، وهو أكبر أخوته .

ولد سنة ثلاث وستمائة ، لما مات أبوه استقر في السلطنة بدمشق ، وقام بأمره استاد دار أبيه^(٤) أيك المعظمى ، وأرسل إليه الكامل بالخلع ، وطلب الشوك ليجعلها خزانة له ، فلم يفعل الناصر ، فكان ذلك سبباً للوحشة بينهما ، فسار الكامل إلى الشام في سنة خمس وعشرين ، فانزعج الناصر ، وأرسل إلى عمه الأشرف ، وهو بالشرق ، فقدم الأشرف ودخل هو والناصر إلى القلعة راكبين ، ووصل إليها المجاهد صاحب حمص ، ثم وقع الاتفاق أن يسيرا إلى ناهلس ، فيقيم الناصر والمجاهد بها ، ويتوجه الأشرف إلى الكامل فيشفع في ابن

(١) له ذكر في ترويح القلوب ٧٤ ، ٧٦ .

(٢) اختلف في سنة وفاته ، ولكن الثابت سنة ٧١٤ هـ .

(٣) انظر : شذرات الذهب ٢٨٥/٥ ، ذيل الروضتين ٢٠٠ ، فوات الوفيات ٣١٢/١ ، ذيل مرآة الزمان ١٢٦/١ ، المختصر في أخبار البشر ١٩٥/٣ ، تاريخ ابن الوردي ٢٨٣/٢ ، السلوك ٤١٢/١ ، البداية النهاية ١٩٨/١٣ .

(٤) المشرف على المال وتحصيله . انظر صبح الأعشى ٤٥٧/٥ .

اخيها ، فلما وصل الأشرف إلى أخيه وقع اتفاقهما في الباطن على أخذ دمشق من الناصر وتعويضه عنها بحران والرها والرقه (٩٣ ب) وتكون دمشق للأشرف ، وخرجت سنة خمس وعشرين وهما بظاهر غزة ، فلما سمع الناصر ذلك رحل إلى دمشق ، وكان قد لحقه بالغور الأشرف ، وعرفه ما أمره به الكامل ، وأنه لا يمكن الخروج عن مرسومه ، فلم يلتفت الناصر ، وسار الأشرف في أثره وحصره بدمشق والكامل مشغول بالفرج ثم إنه سلم القدس في سنة ست وعشرين ، فأخذ الناصر ، وهو في الحصار ، في التشجيع على الكامل لذلك . ثم وصل الكامل دمشق جمادى الأولى ، واشتد الحصار فلما عجز الناصر ونفذ ما عنده من الذخائر ، خرج ليلاً من القلعة في نفر يسير ، وبلغ عمه مجيئه ، فخرج إليه وتلقاه ، وطيب قلبه وعاتبه ، وأمره بالعود ، فلما كان بعد يمين أرسل الكامل فخر الدين ابن الشيخ فصلى مع الناصر الجمعة في القلعة ، وخرجا ووقع الاتفاق والتحالف . وقرر للناصر الكرك والشوبك الصلت والبلقاء والأغوار ونابلس وأعمال القدس ، ونزل الناصر عن الشوبك سأل الكامل قبولها ، ثم رجع الناصر إلى قلعة دمشق وفتحت أبواب مستهل شعبان ودخل المصريون وحزن الدمشقيون حزناً عظيماً ، وتسلم الكامل القلعة سلمها للأشرف ، وتعوض البلاد الشرقية التي عينت أولاً للناصر ، وتسلم الناصر بلاده .

وفي سنة ثلاثين دخل الكامل الشرق ، واجتاز على الناصر بالكرك فعين له الاقامات والصيانات ، وحصل بينهما الاتحاد ، وزوجه بنته عاشوراء ، ثم حصلت له منه وحشة ، فألزمه بطلاق ابنته ، فخاف الناصر خوفاً عظيماً ، فتوجه إلى المستنصر لاكناً به وذلك سنة ثلاث وثلاثين ، وأمر الخليفة بتلقيبه ، وقدم إلى الخليفة جوهراً نفيساً فقبله ، وخلع عليه ، وأمر له بالاقامات ، ورجا أن يؤذن له كما أذن لمظفر الدين صاحب إربل فلم يأذن^(١) له ، فعمل قصيدة على وزن قصيدة أبي تمام التي فيها^(٢) :

(١) رد في ذيل مرآة الزمان ١٣٢/١ .

(٢) ورد في ديوان أبي تمام ٢٢١/١ .

لأمر عليهم أن تتم صدوره
وقصيدة الناصر (١) :

ودان المت بالكثير ذوائبه
وأقبل جه الأرض طلقاً وطالما
كساه الحيا وشينا من النبت فاخراً
كما عاد بالمستصر بن محمد
إمام تحلى الدين منه بماجد
ومنها :

لئن نوهت باسم الامام خلافه
فأنت الامام العدل والعرق الذى
جمعت شتيت الملك بعد افتراقه
ألا يا أمير المؤمنين ومن غدت
أبحسن فى شرع المعالى ودينها
بأنى أخبوض الدو والدو مقطر
وارتكب الهل المخوف مخاطراً
وقد رصد الأعداء لى كل مرصد
فتسمح لى بالمال والجاه بغيتى
وأتيك والعضب المهند مصلت
وأنزل آمالى بيباك راجياً
ويأتيك غبرى من بلاد قريبة
وما أغبر من جوب الفلا حر وجهه
فيلقى دنواً منك لم ألق مثله
وينظر من لألاء قدسك نظرة

وليس عليهم أن تتم عواقبه

وجنح الدجى وحف تجول غياهبه
غدا مكلفراً محشات جوانبه
فعاد قشيباً غوره وغواربه
نظام المعالى حين قلت كتابه
تحلت بأثار النهى مواكبه

ورفعت الزاكي النجار مناسبه
به شرفت أنسابه ومناصبه
وفرقت جمع المال فانها كائنه
على كاهل الجوزاء تعلو مراتبه
وأنت الذى تعزى إليه مذاهبه
سباريته مغيرة وسبابه (٢)
بنفسى ولا أعيا بما أنا راكبه
فكلهم نحوى تدب عقاربه
وما الجاه إلا بعض ما أنت واهبه
طيرير شباه قانيات ذوائبه
فواضل جاه يبهز النجم ثاقبه
له الأمن فيها صاحب لا يجانبه
ولا أنضيت بالسير فيها ركائبه
ويحظى وما أحظى بما أنا طالبه
فيرجع والنور الامامى صاحبه

(١) انظر : تاريخ ابن الوردي ١٦٣/٢ ، ثمرات الأوراق ٢٤ ، فوات الوفيات ٤٢٠/١ ، المختصر فى أخبار
البشر ١٥٧/٣ .

(٢) ورت الأبيات فى مرآة الزمان وفوات الوفيات .

ولو كان يعلو بنفس ورتبة
لكنت أسلى النفس عما ترومه
ولكنه مثلى ولو قلت إننى
وما أنا ممن يملأ المال عينه
ومنها :

وبى ظمماً رؤياك منهل ربه
ومنها :

وقد رضت مقصودى فتمت صدوره

وصدق ولاء لست فيه أصاقبه
ومكنت أذود العين عما تراقبه
أزيد عليه لم يعب ذاك عائبه
ولا بسوى التقريب تكضى مآربه

ولا غرو أن تصفو لوردى مشاربه

ومك أرجى أن تتم عواقبه

وكان الخليفة متوفقاً بسبب الكامل فجمع بين المصلحتين واستحضره ليلاً ، ثم عاد
الناصر (٩٤ ب) إلى الكرك .

وفى سنة سبع وثلاثين استنقذ الناصر القدس من الفرنج ، وكان بأيديهم منذ سلمه
إليهم الكامل سنة ست وعشرين ، وعمروا قلعة جملاً برج داود أحد أبوابها ، فتوجه الناصر
وحاصر هذه القلعة ، فسلمت إليه بالأمان فهدمها وهدم برج داود ، ومضى من كان
بالقدس إلى بلادهم ، فقال ابن مطروح (١) :

المسجد الأقصى له عادة
إذ غدا للكفر مستوطناً
فناصر طهره أولاً
سارت فصارت مثلاً سائراً
أن يبعث الله له ناصراً
وناصر طهره آخر (٢)

وجرت له أمور مع الصالح أيوب مذكورة فى ترجمته .

(١) هو الوزير أبو الحسن يحيى بن عيسى الملقب جمال الدين ابن مطروح ، كان وزير الملك الصالح أيوب ،
مات سنة ٦٤٩ هـ . انظر النجوم الزاهرة ٢٤/٧ ، وفيات الأعيان ٣٠٢/٥ .

(٢) ورد فى ديوان ابن مطروح ١٨٢ .

وفي سنة اربع وأربعين أرسل الصالح أيوب فخر الدين ابن الشيخ إلى بلاد الناصر ،
فخرب ضياع الكرك وقل ما عند الناصر ، فعمل الناصر قصيدة يعاتب فيها الصالح ،
وهي (١) :

ونهضت فيه نهضة المستأسد
وأطعت فيه مكارمي وتوددي
كُتبت على الفلك الأثير بعسجد
فأصير لعرضك للهبب المرصد
يعلو انتسابك كل ملك أصوب
أعراضكم بفرزنده المتوقد
بمنصل من لؤلؤ وزبرجد
خضعت لعزته جباه السجد
منى افتخاراً بالقريض المنشد
فالحاكمون بسمع وبمشهد
لرميت ثغرك بالعداء المرء
ندماً بجرعنى سمام الأسود
لنراك تفعل كل فعل أرشد
وترد شمل البيت غير مبدد (٩٥ أ)
للخارجين وضحة للحسد
يزهى بأمجد بعد آخر أمجد

قولاً لمن قاسمته ملك اليد
عاصيت فيه ذوى الحجى من أسرتي
يا قاطع الرحم التي صلتى بها
إن كنت تقدح فى صريح مناسبي
عسى أبوك ووالدى عم به
دع سيف مقولى البليغ يذب عن
فهو الذى قد صاغ تاج فخاركم
يا محرجى بالقول والله الذى
لولا مقال الهجر منك لما بدا
إن كنت قلت خلاف ما هو شيمتى
والله يابن العم لولا خيلتى
لكنتى ممن يخاف حزامه
فأراك ربك بالهدى ما ترتجى
لتعيد وجه الملك طلقاً ضاحكاً
كى لا ترى الأيام أنا فرصة
لا زال هذا البيت مرتفع البنا

وفي سنة سبع وأربعين سار الناصر (داود) من الكرك إلى حلب لما ضاقت عليه
الأمر مستجيراً بصاحبها الناصر (يوسف) وكان قد بقى عند الناصر داود من الجواهر ما
يزيد قيمته على مائة ألف دينار ، وقيل : خمسمائة ألف دينار ، فلما وصل إلى حلب سير
الجواهر المذكور إلى بغداد وأودعه عند الخليفة ، ووصل إليه خط الخليفة بتسليمه ، فلم
تقع عينه عليه بعد ذلك . ولما سار عن الكرك استتاب فيها ولده المعظم عيسى ، ولما رأى

(١) ورد فى النجوم الزاهرة ٢٣٦/٦ .

ولداه الأكبران الظاهر شاذى والأمجد مجد الدين حسن ميله إلى أخيهما غضبا وقبضا على المعظم ، وسار الأمجد إلى الصالح أيوب ، وكان بالمنصورة مريضاً ، وتولق من قضيته ، وطلب خبزاً^(١) بمصر ، وكان له بالصالح أنس لما كان معتقلاً بالكرك فأكرمه وأرسل إلى الكرك الطواشي بدر الدين الصوابي^(٢) نائباً ، ووصل أولاد الناصر القاهرة وأخواه القاهر والمغيث ونساؤه وأتباعه ، وأقطعوا اقطاعات جليلة ، وفرح الصالح فرحاً عظيماً ، ودقت البشائر مع ما هو فيه من المرض ، وكان تسلمه لها يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة .

وفى سنة ثمان وأربعين اعتقل الناصر - صاحب حلب - الناصر داود فى حمص ، وذلك أنه بلغه ما أوجب القبض عليه ، وسيره تحت الاحتياط إلى حمص ، وكان قد وعده وعوداً جميلة ، فلم ينجز له شيئاً منها ، فلما أيس منه طلب دستوراً ليمضى إلى بغداد ، فأعطاه ، فلما وصل القصير^(٣) قبض عليه مستهل شعبان ، ووصل حريمه وأولاده من مصر، لما اعتقل نظم قصيدة مطلعها^(٤) :

بمحقوق ما تطبدي الصدور وتكتم
وتخشى وأنت الحاكم المتحكم
وهل بسواه ينصف المتظلم
إلى من يمكنون السرار يعلم
كما يفعل المستنصر المتحرم

إلهى إلهى أنت أعلا وأعظم
وأنت الذى تُرجى لكل عظمة
إلى علمك العلى أشكو قلامتى
أهت جنابات المشيرة مُعلنا
أتيتهم مستنصراً متحرماً
ومنها :

رمننا بياك القول هو مرجم

فلما أيسنا نصرهم ونوالهم

بك النصر حتى يخذلوا ثم يهزموا

ومنها :
أغثنا أغثنا من عدانا يكن لنا

وبرك معلوم بنا فهو معلم

ومنها :
فنصرك مجعول لنا ومُعجل

(١) قطعة من الأرض .

(٢) وهو الأمير بدر الدين عبد الله الصوابي ، مات سنة ٦٩٨ هـ انظر . النجوم الزاهرة ١٣٨/٨ .

(٣) كورة صغيرة بين حمص ودمشق انظر معجم البلدان ٣٦٧/٤ .

ذكر أحواله بعد ذلك

وفي سنة إحدى وخمسين أفرج الناصر عن الناصر بشفاعة الخليفة ، وأمره ألا يسكن بلاده ، فرحل إلى جهة بغداد ، فلم يمكنه من الوصول إليها ، وطلب وديعته الجوهر ، فممنوعه إياها ، وكتب الناصر إلى ملوك الأطراف أنهم لا يأوروه ولا يميرووه ، فبقى الناصر داود في جهة عانة^(١) وحديثة^(٢) ، وضائق به الحال ، وانضم إليه جماعة من غزاة^(٣) ، فبقوا يرحلون وينزلون جميعاً ، ولما قوى عليهم الحر ، ولم يبق بالبرية عشب قصداً أزوار الفرات يقاسون بق الليل وهو اجر النهار ، وكان معه أولاده ، ولولده الظاهر شاذى فهد بتصيد به في النهار ما يزيد على عشرة غزلان ، وكان يمضى للناصر أيام لا يطعم غير الغزلان ، واتفق أن الأشرف^(٤) - صاحب الرحبة - بعث إليه مركبين دقيقاً شعيماً ، فأرسل الناصر يوسف يهدده . ثم إن الناصر داود قصد مكاناً للشرايية^(٥) واستجار به ، فرتب له الشرايى دون كفايته ، أذن له في النزول بالأنبار ، وبينها وبين بغداد ثلاثة أيام ، والناصر يتضرع إلى الخليفة ، فلا يجيب ضراعتة ، ويطلب وديعته فلا يرد لهفته ولا يجيبه إلا بالمماطلة والمطاوله وكانت مدة انتقاله في الصحارى ثلاثة أشهر ، ثم أرسل الخليفة يشفع فيه عند الناصر يوسف ، فأذن في العودة إلى دمشق ، ورتب له مائة ألف درهم على فاميهك^(٦) وغيرها ، فلم يتحصل له من ذلك إلا دون ثلاثين ألفاً .

-
- (١) مدينة تطل على نهر الفرات قرب حديثة انظر معجم البلدان ٧٢/٤ .
 (٢) تقع بالقرب من الأنبار وبها قلعة حصينة انظر معجم البلدان ٢٣٠/٢ .
 (٣) انظر : القلقشندى . نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب .
 (٤) هو الملك الأشرف موسى بن المعادل أبى بكر ، مات سنة ٦٣٥ هـ انظر . مرآة الزمان ٧١١/٨ ، فيات الأعيان ٣٣٠/٥ .
 (٥) هو شرف الدين إقبال الشرايى ، مات سنة ٦٥٣ هـ .
 (٦) مدينة تقع على سواحل حمص انظر معجم البلدان ٢٣٢/٤ .

ذكر طلب وديعته

في سنة ثلاث وخمسين طلب من الناصر يوسف دستوراً إلى العراق ، بسبب طلب وديعته من الخليفة ، وأن يمضى إلى الحج ، فأذن له ، فسار إلى كربلاء ثم مضى إلى الحج ، ولما رأى القبر الشريف تعلق بأستار الحجرة الشريفة بحضور الناس وقال : اشهدوا أن هذا مقامى من رسول الله ﷺ - داخلاً عليه ، مستشفعاً به ، إلى ابن عمه المستعصم فى أن يرد على وديعتى ، فأعظم الناس ذلك ، وجرت عبراتهم ، وارتفع بكأؤهم ، وكتب بصورة ما جرى مشروح ورفع إلى أمير الحجاج ، وتوجه الناصر مع الحاج العراقى (٩٦ أ) وقدم بغداد سنة أربع وخمسين ، فأرسل المستعصم من حاسب الناصر على ذلك فى ترداده إلى بغداد مثل اللحم والخبز والعليق ونحوه ، وثنى عليه ذلك بأغلى الأثمان ، وأرسل إليه شيئاً نزرأ وأكزمه أن يكتب خطة برد وديعته فكتب خطة كرهاً ، وسار عن بغداد ، وأقام مع العرب ثم أرسل إليه الناصر يوسف وطيب قلبه وحلف له ، فقدم دمشق ، وأقام بالصالحية .

وفى سنة خمس وخمسين استجار الناصر بهجم الدين البادرانى^(١) فى أن يتوجه صحبته إلى بغداد ، ويتصل بالناصر يوسف إلى تهيئته من ذلك ، فلم يتهياً له . وسار الناصر مع البادرانى إلى قرقيسيا فأخره بها ليشاور عليه ، فلم يؤذن له ، وطال مقامه ، فسار إلى البرية وقصد تيه بنى إسرائيل ، وأقام مع عرب تلك البلاد .

ذكر وفاته

ولما بلغ المغيـث فتح الدين عمر صاحب الكرك فصوله إلى التيه خشى منه ، فأرسل

(١) هو الإمام العلامة أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحسن البادرانى ، كان رسول عن الخليفة العباسى إلى ملوك الشام ومصر ، مات سنة ٦٥٥ هـ . انظر . النجوم الزاهرة ٥٧/٧ .

(٢) إضافة من ذهل مرآة الزمان ١٧٣/١ .

فقبض عليه ، وحمله إلى الشوك ، وأمر بحفر مطمورة ليحبه فيها ، وبقي الناصر ممسكاً والمطمورة تحفر قدامه ليحبس فيها ، فبينما هم على ذلك الحال ، إذ ورد رسول الخليفة يطلبه لما قصده التتر لتقدمه على بعض العساكر للتمنى التتر ، فلما ورد رسول الخليفة إلى دمشق جهزه الناصر يوسف إلى الكرك ، فوصل الرسول قبل أن تتم المطمورة ، فأخذه وسار إلى جهة الشام ، فبلغ الرسل استيلاء التتر على بغداد وقتل الخليفة ، فتركه الرسول ومضى لشأنه ، فسار الناصر إلى البويعاء ، قرية شرقي دمشق وأقام بها ، ولحق الناس في تلك المدة طاعون ، مات فيه الناصر ، ليلة السبت سادس عشرين جمادى الأولى ، سنة ست وخمسين وستمائة ، وخرج الناصر يوسف إلى البويعاء ، وأظهر عليه الحزن والتأسف ، ونقله فدفنه بترية والده المعظم .

وكان الناصر داود فاضلاً ناظماً ناشراً ، قرأ العلوم العقلية على الخسروشاهي^(١) تلميذ الامام (الرازي) .

قال جامعه : وذلك هو السبب في حصول ما قاساه من الشدائد وهيهات مع حرفة الأدب حصول الأرب :

لا غرو أن تجنى على فضائلي سبب احتراق المنذلي دخانه^(٢)
انتهى . وله أشعار جيدة تقدم ذكر بعضها ، شعره مدون ومنه^(٣) :

عيون عن السحر المبين تُبين لها عند تحريك القلوب سكون
تصول ببيض وهي سود فرنداها ذبول فتر والجلون جلون (٩٦ ب)

(١) هو الفقيه والمحدث عبد الحميد عيسى الخسروشاهي صاحب الفخر الرازي ، مكث عند الناصر داود عدة سنين ، ومات سنة ٦٥٢ هـ .

انظر : النجوم الزاهرة ٣٢٧/٧ ، طبقات الشافعية ٦/٥ ، فوات الوفيات ٢٢٧/٢ .

(٢) ورد البيت في وفيات الأعيان ١٣٧/١ .

(٣) وردت الأبيات في تاريخ ابن الوردي ٢٨٤/٢ ، ذيل مرآة الزمان ١٥٢/١ .

إذا ما رأيت قلباً خلباً من الهوى
وله (١) :

تقول له : كن مغرمًا فيكون

طرفي وكلبي قاتل وشهيد
أما وحبك لست أضمر ملوّة
منى بطيفك بعدما منع الكرى
ومن العجائب أن - قلبك لم يلب

ودمي على خديك منه شهود
عن صبيوتى ودع الفواد يبيد
عن ناظري البعد والتسهيد
لى والحديد ألابه داود

ومما كتب إلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام لما أغارت الفرنج على ناهلس أيام الصالح

فلم يقضها ربي لمولى لا يعل
أريب ليهب طيب المروع الأصل
فما بشرت يوماً بأنثى ولا فحل
أصيبت بما احتلت عليه من الحمل
تشد إلى الشدقميات بالرحل
لم أرفى الإسلام ما فيه من خل

ألابوت أمى أيم طول عمورها
وبالبيتها لما قضاهما لسيد
قضاهما من اللاتي خلقن عواقراً
وبالبيتها لما غدت بي حاملاً
وبالبيتى لما ولدت وأصبحت
لحكت بأسلافي فكنت ضجيعهم

ومنهم الملك القاهر^(٣)

عبد الملك بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك القاهر ، بهاء الدين بن
المعظم بن العادل . توفى سنة ست وسبعين وستمائة ، سببه أن القمر انكف كسوفاً كلياً
على زمن الظاهر بيبرس^(٤) وشاع بين الناس أن ذلك لموت جليل القدر ، فأراد الظاهر أن

(١) وردت الأبيات فى المختصر ١٩٦/٣ ، شذرات الذهب ٢٧٥/٥ .

(٢) وردت الأبيات فى المختصر ١٩٦/٣ ، تاريخ ابن الوردي ٢٨٢/٢ ، صبح الأعشى ١٧٥/٤ .

(٣) انظر : ذيل مرآة الزمان ٢٧٢/٣ ، النجوم الزاهرة ٢٧٨/٧ ، تاريخ ابن الوردي ١٥٢/٧ .

(٤) انظر : فوات الوفيات ٢٣٥/١ ، النجوم الزاهرة ٩٤/٧ .

يصرف عنه التأويل إلى غيره ، فاستدعى القاهر ، وكان يسكن البر ، وتزوج من العرب ، وأقام بينهم ، يسير حيث ساروا ، وينزل حيث نزلوا ، وإذا غزوا غزا معهم ، فحضر من الغزاة إلى دمشق ، فأحضره الظاهر ، وأمر الساقى أن يسقيه كأس قمز^(١) مسموماً ، فسقاه الكأس ، فمات ، وغلط الساقى لاصابة المقدور ، وملاً على أثر الكأس المذكور وأداره - والدائرات تدور فوق في نوبة الظاهر ، فشرهه فأحس بالنيران ، فكتم أمره عن الأطباء ، وأخفى حاله من الأحياء ، ومكث أياماً يشكو الليل والنهار ، توقد وهج النار ، ثم اضطر إلى اضطلاع الطبيب بعد استحكام دائه ، طمعاً في دوائه ، فلم ينفع العلاج (٩٧ أ) ولا نهض التدبير بإصلاح المزاج ، وتوفى في السنة المذكورة .

قال جامعه : ويشبه هذا أن أعداء المستنصر باطنوا الحكيم على قتمله فقصده بمبضع مسموم ، ثم جاء الطبيب إلى بيته فحصل له صداع ، فأمر بعض تلاميذه بقصده ، فقصده بذلك المبضع المسموم ، وقريب منه أن المتوكل سمع به سيف في اليمن ، فبعث (من) اشتراه بعشرة آلاف دينار ، وأعطاه بعض مماليكه ، فقتله ذلك المملوك بذلك السيف ، فأعجب لشخص اتباع موته بماله ، واجتهد في تحصيل منيته بجاهه ورجاله ، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه ، والجادع مارن أنفه بكفه .

إذا لم يكن عون من الله للفتى
فأكثر ما ينجى عليه اجتهاده

وقال جامعه أيضاً : علم بالاستقراء أن من اسمه القاهر لا يفلح وذلك لمشاركة الباري تعالى في الصفة التي لا تليق لإله ، انتهى .

وأم القاهر تركية ، وخلف أولاداً ذكوراً وعدة بنات ، منهم زوجة خوارزم شاه ولم يتفق حملها إليه .

(١) نوع من الخمر .

ومنهم ولد صغير للمعظم عيسى^(١)

ابن العادل بن أبي بكر بن أيوب شاذى مات فى حياته ، ومنهن تسع بنات ، وقيل :
إحدى عشرة للمعظم عيسى بن العادل بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى .

ومنهم الظاهر أيوب^(٢)

ابن عثمان بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك الظاهر ، نجم الدين ابن العزيز ابن
العادل ، ولى الصببية بعد وفاة أبيه سنة ثلاثين وستمئة ، ثم توفى فى سنة .

ومنهم الملك السعيد^(٣)

(حسن) بن عثمان بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك السعيد بن العزيز بن
العادل . ملك الصببية بعد موت أخيه أيوب فى سنة ثلاثين وستمئة وهب الصببية للصالح
أيوب ، وصار فى خدمته ، فلما توفى الصالح ، رحل من مصر ، ومر على غزة وأخذ ما
فيها من المال ، وذلك سنة ثمان وأربعين ، وتسلم الصببية ، فلما ملك التتر الشام سنة ثمان
 وخمسين (وستمئة) سلمها إليهم وصار معهم ، وأعلن بالفسق سفك الدماء ، ولم يزل
معهم حتى هزمهم المظفر قطز^(٤) وأحضر السعيد بين يديه ، فضربت عنقه فى سنة ثمان
 وخمسين وستمئة .

(١) لم نشره على ذكر أو ترجمة .

(٢) لم نشره على ذكر أو ترجمة .

(٣) انظر : البداية والنهاية ٢٢٥/١٣ ، شذرات الذهب ٢٩٢/٥ ، ترويح القلوب ٧١ ، النجوم الزاهرة

٩٢/٧ .

(٤) من ممالك المزمأليك ، قتل سنة ٦٥٨ هـ . انظر النجوم الزاهرة ٩٢/٧ .

ومنهم ملكة خاتون^(١)

بنت موسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، بنت الملك الأشرف ابن العادل ، أوصى لها أبوها بجميع الجواهر ، ووقف عليها « دار السعادة » و « بستان النيرب » وتزوجها ابن عمها الجواد يونس بن ممدود ابن العادل ، ثم طلقها وتزوجها ابن عمها المنصور ابن الصالح^(٢) اسماعيل ابن العادل ، هي أم ولديه ، وهي التي ألبت ناصر الدين المقدسي^(٣) سفها في دولة المنصور قلاوون^(٤) توفيت يوم السبت عاشر (٩٧ ب) شعبان سنة اربع وتسعين ستائة .

ومنهم الملك المسعود^(٥)

يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، الملك المسعود المعروف بأقسيس ، الملقب أطرز ، وهو اسم تركي ، صاحب اليمن ، ابن الكامل ابن العادل ، ملك اليمن سنة اثنتي عشرة ، وذلك أن اليمن لما ملكها المعظم سليمان بن شاهنشاه بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب . ملأها ظلماً وجوراً ، فأرسله الكامل وصحبته من الجند ألف ومن الرماة خمسمائة ، وكان العادل قد رتب أولاده في كل اقليم ، وقصد أن يسير ولده الفائز ابراهيم إلى اليمن ، فقال الصاحب بن شكر للكامل : مصر لك ، وينبغي أن تكون اليمن لك ظهراً ، والفائز اخوك كريم ، فاركب إليه وسأله أن يكون ولدك المسعود نائبه بها ، ففعل

(١) انظر : البداية والنهاية ٣٤٢/١٣ .

(٢) هو المنصور محمد بن اسماعيل بن أبي بكر ، مات بدمشق سنة ٦٨٨ هـ .

(٣) انظر : الدارس ٢٧٠/١ .

(٤) هو قلاوون بن عبد الله السابع من ملوك الترك بالديار المصرية ، مات سنة ٦٨٩ هـ .

(٥) انظر : فوات الوفيات ٢٠٣/٣ ، النجوم الزاهرة ٢٩٢/٧ ، السلوك ٦٦٣/١ .

الكامل ، وأجابه الفائز ، ودخل المسعود مكة ثالث ذى الحجة ، سنة إحدى عشرة (وستمائة) ، وحج ، وخطب له بمكة ، ونشر على الناس ألف دينار ، وحمل إلى أمير مكة ألف دينار ، وقماشاً بألف دينار ، وأقام بمكة ستة أشهر ، ووصل الخبر إلى المعظم فهرب من زيد ، ودخلها المسعود أول يوم من محرم ، سنة اثني عشرة بغير قتال ، وقيل : بل ملكها سنة إحدى عشرة ، فقال بعض الشعراء من قصيد :

لوهتك الفتح يا ذا الفضل والمنن
فالأَن من لفظ مسعود ومن يمن
بشارة الملك قد جاءت من اليمن
فالسعد واليمن مقروناً في قرن

وسلم له ثمانون حصناً ، ثم حاصر قلعة نغز^(١) ، وكان سليمان (قد) تحصن بها ، ففتحها واعتقل سليمان بالقلعة ، وقيل : بل بعث به إلى مصر .

وكان المسعود جباراً فاتكاً . قيل : إنه قتل باليمن ثمانمائة شريف . وحج بالناس من اليمن سنة تسع عشرة ، فجاء هو وأصحابه إلى الجبل ملبين ، ومنع عسكر الخليفة أن يتقدم ، وبقيت الكوسات^(٢) تضرب إلى الغروب ، وجرت منه في تلك السنة سقطات عظيمة ، قال بعضهم : رأيت قد صعد على قبة زمزم وهو يرمى الحمام بالبندق^(٣) . قال : ورأيت غلماناً بالمسمى يضربون الناس بالسيف في أرجلهم ، يقولون : اسعوا قليلاً قليلاً فإن السلطان نائم سكران ، والدم يجرى من سيقان الناس ، وعاد إلى اليمن ، ثم رجع إلى مكة سنة عشرين ، فقاتله صاحبها حسن بن قتادة ، فانتصر المسعود وملك مكة في ربيع الأول . وفي سنة إحدى وعشرين ، وقيل : ثلاث ، قدم على أبيه (٩٨ أ) في مصر ، وما جاء إلا طعاماً في الشام ، وكان معه من الهدايا شيء عظيم ، من جملة ذلك : ثلاثة أفيلة ، أحدهم كبير يدعى الملك ، عليه محفة تسع عشرة أنفوس ، خرج الكامل للقاته ، فلما رآه

(١) قلعة كبيرة في اليمن . انظر : معجم البلدان ٣٤/٢٠ .

(٢) صنوجات من النحاس . انظر : صبح الأعشى ٩/٤ .

(٣) كرات تصنع من الحجارة والطين والرصاص .

الفيلة وضعت رؤوسها على الأرض ، وكان في الهدية مائتا خادم ، وأحمال عود مسك
وتحف اليمن ، وفي ذلك يقول البهاء زهير^(١) :

وملك له تعلموا الملوك وسلطان
وأنتم له بين السماكين مكان

لكم أينما كنتم مكان وإمكان
ضربتم من العز المنيع سرادقا
ومنها :

وجئت مجرى الفيث والفيث هتان
ومثلك من شتاق لقياء بلدان
وحسبك قد وافاك يا نيل طوفان^(٢)

قدمت قدوم الليث ، والليث باسل
ما برحت مصر إليك مشوقة
فحسبك قد وافاك يا مصر يوسف

وفي سنة خمس وعشرين بلغه موت عمه المعظم ، فتجهز جهازاً لم يسبقه إليه أحد ،
ونادى : من أراد صحبة السلطان فليتجهز ، فجاء التجار من الهند بأموال الدنيا ، فلما
تكاملت المراكب بزويد ، جمع التجار وقال : اكتبوا لى بضاعتكم لأحميمها من الزكاة ،
فكتبها وصار يكتب برأس مال التجار إلى بعض بلاد اليمن ، فاستغاثوا ، وقالوا : نحن من
بلدان شتى ولنا مدة عن أهلنا ، فخذ أموالنا وأطلقنا ، فلم يلتفت إليهم ، فقيل : إن ثقله
كان في خمسمائة مركب ومعه ألف خادم ومائة قنطار عنبر وعود ومسك ومائة ألف ثوب
ومائة صندوق أموال ، فلما وصل بعض الطرق مرض مرضاً مزمناً ، وما وصل مكة حتى
بيست أعضاؤه ، ورأى في نفسه العبر ، وبعث لما احتضر إلى رجل مرهبى فقال : والله ما
أرضى لنفسي كفناً مما معى فتصدق على بكفن ، فبعث إليه نصفيتين ومائتى درهم . مات
سنة ست وعشرين وستمائة ودفن بالمعلى^(٣) وحكى : إن الهواء رد المراكب إلى زويد ،

(١) انظر : وفيات الأعيان ٨٦/٢ .

(٢) ورد في ديوان البهاء زهير ٣٣٠ .

(٣) قال ابن خلكان : ٨٤/٥ ، كان أوصى أنه لا يبنى على قبره شيء ، بل دفن فى جانب المعلى جبانة
مكة .

فأخذها أصحابها ، وسر والده بموته ولم يسأل خازن داره^(١) كيف مات ، بل قال : كم معك من المال ؟ وقيل : إنه مرض باليمن بكرة المقام بها ووصل الخبر إلى الده وهو في حصار دمشق فجلس للعزاء ، وكان المسعود ذا بأس وهيبة ، وكان أبوه يخاف منه على إخوته وكان سنة ستاً وعشرين سنة لأن مولده سنة ست مائة ، وملكه لليمن أربع عشرة سنة ، وخلف ولداً صغيراً فسماه الكامل باسمه ولقبه بلقبه المسعود يوسف (٩٨ ب) .

ومنهم الملك العادل^(٢)

أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، الملك العادل ، صاحب مصر ، ابن الصالح ابن الكامل ابن العادل ، وهو أصغر من أخيه الصالح ، وكان الصالح هو ولي العهد ، فبلغ أباه في سنة ست وعشرين ، لما سافر إلى الشرق ، أنه عزم على التغلب على الملك ، فنفر منه وأبعده إلى الشرق ، وعهد إلى العادل ، فقال في ذلك معين الدين :

أقام علينا منه نعم خليفة ولا عجب كون الخليفة في مصر
ولا غرو أيضاً أن يقيم محمد خليفة بين العباد أبا بكر

وتملك العادل مصر بعد أبيه في سنة خمس وثلاثين وله عشرون (سنة) فقال

البرهان ابن الفقيه نصر :

قل للذي خاف من مصر وقد أمنت ماذا تألم فيها وخيفته
إن كان قد مات عن مصر محمدًا فقد أقام أبا بكر خليفة

(١) الخازن دار : متولى الخزانة . صبح الأعشى : ٤٦٣/٥ .

(٢) ترجمته في السلوك ٣٢٧/١ ، كنز الدرر ٣٦٣/٧ ، مختصر أبي الفداء ١٧٦/٣ ، ابن الوردي

٢٥٥/٢ ، ترويح القلوب ٧٩ ، شذرات ٢٣٦/٥ .

ولما جلس في السلطنة حط المكوس ، ووسع على الناس في الأرزاق ، وزاد الاقطاعات ، وكان يعانى اللهو واللعب ، وقدم من لا يصلح ممن هو على طريقه ، ويعرض عن الأكاير ، فنفروا منه ، ومالوا إلى أخيه ، وكاتبوه ، فزحف إلى مصر ، فلما سمع العادل زحف إلى بلبيس في سنة سبع وثلاثين ، فبلغه أن الأمراء قصدوا القبض عليه ، وقرروا أن كل واحد من الأمراء يعمل دعوة ، فشرعوا في ذلك ، فحضر عند بعضهم ، فرأى ما أنكره ، فقام إلى الخلاء ، على أن يقضى حاجة ، فخرج من الخيمة لوقته ، وساق إلى القلعة ، وأبطأ ، فعلم الأمراء حاله ، فعادوا إليه ، فقال : ما عدت إلا لاخلق المقياس وأعود . وجرت أمور نذكرها في ترجمة أخيه . ثم قرب الصالح من مصر ، فخرج لانياً ، فوئبوا عليه واعتقلوه في خيمة وكتبوا إلى أخيه يستحثونه ، فقدم ملك مصر ، ثامن ذى الحجة سنة سبع وثلاثين ، وحبس العادل ثمانين ثم قتله ، فما عاش بعده إلا سنة وعشرة أشهر . وذلك أنه في خامس شوال سنة خمس وأربعين جهز أخاه مع نسائه إلى الشوبك ، فقال : إن أردتم قتلى في الشوبك فهنا أولى ، ولا أروح أهدأ ، فلامه الطواشي محسن ، فرماه العادل بداره ، فخرج وعرف الصالح ، فقال : دبر أمره (٩٩ أ) فأخذ ثلاثة ممالك ، ودخلوا عليه ليلة الاثنين ثاني عشر شوال ، سنة خمس وأربعين وستمائة ، فخنقه بوتر ، قيل : بشاش ، وعلق به ، وأظهر أنه شقق نفسه ، وأخرج جنازته مثل الغرباء ، ودفن بترية شمس الدولة . وعاش إحدى وثلاثين سنة ، ودولته سنتان وأيام ، أيامه أهام لهو وفرح ومكاسب كبيرة . وله من الأولاد المفيد عمر

ومنهم الملك الصالح^(١)

أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، الملك الصالح ، نجم الدين ابن

(١) انظر : شذرات الذهب ٢٣٧/٥ ، النجوم الزاهرة ٣٦١/٦ ، المقرئى ٢٣٦/٢ ، بدائع الزهور ٨٣/١ ،

تاريخ ابن الوردي ٢٦٠/٢ ، ذيل الروضتين ١٨٣ .

الكامل بن العادل صاحب مصر ، ولد بالقاهرة سنة ثلاث وستمائة وأمه جارية سوداء اسمها ورد المنى ، ونشأ بالقاهرة ، واستنابه أبوه على مصر سنة خمس وعشرين ، ثم انتقد عليه أموراً ، ومال إلى ولده العادل ، فلما استولى على حران والحصن وآمد وسنجار أرسله إليها .
وفي سنة أربع وثلاثين استأذن أباه في استخدام الخوارزمية ، عسكر جلال الدين خوارزم شاه ، فأذن له ، ثم خرجوا عن طاعته بعد وفاة أبيه ، في سنة خمس ثلاثين ، ونهبوا البلاد ، وسار لؤلؤ^(١) - صاحب الموصل - في هذه السنة وحاصر الصالح بسنجار ، حتى أشرف على أخذها ، فأخرج الصالح من السور القاضى السنجارى^(٢) ، وراح إلى الخوارزمية فوعدهم بذل لهم الرها وحران ، فعادوا إلى طاعته ، ودفعوا لؤلؤاً عن سنجار ، وقيل : كسروه ، فانهزم هزيمة قبيحة ، وغنم الصالح شيئاً كثيراً .

كان الجواد يونس بن ممدود ابن العادل بن أبى بكر بن أيوب بدمشق ، فضعف عن سلطتها ، وأرسل إليه العادل ابن الكامل لينتزع دمشق منه ويعرضه إقطاعاً بمصر ، فامتنع ، فأراد العادل القبض عليه ، فكاتب الصالح ، واتفق معه على أن يعطيه سنجار والرقعة وعانة بدمشق ، فسار الصالح وطلب نجدة من صاحب الموصل بعد أن صالحه ، فبعث إلى نجدة ، فوصل دمشق في جمادى الآخرة ، وقيل : غرة جمادى الأولى سنة ست وثلاثين ، ومعه المظفر - صاحب حماة - معاضداً له ، وكان قد لاقاه أثناء الطريق فزينت دمشق ، وتلقاه ابن عمه الجواد ، وحمل الغاشية ، واتفق أن سنجق^(٣) الصالح انكسر عند باب القلعة ، ثم تحول الجواد إلى دار السعادة ، فكان ملكه لدمشق عشرة أشهر ، ثم ندم وطلب جماعة واستمالهم ، فأتاه المظفر وعاتبه ، وضمن ما شرطه الصالح ، فخرج الجواد واجتمع الخلق على باب النصر يدعون عليه بسبونه ، وكان قد صادر الناس وضربهم .

(١) الملك الرحيم بدر الدين الأتابكى لؤلؤ بن عبد الله النورى ، مات سنة ٦٥٧ هـ . انظر النجوم الزاهرة

. ٧٠/٧

(٢) بدر الدين يوسف بن الحسن السنجارى المتوفى سنة ٦٦٣ هـ . النجوم الزاهرة ٢١٩/٧ .

(٣) السنجق : لفظ تركى يطلق فى الأصل على الرمح ، ثم أريد به الراية التى تربط به ، والجمع : سناجق .

صبح الأعشى ٥٠٨/٤ - ٤٥٦ .

يقال : إنه أخذ منهم ستمائة ألف درهم ، وأرسل إليه الصالح ليعطى الناس (٩٩ ب) أموالهم فما التفت ، وسار فتسلم بلاده ، فعند ذلك أخرج صاحب حمص سلمية ونقل أهلها إلى حمص أذى لصاحب حماة ، فلما مات صاحب حمص رد أهلها عمروها ، واتفق المظفر مع الخوارزمية ، ونازل حمص ، فبذل الجهاد للخوارزمية أموالاً ، فردهم ، وعرف المظفر فخاف منهم ، وعاد إلى حماة ، ثم تواترت كتب المظفر بقصد حمص ، فبرز إلى ثنية العقاب^(١) لقصد حمص ، ثم عاد إلى دمشق ، ووردت كتب ابن عمه الناصر داود بموازرتة بشرط أن تكون دمشق للناصر ، فأجابه ، ووردت عليه كتب المصريين تستدعيه وقدم عليه عمه الصالح إسماعيل من بعلبك ، فحلف له ، وعاد من يومه ، وانزعج العادل بمصر ، وسار الصالح إلى خربة اللصوص ، وعيد بها عيد الفطر ، وجاء الأمراء من مصر مقفزين ، فنزلوا غزة ، وكان مع الصالح عماء بحير الدين يعقوب تقي الدين سليمان ، استخلف بدمشق ولده المغيث عمر ، ولما لم يقع بين الناصر والصالح اتفاق ذهب إلى العادل بمصر ، فتلقاء العادل ، وعده دمشق ، سار الصالح نحو نابلس ، تواترت كتب الأمراء يستدعونه ، لأنه أميز من أخيه ، وأخلق للملك ، ومن كاتبه فخر الدين ابن الشيخ ، فعلم به العادل فحبسه ، واستعمل الصالح نوابه على الأعمال إلى العرش ، وقدم محيي الدين بن الجوزي ليصلح بين الأخوين ، وأرسل الصالح إلى عمه الصالح ليمضي معه إلى مصر ، فتعلل واعتذر ، سير إليه ولده المنصور ، ووعده في الهجاء ، وهو في الباطن عمال على أخذ دمشق .

ودخلت سنة سبع وثلاثين فبرز العادل إلى بلبس ، تردد ابن الجوزي في الإصلاح بينهما ، حتى تقارب ما بينهما لولا أن الصالح إسماعيل كان يكتب العادل بقوى عزمه ، ويقول : أنا أخذ دمشق نائباً لك ، ثم أرسل يطلب ولده المنصور ، ليستخلفه ببلبك . أما صاحب حماة فاشفق على الصالح أيوب ، وتحيل في إرسال عسكر إلى دمشق ليحفظها له ، فجهز نائبه ابن أبي علي ، ومعه من السلاح والمال شيء كثير ليصل إلى دمشق ، وأظهر

(١) مكان على مشرفة على غوطة دمشق . انظر : معجم البلدان ٨٥/٢ .

المظفر ابن أبي علي أنهما قد اختصما ، وأن ابن أبي علي قد غضب ، واجتمعت معه هذه الجماعة ، وقد قصدوا فراق حماة لأنه يريد أن يسلم حماة للفرنج ، كل ذلك خوفاً من شيركوه صاحب حمص ، وقوى المظفر الروم بأن استخدم جماعة من الفرنج بالقلعة ، وقوى خوف الرعية ، تبع ابن أبي علي خلق كبير ، وسار وراءه المظفر فلم تخف عن (١٠٠ أ) شيركوه الحيلة ، فلما نزل ابن أبي علي حمص تلقاه شيركوه ، وأظهر أنه مصدقه ، سأله الدخول ليضيفه ، فأخذ ابن أبي علي معه ، وأرسل من استدعى باقي أصحابه ، فمنهم من سمع فدخل ، ومنهم من هرب فسلم ، ثم قبض عليهم ، واعتقل الأكابر ومآدرهم ، حتى هلك بعضهم في الحبس ، وباعوا أملاكهم ، وأدوها في المصادرة ومات ابن أبي علي في السجن بعد أن قاسى شدايد ، وضعف أمر صاحب حماة ضعفاً كبيراً ، وبلغ الصالح سعى عمه في الباطن ، وكان له طبيب يثق به ، فأرسله إلى بعلبك ، ومعه حمام نابلس ليطلبه بأخبار الصالح اسماعيل ، وحال وصول الحكيم علم صاحب بعلبك فاستحضره وأكرمه ، وسرق الحمام التي لنابلس ، وجعل موضعها حمام بعلبك ، ولم يشعر الطبيب بذلك ، فصار الحكيم يكتب : أن عمك قد جمع وهو في نية قصد دمشق ، ويطلق الطير فتقعد ببعلك ، فيأخذ اسماعيل البطاقة ويكتب تزويراً على الحكيم أن عمك قد جمع ليعاضدك وهو واصل إليك ، ويسرح الحمام التي لنابلس ، فيعتمد ايوب على بطاقة الحكيم ويترك بقية الأخبار .

ذكر ملك الصالح اسماعيل دمشق

وما جرى للصالح أيوب

كان الصالح أيوب بنابلس ينتظر عمه ، فاغتم صاحب حمص غيبته ، وسار هو وصاحب بعلبك ، فصباحوا دمشق يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر سنة سبع وثلاثين وأخذت بلا قتال ، بل تسلق جماعة السور وكسروا باب الفراديس^(١) ، فدخلوا ، ثم قصدوا القلعة ،

(١) الفراديس : هي بلدة الروم البستان ، وهي أحد أبواب دمشق . نزهة الأنام في محاسن الشام ص ٢٥ .

وقاتلوا المغيث ثلاثة أيام ، فسلمت بالأمان ، ودخل الصالح اسماعيل القلعة وسجن المغيث إلى أن مات . فلما بلغ عسكر الصالح أيوب أخذ دمشق فارقه ، وترحل هو إلى بيسان ، وفسدت نيات من معه ، وعلموا أنهم لا ملجأ لهم ، وقالوا له حتى أعمامه : لا يمكننا المقام معك وأهلونا بدمشق ، فأذن لهم ، فرحلوا ، وهو ينظر إليهم ولم يبق إلا استاد داره وجماعة يسيرة ، فلما جنة الليل أمر ألا تُشعل الفوانيس ، ورحل في الليل ، ورد إلى جهة ناهلس ، فلما رحل من منزله اختلفت كلمة من بقى معه ، فأشار بعضهم بالتحصن بالشقيف ، فلم يره مصلحة ، وأشار بعضهم بالشرق ، فخاف أن يؤخذ لبعده المسافة ، وقال : ما أرى إلا أن التجئ إلى ابن عمي الناصر ، فتوجه إلى ناهلس ، فلما طلعت الشمس ورأى مماليكه ما هو عليه من القلة بكوا ، واعترضتهم جماعة من العرب ، فقاتلهم وانتصر عليهم أما الناصر داود فإن العادل استوحش منه فرد إلى الكرك ، فوافق ما ثم على الصالح فوعده النصر (١٠٠ ب) وأشار عليه بالنزول بدار المعظم بناهلس ، وقوى أمر الصالح اسماعيل وجاءته الأمراء ، ثم ضرب يوماً الناصر البوق وأوهم أن الفرغ قد أغاروا ، فركب معه جماعة الصالح ، فأمر حينئذ بتسيير الصالح إلى الكرك في الليل ، فلم يصحبه من غلمانة سوى بيبرس الكبير والبهاء زهير ، وبعث معه جاريتة شجر الدر ، فأنزل بدار السلطنة بقلعة الكرك ، وتقدم الناصر إلى أمه ووزجته وأولاده بخدمة الصالح ، وخير أصحابه بين المقام مكرمين وبين السفر حيث شاءوا ، فاختاروا السفر ، وبعث إليه يقول : إنما فعلت ذلك احتياطاً ، لئلا يصل إليك مكروه ، لم يفقد شيئاً من الإكرام . ذكر ذلك ابن اصل ، قال غيره : إن الظهير دخل على الصالح بناهلس فقال : ابن عمك له بك اجتماع ، وأخذ سيفه ، وكانت جاريتة حاملاً فأسقطت ، توجهوا به إلى الكرك ، قال الصالح : أركبوني بغلة بغير مهماز^(١) ولا مقرعة^(٢) ، وساروا بي في البرية ثلاثة أيام ، ما كلمت أحداً منهم كلمة ،

(١) المهماز : حديدة تكون في مؤخرة خف الراكب .

(٢) المقرعة : خشبة تضرب بها البغال والحمير .

ولا أكلت طعاماً، حتى جاء خطيب بلدي معه ثرودة بدجاجة فأكلتها ، وأقاموا يومين ولا أعلم إيش كان المقصود مني ، فإذا بهم يريدون طالعاً نحساً ، يقتضى ألا أخرج من الكرك ، ثم أدخلوني الكرك ليلاً على الطالع الذي كان سبب سعادتي ونحوسهم ، ووكل بي مملك فظ غليظ يقال له : زريق ، فكان أضمر على من كل ما جرى على ، فأقمت عندهم إلى رمضان ، سبعة أشهر . واتفق أنه كان عندي خادم صغير ، بال ليلة على البساط ، فأخذت البساط بيدي وقمت إلى الدهليز ، وفي الدهليز ثمانون رجلاً يحفظونني ، وقلت : يا مقدمون هذا الخادم قد أتلف هذا البساط ، بالله اغسله ، فنفر في زريق ، قال : إيش جاء بك إلى هنا ! وصاحوا بي ، فعدت إلى موضعي .

ولما بلغ العادل ما جرى على أخيه أظهر الفرح ، ودقت البشائر ، وزينت مصر شهراً ، فما رأى الناس أطيب من تلك الأيام ولا أكثر لهواً وعملاً والدة العادل وليمة عظيمة تحت القلعة ، عمل فيها ألف رأس غنم . وبعث العادل يطلبه من الناصر ويعطيه مائة ألف دينار ، وكذلك صاحب الشام ، صاحب حمص ، فأبى .

ذكر خروج الصالح من الحبس وملكه

مصر في سنة سبع وثلاثين

لما أرسل أخوه وعمه يطلبانه من الناصر ، امتنع ، وطلبه من الكرك ، فنزل إليه إلى ناهلس في آخر رمضان ، فضرب له دهليزاً ، واجتمعت عليه مماليكه ، وخطب له ، ثم سار إلى القدس (١٠١ أ) وتحالفاً وتعاقداً عند الصخرة ، أن تكون مصر للصالح ، والشام والشرق للناصر . فإن الصالح : حلفني على شيء ما تقدر عليه ملوك الأرض ، وهو أن آخذ له دمشق وحمص وحماة وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر ونصف ديار مصر ونصف ما في الخزائن من المال ، فحلفت من تحت السيف . ثم سار إلى غزة ، ولما سمع الملوك بذلك رموا الناصر عن قوس واحدة ، وعزموا على قصده ، وأول من برز (إليه) العادل من

مصر ، وخرج اسماعيل من دمشق ، ثم خاف الناصر الصالح من جيش بلقاهما ، وجيش خلفهما ، فرجعا إلى القدس ، فما لبث أن جاء النجايون بكتب المصريين يستحثون الصالح فقويت نفسه ، وسار مجدأ ، واختلف المسكر على العادل ، فقبض عليه كما حكينا في ترجمته . ووصل الصالح إلى بلبس ، ونزل خيمة أخيه وتسلمه وصعد القلعة بكرة الأحد رابع عشرين ذى القعدة ، وزينت البلد ، وفرح الناس به ، لا سيما صاحب حماة ، فإنه ما زال على ولائه ، حتى إنه لما أمسك بالكرك كان يخطب له ، وهو بالحبس ، ونزل الناصر دار الوزارة وهنا الصالح الشعراء ، فمنه قول جمال الدين الخشاب :

وصححوا ما جرى من بحتكم فيها	خذوا أحاديث ملك جاد راويها
سراير كان صدر الغيب يخفيها	صح اليقين زال الشك وانكشفت
غطت محاسنها عندي مساويها	ما بعد هذا على الأيام ممتبة
قد جاءكم آخذ الدنيا ومعطيها	قل للملوك تنحوا عن مراتبكم

لما نملك الصالح استوحش من الناصر . قال الصالح : لما كنا على غزة تغير على الناصر وأراد قتلى ، ولما وصلنا بلبس شرب وراح إلى العادل وقبل الأرض بين يديه ، وقال : كيف رأيت ما أشرت عليك فلم تقبل ؟ قال : التوبة ، فقال : طيب قلبك ، الساعة أطلقك ، ثم جاء فدخل علينا الخيمة ووقف ، فقلت : باسم الله اجلس فقال : ما أجلس حتى تطلق العادل ، فقلت : اقم ، وهو يكرر الحديث ، فنام فما صدقت بنومه ، وقمت في باقى الليل ، فأخذت العادل فى محفة ودخلت القاهرة ، وبعثت إلى الناصر بعشرين ألف دينار فردها . فلما كان كذلك ، جهز الصالح من أوهم الناصر أن الصالح والناصر اجتمعا على الشراب ، فلما أخذ الشراب من الناصر قال الصالح : لا بد من اخراج العادل فلاطفه الصالح وجعل يناسبه وهو يكرر عليه . وقال له فى أثناء ذلك : لو غسلت رجلى وشربت ماءها (١٠١ ب) ما وفيت حقى ، فأمر الصالح المماليك أن يخرجوا فى خدمته ، فنام ليته ، واستيقظ ، فسأل ما الذى جرى ؟ فحكى له ، فقال : لم يبق لنا مقام بهذه البلاد ، وأمر

بالنجب فشدت ، وعمل عليها اخراج المال ، وهم بالمركوب فوافاه مملوك الصالح ، ومعه عشرة آلاف دينار وعشرة أفراس ، وقال : هذه ضيافتك تأخذها وتمضى ، فركب لوقته ، ومضى على طريق البرية ، ولما أفاق الصالح ندم على عدم القبض عليه . ورجع إلى بلاده فى ذى القعدة ، ثم تحقق الصالح فساد نية الأشرفية ، فأخذ فى تفريقهم ، فأبادهم عن آخرهم ، وأخذ فى شراء الممالك وتقدمهم ، ثم أخذ فى بناء قلعة الجزيرة ، واتخذها مسكناً وأنفق عليها أموالاً عظيمة ، وشيدها فى ثلاثة أعوام ، وانتقل إليها .

ذكر صلح الصالحين وصاحب حمص

فى سنة إحدى وأربعين

وقع الصلح بينهم على أن يقر كل واحد منهم على بلاده ، وأن تقام الخطبة لنجم الدين ، وأن يخرج الصالح اسماعيل ولده المغيث ، وأن ينزع من الناصر داود بلاده . فلما تقرر ذلك ركب المغيث وبقي بسير ، ورجع إلى القلعة ، حتى ترجع نسخ الأيمان . قال جلال الدين بن الخلاطى : كنت رسولاً من جهة الصالح اسماعيل ، فورد على كتاب منه وفى طيه : كتاب من نجم الدين إلى الخوارزمية يحثهم على الحركة ، ويعلمهم أنه إنما صالح عمه ليخلص ولده منه ، وأنه باق على عداوته ، ولا بد من أخذ دمشق منه . فرد الصالح اسماعيل المغيث إلى السجن وقطع الخطبة ، وكان (قد) أرسل عسكرياً إلى عجلون لحصار الناصر فرده واتفق مع الناصر على عداوة نجم الدين ، وصار الملوك كلهم يبدأ واحدة ، واعتقلت رسلهم بمصر ، واعتضد صاحب دمشق بالفرنج ، وسلم إليهم طبرية وعسقلان والقدس بما فيها من المزارات . قال ابن واصل : ومررت إذ ذاك بالقدس متوجهاً إلى مصر ورأيت القسوس وقد جعلوا على الصخرة قناني الخمر للقرهان .

ذكر أخذ دمشق من الصالح اساعيل

في سنة اثنتين وأربعين وصلت الخوارزمية إلى غزة باستدعاء نجم الدين ، ووصل إليهم عدد كبير من العساكر المصرية ، وسار صاحب حمص جريدة إلى عكا واستدعى الفرنج ووعدهم بجزء من مصر ، واجتمعت الفرنج وعسكر الشام وحمص ، والكرك ، ولم يحضر الناصر (داود) والتقى عسكر مصر والخوارزمية بظاهر غزة ، فولى الشاميون منهزمين وتبعهم (١٠٢ أ) عسكر مصر ، فقتلوا خلقاً عظيماً ، واستولى الصالح أيوب على غزة والسواحل والقدس ، ووصلت الأسرى والرءوس إلى مصر ، ودقت البشائر عدة أيام . ثم أرسل الصالح أيوب عسكراً عليهم معين الدين ابن الشيخ ومعه الخوارزمية ، وحاصروا دمشق ، وبها الصالح اسماعيل والمنصور ابراهيم ابن شيركوه . فبعث الصالح وزيره إلى الخليفة ليشفع له عند ابن أخيه فلم يظفر بطائل . واشتد الحصار وذل الصالح لفناء ما عنده من الذخائر ، ولقلة الرجال معه ، وسلم دمشق بالأمان سنة ثلاث وأربعين ، وسلم معين الدين البلد ، ورحل الصالح إلى بعلبك ، ولما رأت الخوارزمية ذلك صار لهم إدلال عظيم على الصالح أيوب وطمعوا في الأخبار الجليلة . فلما لم يحصلوا على طائل راسلوا الناصر ، ووافقهم وتزوج منهم وكانت أمه أيضاً منهم ، فاستولى على القدس ونابلس وترك الناحية ، وهرب نواب صاحب مصر ، ثم راسلوا الخوارزمية الصالح اسماعيل ، فسار إليهم ، واتفق الجميع على حرب صاحب مصر ، فقلق لذلك ، ثم خرج بمساكره إلى العباسة ، فجاءه رسول المعتصم بالتشريف .

ذكر منازة الصالح اسماعيل دمشق

وأخذ بعلبك منه

ثم جاء الخوارزمية الصالح اسماعيل ، فنازلوا دمشق سنة ثلاث وأربعين ، وانضم إليهم الناصر داود ، واشتد الحصار وليس بالبلد كبير عسكر . وقام حسام الدين بن أبي علي في

حفظ البلد أتم قيام ، واشتد الغلاء بدمشق حتى مات شخص في الحبس جوعاً فأكلوه ،
وبيع حب الخرنوب بالميزان ليقتاتوا به ، وبلغت الفرارة الفا وخمسمائة درهم ، وكان لشخص
دار أعطى فيها قبل هذا عشرة آلاف درهم فأتى فباعها في الحصار بألف وخمسمائة ،
واشترى بها غرارة واحدة .

واتفق أن صاحب حلب اتفق مع صاحب حمص ، وصاروا مع الصالح أيوب ،
وقصدوا الخوارزمية فرحلت الخوارزمية عن دمشق ، وصاروا نحو الحلبيين ، والتقوا على
القصب ، فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة ، نشئت شملهم بعدها ، ودقت البشائر بمصر ،
وذلك سنة أربع وأربعين . وأما الصالح اسماعيل فاستجار بصاحب حلب الناصر يوسف ،
فأرسل إليه الصالح أيوب يطلبه فلم يسلمه الناصر يوسف . وسار ابن أبي علي الهذباني إلى
بعلبك في سنة أربع وأربعين وستمائة وحاصرها وتسلمها بالأمان ، وحمل أولاد الصالح
اسماعيل إلى الصالح أيوب فاعتقلوه هناك ، ودقت البشائر . قال حسام الدين بن أبي علي :
لما كنت في الجب (١٠٢ ب) بقلعة بعلبك في حبس الصالح اسماعيل ، وأنا في حال قد
يمست من الحياة ، لا أفرق بين الليل والنهار ، حدثتني نفسي يوماً أنني أخرج من الحبس
وأرتفع إلى منزلتي عند الصالح أيوب ، وأنه يسيرني إلى بعلبك وأفتحها ، واحتاط على أولاد
الصالح اسماعيل ، وأحملهم معي إلى دمشق ، ثم قلت في نفسي هذه أماني كاذبة ، فما
كان بعد أيام يسيرة إلا قد اتفق لي جميع ما حدثتني به نفسي .

غير ذلك . وفي سنة أربع وأربعين وستمائة أيضاً سار الصالح إلى دمشق واستتاب بمصر
ابن أبي علي ، ورتب أحوالها ، ودار على خندقها أمر بتعميقه ، فقال سيف الدين :

يا مالك الأرض وما قد حوت	من عامر الأرض ومعمورها
دمشق أمست بك محروسة	لما تكفلت بتدبيرها
وكيف يحتاج إلى خندق	والبحر قد دار على سورها

ووصل إليه صاحب حمص وقدم له شميميش ، وصاحب حماة ، ثم رجع في سنة خمس وأربعين ، ومرض في الطريق . قال حسام الدين : لما ودعني السلطان قال : إني مسافر وأخاف أن يمرض لي موت ، وأخى حى ، فإذا مرضت ولو أنه حمى يوم فاعدمه ، وولدى لا يصلح للملك ، ولا تسلم البلاد لأحد من أهلى بل سلمها للخليفة .

وفي سنة ست وأربعين رجع الصالح إلى دمشق ، مع ما هو فيه من الضعف بسبب أخذ صاحب حلب حمص ، فبينما هم في القتال سمع أن الفرنج قصدوا دمياط ، ثم اصطالحوا على أن تكون حمص بيد الحلبيين . وعاد الصالح إلى القاهرة في سنة سبع وأربعين في محفة لا يستطيع الركوب .

ذكر ملك الفرنج دمياط في سنة سبع وأربعين

جمع ريدافرنس - وهو من أعظم ملوك الفرنج - جموعه ، فكانوا نحو خمسين ألف مقاتل ، وشتى بقبرص ثم سار إلى دمياط ، وقد شحنها الصالح بالذخائر والآلات العظيمة ، وجعل فيها بنى كنانة وهم مشهورون بالشجاعة ، ووصلها الفرنج يوم الجمعة حادى عشر صفر ، وناوشوا المسلمين القتال ، وكان الصالح قد أرسل فخر الدين ابن الشيخ بجماعة كبيرة من العسكر ليكونوا قبالة الفرنج بظاهر دمياط ، فلما وصل الفرنج رحل فخر الدين من البر الغربى إلى الشرقى . ووقع على أهل دمياط الخذلان ، فخرجوا منها طول (١٠٣) الليل على وجوههم حتى لم يبق بها أحد ، فلما أصبح الفرنج تملكوها صفواً بنير قتال مما حوت من الأسلحة . فلما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى الصالح وهو بأشمون حنق على بنى كنانة والشجعان الذى كانوا بدمياط فشنتهم جميعاً ، وكان فيهم ابن وأبوه ، فشنت الابن أولاً . ثم رحل ونزل المنصورة ، ووقع النفير العام ، فاجتمع بالمنصورة أم لا يحصون ، والسلطان يتزايد به المرض .

ذكر وفاة الملك الصالح

وقعت الأكلة في رجله بدمشق سنة خمس وأربعين ، وحصل له ورم في ماء بيضه ، ثم فتح ، وحصل منه ناسور . وكان يتجلد ولا يطلع أحداً ، ومات ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة خلت من شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة بالمنصورة في مقاتلة الفرنج ، ولم يكن له ولد حاضر . لأن ولده توران شاه كما بحصن كيفا ، وولده عمر مات في حبس الشام ، وولده الخليل توفي طفلاً ، ولم يكن له غيرهم ، ولم يوص الصالح إلى أحد ، فلما توفي أحضرت جاريتة شجر الدر فخر الدين ابن الشيخ والطواشي محسناً وعرفتهما موت السلطان . وجمعت الأمراء وقالت : السلطان يأمركم أن تدعوا لولده من بعده ، وللأمير فخر الدين بآتابكيتة ، وكتب إلى أمراء مصر بذلك ، فحلف الأمراء والأكابر ، وذلك في العشر الأوسط من شعبان . وكان بعد ذلك تخرج التواقيع وعليها علامة الصالح ، وكان يكتبها خادم اسمه السهيلي ، ولا يشك أحد أنه خط السلطان ، وقيل : بل شجر الدر كانت تكتبه ، وقيل : إن السلطان علم عشرة آلاف علامة قبل موته ليخفوه موته . وأرسلوا قاصداً لاحضار ولده ، لما جرى ذلك شاع بين الناس موت السلطان . ولكن لا يتجاسر أحد أن يتفوه بذلك ، وعلق تابوته بسلاسل إلى أن دفن بترته بجانب مدرسته في سنة ثمان وأربعين وستمائة وعمل له عزاء جديد ، وغلقت مصر والقاهرة ، وكانت مدة ملكه مصر تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوماً ، وعمره نحو أربع وأربعين سنة .

ذكر بعض سيرة الملك الصالح

كان مهيباً ، عالى الهمة ، عفيفاً ، طاهر اللسان والذيل ، شديد الوقار ، كثير الصمت ، جمع من المماليك الترك ما لم يجمعه غيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره مماليكه ، ورتب جماعة منهم حول دهليزه وسماهم البحرية ، وكان لا يجسر أحد

أن يخاطبه ، ولا يتكلم ابتداءً بحضرة ولا يستقل (١٠٣ ب) أحد من أهل دولته بأمر من الأمور إلا بعد مشاورته وكان إذا شاهدته الترك يرتعدون مخافة منه ، ولم يقع له في حال غضبه قط كلمة هُجر ، وأكثر ما يشتم : يا متخلف ، وكان كثير الجماع لجواريه فقط ولم يكن عنده في آخر عمره إلا زوجتين : جاريتته شجر الدر ، والأخرى بنت العالمة وكان إذا سمع الغناء لا يتحرك ولا يتزعزع وكذلك الحاضرون كأنما على رؤسهم الطير ، وكان يحب أهل الفضل والدين ، وما كان له ميل في مطالعة الكتب ، وكان لا يجتمع بالفضلاء لأنه لم تكن له شاركة بخلاف أبيه وابنه ، وكان اجتماعه بالناس قليلاً ، بل كان يقتصر على ندمائه المعروفين بحضور الشراب ، وقال بعضهم : إنه كان فصيحاً حسن المحاوره . وكان شديد الحياء لا يرفع رأسه إلى من يكلمه حياءً ، وكان إذا حبس إنساناً نسيه ، ولا يتجاسر أحد أن يخاطبه فيه ، وكان يحلف أنه ما قتل أحداً بغير حق قط ، وهذه مكاربه ، فلو لم يكن إلا قتل أخيه العادل لكفى .

ذكر ما بنى من الأماكن

كان مائلاً إلى العمارة واتخاذ الأبنية ، بنى « قلعة الجزيرة » التي في وسط النيل و « مناظر اللوق » على جانب البحر و « الميدان » الذي إلى جانبها و « الكباش » وهو القصر الذي بين مصر القاهرة مطلقاً على بركة النيل ، « الصالحية » وهي بليدة بالسائح ، وبنى بالملازمة^(١) وشنطوف وغيرها مناظر وقصور . كان يتردد إليها للنزهة ، وبنى المدارس الصالحية بين القصرين .

ومنهم غازية خاتون^(٢)

بنت محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، صاحبة بنت الملك الكامل ابن العادل

(١) مكان في أرض مصر . انظر معجم البلدان ١٤٥/٤ .

(٢) انظر : تاريخ الوردى ٢٨٥/٢ ، النجوم الزاهرة ٥٧/٧ ، ذيل مرآة الزمان ٧٥/١ ، المختصر ١٩٦/٣ .

، تزوجها ابن ابن عم أبيها المظفر محمود ابن المنصور محمد بن المظفر عمر ابن شاهنشاه ابن أيوب سنة ست وعشرين وستمائة ، وكان متمنياً ذلك دائماً ، وسنذكر ذلك في ترجمته .

ولما سافر أبوها الكامل إلى الشام حملها معه ، هي واختها فاطمة زوجة العزيز صاحب حلب ، وأهداها إلى زوجها ذلك سنة تسع وعشرين ستمائة ، ومما هنيئ به المظفر قصيدة أولها (١) :

وأيامه للمكرمات مواسم
 بملك له تعنو الملوك الأكرام
 إلى أسد تخشى سطاء الضراغم
 بها العيش صفو والزمان مسالم
 بجنات عدن ، أم على وفاطم ؟
 تكف به اليوسى ، وتكفى العظام
 تُشاركها في وصفها ، وتلائم
 بحيث المعالي جملة والمكارم
 لديه وأملاك السماء حوائم
 تُرآن به العليا ، وتزهى المعالم
 كمال ، لأدواء النقائص ، حاسم
 ونشر لأنف البدر بالطيب فاغم
 تبارى خوفاً فيها الصبا والقوادم
 وإن كان شتى جامع بتلاءم
 لناظرنا ما أطربته الحمام
 قدومك بالغنم الذى أنت غنام
 قضى الله أن العدل للجور هادم
 فتى حمده فرض على الناس لازم

هنا لياليه حوال بواسم
 ووصلة ملك لا يقاوم جده
 وإهداء شمس دونها الشمس رتبة
 قران سمود فى بروج سيادة
 فوالله ما أدرى : أموسى وأهله
 عقيمة قدر كافات منك ماجداً
 بمانية ألفتك عضباً بمانياً
 فخابت عزوفاً عن سواك وخيمت
 بمغنى ملوك الأرض باد خضوعها
 فيها ليلة تمضى الليالى وذكرها
 غذتها أفابيق الفخار وجادها
 ونور لاظلام الدياجى مبشر
 وأضحت بها طير البشائر شطعاً
 فقلت بها الأمطار مصراً بمثلها
 فليله كم أدنت على بعد دارها
 عممت الرعايا بالعطاء فسرها
 مهم له ما بعده بد قضيتته
 رأيتك يا محمود ، يا بن محمد

(١) انظر : ديوان الأنصارى ٤٤٢ .

وأنك للملك الذي بنوالة
يدين له في الناس عمرو وعامر
أخو نجمات قارت كلماتها
بهباب فلا قلب المزالف ساكن
ويحلم فالشم الرواسي طوائش
ويدنو فمر الصاب شهد لذائق
ويغنى اللهها جوداً لتغنى بها العلا
إذا صال فالقلب الرديح فرانس
وان ضاق رزق أو مجال فإنه
كذا أيها الملك المظفر فليكن
أبت لك عار الميل نفس كريمة
وناظر عين ليس يفضى وعامل
وجاش وجيش رابط ومرابط
وليل يبرق البيض أبلج زاهر
فهنت بالدهر الذي أنت مسالك
وبلغت ما يرضيك من طول خالق
لواك مقصوم وفضلك شائع

وعادل سطاء بشرتنا الملاحم
ويعنوا له في الجود كعب وحاتم
عواطف تتناش الورى وملاحم
ويرجى فلا وجه المخالف واجم
ويكرم فالجون السواري لائم
وينأى فكاسات الرحيق علاقم
ألا هكذا فليغتم المجد غانم
وان قال فالعرب الفصاح أعاجم
خضم وخضم للحوادث خاصم
من الناس مخدوم له الدهر خادم
وفكر بمجهول العوارف عالم
بأمر الوغى في الرفع والخفض جازم
ممازم لا تنحل منه العزازم
ويوم يدجن النقع أكلف قاتم
جدديه والشهر الذي أنت صائم
تعارب في مرضاته وتسامم
ومجدك محروس وعزك سالم

وولدت من المظفر ثلاث بنين ، مات أحدهم واسمه عمر صغيراً ، والمنصور محمد ،
والأفضل على ، وثلاث بنات ، توفيت الكبرى وهي ملكة خاتون قبل والدتها بقليل ،
والصغرى ، وهي دنيا خاتون بعد أخيها المنصور ، وكانت صاحبة غازية خاتون من أحسن
الناس سيرة وزهداً وعبادة وحفظت الملك لولدها المنصور حتى كبر وسلمته إليه . وتوفيت
في ذي القعدة سنة ست وخمسين وستمائة .

ومنهم فاطمة خاتون^(١)

بنت محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، بنت الملك الكامل ابن العادل . زوجة ابن عم أبيها العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر يوسف بن أيوب ، أخذها أبوها في صحبته لما توجه إلى الشرق في سنة تسع وعشرين وستمائة واحتفل لها العزيز احتفالاً كلياً.

ومنهم عاشوراء^(٢)

بنت محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي . والدها الكامل ابن العادل . تزوجها ابن عمها الناصر داود ابن المعظم عيسى ابن العادل أبي بكر لما توجه والدها إلى الشرق سنة تسع وعشرين وستمائة ، وقيل : ثلاثين ، ثم حصل لوالدها منه نظرة اقتضت الزامه بطلاقها ، ثم لما توجه إلى الكامل في سنة أربع وثلاثين معاضداً له جدد عقده عليها .

ومنهم السعيد عمر^(٣)

ابن غازي بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، الملك السعيد بن المظفر ابن العادل . لما خرج أبوه هارباً من التتر سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، خرج معه ولده عمر وأمير حسن ابن تاج الملوك إسحق بن العادل أبي بكر ، وهو ابن ابن اخي غازي ، فوصلوا إلى الهرماس^(٤) فقال غازي لولده : المصلحة أن ترجع إلى ميفارقين وتحفظ (١٠٥ أ) البلد وأتوجه أنا إلى

(١) انظر : المختصر ١٥٢/٣ .

(٢) انظر : كنز الدرر ٣٠٨/٧ - ٣١٧ .

(٣) لم نشر له على ترجمة .

(٤) مدينة بينها وبين نصيبين ستة فراسخ . انظر : معجم البلدان ٣٩٨/٥ .

بغداد ، فقال: والله لا أفارقك ، وجاء حسن فجلس إلى جانب عمه عمر وضربه بسكين فقتله وهرب ليرمى نفسه في العيين ، فصاح غازي : امسكوه فقد قتل ولدي ، فمسك ، وقام غازي ليقتله ، فتعالجا ساعة ، فجاء عمر فرمى نفسه على أبيه غازي وقال لحسن: يا عدو الله قتلتني وتقتل والدي ! فضربه حسن بالسيف فقطع خاصرته ، فوقع إلى الأرض ، وقطعت المماليك حسناً ، وحمل عمر إلى الحصن فدفن به ، وحزن والده عليه حزناً شديداً.

ومنهم الملك الكامل^(١)

محمد بن غازي بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي . الملك الكامل ابن المظفر ابن العادل صاحب ميافارقين ، وليها سنة اثنتين وأربعين وستمئة بعد والده ، فنزل عليها التتر سنة ست وخمسين ، واستمروا نازلين عليها سنتين حتى فنيت أزوادهم وفنى أهلها بالوباء والقتل وصاحبها ثابت ، ثم فتحوها وقتلوه في سنة ثمان وخمسين وستمئة ، وحملوا رأسه على رمح وطيف به في البلاد ، ومروا به على حلب وحماة ، ووصلوا به إلى دمشق ، سابع عشرين جمادى الأولى من السنة . وطاقوا به دمشق بالمغانى (والطبول) وعلقوا الرأس في شبكة بياب الفرديس ، وفيه يقول ابن ابي شامة من أبيات^(٢) :

ابن غازي غزا وجاهد يوماً	أثخنوا في العراق والمشرقين
ظاهراً عالياً ومات شهيداً	بعد صبر عليهم عامين
لم يشنه إذ طيف بالرأس منه	وله أسوة برأس الحسين
وافق السبط في الشهادة والحم	لذا حاز أجره مرتين
ثم واروا في مشهد الرأس ذاك الـ	رأس فاستعجبوا من الحاليتين

(١) انظر: شذرات الذهب ٢٩٥/٥ ، الوافي بالوفيات ٣٠٧/٤ ، المختصر ٢٠٣/٣ ، تاريخ ابن الوردي ٢٩٣/٢ .

(٢) وردت الأبيات في المختصر ٢٠٤/٣ ، تاريخ ابن الوردي ٢٩٤/٢ .

وارتجوا أن يجرء لدى الحشـ
ر رفیق الحسن فی الحسنین

ومنهم السعيد عبد الملك^(١)

ابن اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، الملك السعيد ، فتح الدين ابن الصالح
ابن العادل . تقدم بعض أخباره ، توفي ثالث رمضان سنة ثلاث وثمانين ستمائة ، ودفن
داخل دمشق .

ومنهم الملك المنصور^(٢)

محمود بن اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، الملك المنصور شهاب الدين ابن
الصالح ابن العادل . تقدم بعض سيرته ، توفي يوم الثلاثاء ثامن عشر شوال سنة ثمان
وثمانين وستمائة بدمشق (١٠٥٠ ب) .

ومنهم غازي بن يعقوب^(٣)

ابن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، شهاب الدين ابن المعز ابن العادل . توفي رابع عشر
ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وستمائة بدمشق بداره بالجورة ، ودفن بترتهم بقاسيون .

(١) انظر : ترويح القلوب ٦٨ ، الدارس ٢٣٧/١ ، تاريخ ابن الفرات ١٣/٨ ، البداية والنهاية ٣٠٤/١٣ .

(٢) انظر : الدارس ٣٧١/١ ، شذرات الذهب ٤٠٧/٥ .

(٣) انظر : ابن الفرات ٨٥/٨ .

ومنهم الملك الجواد^(١)

يونس بن ممدود بن أبي بكر أيوب بن شاذي ، الملك الجواد مظفر الدين ابن المعظم ابن العادل . كان جواداً كاسمه إلا أنه كان حوله من يظلم الناس ، وكان يحب الصالحين ، ويحسن الظن بهم . ولما توفى الكامل اجتمع الأمراء وفيهم عماد الدين وفخر الدين ابنا الشيخ ، على تملك الجواد دمشق نيابة عن العادل صاحب مصر ، وذلك أن الناصر داود كان بدمشق فجاءه جماعة من الأمراء وقالوا : أنفق على العسكر واملك البلد ، فلما كان صبيحة تلك الليلة ، وهي ليلة الجمعة من رجب سنة خمس وثلاثين ، حضر الأمراء وذكروا الناصر والجواد وكان أضمر ما على الناصر عماد الدين ، وذلك أنه كان يجري بينه وبينه مباحثات في مجالس الكامل ، فيخطئه وينسبه للجهل ، وكان فخر الدين مع الناصر ، فأشار عماد الدين بالجواد ، وقيل : إن فخر الدين لما مات الكامل قيل له : ما تقول في الجواد ، قال : المصلحة أن نولي عن العادل بعض الخدام ، فمتى شاء عزله ولا نولي أحداً من بيت الملك ، وبلغ الجواد ذلك ، فجاء إليه ووعدته باقطاع مائة وخمسين فارساً وعشرة آلاف دينار ، فلم يقبل ، فلما أيس الجواد فرق المال حتى فرغ الخزائن ، وكان فيها تسعمائة ألف دينار ، وأرسلوا يقولون للناصر : إيش قعدك في بلد القوم ؟ فقام وركب ، وجميع من بدمشق لا يشك أنه يقصد القلعة ، فلما تعداها صاحوا لا لا لا ، فمضى إلى القاهون^(٢) وأقام به أياماً ، ثم عزموا على القبض عليه ، فرحل ، فساق إليك الأشرفي ليمسكه ، فساق بالليل إلى عجلون ثم إلى غزة فاستولى عليها ، فخرج إليه الجواد في عسكر مصر والشام ، فكتب الأشرفية الناصر^(٣) ، وأطمعوه فاغتر بهم ، فساق إلى نابلس ، وترك الأثقال

(١) انظر : مرآة الجنان ١٠٤/٤ ، البداية والنهاية ١٦٣/١٣ ، مرآة الزمان ٧٤٣/٨ .

(٢) موضع بينه وبين دمشق ميل واحد . انظر معجم البلدان ٢٩٠/٤ .

(٣) هو الناصر داود بن عميس صاحب الكرك المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

والمساكر خلفه، وكان ثقله على سبعمائة جمل فساقوا وأحاطوا به ، فساق في نفر يسير نحو نابلس ، وأخذوا الجمال بأحمالها ، ووقع لعماد الدين ابن الشيخ سفظ^(١) فيه اثنتا عشرة قطعة من الجواهر وفصوص ليس لها قيمة ، فطلبه من الجواد فأعطاه إياه . وكانوا (قد) أشاروا على الناصر أن يرسل أثقاله إلى الكرك فلم يسمع ، وقيل : إنه وقع بين الجواد والناصر مصاف بمكان يقال (١٠٦ أ) له ظهر حمار ، بين نابلس وجنين ، وفي ذلك يقول بعضهم لبعض أولاد الشيخ ، وكان مع الناصر لما انهزم^(٢) :

يا فقيرها قد ضل سبل الرشاد مذ أعد الجدال قوم الجلال
كيف بنجو من هو بظهر حمار من جواد من فوق ظهر جواد

وتمكن الجواد من دمشق ، ولما ولى فرق تسعمائة ألف دينار ، وخلع خمسة آلاف خلعة وبطل المكس والخمور .

ومن العجب أنه ملك دمشق في هذه السنة أربعة ملوك : أولهم الصالح اسماعيل ، ثم الكامل أخوه ، ثم العادل ابن الكامل ، ثم الجواد ابن عم العادل . وقيل : بل الأربعة الأشرف موسى ، ثم أخوه الصالح ، ثم أخوه الكامل ، ثم ابن أخيه الجواد .

قال جامعه : وكذا أخرى في مصر سنة أربع وعشرين ولثمانمائة استهلت والسلطنة للمؤيد شيخ ، ثم توفى في ثامن المحرم ، ولى ابنه المظفر أحمد ، ثم خلع تاسع عشرين رمضان ، وولى الظاهر ططر ، ثم توفى في رابع ذى الحجة ، وولى ابنه الصالح محمد^(٣) . انتهى .

(١) السفظ : الذي يعنى فيه الطيب وما ألبه من أدوات النساء . اللسان ٣١٥/٧ .

(٢) في ذيل مرآة الزمان ١٤١/١ ، قال جمال الدين بن عسل :

يا فقيرها قد ضل سبل الرشاد ليس يفنى الجدال يوم الجلال
كيف بنجو ظهر الحمار مازماً من جواد بكر فوق الجواد

(٣) انظر : النجوم الزاهرة ١٦٧/١٤ .

ولما ولي لام العادل عماد الدين ابن الشيخ في توليته والزمه بخلمه ، وأن يعطيه إقطاعاً بمصر ، وأشار الناس على العماد ألا يتوجه ، فخالقهم واجتمع بالجواد ، وأغلظ له في الكلام ، ففس عليه الجواد من وقف له بقصة ، فلما أخذها ضربه بسكين فمات .

قال جامعهم : وما هذا جزاؤه ، سلطنه وقدمه ثم يقتله . وفي المثل : اتق إساءة من أحسنت إليه . انتهى .

ثم أرسل إلى الصالح أيوب فقاهاضه دمشق بسنجان والرقه وعانة كما ذكرنا من قبل ذلك في سنة ست وثلاثين .

وفي سنة سبع وثلاثين أخذ بدر الدين لؤلؤ سنجان من الجواد بموافقة أهلها لسوء تدبيره ، فإنه صادرهم ، وخرج بتصيد فأرسل أهلها إلى لؤلؤ وفتحوا له أبواب البلد ، فملكها ، وقيل : بل حاصرها وأخذها ، ومضى الجواد إلى عانة ثم باعها للخليفة بمال ، وذهب منه العوض والمعرض .

وفي سنة تسع وثلاثين سار على البر إلى غزة ، ولم يكن بقي بيده من البلاد شيء ، وأرسل إلى الصالح يستأذنه في القدم عليه ، فلم يجبه ، وقيل : إنه أراد القبض عليه . ثم رجع إلى الناصر داود واتفقا ، وأرسله الناصر في عسكر إلى الكمال ابن الشيخ^(١) ، فالتقوا ، وانهزم عسكر ابن الشيخ ، وأخذ أسيراً ، وأقام الجواد عند الناصر فتحيل منه واعتقله ثم بعث (١٠٦ ب) به إلى بغداد تحت الاحتياط ، ونزل قريباً من النهر الأزرق ، فعرفه بعض العرب ، فأطلقوه ، فعاد إلى دمشق ، وأقام في خدمة الصالح اسماعيل ، ثم سار إلى عكا ، وأقام مع الفرنج ، فأرسل الصالح اسماعيل وبذل للفرنج مالا وتسلمه واعتقله ثم خنقه في سنة إحدى وأربعين وستمائة في شوال ، وكان الفرنج (قد) أرسلوا يطلبونه ، فأظهر أنه مات ، ودفن بترية المعظم بقاسيون ، وخلف بنته نسب خاتون .

(١) مات سنة ٦٥٦ هـ . انظر النجوم الزاهرة ٢٤٥/٦ .

ومنهم المغيث بن المغيث عمر^(١)

ابن العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، توفي والده في حياة أبيه العادل ، وخلف المغيث هذا فلقبه بلقب أبيه .

ومنهم حسن بن اسحق^(٢)

ابن ابي بكر بن أيوب بن شاذي ، أمير حسن ابن تاج الملوك ابن العادل ، قتل في سنة اثنتين وأربعين وستمئة كما شرحناه في ترجمة عمر بن غازي بن أبي بكر بن أيوب .

ومنهم الملك المظفر محمود

ابن ملكة خاتون بنت أبي بكر ابن أيوب ابن شاذي . يأتي في الطبقة الخامسة . فإنه محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي ، توفي سنة اثنتين وأربعين وستمئة .

ومنهم الملك العزيز محمد

ابن ضيفة خاتون بنت أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، تقدم أول الطبقة ، فإنه محمد ابن غازي بن يوسف بن أيوب بن شاذي ، توفي سنة أربع وثلاثين وستمئة .

(٢) لم نثر له على ترجمة .

(٣) لم نثر له على ترجمة .

ومنهم ملكة خاتون

بنت فلانة بنت أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، ملكة خاتون بنت بنت الملك العادل ،
وأبوها كيقباز بن كيخسرو بن قلع أرسلان ملك الروم ، كان المعظم (قد) زوج أخته به ،
فأنت بملكة خاتون منه ، وتزوجها ابن ابن خالتها سنة خمس وثلاثين (وستمائة) على
صداق خمسين ألف دينار ، وهو الناصر يوسف ابن العزيز محمد ابن الظاهر غازي ابن
الناصر يوسف بن أيوب بن شاذي ، وهو يوسف بن محمد ابن ضيفة خاتون بنت العادل
بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، وقدمت عليه بدمشق سنة اثنين وخمسين وستمائة .

الطبقة الخامسة

ومنهم الملك الأشرف^(١)

موسى بن إبراهيم بن شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى الملك الأشرف ، صاحب حمص ، ابن الملك المنصور بن المجاهد بن القاهر بن المنصور وقد تقدم بعض أخباره وتأتى بعضها ، ونقول الآن : إنه لما عاد من خدمة الظاهر بيبرس إلى حمص مرض واشتد (ق ١٠٧ أ) المرض ، فتوفى سنة إحدى وستين وستمائة وتسلم الظاهر حمص فى ذى القعدة . وهذا الأشرف آخر من ملك حمص من بنى شيركوه وجملة من ملكها منهم خمسة ملوك : أولهم المنصور شيركوه بن شاذى ، ملكها إياه نور الدين الشهيد فى سنة ثلاث ستين وخمسمائة ، ثم ملكها بعده ابنه القاهر محمد ، ثم بعده ابنه المجاهد شيركوه ثم بعده ابنه المنصور إبراهيم ثم بعده ابنه الأشرف موسى . ولى بعد أبيه سنة أربع وأربعين فى صفر ، ثم أخذها منه الناصر يوسف سنة ست أربعين ، وعوضه تل باشر ثم أعادها عليه هولاءكو ، فبقيت فى يده إلى أواخر السنة التى انتقلت إلى الظاهر بيبرس .

ومنهم : الأوحى شاذى^(٢) بن داود شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى الملك

(١) الثابت هو الملك الأشرف ، وهناك خطأ فى الأصل ، الملك المجاهد ، انظر : شذرات الذهب ٣١١/٥ ، النجوم الزاهرة ٢١٧/٧ ، المختصر فى أخبار البشر ٢٦٨/٤ ، السلوك ٥٢٢/١ ، ذيل مرآة الزمان ٣١٠/٢ .

(٢) انظر : النجوم الزاهرة ٢١٩/٨ ، البداية والنهاية ٣٩/١٤ ، الدارس ٢٤٨/٢ ، القلائد الجوهريّة ٢٢٠ .

الأوحد تقي الدين بن الزاهر بن المجاهد بن القاهر بن المنصور توفى يوم الأربعاء ثاني صفر سنة خمس وسبعمائة بهجبال الجردتين وحمل إلى قاسيون ، فدفن بتربة والده .

ومنهم : الملك المعظم^(١) عيسى بن داود بن شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى الملك المعظم ، شرف الدين بن الزاهر بن المجاهد بن القاهر بن المنصور . ولد بدمشق يوم الثلاثاء ثامن عشرين رمضان سنة خمس وخمسين ، وحضر من دمشق إلى مصر ، فسعى فى الإمارة ، فأنعم عليه^(٢) بطبلخانة دمشق ، فمات عوده إليها فى ثامن عشر ذى القعدة سنة تسع عشرة وسبعمائة بدار الشريف بن تغلب .

ومنهم : حسن بن داود بن شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى^(٣) .

ومنهم : السعيد والمظفر^(٤) وشاهنشاه أولاد الأمجد بهرام شاه بن فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى . وكان له ولد آخر حسن قتله وقد ذكر فى ترجمة العزيز عثمان بن العادل . وولد اسمه عمر .

ومنهم : الملك الناصر قليج أرسلان^(٥) بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى الملك الناصر ، صلاح الدين بن الملك المنصور بن المظفر ، صاحب حماة ولد سنة ستمائة ملك حماة سنة سبع عشرة بالقلبة ، ولم يكن المعهود إليه وإنما العهد للمظفر محمود ، ولكن كان عند خاله الكامل بمصر ، فغلب الناصر وذلك أنه كان عند خاله المعظم بدمشق ، وكان وزير حماه زين الدين بن فريج ، فاتفق هو وأكابر الدولة على استدعاء الناصر ، فمنعه المعظم من التوجه إلا بهمال (ق ١٠٧ ب) يحمله إليه كل سنة ،

(١) انظر : النجوم الزاهرة ٢٤٧/٩ ، السلوك ٢٠٠/٢ ، الدرر الكامنة ١٧٩/٣ .

(٢) من رتب أرباب السيف وتمطى للأمرء الذين يحملون تحت قيادة الواحد منهم أربعون فارساً .

انظر : صبح الأعشى ١٥/٤ .

(٣) لم نثر على ترجمة له .

(٤) لم نثر على ترجمة له .

(٥) له ذكر عند المرتضى الزبيدى ٥٣ .

قيل : إنه طلب أربعمئة ألف درهم ، فلما أجاب إلى ذلك وحلف عليه ، أطلقه ، فقدم
الناصر إلى حماة ، واجتمع بالجماعة الذي كاتبوه ، واستحلفوه على ما أرادوا ثم ركب من
القلعة بالسنجق ، ولما استقر في الملك وبلغ أخاه المظفر ، استأذن الكامل في المضي إلى
حماة ، ظناً منه أنهم يسلمونها إليه بحكم الأيمان التي في أعناقهم . فوجد خاله المعظم
بالغور فأخبره أن أخاه تملك ويخشى عليه أنه إذا وصل بعتقله ، فسار المظفر إلى دمشق ،
وأقام بداره المعروفة بـ الزنجلى^(١) وكتب المعظم والمظفر إلى أكابر حماة في تسليمها إلى
المظفر فلم يحصل منهم اجابة ، فعاد المظفر إلى مصر ، وأقام في خدمة الكامل وأقطعه
إقطاعاً بمصر.

وفي سنة تسع عشرة حضر المعظم حماة ، لأن الناصر لم يف له بحمل المال ، وجرى
بينهم قتال قليل ، ثم ارتحل إلى سلمية واستولى على حواصلها ، ثم قصد المعرة وأقام فيهم
والياً ، وعاد إلى سلمية وأقام عليها حتى خرجت السنة ، وبلغ الأشرف ذلك فعظم عليه ،
واتفق مع الكامل على الإنكار على المعظم وترحيله ، فأرسل إليه الكامل بأمره بالرحيل ،
وكانت أطماعه قد قويت على الاستيلاء على حماة فرحل مفضياً على أخويه ورجعت
المعرة وسلمية للناصر ، ثم اتفق الكامل على نزع سلمية وتسليمها للمظفر فتسلمها ،
وأرسل إليها نائباً وهو بمصر ، واستقرت بيد الناصر حماة والمعرة وبعين ، وذلك في سنة
عشرين وستمئة .

وفي سنة ست وعشرين انتزعت منه حماة غصباً وتسلمها أخوه المظفر محمود ، على
ما يأتي وأعطى الناصر بارين .

وفي سنة ثلاثين استأذن أخوه المظفر الكامل في انتزاع بارين منه ، لأنه خشى أن
يسلمها للفرنج لضعفه ، فحاصره المظفر وتسلمها ، ولما نزل الناصر إلى أخيه أحسن إليه ،

(١) ورد ذكره في المختصر في أخبار البشر ١٢٦/٣ ، مفرج الكروب ٨٩/٤ .

وسأله أن يقيم عنده بحماة ، فامتنع وسار إلى مصر ، فأعطاه الكامل اقطاع مائتي فارس ، وأرسل الكامل يطلب منه أملاك والده التي بمصر والغور فامتنع وأغلظ للرسول ، فاعتقله الكامل بقلعة الجبل إلى أن مات قبل الكامل بأيام سنة خمس وثلاثين وستمائة .

ومنهم : الملك المظفر ^(١) محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي الملك المظفر بن المنصور بن المظفر ، صاحب حماة ، تقي الدين ، سمي أولاً عمراً وإنما سمي محموداً بعد ذلك ، وأمه ملكة خاتون بنت (ق ١٠٨ أ) العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذي ولد بقلعة حماة يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان سنة تسع وتسعين وخمسمائة وهو أسن من أخيه الناصر بسنة .

وفي سنة ست عشرة جعله والده ولي عهده ، وجرّد معه عسكرياً نجدةً للكامل خاله ، فلما وصل إليه أكرمه وأنزله ميمنة عسكريه ، منزله أبيه وجدّه .

وفي سنة عشرين انتزع الكامل سلمية من أخيه الناصر وسلمها للمظفر وهو بمصر .

* ذكر ملكه حماة في سنة ست وعشرين *

نزل الكامل بمجمع المروج ، ثم نزل سلمية ، وأرسل عسكرياً نازلوا حماة وبها صاحبها الناصر قليج أرسلان أخو المظفر ، وكان فيه جبن ، فلو عصى وطلب عنها عوضاً كبيراً من الكامل لأجابه ، لكنه خاف ، وكان في العسكر الذين نازلوا حماة شيركوه صاحب حمص ، فأرسل الناصر يقول لشيركوه : إني أريد أن أخرج إليك بالليل لتحضرني عند الكامل ، وخرج الناصر إلى شيركوه في العشر الأخير من رمضان ، فأخذه شيركوه ومضى به إلى الكامل وهو بسلمية ، فحين رآه الكامل شتمه وأمر باعتقاله ، وأن يتقدم إلى

(١) انظر : البداية والنهاية ٥/١٤ ، كنز الدرر ٣٥٦/٧ ، تاريخ ابن الوردي ٢٥٠/٢ ، المختصر في أخبار البشر ١٧٣/٣ ، السلوك ٣١٨/١ ، كنز الدرر ٣٥٦/٧ .

نوابه بحماة بتسليمها إلى عسكر الكامل ، فأرسل الناصر علامته إلى نوابه ، فامتنع من ذلك الطواشيان^(١) بشير ومرشد المنصوريان ، وكان للناصر بالقلمة أخ شقيق يقال له العزيز وقيل المعز فملكوه حماة ، وقالوا لرسول الكامل : لا نسلم حماة لغير أولاد تقي الدين ، وثارت العامة عليهم ورجموهم بالحجارة ، فأرسل الكامل يقول للمظفر : اتفق مع غلمان أيك ونسلم حماة ، وكان المظفر نازلاً على حماة من جملة العسكر الكاملى ، فراسل المظفر جماعة حماة ، فحلفوا له وحلف لهم وواعدوه أن يحضر وقت السحر إلى باب النصر وقيل من الليل فى الليلة الثانية ، وألا يدخل أحد من عسكره الكامل ، فجاء وفتحوا له الباب ، ودخل البلد ومضى إلى دار الوزير المعروفة بـ دار الأكرم وهى الآن مدرسة تعرف بـ الخاتونية وقفها مؤنسة خاتون بنت المظفر المذكور وأصبح الناس مهتئين له بوصول الحق إليه وذلك فى العشر الأخير من رمضان ، ولما ملك حماة فوض أمر تدييرها إلى سيف الدين على بن أبى الهذبانى وكان يقول للمظفر أشتهى أن أراك فى حماة وأكون بفرد عينى فأصيبت عينه على حصار حماة لما نازلها عسكر الكامل ، فحظى عند المظفر لأجل كفايته وحسن تدييره وأخذ (ق ١٠٨ ب) الكامل منه سلمية وسلمها إلى شيركوه ، وأخذ بارهين وسلمها للناصر أخى المظفر ، وكان للناصر فمائل المظفر ولم يحصل للناصر منها شىء واستقر بيد المظفر حماة والمرة لا غير وهنى المظفر بقصائد ، منها قصيدة شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن الحسين الأنصارى^(٢) الدمشقى وهى :

تناهى إليك الملك واشتد كاهله	وحل بك الراجى فحطت رواحله
ألا هكذا فليرمى المجد مانع	ألا هكذا فليربذل الجود باذله
ترحلت عن مصر فأمحل ربهما	ولما حلت الشام روض ماحله

(١) المملوك الخصى . انظر معبد النعم ٢٩ .

(٢) هو الفقيه والمحدث صاحب شرف الدين بن عبد العزيز بن محمد ابن قاضى حماة ، ولد بدمشق سنة ٥٨٦ هـ ومات سنة ٦٦٢ هـ .

انظر : النجوم الزاهرة ٢١٤/٧ ، طبقات السبكي ١٠٨/٥ ، فوات الوفيات لابن شاعر الكتيبي ٥٩٨/١

وعزت حماة في حمى أنت غابه
وقد طالما ذلت بتدبير أهوج
فأمضى عليها الشكر فرضاً للوزها
سبقت إلى رد العلا كل سابق
وعدلت بالعدل الزمان وزدته
إذا فاعل رام ارتفاعاً لمعه
وذي أمل أعطيته فوق سوله
وغاو سبقت العدل بالسيف رادعاً
أبر تقي الدين جوداً وسوداً
وفاق على الأملاك معنى وصورة
هم القوم إن سيموا وعوداً بأجل
وان شغلتم دمية أو مدامة
فما لبني أيوب ملك مساجل
فكم فض ضيق حين زارت هباته
ملك لشمل المكرمات مجمع
ويحر طويل الباع منسرح الندى
بذل معاوديه ويمتاز جاره
ويلقى حصينات الدروع غنيمه
دعاه إلى حب الماضي قضاؤه
وعم اليتمامي والأرامل بره
وقد كانت الدنيا تحاول كاملاً
بلغت بمدحى فيه أبعد غاية
ومن جوده شكوى ولم تثن روضة
تعدى نداء الجم أقصى ما ربي
وقر قرارى في حنان جنانه

بصولته تحمى كليب وواللهي
خيب مرجيه ويحرم سائله
بذي كرم فاضت عليها نوافله
فما نال إلا فضل ما أنت نائله
سنا فاستوت أسحاره واضائله
فلمعك مرفوع بأنك فاعله
ففاضت أمانيه وفاضت مناهله
له فاهتدت لما أصيبت مقاتله
فعمت عطاياه وتمت فضائله
فراق محياة ورقت شمائله
سماهم جواد يسبق الوعد عاجله
بلهو فلا هزل عن الجد شاغله
ولا في بني أيوب ملك مساجله
وضاق فضاء حين سارت جحافلها
فلا جمع إلا وهو بالهزل شامله
بسبط المعالي وافر الفضل كامله
وترجى عطاياه وتخشى غوائله
إذا ما التقى أقرانه وعوامله
وهل يصحب الإنسان من لا يشاكله
فكل الوري أيتامه وأرامله
فقد أدركت في عصره ما تحاوله
فبلغت من جدواه ما أنا أمه
على المزن بل أثنى على المزن وابله
فأفضلت مما أمطرتني فواضله
وقد قلقت بابن الحسين قلائله

وصار قريظى مدح أشرف ضيفم فلم ابتذله فى غزال أغزاله (١)

وفى سنة ست وعشرين أيضاً عقد المظفر عقده على بنت خاله الكامل غازية خاتون ،
وكانت أمانيه متعلقة بها وبملك حماة .

لما كان بمصر وكان بصحبتة وهو بها الزكى عبد الرحمن القوصى (٢) فأنشده الزكى
يوماً بمصر (٣) :

متى أراك كما تهوى وأنت ومن تهوى على رغمهم روحين فى بدن
هناك أنشد والآمال حاضرة هنت بالملك والأحاب والوطن

فوعده إن حصل له ذلك أن يعطيه ألف دينار ، فلما جرى له ذلك ، دخل عليه
فأنشده :

مولاي هذا الملك قد نلته برغم مخلوق من الخالق
والدهر هنا لما تشتهى فذا أوان الموعد الصادق

فدفع له ألف دينار ولزمه الزكى فى أسفاره فأنفق الألف ، ولم يحصل بيده زيادة
فقال :

ذاك الذى أعطوه لى جملة قد أستردوه قليلاً قليل
فليت لم يعطوا ولم يأخذوا وحسبى الله ونعم الوكيل

فبلغ ذلك المظفر فأخرجه من دار كان أنزله فيها فقال :

(١) وردت القصيدة فى ديوانه ٤٠٣ .

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن الحسن المنعوت بالزكى القوصى كاتب شاعر مات سنة ٦٣١ هـ .
انظر : فوات الوفيات ٢/٢٦٨ ، الطالع السعيد ٢٨٧ .

(٣) انظر : الطالع السعيد ٢٨٧ ، بدائع الزهور ١/٧٨ ، المختصر ٣/١٤٥ ، تاريخ ابن الوردي ٢/٢١٩ .

أخرجني من كسر بيت مهدم
فإن عشت لم أعدم مكاناً يظلني

ولى فيك من حسن الثناء بيوت
وأنت فتدري ذكر من سيموت

فجبه المظفر ، فقال : ما ذنبي ؟ فقال : وحسبى الله ونعم الوكيل وأمر بخنقه فلما
أحس بذلك قال :

أعطيتنى الألف تعظيماً وتكرمة

بالبيت شعري أم أعطيتنى ديتي

قال الصفدى : لو كنت حاضراً لأنشدته :

ومنت كالمتمنى أن يرى فلماً

من الصباح فلما أن رآه عمى

* ذكر قصد الفرنج حماة سنة سبع وعشرين *

فى رمضان قصد الفرنج حماة فى جموع كبيرة ، ووصلوا إلى أفيون - بليدة بين
حماة ويعرين - فخرج إليهم المظفر ، والتقوا هناك ، فولوا منهزمين ، وقتل من فرسانهم
جماعة وأسرو جماعة ودخل حماة منصوراً فمدحه الشعراء بقصائد منها (١) :

أبشر بما شئت من نصر وتأيد
وأنت ليث وغى تدمى مخالبه
وأنت غيث ندى تجرى عوالده
فرقت بين المعالى والثراء كما
يذم بعض الورى بعضاى وقولهم
ملك إذا غرق الأملاك فى قنص
وان سبقهم ذوات الحسن مال بهم
ومنها :

فَعَنكَ يروى حديث الباس والجود
فى نحر كل طويل الباع صليد
بجوده قبل جرى الماء فى العود
جمعت فى العدل بين الشاء السيد
ما فى البرية محمود كمحمود
فصيده غلب آل الأصفر الصيد
قطع الظلى عن وصال الخرد الغيد

ولا قنعت بإرهاب وتهديد

فما جنحت إلى سلم على غين

(١) وردت القصيدة فى مفرج الكروب ٢٠٣/٤ .

أقبلتم رجب صدر ليس يخرجه
ورعتم بخميس قل جمعهم
فغودروا بين مجروح ومختبل
إن خبروا عنك بالبأس الفظيع لقد
صاروا قطائع إذ راموا القطائع للـ
فلا تدع غزومهم في عقر دارهم
وأسلم لك الملك مقصوراً عليك ولا

ضيق المجال وقلبا غير مزود
بحر ضرب طعن كالأخاديد
يبكى على هالك منهم ومفتود
قام العيان بتصديق الأسانيد
قواطع البيض في حجب الوغى السود
صفوا إلى الزور من نوم وتفتود
زال الوري تحت ظل منك ممدود

وفي سنة ثلاثين ملك بارين من أخيه الناصر - كما قدمناه - فهناك شرف الدين عبد
العزيز بقصيدة أولها (١) :

يوم نصرت به العلياء والجودا
وموقف سوت كل الحاسدين به
انطلقت بالفتح أعواد الشوح وما
لولاك منا شد أزر المسلمين كما
بادرت بارين إذ بارت رعيتها
فأصبحت كحماة في حمى ملك
لا زالت تغدى بمن جاوزت رتبته
ودام قولى في مدحيك مشتهراً

ساعة غادرت صيدا لك الصيدا
كما سررت به عدلا وتوحيدا
أخليت عن ذكره من منبر عودا
بنيان عزهم لولاك ما شيدا
جهدا وغودر عنها الأمن مطرودا
بالعدل يجمع فيها الشاء والسيدا
كما يخلدك الرحمن تخلصدا
ودام فعك يا محمود محمودا

وفي سنة إحدى وثلاثين استتم بناء قلعة المعرة في شهرين ، وعمل فيها جامعاً
وأكمل آلاتها ورجالها في هذه المدة القريبة ، ولم يكن عمارتها مصلحة لأن الحلبيين
حاصروها فيما بعد وأخذوها وخربت المعرة بسببها وهناك شرف الدين بقصيدة مطلعها :

(١) وردت في ديوانه ١٦٢ .

مضى بمضاه عزمك القضاء

ومنها :

وصلت كما وصلت فكل قلب

ووافيت المعرة مستجداً

لديه تخضع الآمال صفراً

ومنها :

لقد أتممتها فوزاً ومجداً

لها بوقارك الوافي ثبات

تناهت في مدى ستين يوماً

ومنها :

ومد العاملين إلى المعالي

وشاء لك المهيمن ما تشاء

تعارض فيه خوفك والرجاء

بناء لا يطاوله بناء

وفيه تحصد الأرض السماء

فتم بها السنا ونمى السناء

ومن طمّاح همته اعتلاء

وقد بارى أباديك الشتاء

وظالعهم فطال له البقاء

ذكر وفاته وسيرته

أصابه فالج في شعبان سنة تسع وثلاثين ، وقيل ثمان وليس بصحيح وهو جالس بين أصحابه في قلعة حملة وبقي أياماً لا يتكلم ولا يتحرك ، وذلك آخر الشتاء ، وأرجف الناس بموته ، وقام بتدبير المملكة مملوكه وأستاذ داره سيف الدين طغريل ، ثم خف مرضه وفتح عينيه ، وصار يتكلم باللفظة واللفظتين ولا يكاد يفهم ، وكان العاطب الجانب الأيمن ومث إليه الصالح طبيباً حاذقاً نصرانياً يقال له النفيس ولم ينجح فيه المداواة . وتوفي يوم السبت ثامن جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وستمائة وهو مفلوح بحمى حادة عرضت له وأقام مريضاً بالفالج سنتين وتسعة أشهر ، وكان عمره ثلاثاً وأربعين سنة ومدة ملكه لحماة خمسة عشر عاماً وسبعة أشهر وعشرة أيام وكان شهماً شجاعاً فطناً ذكياً وحب أهل الفضائل العلوم ، استخدم الشيخ علم الدين قيصر^(١) المعروف بتعاسيف وكان مهندساً

(١) انظر : الطالع السعيد ٤٦٩ ، السلوك ٢٣٢/١ .

فاضلاً في العلوم ، فبنى للمظفر أبراجاً بحمأة وطاحونا على العاصي^(١) وعمله كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصدة .

قال ابن واصل : وساعدت الشيخ علم الدين على عملها ، وكان الظفر يحضر نحن نرسمها ، ويسألنا عن مواضع دقيقة منها . ولما مات المظفر ولى ولده المنصور محمد ومرجع الأمر إلى والدته عازية خاتون بنت الكامل .

ومنهم العزيز وقيل المعز^(٢)

ابن المنصور محمد بن المظفر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي فلما نازل الكامل حمأة وبها أخوه الناصر قليج أرسلان بن المنصور محمد ، ونزل إلى الكامل واعتقله ، سلطن أهل حمأة للعزيز هذا وقالوا : لا يخرج الملك عن بني نقي الدين عمر فأقام أياماً ثم ولى المظفر محمود كما قدمنا .

ومنهم : الملك المعظم^(٣) سليمان بن شاهنشاه بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي الملك المعظم قطب الدين سعد بن المظفر ملك اليمن ، كان فقيراً يحمل الركوة^(٤) على كتفه ويتنقل مع الفقراء من مكان إلى مكان فلما سم الناصر أيوب بن طفتكين بن أيوب ابن شاذي زوج أمه ، وتملك وهو غازي ابن جبريل ثم قتلته جماعة من العرب بسبب قتله الناصر وهو ابن عم جد المعظم هذا وعلت (ق ١١١ أ) أم الناصر على مملكة يزيد وأحرزت الأموال فكانت تنتظر وصول أحد من بني أيوب وتتزوج به وتملكه وأرسلت بعض غلمانها إلى مكة في الموسم ليأتيها بأخبار مصر والشام فوجد سليمان فأحضره إلى اليمن

(١) نهر حمأة وحمص يصب في البحر قرب أنطاكية . انظر : معجم البلدان .

(٢) لم نشره على ترجمة .

(٣) انظر : مفرج الكروب ١٣٨/٣ ، كتر الدرر ١٥٦/٧ .

(٤) إناء صغير من جلد .

فخلعت عليه وملكته ، فملا اليمن ظلماً وجوراً وأطرح زوجته التي ملكته وأعرض عنها .
وكتب إلى العادل أبي بكر وهو عم جده - كتاباً أوله : « إنه من سليمان وإنه بسم الله
الرحمن الرحيم » فاستقل الملك العادل عقله .

قال الدوادار : جلس في الملك سادس ربيع الأول سنة عشر وستمائة ، ثم اتفق أن أهل
جبل صبر خالفوا عليه ، فقصدوا تعز فقاتلهم وهزمهم ، وفي أثناء ذلك وصل الخبر بوصول
المسعود يوسف بن الكامل محمد إلى مكة سنة إحدى عشرة ، فهرب من زيد ، ثم ظفر به
المسعود وبعث به معتقلاً إلى مصر فأجرى له الكامل ما يقوم به ، ولم يزل مقيماً بالقاهرة
إلى سنة ثمان وأربعين وستمائة فخرج إلى المنصورة غازياً فقتل شهيداً .

ومنهم : الملك الناصر^(١) يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب بن شاذي
الملك الناصر ، صلاح الدين بن الملك العزيز بن الظاهر صاحب حلب والشام وغيرهما .
ولد سنة سبع وعشرين وستمائة وملك حلب عند موت والده . في ربيع الأول سنة أربع
وثلاثين وستمائة ، وقام بتدبيره شمس الدين لؤلؤ الأرميني^(٢) والمرجع إلى جدته ضيفة
خاتون بنت العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذي واستقل بالملك بعد وفاتها في سنة أربعين
وفك عن نفسه الحجر ، وعمره ثلاث عشرة سنة ، ولما مات العزيز أرسل إلى الكامل يخبر
بوفاته ، وأرسل زرديته فحلف له ، وأشار أن يتقدم الصالح من الظاهر على عسكر حلب ،
وأن يتولى أمر ابن أخيه . فلم ترض الصالحة ضيفة بذلك ثم سير للناصر خلعة بغير مركوب
وخلعاً للأمراد وسير مع رسول آخر للصالح ابن الظاهر خلعة ، فاستشعرت الصالحة من ذلك
ولبس الناصر الخلعة ، ولم يلبس أحد من الأمراء ، ولم تمكن الرسول الموصل إلى الصالح
من التوجه إليه ، وفي سنة أربع وثلاثين أرسل صاحب شيزر وابن العجمي^(٣) رسولا إلى

(١) انظر : شذرات الذهب ٢٩٩/٥ ، العبر ٢٥٦/٥ ، مرآة الجنان ١٥١/٤ ، فوات الوفيات ٣٦١/٤ .

(٢) مقدم عسكر حلب ، قتل سنة ٦٤٨ هـ . انظر النجوم الزاهرة ٢١/٧ .

(٣) انظر : النجوم الزاهرة ٢٢٤/٧ .

الأشرف يطعمانه في حلب ، فلم يجبهما ووصل الخبر إلى الصاحبة فسكت الرسول قبل أن يعود إليهما ، فحبس وحلقت لحيته ، ثم أحضرت صاحب شيزر وابن العجمي واعتقلهما وفيها خرج الفرنج بعد وفاة العزيز من بغراس واستاقوا أغناماً (ق ١١٢ ب) فخرج إليهم المعظم بن الناصر مقدما على عسكر حلب ، فحاصر بغراس مدة ، وأشرف على أخذها ، فشنع فيهم صاحب انطاكية فأجابه المعظم وعقد الهدنة وعاد إلى حلب .

ذكر أخذ المعرة وحصار حماة

سنة خمس وثلاثين

ولما بلغ الحلبيين موت الكامل ، اتفقت أراؤهم على أخذ المعرة ، ثم أخذ حماة من المظفر لموافقة الكامل على قصدهم ، ووصل عسكر حلب إلى المعرة ، وانتزعتها من المظفر ثم حاصر قلعتها وملكها ، ثم ساروا إلى حماة ومقدمهم المعظم بن الناصر ونازلوا حماة وبها صاحبها المظفر ، ونهبوا .

ودخلت سنة وثلاثين وهم في الحصار ، فتقدمت الصاحبة بالرحيل ، لأنها كانت تكره مضايقة ابن أختها ، وأنفق المظفر في ذلك أموالاً عظيمة . وفيها أرسل العادل بن الكامل يطلب الموافقة على أن يخطبوا له فلم توافقه الصاحبة . وفيها خطيب لغيث الدين صاحب الروم - بعد أن أرسل يطلب ذلك .

ذكر كشرة الخوارزمية سنة ثمان وثلاثين

رحلت الخوارزمية من حران وقطعوا الفرات ، ووصلوا إلى غزار ثم إلى سرمين ثم المعرة وهم ينهبون ما يجدونه . فإن الناس جفلوا بين أيديهم وكان قد وصل المنصور صاحب حمص ومعه عسكر دمشق بجدة الحلبيين . واجتمع الحلبيون مع صاحب حمص وقصدوا الخوارزمية على ما هم فيه من النهب ، حتى نزلوا على شيزر ونزل الحلبيون على تل

السلطان^(١) ثم رحلت الخوارزمية إلى جهة حماة ، ولم يتعرضوا لنهب ، ثم ساروا إلى سلمية ثم إلى الرصافة^(٢) طالبين الرقة ، وسار الحلبيون من تل السلطان إليهم ولحقهم العرب ، فأدمت الخوارزمية ما معهم من المكاسب وسيروا الأسرى ، ووصلوا إلى الفرات أواخر شعبان ولحقهم الحلبيون واقتتلوا إلى الليل ، ثم قطع الخوارزمية الفرات إلى حران ، فسار عسكر حلب إلى البيرة^(٣) وقطعوا الفرات ، وقصدوا الخوارزمية وأيقعوا قرب الرها لسبع بقين من رمضان ، فولى الخوارزمية منهزمين ، وركب الحلبيون أقفيتهم يقتلون وبأسرون إلى أن حال الليل بينهم . ثم سار الحلبيون إلى حران فاستولوا عليها ، وهربت الخوارزمية إلى عانة وبادر بدر الدين صاحب الموصل (ق ١١٢ أ) إلى نصيبين ودارا^(٤) وكانتا للخوارزمية ، فاستولى عليهما وخلص من كان بهما من الأسرى ، وكان فيهم المعظم بن الناصر وذلك من حين أسرته الخوارزمية من كسرة الحلبيين وذلك أنه لما أكثر أذى الخوارزمية فسادهم ، بحيث أنهم ارتكبوا من الفواحش أكثر مما ارتكبه التتر فأرسل إليهم الناصر عسكراً عليه المعظم ، فانهزموا وقتل منهم جماعة عظيمة منهم الصالح بن الأفضل بن السلطان صلاح الدين ، واستولى الخوارزمية على أثقالهم وأسروا وقتلوا ، وجفل أهل الحواضر إلى حلب واستعد أهل حلب للقتال ثم سارت الخوارزمية إلى منبج وهجموها بالسيف يوم الخميس لتسع بقين من ربيع الأول من هذه السنة ، وعادوا إلى بلادهم ثم عادوا إلى حلب كما حكيناه . انتهى . فحمل بدر الدين المعظم المذكور إلى الموصل ، وقدم له ثياباً وتحفياً ، وبعث به إلى عسكر حلب ، واستولى عسكر حلب على الرقة والرها وسروج ورأس عين وما مع ذلك واستولى صاحب حمص المنصور ابراهيم على الخابور . ثم سار الحلبيون وأنتهم نجدة الروم وحاصروا المعظم بن الصالح أيوب بأمد وتسلموها منه .

(١) مكان يقع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق . انظر معجم البلدان ٤٢/٢ .

(٢) موضع قرب الرحبة في بلاد الشام . انظر معجم البلدان ٤٧/٣ .

(٣) بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية . انظر معجم البلدان ٥٢٦/١ .

(٤) بلدة بين نصيبين وماردين . انظر معجم البلدان ٤١٨/٢ .

ذكر أخذ حمص سنة ست وأربعين

كان الأشرف صاحب حمص قد سلم شميمش إلى الصالح أيوب فتقدم الناصر إلى الصالح اسماعيل ، وقيل بل لؤلؤ الأرمني ، فضايقوها مضايقة شديدة مدة شهرين وكان الصالح أيوب قد عزم إجتادهم ، فعرض له مرض ، فتراخى أمر النجدة ، فتعوض الأشرف تل باشر مضافة إلى (١) تدمر والرحبة وسلمها ثم سار الصالح أيوب إلى الشام ، وأرسل عسكرياً إلى حمص ، فنازلها وخرج الناصر من حلب ، ثم تردد رسول الخليفة فأصلح بينهم . على أن تبقى بيد الحلبيين فأذعن الصالح إلى ذلك ، لأنه قد بلغه أن الفرغ وصلت دمياط وذلك بعد أن نصب عليها منجنيقا حجره مائة أربعون رطلاً بالشامى مع منجنيقات أخرى ، وأشرف على أخذها .

ذكر أخذ نصيبين سنة سبع وأربعين

وقع الحرب بين الناصر وصاحب الموصل ، فأرسل إليه عسكرياً والتقوا بظاهر نصيبين ، فانهزمت المواصلة هزيمة قبيحة ، واستولى الحلبيون على أبقالهم وتسلموا نصيبين ، ثم ساروا إلى دارا ، فنازلوا تسلموها وخربوها بعد حصار ثلاثة أشهر ، ثم تسلموا قرقيسيا (ق ١١٢ب) وعادوا إلى حلب .

ذكر أخذ دمشق سنة ثمان وأربعين

وصل إلى الناصر الخبر بقتل المعظم بن الصالح ، والكتب من الأمراء القيمرية (٢) يستدعونه ويحثونه ، فسار ودخل البلد يوم السبت ثامن ربيع الآخر من غير عمانعة بل فتح له باب البلد جمال الدين بن يغمور (٣) وهو باب الجابية وخلع على الأمراء ، وقبض على جماعة من المصريين ، واستقرت قدمه ، وعصت عليه بعلبك وعجلون وشميمش مدة يسيرة ثم سلمت إليه ، ولما صل الخبر إلى مصر قبضوا على من عندهم بمصر من القيمرية .

(١) مدينة قديمة مشهورة في الشام . انظر معجم البلدان ١٧/٢ .

(٢) نسبة إلى قير قلعة بين الموصل وخراسان .

(٣) هو أحد الأمراء ، مات سنة ٦٦٣ هـ . انظر النجوم الزاهرة ٢١٩/٧ .

ذكر مسير الناصر إلى مصر وكسوته في السنة المذكورة

رحل الناصر من دمشق وصحبته من ملوك أهل بيته^(١) المعظم ونصرة الدين ولدا الناصر والصالح^(٢) وتقى الدين عباس ولدا العادل والأمجد الظاهر^(٣) ولدا الناصر داود^(٤) للأشرف موسى ، ومقدم الجيش لؤلؤ الأرمني يوم الأحد منتصف رمضان ، فلما بلغ المصريين ذلك اهتموا وبرزوا للسلح ، وأفرجوا عن المنصور والسعيد ولدى الصالح اسماعيل وكانا معتقلين وخلع عليهما ليتوهم الناصر من أيهما ، والتقى العسكران بالقرب من العباسية يوم الخميس عاشر ذي القعدة فكانت الكسرة أولاً على عسكر مصر وتبعهم الشاميون ولم يشكوا في القصر ، وثبت المعز أيك في جماعة قليلة ، فخامر على الناصر جماعة من الترك ، فبقى واقفاً تحت السناجق في جماعة قليلة من المتعممين ، فحمل عليه المعز ، فولى الناصر الناصر منهزماً طالباً الشام ، ثم حمل المعز على لؤلؤ فهزمه وأخذه أسيراً فضربت عنقه بين يديه ، وكذلك ضياء الدين القيمرى ، وأسر الصالح والأشرف والمعظم أخوه ، ووصل عسكر الناصر في أثر المنهزمين إلى العباسية ، وضربوا بها دهليز الناصر وهم لا يشكون أن الهزيمة نمت على المصريين ، فلما بلغهم هروب الناصر اختلفوا فمنهم من أشار بدخول القاهرة وتملكها ، ولو فعلوا لما كان فيها من يمنعهم فإن غالب المنهزمين وصل إلى الصعيد . وفيهم من أشار بالرجوع إلى الشام ، وكان معهم تاج الملوك بن المعظم توران شاه بن الناصر يوسف وهو مجروح ، فحمل إلى القدس فمات ووصل

(١) انظر : المختصر في أخبار البشر ١٨٤/٣ .

(٢) انظر : المختصر في أخبار البشر ١٨٤/٣ .

(٣) انظر : المختصر في أخبار البشر ١٨٤/٣ .

(٤) مات سنة ٦٥٦ هـ .

المنهزمون من المصريين القاهرة في غد الواقعة ، وهو يوم الجمعة فلم يشك أهل مصر في ملك الناصر ديار مصر وخطب له بالقلعة ومصر وأما القاهرة فلم يخطب فيها لأحد . ثم وردت البشرى بانتصار المصريين ودخل المعز إلى القاهرة يوم السبت ثاني عشر ذي القعدة (ق ١١٣ أ) ومعه الصالح اسماعيل تحت الاحتياط ، ورجع الناصر إلى الشام سنة تسع وأربعين وأنفق الأموال وجهز عسكرياً إلى غزة . وخرج المصريون إلى الساحل ، فأقاموا إلى أن دخلت سنة خمسين وقيل إحدى وخمسين ، فاستقر الصلح على أن للمصريين إلى نهر الأردن وللناصر ما رآه ذلك بواسطة البادرائي^(١) رسول الخليفة .

غير ذلك وفي سنة اثنتين وخمسين خرج جماعة من البحرية إلى الشام وأطمعوه^(٢) وخرج إلى عمّتا من الغور^(٣) وأرسل إلى غزة عسكرياً ونزل المعز العباسية ثم جاء البادرائي في سنة ثلاث وخمسين فأصلح بينهم على أن للناصر إلى العرش لهم ما سوى ذلك .

وفي سنة أربع وخمسين أرسل للناصر كمال الدين بن العديم^(٤) إلى الخليفة ومعه مقدمة جليلة ووصل من جهة صاحب مصر سنقر الأقرع بتقدمة جليلة وسعى في تعطيل خلعة الناصر ، فبقى الخليفة متحيراً ، ثم إنه احضر سكيناً من اليشم^(٥) وقال لابن العديم : هذه علامة أن للناصر عندي خلعة في قـت آخر . وأما هذا الوقت فلم يمكنني ، ثم أرسلها في سنة خمس وخمسين كما وعده .

وفي سنة خمس وخمسين فارق البحرية الناصر ، وسببه : أنه نقل له عنهم أنهم يريدون القبض عليه فاستوحش منهم ، وتقدم إليهم بالانتزاع ووجه في أثرهم عسكرياً فنهبوه

(١) انظر المختصر في أخبار البشر ١٨٦/٣ .

(٢) المقصد : طمع الملك الناصر يوسف صاحب بلاد الشام .

(٣) قرية في الأردن .

(٤) انظر : ذيل مرآة الزمان ٤٧٩/٢ .

(٥) نوع من الأحجار .

ثم إن الناصرية كسروهم . فانهزموا والتجأوا إلى الكرك وأطمعوا المغيث في ملك مصر ، فانفق فيهم أموالاً جليلاً ، وجهزهم بمسكر إلى مصر ، فانزعج المصريون ، وبرزوا إلى العباسية فالتقوا يوم السبت منتصف ذي القعدة ، فانهزم عسكر المغيث والبحرية . في سنة ست وخمسين أرسل الناصر ولده العزيز محمداً إلى هولاءكو بتحف وهدايا ليصانعه بذلك .

ذكر أخذ التتار بلاد الشام

وما جرى للناصر

لما بلغ الناصر قصد التتر حلب ، برز من دمشق أواخر سنة سبع وخمسين ، وجفل الناس بين يدي التتار ، سار المنصور - صاحب حماة - من حماة إلى دمشق ونزل مع الناصر ، واجتمع مع الناصر أم عظيمة . فلما دخلت سنة ثمان بلغ الناصر أن جماعة قصدا قتله ، فهرب من الدهليز إلى القلعة ، وبلغ مماليكه ذلك فهربوا وكذلك أخوه غازي ، وذلك أن المماليك أشاعوا أنهم لم يريدوا قتله وإنما أرادوا سلطنة أخيه لشهامته .

وفي يوم الأحد تاسع صفر سنة ثمان وخمسين استولى التتر على حلب ، وذلك أن هولاءكو نازلها وأرسل إلى المعظم بن صلاح الدين - نائب حلب - يقول : إنكم (١١٣هـ) تضعفون عن لقاءنا ، ونحن إنما قصدنا الناصر ، فاجعلوا لنا عندكم شحنة ، ونحن نتوجه إلى العسكر فإن كانت الكسرة على المسلمين كانت البلاد لنا . وتكونون قد حققتم دمائكم وإن كانت الكسرة علينا فأنتم مخيرون في الشحنة . فلم يجب المعظم ، وقال : ما لكم عندنا إلا السيف . كان الرسول إليهم صاحب أرزن^(١) الروم ، فتألم لذلك ، لما علم من هلاك أهل حلب ، فاحتاط بها هولاءكو ثاني صفر وهجموا السور ، وقتل من المسلمين جماعة كبيرة ، منهم أسد الدين بن الزاهر ابن الناصر بن أيوب ، ثم هجموا البلد تاسع صفر ،

(١) مدينة مشهورة قرب خلاط . انظر معجم البلدان ١٥٠/١ .

وبذلوا السيف ، وصعد إلى القلعة خلق من المسلمين ، ودام القتل والنهب إلى يوم الجمعة رابع عشر صفر ، فنودي بالأمان ، ونازلوا القلعة وبها المعظم ، واستمر الحصار نحو شهرين ، وسلمت بالأمان يوم الاثنين حادي عشر ربيع الأول ، وأمر هولاءكو : إن كل من سلم يمضى إلى داره لا يعارض . وجعل النائب بها بهاء الدين القزويني ، ووصل إليه - وهو بحلب - الأشرف صاحب حمص ، ولم تكن يومئذ معه ، فردها عليه ، وأمر هولاءكو بخراب سور قلعة حلب ، فخربت ، وبيعت الكتب بأبخس الأثمان . فلما سمع الناصر بأخذ حلب رحل إلى جهة مصر وفي صحبته المنصور صاحب حماة ، وانضم إليه جماعة واصطلى مع أخيه ، ثم سار الناصر إلى غزة ، فبلغه أن التتر كبت ناهلس فرحل إلى العرائش ، وسير رسلاً إلى مصر يطلب المعاوضة ، وخاف إن دخل مصر أن يقبض عليه . فتأخر في قطية^(١) ، ودخلت العساكر والمنصور إلى مصر ، فلما دخلوا مصر طيب صاحبها قلب المنصور ، وأرسل إليها منجقاً ، واستولى التتر على الشام جميعه في تلك السنة .

وأما الناصر فلما انفرد عن العسكر بقطية بقي متحيراً ، فعزم على التوجه إلى الحجاز ، وكان له طبردار كردى اسمه حسين ، فحسن له المضى إلى التتر ، فاغتر بقوله ، ونزل بركة زيزا^(٢) ، وسار حسين إلى كتبغا نائب هولاءكو وعرفه موضعه ، فأرسل كتبغا وقبض عليه ، وأحضره إلى عجلون ، وكانت عاصية ، فأمرهم بتسليمها إليهم فهدموها ، وكان بالصبيبة السعيد بن العزيز ، فسلمها إليهم ، وصار معهم ، وأرسل كتبغا الناصر إلى هولاءكو فوصل إلى حماة ، وبها الأشرف صاحب حمص ، فخرج إلى لقائه ، ثم سار إلى حلب ، فلما رأى ما حل بها بكى وأنشد^(٣) :

(١) قرية في مصر . انظر معجم البلدان ٣٧٨/٤ .

(٢) قرية من قرى البلقاء . انظر معجم البلدان ١٦٣/٣ .

(٣) انظر : النجوم الزاهرة ٢٠٥/٧ ، فوات الوفيات ٣٦٣/٤ .

سلى حلب الشهباء فى كل بقعة
فتك مرامى لا العقيق ولا اللوى
ولما بعد عنها قليلاً أنشد :

ناشدتك الله يا هطالة السحب
لا عذر للشوق أن يمشى على قدر
أحبابنا لو درى قلبى بأنكم
لكن أصعب ما ألقاه من ألم
ثم بكى طويلاً وأنشد (١) :

يعز علينا أن نرى ربكم ببلى
أقلب طرفى نحوكم فى دياركم
لقد مر لى فيها أفانين لذى
وفى نسخة :

لما كان أهنا العيش فيها وما أجلي

أحبابنا والله ما قلت بعدكم
عبرت على الشهباء وفى القلب حسرة
وقد حكموا فى مهجتي حكم ظالم

محابب غيث نوها ماء أدمى
وتك رهوى لا زود ولعلنى (١١٤)

إلا حملت تحياتى إلى حلب
ماذا عسى يبلغ المشتاق فى الكتب
تدرون ما أنا فيه لذى تعبى
انى أموت ولا تدرى الأحبة بى

وكانت به آيات حسنكم تتلى
فأكثر فيها اللوح كالناحية الثكلى
ترى هل لأوقاتى بها عودة أم لا ؟

لحادثة الأيام رفقا ولا مهلا
ومن حولها ترك تبايعها مفلا
وما ظالم إلا سبيلى كما أبلى

ثم سار إلى الأردن فاقبل عليه هولاءكو ووعدوه برد ملكه .

ذكر مقتل الملك الناصر سنة تسع وخمسين وستمائة :

ورد الخير بقتله ، وعقد عزائه بجامع دمشق فى سابع جمادى الأولى ، وصورة الحال
له : لما وصل إلى هولاءكو ووعدوه برد ملكه ، وأقام عنده ، فلما بلغ هولاءكو كسرة عسكره
بعين جالوت (٢) وقتل كتبنا صهره ، ثم كسرة عسكره على حمص ثانياً ، غضب من ذلك

(١) انظر : تاريخ ابن الوردي ٢٩١/٢ ، المختصر ٢٠٤/٣ .

(٢) بلدة صغيرة بين ناهلس وبيسان من أعمال فلسطين . انظر معجم البلدان ١٧٧/٤ .

وأحضر الناصر وأخاه الظاهر غازياً وقال : إن عسكر الشام فى طاعتك ففررت بى وقتلت
 المغل ، فقال الناصر : لو كنت بالشام ما ضرب أحد فى وجه عسكرك سيفاً ، ومن يكن
 بتبريز^(١) كيف يحكم على الشام ؟ فضربه هو لاكو بفردة نشاب ، فقال الناصر : يا خونند
 الصنيعة ، فنهاه أخوه الظاهر ، وقال : قد حضرت ، ثم رماه بفردة ثانية فقتله ، ثم أمر
 بضرب رقاب الباقيين ، فقتل الظاهر أخو الناصر والصالح بن صاحب حمص والجماعة ،
 وشفعت الخاتون فى العزيز (١١٤ ب) ابن الناصر ، فبقى عندهم مدة طويلة وأحسنوا إليه
 ثم مات .

ذكر سيرة الناصر

كان ملكاً جليلاً ، زائد التجمل ، يذبح كل يوم فى مطبخه أربعمئة رأس غنم ،
 وسماطاته وتجمله فى الغاية القصوى ، حليماً يتجاوز به الحلم إلى حد أضر بالمملكة . أمنت
 الحرامية ، وقطعت الطرق ، وبقى المسافر لا يقدر على السفر إلا برفقة من العسكر ، وكثر
 طمع العرب والتركمان ، وكانت الحرامية تكبس الدور ، ومع ذلك إذا حضر القاتل بين
 يديه يقول : الحى خير من الميت ويطلقه ، فأفسد نظامه ، وكان على ذهنه شىء كثير من
 الأدب والفوائد ، وله أشعار كثيرة ، منها^(٢) :

فوالله لو قطعت قلبى تأسفاً
 لما زادنى إلا هوى ومحبة
 وجرعتنى كاسات دمعى دماً صرفاً
 ولا اتخذت روحى سواك لها إلهاً

وزاد ملكه على ملك أبيه وجده ، فإنه ملك حلب وحران والرها والرقه ورأس عين وما
 مع ذلك ، وملك حمص ودمشق وبعليك والأغوار والساحل إلى غزة ، وعظم شأنه ، وكسر

(١) أشهر مدن أذربيجان .

(٢) انظر : فوات الروفيات ٣٦٣/٤ ، تاريخ ابن الوردي ٣٠٣/٢ .

عساكر مصر ، وخطب له بمصر والقلمة ، وكان قد غلب على الديار المصرية لولا الأقدار
وبنى بدمشق مدرسة قرب الجامع ، ووقف عليها وقفاً جليلاً ، وبنى بالصالحية نربة غرم
عليها جملة مستكثرة . ومن العجب أن الناصر دفن ببلاد المعجم ، ودفن بتربته كرمون وهو
بعض أمراء التتر . ومدة عمر الناصر اثنان وثلاثون سنة ، وملكه خمس وعشرون سنة .

ومنهم الملك الظاهر^(١)

غازي بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب بن شاذي ، الملك الظاهر بن العزيز بن
الظاهر بن الناصر . تقدمت أخباره في ترجمة أخيه الناصر ، وكيفية قتل التتر له سنة تسع
خمسين وستمائة .

ومنهم الظاهر علي^(٢)

ابن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر يوسف بن أيوب بن شاذي .

ومنهم غازية خاتون^(٣)

بنت العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر يوسف بن أيوب بن شاذي ، تزوجها
كيخسرو صاحب الروم علي صداق خمسين ألف دينار .

(١) انظر : شذرات الذهب ٢٩٨/٥ .

(٢) انظر : ذيل مرآة الزمان ١٣٠/٢ .

(٣) لم نشر له علي ترجمة .

ومنهم عائشة خاتون^(١)

بنت العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر يوسف بن أيوب بن شاذي ، تزوجها المنصور محمد بن المظفر محمود بن المنصور محمد بن المظفر وعمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن شاذي ، وأرسل الطواشي مرشداً المنصوري ومجاهد الدين أمير جاندار وأحضرها من حلب ، فوصلت حماة في العشر الأوسط من رمضان سنة خمس وأربعين ستمائة ، ووصلت في تجمل عظيم واحتفل المنصور للقائها احتفالاً عظيماً (١١٥ أ) .

ومنهم الملك العادل^(٢)

أبو بكر بن داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، الملك العادل ، سيف الدين ابن الناصر ابن المعظم بن العادل . جمع بين الرياسة والفضيلة والعقل الوافر والخصال الجميلة ، وكان بجانب الناس ، محبوب الصورة ، توفي يوم الخميس عاشر رمضان سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، ودفن بالتربة المعظمية .

ومنهم الملك الأوحده^(٣)

يوسف بن داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، الملك الأوحده ، نجم الدين ابن الناصر بن المعظم بن العادل . كان من المشهورين بالجلالة والتقدم في المجالس وعند الملوك ، كثير الإحسان إلى الضعفاء ، توفي ليلة الثلاثاء رابع عشرين ذى الحجة سنة ثمان وتسعين وستمائة بالقدس ، ودفن من الغد برباطه عند باب حطة .

(١) لم نثر له على ترجمة .

(٢) انظر : تاريخ ابن الفرات ٢٨٤/٧ ، الدارس ٢٨٢/١ .

(٣) شذرات الذهب ٤٤٣/٥ ، النجوم الزاهرة ١٨٩/٨ .

ومنهم الملك المظفر^(١)

غازى بن داود بن عيسى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك المظفر ، شهاب الدين بن الناصر بن المعظم بن العادل . مولده سنة تسع وثلاثين (وستمائة) بقلعة الكرك . وكان أديباً فاضلاً متواضعاً ، حج وزار القدس ، وتوجه إلى دمشق ، ثم عاد إلى القاهرة ، فمات بها يوم الاثنين ثانى عشر رجب سنة اثنتى عشرة وسبعمائة وقت العصر ، وتوفيت زوجته ابنة عمه المغيث بن المعظم وقت العشاء الآخرة ، فخرجت جنازتهما جميعاً .

ومنهم عيسى وشاذى وحسن على^(٢)

وثلاث أخوة لهم لتكملة عشرة ذكور للناصر داود بن المعظم عيسى بن العادل أبى بكر ابن أيوب بن شاذى ، ومنهم ثلاث إناث أولاد الناصر داود بن المعظم عيسى بن العادل بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى .

ومنهم الملك الكامل^(٣)

محمد بن عبد الملك بن عيسى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى الملك الكامل بن القاهر بن المعظم بن العادل . توفى سنة اثنتين سبعمائة .

(١) انظر : الدرر الكامنة ٢٩٥/٣ ، شذرات الذهب ٣١/٦ .

(٢) انظر : شذرات الذهب ٣٣١/٥ ، ذيل مرآة الزمان ٤٧٢/٢ .

(٣) لم نشره على ترجمة .

ومنهم على بن عبد الملك^(١)

ابن عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، الأمير ، ابن القاهر بن المعظم بن العادل .
توفى بدمشق يوم السبت تاسع عشرين رجب سنة سبع وسبعمائة ، ودفن بقاسيون .

ومنهم عدة بنات للقاهر^(٢)

عبد الملك بن المعظم بن عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، منهن زوجة
خوارزم شاه ، ولم يتفق حملها إليه .

ومنهم اسماعيل بن عبد العزيز^(٣)

ابن عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، الأمير عماد الدين بن المغيث بن المعظم
ابن العادل . توفى ثامن عشرين ربيع الآخر سنة أربع عشرة وسبعمائة ، ووالد محمد .

ومنهم أولاد المغيث^(٤)

عبد العزيز بن المعظم بن عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذى .

(١) انظر : الدرر الكامنة ١٥٠/٣ .

(٢) لم نشر له على ترجمة .

(٣) انظر : الدرر الكامنة ٣٩٣/١ .

(٤) لم نشر له على ترجمة .

ومنهم خاتون بنت عبد العزيز المغيث^(١)

ابن المعظم عيسى بن أبي بكر بن العادل بن أيوب بن شاذى (١١٥ ب) زوجة ابن عمها غازى بن الناصر داود بن المعظم عيسى ابن العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، توفى المظفر يوم الاثنين ثانى عشر رجب سنة اثنتى عشرة وسبعمائة وتوفيت هى بعد العشاء ، وخرجت جنازتهما جميعاً بالقاهرة .

ومنهم ابن للسعيد حسن^(٢)

ابن العزيز عثمان بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذى .

ومنهم المسعود يوسف^(٣)

ابن يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى . الملك المسعود ابن المسعود بن الكامل بن العادل . مات أبوه وهو صغير فى سنة ست وعشرين وستمائة فسماه جده الكامل باسم أبيه ، ولقبه بلقبه ، ومات فى أيام عمه الصالح أيوب ، وخلف ولده الأشرف موسى .

ومنهم الملك المغيث^(٤)

عمر بن أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك المغيث بن الصالح

(١) انظر : البداية والنهاية ٦٨/١٤ ، النجوم الزاهرة ٢٢٤/٩ ، شذرات الذهب ٣١/٦ .

(٢) لم نعثر له على ترجمة .

(٣) انظر : مفرج الكروب ٢٦٢/٤ .

(٤) انظر : شذرات ٢١٥/٥ ، تاريخ ابن الوردى ٢٥٠/٢ ، السلوك ٣١٨/١ .

ابن الكامل بن العادل . كان ولداً حسناً عاقلاً ديناً ، أسره عم أبيه الصالح اسماعيل في سنة ثمان وثلاثين وستمائة وحبسه في بعض أبراج قلعة دمشق . وكان عاقلاً لم يسمع منه كلمة فحش ، ولا كسر قلب أحد وكان جواداً ، وتخلي عنه أبوه بعدما بالغ في خلاصه فلم يقدر . ومات غماً وغيباً في السجن ليلة الجمعة ثاني عشر ربيع الآخر سنة الثنتين وأربعين وستمائة ، فحمل إلى تربة جده الكامل فدفن بها .

ومنهم الملك المعظم^(١)

توران شاه بن أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، الملك المعظم ، غياث الدين بن الملك الصالح بن الكامل بن العادل . لما توفي أبوه سنة سبع وأربعين وستمائة جمع فخر الدين ابن الشيخ الأمراء وحلفهم للمعظم . وكان يحصن كيفاً ونفذوا في طلبه الفارس أقطاي^(٢) فسار على البرية لئلا يعترضه أحد من ملوك الشام ، فكاد يهلك عطشاً هو ومن معه وكانوا خمسين ، فساروا إلى عانة ، وعبروا على بر السماوة ، ودخل دمشق بأبهة السلطنة في أواخر رمضان ، ونزل القلعة ، وأنفق الأموال ، وأحبه الناس ، ثم سار إلى الديار المصرية بعد عيد الأضحى ، فاتفق كسرة الفرنج عند قدومه ، وفرح الناس وتيمنوا بطلعته ، لكن هدت منه أمور نفرت منه القلوب ، منها أنه كان فيه خفة وطيش وسوء تدبير . وكان أبوه يقول : إنه لا يصلح للملك ، وكان حسام الدين بن أبي علي يلح على أبيه في مجيئه فيقول : أجيئه لهم يقتلوه ؟ فكان كما قال . ولما ولى دفع خبز حسام الدين إلى جوهر الخادم^(٣) لا لأمه ، وانتظر الأمراء أن يعطيهم كما أعطى (١١٦ أ) أمراء دمشق فما رأوا لذلك أثراً . وكان لا يزال يحرك كتفه الأيمن مع نصف وجهه وكثيراً ما يولع بلحيته ،

(١) انظر : ذيل الروضتين ١٨٥ ، فوات الوفيات ٢٦٣/١ ، المختصر ١٨١/٣ .

(٢) انظر : النجوم الزاهرة ٣٣/٧ .

(٣) انظر : فوات الوفيات ٢٦٤/١ .

ومتى سكر ضرب الشمع بالسيف ، وقال : هكذا أريد أن أفعل بفلمان أبي ، فتشوش قلوب الجميع . لكنه كان قوى المشاركة فى العلوم ، حسن المباحث ، ذكياً . ومنها : أنه احتجب عن أمور الناس وانهمك على الفساد مع الفلمان ، وما كان أبوه كذلك . وقيل : إنه تعرض لحظايا أبيه . ومنها : أنه قدم الأراذل وآخر خواص أبيه . وكان قد وعد الفارس اقطاى لما قدم عليه الى الحصن أن يؤمره فما وفى له فغضب .

وكانت أم خليل شجر الدر زوجة والده قد ذهبت من المنصورة إلى القاهرة ، فجاء هو إلى المنصورة وأرسل يهددها وبطالبها بالأموال ، فعاملت عليه ، فلما كان سابع عشرين المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة جلس على السماط فضربه بعض البحرية ، فتلقى الضربة فذهبت بعض أصابعه ، فقام ودخل البرج الخشب الذى عمل له هناك وصاح : من جرحنى ؟ فقالوا : بعض الحشيشية ، فقال : لا والله إلا البحرية ، والله لافنينهم ، وخيط المزين يده وهو يتهددهم ، فقالوا فيما بينهم : ثمموه وإلا أبادنا ، فهجموا عليه البرج ، فانهزم إلى اعلاه ، فأوقدوا فيه النار ، فرمى بنفسه وتعلق بذيل الفارس اقطاى فما أجاره فهرب إلى النيل وهو يصيح : ما أريد ملكاً ، دعونى أرجع إلى الحصن يا مسلمون ، أما فيكم من يجيرنى ؟ وكان الذى باشر قتله أربعة .

وحكى أن أباه قال للطوائى محسن : اذهب إلى أخى العادل إلى الحبس وخذ معك من المماليك من يخنقه ، فعرض محسن ذلك على جميع المماليك فامتنعوا إلا هؤلاء الأربعة ، فسلطهم الله على ولده فقتلوه أقبح قتله جرى فاقاً ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ (١) .

وبقى ملقى على جانب النيل ثلاثة أيام منتفخاً حتى شفع فيه رسول الخليفة . قال ابو شامة : أخبرنى من شاهد قتله أنه ضرب أولاً فتلقى السيف بيده ، فاغتبط الناس وقالوا : بعد جرح الحية لا يبنى إلا قتلها ، فلبسها وأحاطوا بالبرج وأمروا زرقاً باحراق البرج ،

(١) سورة فصلت : الآية ٤٦ .

فامتنع ، فضربوا عنقه وأمروا آخر فرماه بالنفط ، فهرب من باه ، وناشدهم الله في الكف عنه وأنه مقلع عما نعموا عليه ، فما أجابوه ، فدخل البحر إلى خلفه فضرب البندقدارى بالسيف فوق ، وقيل : ضربه على عاتقه فنزل السيف تحت ابطه الأخرى . وحدثت : أنه بقى يستغيث برسول الخليفة ، يا أبا عز الدين أدركنى ، فجاء وكلمهم فيه فردوه وخوفوه من القتل فرجع ، فلما أول أودى لا بأس على الناس وإنما كانت حاجة (١١٦ ب) قضيناها ، وسلطنوا شجر الدر . وقال أبو شامة : سلطنوا المعز أليك ، وفيه نظر .

قال ابن واصل : لما دخل قلعة دمشق قامت الشعراء فابتدأ شاعر بقصيدة أولها :

قل لنا كيف جنت من حصن كبلها حين أرغمت للأعداء أنوفها

فقال المعظم في الوقت :

الطريق الطريق يا ألف نحس تارة آمنا وطورا مخوفنا

فلما نزل بقصر الصالحية ، وقع الصريخ بموت أبيه . وكانت مدة كتمان موته ثلاثة أشهر ، وكان يخطب بولاية العهد للمعظم ، ثم قدم عليه نائب السلطنة حسام الدين بن أبى على فخلع عليه خلعة تامة ، وسيفاً محلي ، وفرساً يسرج محلي ، وثلاثة آلاف دينار . قال : كنت يومئذ مع حسام الدين فذكرنى للسلطان فأتيته وقبلت يده ، ثم حضرت أنا وجماعة من علماء مصر عنده فأقبل علينا . وذكر ابن نباتة^(١) : مشاكلة للخطيبين عماد الدين وأصيل الدين الأسعدى ، فما نطقا لخلوهما من فضيلة . فقلت : إن بعض الناس رد عليه فى قوله : الحمد لله الذى إن وعد رفى وإن توعد عفى ، كأنه نظر إلى قول الشاعر^(٢) :

وانسى وإن أوعده وعده لمخلف إيمادى ومنجز موعدى

(١) انظر : البداية النهاية ٣٢٢/١٤ ، حسن المحاضرة ٣٢٩/١ ، الدرر الكامنة ٢١٦/١ .

(٢) انظر ديوانه ٥٨ .

وهذا مدح للآدمي ، ولكنه لا يكون مدحاً في حق الله ، إذ الخلف في كلامه محال عقلاً . فأقبل على وقال : أليس الله يعفو بعد الوعيد ؟ قلت : يا خوند هذا حق ولكنه يكون وعيده مخلقاً فإذا عفى عن شخص من المتواعدين علم أنه ما أراد الخلف ، وهو محال ، فأعجبه ، وأخذ يحادثني في أشياء من علم الكلام وغيره من الأدب ، فتكلم كلاماً حسناً ورجح أبا تمام على المتنبى ، وأشار إلى حسام الدين وقال : الأمير حسام الدين يوافقني على ترجيحه . ثم وصلنا إلى المنصورة لسبع بقين من ذى القعدة فنزل بقصر أبيه ، وقدم جماعة من علماء القاهرة كابن عبد السلام والأرموي^(١) ونفق سوق الفضائل عنده انتهى .

قال بعضهم^(٢) رأيت الصالح بعد قتل المعظم في المنام وهو يقول :

قتلوه شر قتله	صار للمالم مثله
لم يراعوا فيه إلا	لا ولا من كان قبله
ستراهم عن قريب	لأقل الناس أكله

ومنهم المنصور خليل^(٣)

ابن الصالح أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذي . أمه شجر الدر ، أم ولد ، ثم زوجة . ولد سنة ثمان وثلاثين وستمائة وبقي قليلاً ومات طفلاً .

(١) انظر : النجوم الزاهرة ٢٨/٨ .

(٢) انظر : النجوم الزاهرة ٢٧٢/٦ .

(٣) انظر : ذيل مرآة الزمان ٦١/١ .

ومنهم الملك المغيـث^(١)

عمر بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، الملك المغيـث ، فتح الدين بن الملك العادل بن الكامل بن العادل . ولد سنة ست وستمائة ، قاله الدوادار وليس بصحيح ، فإن أباه العادل لم يكن ولد حينئذ ، انتهى . ولما وصل المعظم بن الصالح أيوب إلى مصر اعتقل ابن عمه بالشوبك ، فلما قتل المعظم بادر بدر الدين الصوابي النائب على الكرك والشبك فأفرج عن المغيـث وملكه القلعتين الكرك والشوبك ، وقام في خدمته أتم قيام وذلك في سنة ثمان وأربعين وستمائة .

وفي سنة خمس وخمسين خرجت البحرية عن طاعة المصريين والتجأوا إلى الناصر يوسف ، ثم طردهم ، فالتجأوا إلى المغيـث وأطمعوه ، فأرسل معهم عسكرياً فالتقوا منتصف ذي القعدة ، فانهزمت البحرية وفيهم يببرس البندقداري المسمى بعد ذلك بالظاهر .

ذكر كسركه سنة ست وخمسين

ثم خرج المغيـث بالبحرية وخيم بغزة ، وجمع الجموع وسار إلى مصر في دست السلطنة ، وخرجت عساكر مصر مع المعز أيك ، والتقى الفريقان ، فكانت الكسرة على المغيـث ، فولى منهزماً إلى الكرك في أسوأ حال ونهبت أثقاله ودهليزه .

ذكر مناظرة الناصر يوسف الكرك

في سنة ست وخمسين كان بين الناصر وبين البحرية مصاف بظاهر غزة ، انهزم عسكري الناصر ، وقوى أمر البحرية بعد ذلك . فلما كانت سنة سبع وخمسين سار الناصر بنفسه

(١) انظر : شذرات الذهب ٣١٠/٥ ، النجوم الزاهرة ٢١٥/٧ ، المختصر ٢١٦/٣ ، السلوك ٥٢٢/١ .

وفي صحبته المنصور صاحب حماة ونزل على بركة زيزاء منازلًا للمغيث بسبب حمايته البحرية . ووصل الناصر رسل المغيث والقبطية بنت الملك المفضل قطب الدين بن العادل يتضرعون ويطلبون رضاه ، فلم يمل إلى ذلك إلا بشرط أن يقبض المغيث على من عنده من البحرية ، فأجاب إلى ذلك ، وعلم بيبرس البندقدارى فهرب مع جماعة وقبض المغيث على من بقى عنده وأرسلهم على الجمال إلى الناصر فبعث بهم إلى حلب فاعتقلوا بها . واستقر الصلح بين الناصر والمغيث ، وكانت مدة مقام الناصر على بركة زيزاء ما يزيد على الشهرين .

ذكر القبض على المغيث سنة إحدى

وستين وستمائة (١١٧ ب)

سار الظاهر بيبرس إلى الشام وكان المغيث متخوفاً ، فأرسل والدته فلاقت الظاهر ، توثقت لابنها بالامان ، وأحسن إليها ، ثم توجهت إلى الكرك وصحبتهما شرف الدين الجاكي يرسم حمل الاقامات في الطرقات برسمة المغيث ، وكل ذلك من الخدع ، فإن الظاهر بيبرس كان في قلبه من المغيث غيظ لأمر كان بينهما : قيل : إن المغيث أكره امرأة الظاهر لما قبض على البحرية وأرسلهم إلى الناصر يوسف صاحب دمشق وهرب الظاهر المذكور ، وبقيت امرأته في الكرك ، وما زال الظاهر يجتهد على حضور المغيث ، وكان عند المغيث شخص يسمى الأمجد كان يبعثه في الرسالة إلى الظاهر ، فكان الظاهر يبالي في إكرامه ، فاغتر الأمجد بذلك وما زال على مخدومه المغيث حتى أحضره إلى الظاهر . قال شرف الدين بن مزهر - وكان ناظر خزانة المغيث لما عزم على التوجه إلى الظاهر لم يكن قد بقى عنده شيء من المال ولا القماش ، وكان لوالديه حواصل في البلاد فبعناها بأربعة وعشرين ألف درهم ، فاشترينا بائني عشر ألفاً خلعاً من دمشق وجعلنا في صناديق الخزانة الاثني عشر ألف الأخرى ، ونزل المغيث من الكرك وأنا والأمجد وجماعة من أصحابه في

خدمته ، وشرعت البرهنية تصل إلى المغيث في كل يوم بمكاتبات الظاهر ويرسل صحبتهم مثل غزلان ونحوها والمغيث يخلع عليهم حتى نفذ ما كان في الخزانة من الخلع ، من جملة ما كتب إليه الظاهر : إن المملوك ينشد في قدوم مولانا :

خليلي هل أبصرتما أو سمعتما باكرم من مولى تمشى إلى عهد(١)

وكان الخوف في قلب المغيث شديد ، قال ابن زهر : ففاحتني بشيء من ذلك بالليل ، فقلت له : احلف لي أنك ما تقول للأمجد ما أقول لك حتى أنصحك ، فحلف لي ، فقلت : اخرج الساعة من تحت الخام فاركب حجرتك النجيلة ولا يصبح صباحك إلا وأنت بالكرك ، فتمصى فيه وما تفكر بأحد ، قال ابن مزهر : ففاقلني وتحدث مع الأمجد في شيء من ذلك ، فقال الأمجد : هذا رأى ابن مزهر اياك من ذلك ، وسار المغيث ووصل إلى بيسان ، فركب الظاهر بعساكره والتقاء في يوم السبت سابع عشرين جمادى الأولى ، فلما شاهد المغيث الظاهر ترجل فمنعه الظاهر وأركبه ، وساق إلى جانبه وقد تغير وجه الظاهر ، فلما قارب الدهليز أفرد المغيث عنه (١١٨ أ) وأنزله في خيمة وقبض عليه وأرسله معتقلاً إلى مصر ، وكان آخر العهد به . قيل : إنه حمل إلى امرأة الظاهر بقلعة الجبل فأمرت جواربها فقتلته بالقباقيب ، ثم قبض الظاهر على جميع أصحابه ومن جملتهم ابن مزهر . انتهى

ولما قبض الظاهر على المغيث أحضر القضاة وأوقعها على مكاتبات من التتر إلى المغيث أجوبة عما كتب به إليهم في اطماعهم في مصر والشام ، وكتب بذلك مشروح وأثبت على الحكام ، وكان له ولدان : العزيز عثمان أعطاه الظاهر إمرة مائة بمصر ، وشرف الدين . ثم سار الظاهر إلى الكرك فرتب أمورها ، وأورد الدوادار وفاته سنة إحدى وسبعين ، وكان مسجوناً بخزانة البنود ، ودفن بتربتهم المجاورة للامام الشافعي .

(١) انظر : وفيات الأعيان ١٣/٥ .

ومنهم عمر ومحمد وعلى^(١)

وملكة خاتون ودنيا خاتون و بنت أخرى لعلها مؤنسة أولاد غازية خاتون بنت الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، يأتون فى الطبقة السادسة ، فإنهم أولاد محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن شاذى .

ومنهم عائشة خاتون^(٢)

بنت فاطمة خاتون بنت الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذى تقدمت فى هذه الطبقة ، فإنها بنت محمد بن غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى .

ومنهم الملك الكامل^(٣)

محمد بن عبد الملك بن اسماعيل بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى الملك الكامل ، ناصر الدين بن السعيد بن الصالح بن العادل . جعله العادل كتباً أحد أمراء الطليخانة بدمشق يوم الخميس سابع عشر محرم سنة ست وتسعين وستمائة .

ومنهم بست خاتون^(٤)

بنت الجواد يونس بن المعظم ممدود بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى . توفيت فى العشر الأوسط من ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وستمائة ودفنت عند والدها بقاسيون .

(١) لم نشر له على ترجمة .

(٢) لم نشر له على ترجمة .

(٣) انظر : النجوم الزاهرة ٢٦٩/٩ ، الدارس ٢٨٦/٢ ، ذيل المبر ١٥٣ ، الدرر الكامنة ١٥٠/٤ .

(٤) انظر : الدرر الكامنة ٢٤٨/٢ ، فوات الوفيات ٢١٨/٣ .

ومنهم على بن الجواد يونس^(١)

ابن المعظم ممدود بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذى . توفى سنة ثلاث وثلاثين
وستمائة .

ومنهم يوسف بن محمد^(٢)

ابن ضيفة خاتون بنت أبي بكر بن أيوب بن شاذى . مقدم فى هذه الطبقة ، فإنه
يوسف بن محمد بن غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى .

(١) انظر : ترويح القلوب ١١١ .

(٢) لم نعثره على ترجمة .

e

الطبقة السادسة

فمنهم على بن المعظم عيسى^(١)

ابن الزاهر داود بن المجاهد شيركوه بن القاهر محمد بن المنصور شيركوه بن شاذى .

ومنهم السعيد نور الدين^(٢)

شاهنشاہ بن الأمجد بہرام شاہ بن فروخ شاہ بن شاهنشاه بن أيوب ابن شاذى .

ومنهم عمر بن المظفر محمود^(٣)

ابن المنصور محمد (١١٨٨ ب) بن المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن شاذى . مات طفلاً .

ومنهم الملك المنصور محمد^(٤)

ابن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن شاذى الملك المنصور ، ناصر

(١) لم نثر له على ترجمة .

(٢) ورد في ترويح القلوب ٥٠ .

(٣) لم نثر له على ترجمة .

(٤) انظر : النجوم الزاهرة ٣٦٣/٧ ، شذرات الذهب ٣٨٤/٥ ، البداية والنهاية ٣٠٥/١٣ ، الوافى بالوفيات ١١/٥ .

الدين ، أبو المعالي بن الملك المظفر بن المنصور بن المظفر ، صاحب حماة . ولد يوم الخميس لليلتين بقيتا من ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وستمائة وذلك بعد مقدم والده بيومين ، وكان في الغزاة ، فقال شرف الدين مادحاً ومهنئاً :

غدا الملك محروس الذرا والقواعد
 حينها به يوم الخميس كأنه
 وسميته باسم النبي محمد
 بأشرف مولود لأشرف والد
 خميس بدا للناس في شخص واحد
 وجدية ، فاستوفى جمع المحامد

أى باسم جده الكامل محمد والد والدته ، والمنصور محمد والد والده .

تهياً منه للمعالي مثقف
 دعت أباها ، وهو في المهد ، فاعجبوا
 ومنها :

كأنى به في سدة الملك جالساً
 ووفاك من أبنائه وبنيتهم
 ألا أيها الملك المظفر دعوني
 ويشرنا من قبل مولده به
 فحمداً ، وشكراً للإله مخلداً
 فذا اليوم نال الملك أشرف مقصد

وأمه غازية خاتون بنت الكامل محمد بن العادل بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى .

ذكر ولايته حماة

مات والده يوم السبت ثامن جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، فملك هو وعمره عشر سنين وشهر وثلاثة عشر يوماً ، والقائم بأمره طغريل^(١) مملوك والده ومشاركه

(١) انظر : النجوم الزاهرة ٢٧٩/٨ .

الشيخ شرف الدين شيخ الشيوخ والطواشي مرشد والوزير بهاء الدين بن التاج ومرجع الجميع إلى (١١٩ أ) والدة المنصور .

غير ذلك :

وفي سنة ثمان وخمسين حضر المظفر قطز^(١) إلى الشام بسبب التتر وحضر إليه المنصور فمن الله تعالى بكسرتهم على عين جاوت ، وعاد المظفر إلى دمشق في صحبته المنصور ، فأحسن المظفر إلى المنصور وأقره على حماة وبارين ، وأعاد عليه المعرة وكانت بأيدي الحلبيين من حين استولوا عليها سنة خمس وثلاثين وستمائة ، وأخذ سلمية منه وأعطاهام أمير العرب . ثم أعطاه الدستور ، فقدم المنصور قدامه مملوكه مبارز الدين آقوش النصرى إلى حماة ، ثم سار المنصور وأخوه الأفضل ووصلا حماة ، فلما استقر المنصور قبض على جماعة كانوا مع التتر ، وهناه الشيخ شرف الدين بقصيد^(٢) منها :

ولقيتها ، فأخذت فل جيوشها
عن فحلها قسراً وعن إكديبشها
حصد المناجل في بييس حشيشها
ختمت خزالنها على منقوشها

رعت العدا فضمنت ثل عروشها
نازلت أملاك التتار ، فأنزلت
فغدا لسيفك في رقاب كماتها
فلت الملوك ببذل ما تحويه إذ
ومنها :

ما بين بركتها وبين عريشها
من رومها الأقصى إلى أحبوشها
فوطنت عين الشمس من مفروشها
عما يشوب النقد من مفشوشها
دهشت سروراً سار في مدهوشها
سكرت بخمرة جاشها أو جيشها
وتتال أقصى الأجر من منعوشها

وطويت عن مصر نسيج مراحل
حتى حلفت على العباد بلادها
فرشت حماة لوطء نعلك خدها
وضربت سكتها التي أخلصتها
وكذا المعرة إذ ملكت قيادها
طربت برجعتها إليك كأنما
لا زلت تتعش بالنوال فليبرها

(١) انظر : ذيل مرآة الزمان ٢٨/٢ ، فوات الوفيات ٢٠١/٣ .

(٢) انظر : ديوانه ٢٦٩ .

وفي سنة تسع وخمسين قصد التتر حماة ، وأقاموا عليها يوماً واحداً ثم رحلوا ، فأراد المنصور الرحيل إلى دمشق فمنعته العامة من ذلك حتى استوثقوا منه أنه يعود إليهم عن قريب ، فسافر هو وأخوه الأفضل في جماعة قليلة وبقي الطواشي مرشد في باقي العسكر بحماة ، ونزل بدمشق في داره ، ثم عاد إلى بلده في سنته .

وفي سنة ستين وستمائة تقدم الظاهر بيبرس إلى المنصور وإلى صاحب حمص أن يسيرا للاغارة على أنطاكية ، فساروا (١١٩ ب) إليها وضايقوها ، ثم عادوا ومعهم ماينيف على ثلاثمائة أسير . وفيها جهز المنصور شيخ الشيوخ شرف الدين رسولا إلى الظاهر بيبرس ، فوجد الظاهر عاتياً على المنصور لاشتغاله عن مصالح المسلمين باللهو ، ثم انصلح خاطر الظاهر وحمل الشيخ ما طيب به قلب المنصور .

وفي سنة أربع وستين وستمائة خرج الظاهر بيبرس إلى الشام وقدم عليه وهو بصدد المنصور ، فلما دخل الظاهر دمشق جرد عسكراً ضخماً وقدم المنصور عليهم إلى بلاد الأرمن ، فوصلوا إلى سيس^(١) في ذي القعدة وكان صاحبها هيتوم بن قسطنطين بن باسيل قد حصن بلاده وجعل عسكره مع ولديه على الطرقات لحفظ بلادهم ، فداستهم العساكر الإسلامية وأفتوهم قتلاً وأسراً ، وقتل ابن صاحب سيس الواحد ، وأسر الآخر ، وفتحت قلعة العامودين وقتل أهلها ، ثم عادت العساكر وقد امتلأت أيديهم من الغنائم ، فخرج الظاهر إلى دمشق ثم إلى حماة ثم إلى قامية ولاقى العسكر وهناه ابن عبد الظاهر بقوله :

جعلت سيساً فوقها تحتها والناس قالوا : سيس لا تنقلب

وفي سنة خمس وستين دخل المنصور مصر وتوجه إلى الإسكندرية متفرجاً وأمر الظاهر أهل الشفر باكرامه ، ففرشت الشقق بين يدي فرسه ، ثم عاد فخلع عليه الظاهر ورسم له بالعود ، فتوجه إلى بلاده .

(١) بلد عظيم من مدن نهر الشام تقع بين أنطاكية وطرسوس . انظر معجم البلدان ٢٩٧/٣ .

وفي سنة ثمانين كانت الوقعة العظيمة على حمص ورأس الميمنة المنصور محمد في
عسكر المنصور قلاوون^(١) ، فأنزل الله النصر على الميمنة ، فهزموا العدو .

وفي أوائل سنة اثنتين وثمانين قدم المنصور وصحبته أخوه الأفضل إلى مصر ، فبالغ
المنصور قلاوون في اكرامهما وأنزلهما بالكيش ، وأركب المنصور بالسناجق ، وسأله عن
حوائجه ، فقال : حاجتي أن أعفى من هذا اللقب فإنه ما بقى صلح لى أن ألقب بالملك
المنصور وقد صار لقب مولانا السلطان الأعظم ، فقال قلاوون : أنا ما تلقبت بهذا اللقب إلا
لمهتني فيك ، ولو كان غير هذا لتلقبت به ، فشئء قد فعلته محبة لك ، كيف سأتمكن من
تغييره وأطلع المنصور قلاوون إلى حفر خليج البحيرة صاحب حماة في خدمته ثم أعطى بعد
ذلك الدستور لصاحب حماة فعاد مكرماً .

ذكر وفاة الملك المنصور وسيرته (٢٠ أ)

ابتدأ به المرض بعد عوده من دمشق في أوائل شعبان ، ومرضه حمى صفراوية داخل
العروق ، ثم صلح مزاجه بعض الصلاح ، فأشار الأطباء بدخوله الحمام ، فدخلها فعاوده
المرض ، وأحضر له الأطباء من دمشق مع من كان في خدمته ، واشتد به ذات الجنب ،
ولم يفد العلاج وفي مدة مرضه عتق مماليكه وتاب ثوبة نصوحاً ، وكتب إلى المنصور قلاوون
في إقرار ابنه المظفر محمود مكانه ، وتوفى بكرة حادى عشر شوال سنة اثنتين وثمانين ،
وعمره إحدى وخمسون سنة وستة شهور وأربعة عشر يوماً ، ومدة ملكة إحدى وأربعون سنة
 وخمسة أشهر أربعة أيام ، وكان أكبر أمانيه أن يسمع جواب المنصور فيما سأله من إقرار
ولده ، فاتفق وصول الجواب بعد موته بستة أيام .

ونسخة الجواب^(٢) : بعد البسملة : المملوك قلاوون ، أعز الله أنصار المقام العالى

(١) انظر : النجوم الزاهرة ٢٩٢/٧ ، شذرات الذهب ٤٠٩/٥ .

(٢) وردت في المختصر ١٨/٣ ، تاريخ ابن الوردي ٣٣١/٢ .

المولوى السلطانى الملكى المنصورى الناصرى ، ولا عدمه الاسلام ولا فقدته السيوف والأقلام ، وحماء من أذى داء وعود عواد والمأم آلام المملوك يجدد الخدمة التى كان يود تجديدها شفاها ، ويصف ما عنده من الألم لما ألم بمزاجه الكريم ، حتى إنه لم يكذب يفتح بحديث فاها ، ولما وقفنا على كتاب المولى المتضمن بمرض الجسد المحروس ، وما انتهى إليه الحال ، كادت القلوب تنشق والنفوس تذوب حزناً ، والرجاء من الله أن يتداركه بلطفه ، وأن يمن بعافيته ، التى رفع فى مسألتها يديه وسط كفيه ، وهو يرجو من كرم الله معالجة الشفاء ، ومداركة العافية الموردة بعد الكدر مورد الصفاء ، وأن الله يفسح فى أجل المولى ويهبه العمر الطويل ، وأما الإشارة الكريمة إلى ما ذكره من حقوق يوجبها الاقرار ، وعهود أمنت بدورها من السرار ، ونحن بحمد الله فعندنا تلك العهود ملحوظة ، وتلك المواد محفوظة ، فالمولى يعيش قريح العين ، فما لم إلا ما يسره من إقامة ولده مقامه ، ولا يحول ولا يزول لا يرى على ذلك ذلة ولا ذهول ، ويكون المولى طيب النفس ، مستديم الأنس ، يصدق العهد القديم وبكل ما يؤثر من خير مقيم .

وكان المنصور ذكياً فطناً (١٢٠ ب) محبوب الصورة ، له قبول عظيم عند ملوك الترك ، حليماً إلى الغاية ، يتجاوز عما يكره ، ويغتمه ولا يفضح قائله ، من ذلك : أن الملك الظاهر بيبرس قدم مرة إلى حماة ، ونزل بالدار المعروف بـ دار المبارز فرجع إليه أهل حماة قصصاً يشكون فيها المنصور فأمر الظاهر دواداره سيف الدين بلبان الرومى^(١) أن يجمع القصص ولا يقرأها ويحملها فى منديل إلى المنصور ، فأحضرها الدوادار إلى المنصور وقال : إنه والله لم يطلع السلطان (يعنى الملك الظاهر) على قصة منها وقد حملتها إليك ، فتضاعف دعاء المنصور للظاهر ، ونخلع على الدوادار وأخذ القصص . فقال بعض الجماعة : سوف يرى من تكلم بشيء ما يلتقى فأمر المنصور باحضار نار وحرقت تلك القصص ، ولم يقف على شيء منها لكلاً يتغير خاطره على رافعها .

(١) انظر : النجوم الزاهرة ٣٤٩/٧ .

ومنهم الملك الأفضل^(١)

على بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى ، الملك الأفضل ابن المظفر بن المنصور بن المظفر . ولد سنة خمس وثلاثين وستمئة فى أواخرها . ووالده غازية خاتون بنت الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى .

لما ماتت والدته حصل بينه وبين أخيه المنصور محمد وحشة ، فعزم أن يهزج من حماة وأذن له أخوه فى ذلك ، فاجتمع الشيخ شرف الدين شيخ الشيوخ بالأفضل ، وعرفه ما يعتمد من السلوك مع أخيه ، ثم اجتمع بالمنصور وقبح عنده مفارقة أخيه ، وما برح بينهما حتى زال ما بينهما وصار لكل واحد عند الآخرة من المحبة المكانة ما يفوق الوصف . يأتى بعض أخباره .

سار من حلب إلى دمشق فتوفى بها يوم الاثنين مستهل ذى الحجة سنة اثنين وتسعين وستمئة ، وصلّى عليه بجامعها ، ونقل لوقته إلى حماة فدفن بها هو والد المؤيد اسماعيل .

ومنهم ملكة خاتون^(٢)

بنت المظفر محمود بن المنصور محمد بن المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى . وهى أكبر أخوتها ، أمها غازية خاتون بنت الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى . توفيت قبل والدتها بقليل ، ووفاة والدتها سنة ست وخمسين وستمئة .

(١) انظر : تاريخ ابن الوردي ٤٣٠/٢ ، المختصر ٢٩/٤ ، البداية والنهاية ٣٣٤/١٣ .

(٢) انظر : المختصر ١٩٦/٣ ، ذيل مرآة الزمان ٧٥/١ .

ومنهم دنيا خاتون^(١)

بنت المظفر محمود بن المنصور محمد بن المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى
أمها غازية خاتون بنت الكامل محمد العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى توفيت بعد أخيها
المنصور محمد ، ووفاته سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

ومنهم مؤنسة خاتون^(٢)

بنت المظفر محمود بن المنصور محمد بن المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى
عمرت بحماة المدرسة الخاتونية ، وهى دار الوزير المعروفة بـ « دار الأكرم » .
وللمظفر محمود المذكور بنت لم أقف لها على اسم من غازية خاتون بنت الكامل
المذكور ، ما أدرى هل هى مؤنسة هذه أم غيرها .

ومنهم الملك العزيز^(٣)

محمد بن يوسف بن محمد بن غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك العزيز
ابن الملك الناصر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر . أرسله والده فى سنة ست وخمسين
وستمائة إلى هولاءكو بهدية ، ولما قتل أبوه سنة تسع وخمسين شفعت فيه الخاتون زوجة
هولاءكو فبقى عندهم مدة طويلة مكرماً ثم مات .

(١) انظر : تاريخ ابن الوردى ٢٨٥/٢ ، ذيل مرآة الزمان ٧٥ / ١

(٢) انظر : تاريخ المختصر ٥١/٤ ، تاريخ ابن الوردى ٣٦١/٢

(٣) انظر : المختصر ٣١٢ / ٣ .

ومنهم أحمد بن علي^(١)

ابن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب بن شاذي ، الأمير نور الدين ، ويدعى زباله ابن الظاهر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر ، وأمه زوجة الأمير بيسرى^(٢) المعروفة بوجه القمر. توفي بالقاهرة في شوال سنة ثمانين وستمئة ، وعمره ست وعشرون سنة ، كان بديع الحسن ، تام الخلقة ، عنده شجاعة وله مروءة .

ومنهم علاء الدين علي^(٣)

ابن يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب بن شاذي . ولد الملك الناصر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر . مولده سنة ثلاث وخمسين ، واعتقل في سابع عشر رمضان سنة ثمان سبعين ، فحصل له ماخوليا ، فلما اشتدت به قتل نفسه تاسع عشر محرم سنة ست وثمانين وستمئة في الاعتقال .

ومنهم الملك المظفر محمود^(٤)

ابن عائشة خاتون بنت العزيز محمد بن الظاهر غازي بن أيوب بن شاذي . يأتي في الطبقة السابعة . فإن محمود بن محمد بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي ، توفي سنة ثمان وتسعين وستمئة .

(١) انظر : ترويح القلوب ٩٣ .

(٢) انظر : ذيل مرآة الزمان ٣٢٨ .

(٣) انظر : تاريخ ابن الوردي ٣٥١/٢ ، شذرات الذهب ٤٤٢/٥ .

(٤) انظر : النجوم الزاهرة ١٨٥/٨ .

ومنهم بنت الناصر يوسف^(١)

ابن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر يوسف بن أيوب بن شاذي ، زوجة ابن عمته المظفر محمود بن المنصور محمد ، ووالدته عائشة خاتون بنت العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر يوسف بن أيوب بن شاذي ، طلقها في شعبان سنة إحدى وتسعين وستمائة ، فعاب الناس ذلك واستقبحوه ، وتوجهت من حماة إلى مصر فتوفيت بعد وصولها بعشرين يوماً .

ومنهم أيوب بن علي^(٢)

ابن داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، نجم الدين بن الأفضل بن الناصر ابن المعظم بن العادل . فتوفى بدمشق رابع عشر ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وستمائة وصلى عليه يوم الجمعة^(٣) .

ومنهم محمد بن حسن^(٤)

ابن داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، صلاح الدين ابن الملك الأمجد ابن الناصر بن المعظم بن العادل . والد الأمير شهاب الدين أحمد (١٢١ ب) .

(١) لم نشر لها على ترجمة .

(٢) لم نشر له على ترجمة .

(٣) انظر : الدرر الكامنة ١ / ٤٥٠ .

(٤) انظر : القلائد الجوهريّة ١٤٥ .

ومنهم الملك الأشرف^(١)

موسى بن يوسف بن محمد بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك الأشرف بن المسعود ابن الكامل بن العادل . لما توفى الصالح أيوب وولى بعده ولده المعظم توران شاه ، ثم قتل وملكوا شجر الدر ، اجتمعت الأمراد وقالوا : لا بد من سلطان ، فسلطنوا المعز أيك يوم السبت آخر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة ، فخرج عن طاعته جماعة ، فقالوا : لا بد من شخص من بنى أيوب ليتفق الكل على طاعته ، فولوا الأشرف موسى ، ورضى الجميع به ، وجلس فى دست السلطنة بمصر يوم الخميس خامس جمادى الأولى . وكان بغزة جماعة من عسكر مصر ، فخرجوا عن الطاعة ودخلوا فى طاعة المغيث صاحب الكرك وخطبوا له فى الصالحية يوم الجمعة لأربع مضيى من جمادى الآخرة . فنودى بالقاهرة أن البلاد للخليفة المستعصم ، وأن المعز أيك نائبة بها ، ثم جدت الأيمان للأشرف بالسلطنة ، ولمعز بأتا بكيتته ، ثم إن المعز قتل خشداشه الفارس أقطاى ، وكان يمنع المعز أن يستقل بالسلطنة ، فلما قتله سنة اثنتين وخمسين وستمائة استقل المعز بالسلطنة ، وأبطل الأشرف منها بالكلية وبعث به إلى عماته القطيبات^(٢) ، وموسى المذكور آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة فى مصر .

ومنهم الملك العزيز^(٣)

عثمان بن عمر بن أبى بكر بن محمد بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك العزيز فخر الدين بن المغيث بن العادل بن الكامل بن العادل . أرسله والده إلى كتبغا مقدم التتر

(١) انظر : المختصر ١٨٣/٣ - ١٩٠ .

(٢) انظر : السلوك ٣٨٨/٢ .

(٣) انظر : النجوم الزاهرة ٥٤/٨ .

عند وصوله إلى دمشق فاعتقله فلما دخل الظاهر بيبرس دمشق أفرج عنه ، واحسن إليه ،
وجهزه إلى والده ، وذلك سنة ستين وستمائة ، ولما مسك أبوه سنة إحدى وستين أعطى
العزیز إمرة مائة بمصر ، ثم اعتقله رابع عشر ربيع الأول سنة تسع وستين ثم أفرج عنه
الأشرف خليل بن قلاوون في سادس محرم سنة تسعين وستمائة ، فمدة اعتقاله عشرون
سنة وتسعة أشهر واثان وعشرون يوماً ، ورتب له راتباً جيداً ، واشتغل بالمطالعة والنسخ وانقطع
عن السعى إلا لما لا بد منه .

ومنهم فخر الدين بن المغيـث عمر^(١)

ابن العادل أبي بكر بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذى .

ومنهم غياث الدين بن محمد^(٢)

ابن عبد الملك بن اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى . ولد الكامل بن السعيد
ابن الصالح بن العادل . توفى سنة تسع وأربعين وسبعمائة (١٢٢ أ) .

* * *

(١) انظر : ترويح القلوب ٨٣ .

(٢) لم نعث له على ترجمة .

الطبقة السابعة

فمنهم الملك الحافظ محمد^(١)

ابن نور الدين شاهنشاه بن بهرام شاه بن فروخ شاه بن شاهنشاه ابن أيوب بن شاذى ،
الملك الحافظ ، عز الدين ، أبو عبد الله ابن شاهنشاه ابن الأمجد . توفى يوم الخميس
خامس شعبان سنة ثلاث تسعين ستمائة وصلى عليه بجامع دمشق بعد الجمعة ، ودفن
بمقبرة باب الفراديس .

ومنهم الملك المظفر محمود^(٢)

ابن محمد بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى ، الملك
المظفر بن المنصور بن المظفر بن المنصور بن المظفر ، صاحب حماة . أمه عائشة خاتون بنت
الملك العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر يوسف بن أيوب بن شاذى . ولد ليلة الأحد
خامس عشر محرم سنة سبع وخمسين وستمائة فقال الشيخ شرف الدين يهنىء والده من
قصيد^(٣) :

(١) انظر : تاريخ ابن الفرات ١٨٩/٨ ، البداية والنهاية ٣٣٧/١٣ .

(٢) انظر : النجوم الزاهرة ١٨٩/٨ .

(٣) انظر : ديوان الأنصارى ٥٤٦ .

أبشر على رغم العدا والحسد
بالتعمية الفراء بل بالدولة الز
واقاك بداراً كاملاً في لولة
ما بين محمود المظفر أسفرت

بأجل مولود واكرم والد
هراء بل بالمظفر المتجدد
طلعت عليك نجومها بالأسعد
عنه وما بين العزيز محمد

ملك حماة عند وفاة والده في حادى عشر شوال سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، وذلك
أن المنصور والده لما توفى أمر المنصور قلاوون المظفر هذا فى ملك حماة على قاعدة والده ،
وأرسل إليه والى عمه الأفضل والى أولاده التشاريف ومكاتبة إلى المظفر بذلك . ووصلت
التشاريف ولبسوها فى العشر الأخير من شوال .

ونسخة الكتاب^(١) بعد البسملة : المملوك قلاوون ، أعز الله نصرته المقام العالى المولوى
السلطانى الملكى المظفرى التقوى ، وزرع عنه لباس البأس ، وألبسه حلل السعد المجلوة على
أعين الناس ، وهو يخدم (خدمة) بولاء قد تبجست عيونه ، وتأسست مبانیه ، وتناسبت
ظنونيه ، وحلت رهونه وحلت ديونه ، وأثمرت غصونه ، وزهت أفنانه وفنونه .

ومنها : وقد سيرنا المجلس السامى جمال الدين أقوش الحاجب ، وأصحابنا من
الملبوس الشريف ما يغير به لباس الحزن (١٢٢ ب) وتجلى فى مطلعته ضياء وجهه
الحسن ، تنجلي بذلك غيوم تلك الغموم ، وأرسلنا أيضاً (صبجته) ما يلبسه هو وذوره
كما يبدو بين النجوم وكتب فى عشر شوال .

وكان المظفر قد أرسل علم الدين سنجر الحموى^(٢) لهذا المهم ، فلاقى سنجر المذكور
جمال الدين أقوش بالخلع فى أثناء الطريق ، فأتم علم الدين سنجر سيره إلى السلطان
المنصور فأكرمه وأعادته ، وقال : نحن واصلون إلى الشام ونفعل مع الملك المظفر فوق ما فى
نفسه . فعاد سنجر ومعه الجواب بنحو ذلك .

(١) انظر : المختصر ٤ / ٢٠ .

(٢) له ذكر وترجمة فى النجوم الزاهرة ٧ / ١٧٦ .

ثم صل السلطان المنصور إلى دمشق في أواخر محرم سنة أربع وثمانين (وستمائة)
وسار إليه المظفر وعمه الأفضل إلى دمشق ، فأكرمهما اكراماً كثيراً ، وأرسل إلى المظفر في
اليوم الثالث من وصوله التقليد بسلطنة حماة والمعرة وبارين ، والتشريف وهو : أطلس أحمر
فوقاني بطراز زركش وسنجاب ودائرة قندس وقباء أطلس أصفر تحتاني وشاش نساعي وكلوته
زركش وحياسة ذهب وسيف محلى بالذهب وتلكش وغير ذلك . وأرسل شعار السلطنة وهو
منجق بمصائب سلطانية وفرس بسرج ذهب ورقبة وكنبوش ، والغاشية السلطانية . فركب
المظفر بشعار السلطنة ، وحضر أمراء السلطان ، وساروا معه من داره المعروفة بـ «
الحافظية » داخل باب الفراديس إلى أن وصل إلى القلعة ، ومشى الأمراء في خدمته ،
ودخل إلى عند السلطان ، فأكرمه وأجلسه إلى جانبه وقال له : أنت ولدي وأعز من الملك
الصالح عندي فتوجه إلى بلادك وتأهب للغزاة أنتم بيت مبارك ما حضرتم في مكان إلا
وكان النصر معكم . فعاد المظفر وعمه إلى حماة ، وعملا أشغالهما وتأهباً للسير إلى خدمة
السلطان ثانياً ، وحضرا معه فتح المرقب ثم عادا إلى حماة .

وفي سنة ثمان وثمانين (وستمائة) حضرا مع المنصور قلاوون فتح طرابلس ، ثم
أعطاهما الدستور . وفي سنة تسعين كان فتح عكا . قال الملك المؤيد صاحب حماة : سار
الأشرف خليل بن قلاوون إلى عكا وأرسل إلى العساكر الشامية بأمرهم بالحضور ، فحضر
المظفر والأفضل عمه ، وهو والد المؤيد ، وتسلما منجنيقا من حصن الأكراد يسمى
المنصوري حمل مائة عجلة ، ففرقت على العسكر الحموي . قال المؤيد : وسلم إلى منه
عجلة واحدة لأنى كنت أمير عشرة ، كان مسيرنا أواخر الشتاء ، فقاسينا شدة عظيمة من
موت البقر بسبب البرد ، ووصلنا (١٢٣ أ) من حصن الأكراد إلى عكا في شهر وذلك
مسيرة ثمانية أيام للخيل على العادة ، ونزل العسكر الإسلامى عليها أوائل جمادى الأولى ،
واشتد القتال ، ولم يفلق لها باب ، وكانت منزلة الحمويين برأس اليمين على عادتهم ، فكنا
على جانب البحر والبحر عن يميننا إذا واجهنا عكا ، وكان يحضر إلينا مراكب ملبسة جلود
الجاموس ، وكان القتال قدامنا من جهة المدينة ، وعن يميننا من البحر ، وأحضروا بطسة

فيها منجنيق يرمى على خيمتنا ، فكنا في شدة ، حتى جاءت ريح شديدة ، فارتفع المركب وانحط ، فانكسر وخرج الفرغ بالليل فكبسوا العسكر ووصلوا إلى الخيام فتعلقوا بالأطناب ووقع فارس منهم في جوة مستراح بعض الأمراء فقتل ، ثم ولوا منهزمين ، وقتل العسكر الحموي عدة منهم ، فلما أصبح الصبح علق المظفر عدة من رؤوس الفرغ في رقاب خيلهم وأحضروا إلى الملك الأشرف ، ثم فتح الله عكا يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة بالسيف . ومن العجب أن الفرغ أخذتها من السلطان صلاح الدين يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع ثمانين وخمسمائة . وكان أخذه لها منهم يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين .

وفي سنة إحدى وتسعين وستمائة سار الأشرف خليل من مصر إلى الشام ، وسار إليه المظفر وعمه والتقياه بدمشق ، وسارا في خدمته لقصد الروم ، ثم سبقاه إلى حماة ، واهتم المظفر بالضيافة والاقامة والتقدمة ، ونزل الأشرف حماة وضرب دهليزه شماليها ، ومد له المظفر سماً عظيماً بالميدان ، ونصب خيماً ، ونزل الأشرف بالميدان وسط بين يدي فرسه الشق الفاخرة ثم دخل إلى دار المظفر بحماة فبسط بين يدي فرسه بسطاً ثانياً ، ثم دخل السلطان الحمام ، وخرج فجلس على جانب العاصي ، ثم راح إلى الطيارة المعروفة بالحمران ، ثم توجه من حماة وصاحب حماة وعمه في خدمته إلى المشهد ثم إلى الحمام ، ثم توجه إلى الروم .

ذكر حضور المظفر إلى مصر

في جمادى الأولى سنة اثنين وتسعين وستمائة أرسل الملك الأشرف أحضر المظفر وعمه على البريد إلى مصر ، فتوجهها من حماة ، وعندهما الخوف بسبب طلبهما شيء عظيم . وصلا يوم الثامن من خروجهما ، ثم أنعم عليهما بملبوس ، وأدخلهما حمام القلعة ، ثم خرج الأشرف على الهجن إلى الكرك ، وأركب المظفر وعمه الهجن صحبته ،

ولم يكن معهما خيل ولا غلمان ، فرسم السلطان لهما بما يليق بهما (١٢٣ ب) من
المأكل والمشروب والهجن والغلمان ، وسارا صحبته إلى الكرك ، ولاقتهما تقادما إلى
بركة زيزاء فقبلها السلطان ، وأنعم عليهما ثم دخل السلطان دمشق وخرج منها ، وأعطى
صاحب حماة الدستور كذلك عمه ، وكان قد حصل له تشويش ، فأرسل عمه الأفضل
التقدمة مع ولده المؤيد ، ولم يقدر هو على الحضور بسبب مرضه ، ثم برز مرسوم الأشرف
إلى صاحب حماة وإلى عمه أن يتوجها إلى حلب ، ويقيما بها لأجل العدو ، فخرجوا من
حماة يوم الجمعة خامس عشرين شعبان ، ودخلوا حلب يوم الثلاثاء تاسع عشره .

ذكر وفاة المظفر

توفي يوم الخميس حادى عشرين ذى القعدة سنة ثمان وتسعين وستمائة ، ودفن ليلة
الجمعة آخر الليل عند أبيه وعمره إحدى وأربعون سنة وعشرة أشهر سبعة أيام . ومدة ملكه
حماة خمس عشرة سنة وشهر ويوم وانقطع ملك حماة بعده من البيت الأيوبي سنين إلى
أن عاد الناصر محمد فى سلطنته الثالثة . ولما مات فوضت نيايتها إلى الأمير سنقر المنصورى
وتداولها جماعة من النواب .

ومنهم الملك المؤيد^(١)

اسماعيل بن على بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن شاذى ،
الملك المؤيد بن الملك الأفضل بن المظفر بن المنصور بن المظفر صاحب حماة . ولد يوم
السبت سابع جمادى الأولى أو ثامنه سنة اثنتين وسبعين وستمائة بدار . الزنجبلى بدمشق ،
فإن أهله جفلوا من حماة بسبب التتر .

(١) انظر : الدرر الكامنة ١ / ٣٩٦ ، البداية والنهاية ١٤ / ١٥٨ فوات الوفيات ١ / ١٨٣ .

وفي سنة عشر وسبعمائة عزل الناصر محمد عن نيابة حماة أسمر كرجى وولى المؤيد .
وفي سنة عشرين تولى حماة ، وذلك أنه حج مع الناصر محمد ، فلما رجعا من الحج رأى أن يجيزه ، فلما دخل القاهرة فوصى إليه سلطنة حماة وأركبه يوم الجمعة سابع عشرين محرم بالقاهرة من المدرسة المنصورية بشعار السلطنة والأمراء فى خدمته والعصائب على رأسه ، وحمل غاشيته أمير مجلس ودخل القلعة ، وقبل الأرض بين يدي السلطان ، ثم أعطى الدستور ، فسار من يومه على البريد .

وفي سنة سبع عشرين حضر المؤيد إلى الناصر محمد وقدم له تقاديم وافرة .
وفي سنة ثلاثين وصل إلى الناصر يوم الاثنين ، عشرين محرم ، وتوجد صحبته إلى الصيد بالوجه القبلى وخلع عليه وعلى ولده ، ثم (١٢٤ أ) خلع عليه أيضاً وعلى ولده ورسم بهودهما إلى حماة .

ذكر وفاته وسيرته

مات ثامن عشرين محرم سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، وعاش ستين سنة ، تملك بعد ولده الأفضل على ، وقال ابن نباته يرضيه ويمدح ولده (١) :

أظن أن ابن شاذى قام ناعيه
ما للزمان قد اسودت نواحيه
للفيث كيف غدت عنا غواده

أقلت ذراه وأوت من مبانيه
فأحسن الله للشعر العزا فيه

ما للندى لا يلبى صوت داعيه
ما للرجا قد اشتدت مذاهيه
نعى المؤيد ناعيه فوأسفا
ومنها :

هلا بغير عماد الدين حادثة
كان المديح له عرساً بدولته

(١) انظر : ديوان ابن نباته ٥٧٠ .

يا آل أيوب صبراً إن اركم
هي المناريا على الأقوام دائرة
ومنه يخاطب ولده الأفضل :

ومن أبيك تعلمت الثناء فما
لا تخش بييتكم بلوى الزمان به
قال جامعه الفقير : لله در القائل :
لا در در نوازل الأحداث
فنفدت مآسنا وهن مآتم

من اسم أيوب صبراً كان ونجيه
كل سياثيه منها دور ساقيه

تحتاج تذكر أمراً أنت تدريه
فإن للبيت ربا سوف يحميه
نقلت أحببتنا إلى الأجداد
وغدت مدانحنا وهن مرائي

هذا ابن نباته راليه هو مادحه ، وله فيه القصائد المطولة والمختصرة منها قوله بهتته بالعيد
ويعرض بالجائزة :

وغيداء يعزى طرفها لكنانة
حمت عبيد عنا ثغرها بلحاظها
كان دموهى الحمر حين تدفقت
رعى الله أيام المؤيد إنها
أيا ملكاً ساوى نداء بعلمه
تهن بعيد البحر وابق ممتعا
تقلدنا فيه قلاند أنعم

ومعطفها المباد يعزى إلى النضر
كذاك سيوف الهند تحمى حمى الثغر
على حبيها كف المؤيد بالهتر
ولا برحت فينا . مواسم للدهر
كأنهما بحران جادا على بحر
بأمثاله وفى المحامد والأبحر
وأحسن ما تبدو القلاند فى النحر

وكان المؤيد فيه مكارم وفضيلة من فقه وطب وعلم هيئة وأدب ، وكان محباً للعلماء
مقرباً لهم . صنف « تقويم البلدان » فهذه ، له « المختصر فى أخبار البشر » نقلت منه
فى هذا التاريخ كثيراً ، وله محاسن كثيرة ويد فى النظم لشر ، نظم « الحاروى » فأجاده ،
ومن نظمه (١) :

(١) انظر فوات الوفيات ١ / ١٨٥ .

القرأ على طبيب الحبريا
واعلم بذاك أحسبه
لو كان يشرى قريهم
صب قضي أسفا ولم
متجرع كأس الفرا
وله :

سرى نشر الصبا فعجت منه
وكيف ألم بي من غير وعد

ة سلام صب مات حزنا
بخل الزمان بهم . وضنا
بالمال والأرواح جـدنا
يقضى له ما قد تمنى
في بيت للأشجان رهنا

من الهجران كيف صبا إلها
وفارقتي ولم يعطف عليا

ومنهم أحمد بن محمد^(١)

ابن حسن بن داود بن عيس بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي . الأمير شهاب الدين بن
صلاح الدين بن الأجد بن الناصر بن المعظم ابن العادل . توفى يوم الاثنين رابع عشرين
رجب سنة تسع عشرة وسبعمائة بدمشق ودفن بقاسيون .

ومنهم الكامل محمد بن موسى^(٢)

ابن يوسف بن يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي الملك الكامل ، ناصر
الدين بن الأشرف بن الناصر بن المسعود بن الكامل ابن العادل مولده بالكرك ليلة الأربعاء
سادس عشر شوال سنة تسع وخمسين وستمائة ، ومات يوم الخميس خامس رجب سنة
النتين وتسعين وستمائة .

(١) انظر : فوات الوفيات ١ / ٣٠ .

(٢) انظر : النجوم الزاهرة ٩ / ٢٤٧ .

ومنهم الملك الكامل شاذى

وقيل : محمد (١)

ابن عبد الله بن توران شاه ابن أيوب بن محمد ابن أبي بكر ابن أيوب ابن شاذى ،
الملك الكامل سيف الدين أبو بكر ابن (١٢٥ أ) الموحد ابن المعظم ابن الصالح ابن
الكامل ابن العادل ، وهو والد الملكين الصالح يوسف والعادل محمد .

تم بحمد الله

(١) انظر : تاريخ ابن الفرات ٨ / ١٦٣ .



المصادر والمراجع

الأيوبيون

أ - فى مصر :

* الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف ، (توفى فى ٢٧ صفر سنة ٥٨٩)
٥٦٤

* الملك العزيز (الأول) عماد الدين أبو الفتح عثمان (توفى فى ٢٧ المحرم سنة ٥٩٥)
٢٧ صفر ٥٨٩

* الملك المنصور ناصر الدين محمد مستهل صفر ٥٩٥

* الملك العادل (الأول) سيف الدين أبو بكر أحمد (صاحب دمشق) ٥٩٦
(توفى فى ٧ جمادى الآخرة سنة ٦١٥)

* الملك الكامل (الأول) ناصر الدين أبو المعالى محمد ، (صاحب دمشق) ،
جمادى الآخرة ٦١٥ (توفى فى ٢٢ رجب سنة ٦٣٥) .

* الملك العادل (الثانى) سيف الدين أبو بكر (صاحب دمشق) ، (عزل فى ٨ ذى
الحجة سنة ٦٣٧) . رجب ٦٣٥

* الملك الصالح نجم الدين أيوب ، (صاحب دمشق) ، (توفى بالمنصورة فى ١٥
شعبان سنة ٦٤٧) ذو الحجة سنة ٦٣٧ هـ

* الملك المعظم توران شاه (الرابع) ، (صاحب دمشق) ، (قتل فى ٢٩ من المحرم
سنة ٦٤٨) شعبان ٦٤٧

* الملك الأشرف (الثانى) مظفر الدين موسى بن يوسف بن محمد مستهل صفر
٦٤٨

(عزله أيك ولكن اسمه ظل يذكر في الخطبة حتى سنة ٦٥٢) ٦٥٠

ب - في دمشق :

* الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي ٥٨٢

* الملك العادل (الأول) سيف الدين أبو بكر أحمد ، (نائب العزيز عثمان)

٥٩٢

الملك المعظم ، (حاكم) ٩٧ - ٦١٥

الملك المعظم شرف الدين عيسى جمادى الآخرة ٦١٥

الملك الناصر صلاح الدين داود ذو الحجة ٦٢٤

الملك الأشرف (الأول) مظفر الدين أبو الفتح موسى ، (صاحب العراق) ، (توفي

في ٤ محرم سنة ٦٣٥) ٦٢٦

الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ٦٣٤

الملك الكامل (الأول) محمد ، (توفي بعد ذلك بشهرين) جمادى الأولى

٦٣٥

الملك العادل (الثاني) سيف الدين أبو بكر أصحاب مصر رجب ٦٣٥

الملك الصالح نجم الدين أيوب ٦٣٦

* الملك الصالح اسماعيل ، (للمرة الثانية) ٢٧ صفر ٦٣٧

* الملك الصالح نجم الدين أيوب ، (صاحب مصر) ٨ جمادى الأولى ٦٤٣

(للمرة الثانية)

الملك المعظم توران شاه (الرابع) ، (ومعه مصر) ٦٤٧

* الملك الناصر (الثاني) صلاح الدين يوسف ، (صاحب حلب) ... ١٧ ربيع

الثاني ٦٤٨

بيبرس ، (صاحب مصر) ٦٥٨

ج - فى حلب :

- الملك العادل (الأول) سيف الدين أبو بكر أحمد ٥٧٩
- * الملك الظاهر غياث الدين أبو الفتح غازى (الأول) ، (شيمى ، توفى فى ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٦١٣) جمادى الآخرة سنة ٥٨٢ هـ
- * الملك العزيز غياث الدين أبو المظفر محمد (توفى فى ٤ ربيع الأول سنة ٦٣٤)
جمادى الآخرة ٦١٣
- ضيقة خاتون ربيع الأول ٦٣٤
- الملك الناصر (الثانى) صلاح الدين يوسف ، (كان بدمشق أيضاً منذ سنة ٦٤٨ ،
توفى فى شوال سنة ٦٥٨)

د - فى ميفارقين (وسنجان) :

- * الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ٢٩ جمادى الأولى ٥٨١
- * الملك العادل سيف الدين أبو بكر . (صاحب دمشق) ٥٩١
- * الملك الأوحى نجم الدين أيوب ٥٩٦
- * الملك الأشرف (الأول) مظفر الدين أبو الفتح موسى ، (انظر دمشق) ٦٠٧
- * الملك المظفر شهاب الدين غازى ٦١٧
- فتحها المغول مؤقتاً ٦٢٨
- * الملك الكامل (الثانى) ناصر الدين محمد ٦٤٢
- * فتحها المغول نهائياً ٦٥٨

هـ - فى اليمن :

- الملك المعظم شمس الدين توران شاه (الأول) بن أيوب رجب ٥٦٩
- الملك العزيز سيف الاسلام ظهير الدين أبو الفوارس ظفتكين بن أيوب ٥٧٧

(لم يصل إلى اليمن إلا سنة ٥٧٨)

معز الدين اسماعيل بن طفتكين ١٩ شوال ٥٩٣

الملك الناصر أيوب بن طفتكين ٥٩٨

الملك المظفر سليمان بن سعد الدين شاهنشاه (الثاني) ، (توفي سنة ٦٤٩) ٦١١

الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الكامل ٦١٢

الاستيلاء على مكة ٦١٩

بنو رسول ٦٢٦

و- في بعلبك :

الملك المعظم شمس الدين توران شاه (الأول) بن أيوب ٥٦٨

عز الدين فروخ شاه داود بن شاهنشاه (الأول) جمادى الأولى ٥٧٥

الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن داود سنة ٥٧٨ هـ

الملك الأشرف (الأول) بن مظفر الدين موسى (صاحب دمشق) ٦٢٧

الصالح اسماعيل ، (أخو السابق) جمادى الأولى ٦٣٥

الصالح أيوب ٦٤٣

توران شاه (الرابع) أصحاب دمشق ٦٤٧

الناصر يوسف ، (حتى سنة ٦٥٨ ٦٤٧) .

ز- في حمص :

الملك القاهر ناصر الدين محمد بن شيركوه ، (توفي في ٩ ذى الحجة سنة ٥٨١)

٥٧٤

الملك المجاهد صلاح الدين شيركوه (الثاني) ، (توفي في ١٩ رجب سنة ٦٣٧) فو

الحجة ٥٨١

الملك المنصور ناصر الدين ابراهيم بن شيركوه (الثاني) ، (توفي في ١٠ صفر سنة ٦٤٤)

الملك الأشرف مظفر الدين موسى (الثاني) بن ابراهيم ، (توفي في ١٠ صفر سنة ٦٦٢) صفر ٦٤٤

صاحب تل باشر أيضاً ٦٤٦ - ٦٤٨

استولى بيبرس على حمص ٦٦١

ح - في الكرك :

الملك العادل (الأول) سيف الدين أبو بكر بن أيوب ٥٨٤

الملك المعظم شرف الدين عيسى بن أبي بكر ، (في دمشق فيما بعد) ٥٩٢

الملك الناصر صلاح الدين داود بن عيسى ، (صاحب دمشق) ، (استولى على بيت المقدس في ٩ جمادى الأولى سنة ٦٣٧) ٦٢٤

الملك المنيف فخر الدين عمر ابن العادل (الثاني) ابن الكامل ٦٣٧

استولى بيبرس على الكرك ٦٦١

ط - في حماة :

الملك المظفر (الأول) تقي الدين أبو سعيد عمر ، (توفي في ١٩ رمضان سنة ٥٨٧) ٥٧٤

الملك المنصور (الأول) ناصر الدين أبو المعالي محمد ، (توفي في ٢٢ ذى القعدة سنة ٦١٧) رمضان ٥٨٧

الملك الناصر صلاح الدين قلع أرسلان ذى القعدة ٦١٧

الملك المظفر (الثاني) تقي الدين محمود ٦٢٦

الملك المنصور (الثاني) سيف الدين محمد ٦٤٢

الملك المظفر (الثالث) تقي الدين محمود ، (توفى فى ٢١ ذى القعدة سنة ٦٩٨)

سنة ٦٨٣ هـ

استولى الناصر محمد على حماه ومنحها للأمير سنقر ٦٩٨

الملك الصالح المؤيد عماد الدين أبو الفدا اسماعيل ١٨ جمادى الأولى ٧١٠

الملك الأفضل محمد بن اسماعيل ٢٣ المحرم ٧٣٢

ى - فى حصن كيفا (وأمد) :

الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل

بالرها وحران ٦٣٣

بسنجار ونصيبين ٦٣٥

الملك المعظم توران شاه (الرابع) بن أيوب بن الكامل ٦٣٦

الملك الموحد تقي الدين عبد الله بن توران شاه ٦٤٧

الملك الكامل أبو بكر محمد بن عبد الله ٦٨٢

الملك العادل مجير الدين محمد بن أبي بكر ء

الملك العادل شهاب الدين غازى بن محمد

الملك الصالح أبو بكر بن غازى

الملك العادل فخر الدين سليمان بن غازى ٧٨٠

الملك الأشرف شرف الدين احمد بن سليمان

الملك الصالح صلاح الدين خليل (الأول) بن أحمد ٨٣٦

الملك الكامل أحمد بن خليل ٨٥٦

الملك العادل خلف بن محمد بن أحمد

خليل (الثانى) بن سليمان بن أحمد (٢) ٨٦٦

سليمان (الثانى) بن خليل بن سليمان .

الحسين بن خليل بن خليل ٩٣٠

ك - فى آمد :

بنو أرتق حتى سنة ٦٢٩

الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ٦٢٩

ل - فى بانياس وسببيه :

الملك الأفضل نور الدين على

الملك العادل (الأول) سيف الدين أبو بكر أحمد

الملك العزيز (الثانى) عماد الدين عثمان ابن العادل ٦٠٨

الملك الظاهر غازى بن عثمان ، (توفى سنة ٦٣٠) ٦٣٠

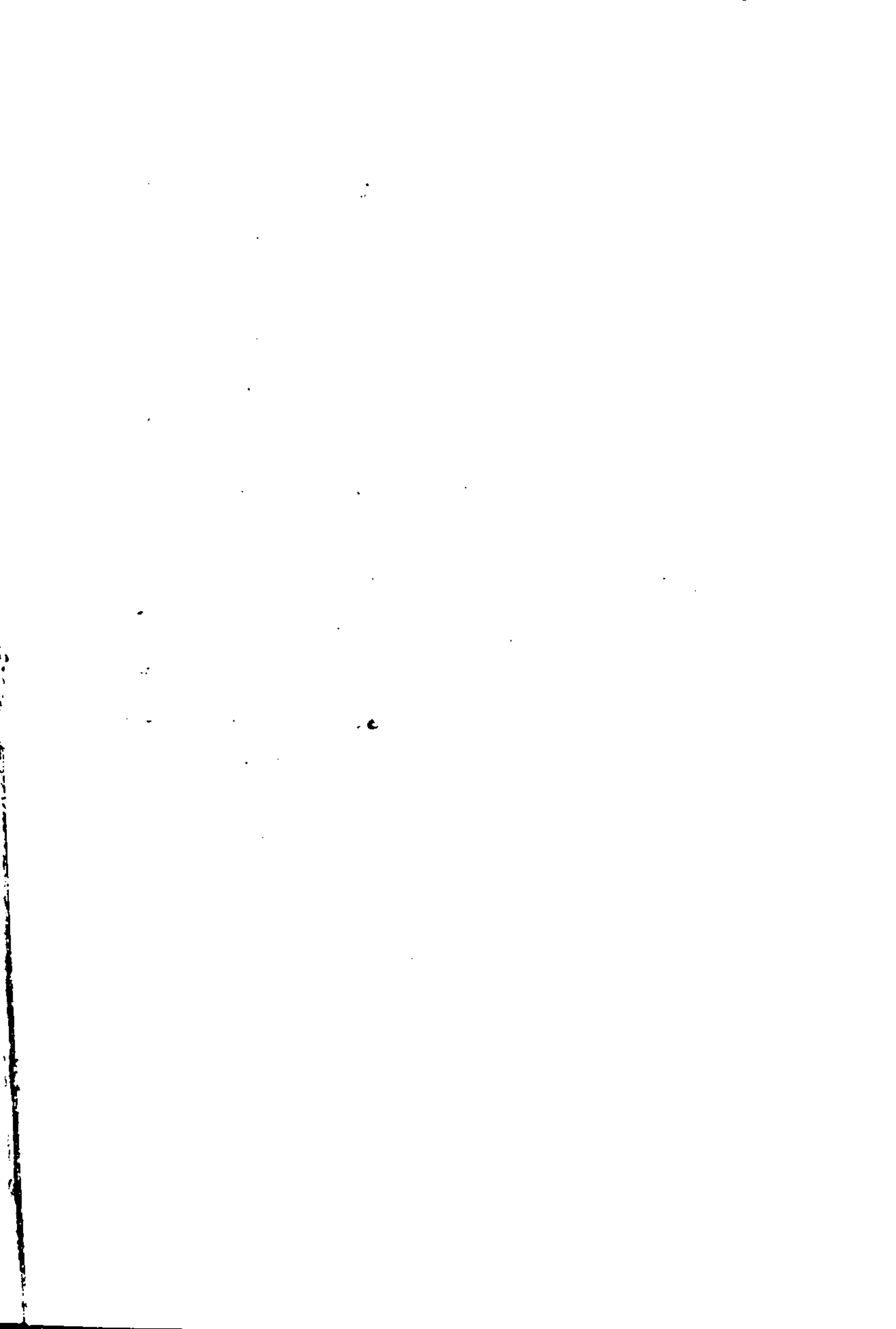
الملك السعيد فخر الدين (أو مجد الدين) حسن (بالمنفى من سنة ٦٤٤ إلى سنة

٦٥٧) ٦٣٠ هـ استولى بيبرس على بانياس وسببيه ٦٥٨

م - فى بصرى :

الملك الصالح عماد الدين أبو طاهر اسماعيل بن العادل (تم بدمشق حتى سنة

٦٤٤) ٦١٥



مراجع التحقيق

- ١ - أخبار الأيوبيين : المكين جرجيس بن العميد ، ت ٦٧٢ هـ . طبع المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥٨ .
- ٢ - الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة : محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد، ت ٦٨٤ هـ . تحقيق : سامي الدهان . المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٥٦ .
- ٣ - إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : محمد راغب الطباخ ، ت ١٩٥١ م . المطبعة العلمية - حلب ١٣٤٢ هـ .
- ٤ - أساس البلاغة : للزمخشري - دار الكتب المصرية .
- ٥ - الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني ، ت ٣٥٦ هـ . مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٢٧ .
- ٦ - الألقاب : لابن الجياني - دار الفضيلة - القاهرة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .
- ٧ - الألقاب : لابن الفرضي - تحقيق الدكتور محمد زينهم محمد عزب - دار الجيل - بيروت .
- ٨ - إنباء الفمر بآباء العمر : ابن حجر العسقلاني ، ت ٨٥٢ هـ تحقيق : حسن حبشي . مطبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة ١٩٦٩ - ١٩٧٢ م .
- ٩ - الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل : مجير الدين الحنبلي ، ت ٩٢٨ هـ المطبعة الحيدرية - النجف ١٩٦٨ .
- ١٠ - ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون : اسماعيل بن محمد بن مير سليم الباباني ، ت ١٣٣٩ هـ المطبعة الإسلامية - طهران ١٩٤٧ .
- ١١ - بدائع البدائة : علي بن ظافر الأزدي ، ت ٦١٣ هـ . تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم . المطبعة الفنية الحديثة - القاهرة ١٩٧٠ .

- ١٢ - بدائع الزهور : ابن لياس ، ت ٩٣٠ هـ ط بولاق ١٣١١ ، وجمعية الدراسات التاريخية بالقاهرة ١٩٥١ م ، وجمعية المشرقين الألمان - القاهرة ١٩٦٣ م .
- ١٣ - البداية والنهاية : أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير ، ت ٧٧٤ هـ مطبعة السعادة - مصر ١٩٣٢ .
- ١٤ - البدر الطالع : محمد بن علي الشوكاني ، ت ١٢٥٠ هـ مطبعة السعادة - مصر ١٣٤٨ هـ .
- ١٥ - بغية الوعاة : جلال الدين السيوطي ، ت ٩١١ هـ . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . مطبعة مصطفى الحلبي - القاهرة ١٩٦٤ .
- ١٦ - بلوغ المرام : ابن حجر العسقلاني ، ت ٨٥٢ هـ . المطبعة الفاروقية ببولاق ١٢٩٢ .
- ١٧ - تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ، ت ١٩١٤ م . مطبعة فؤاد ببيان - بيروت ١٩٦٧ .
- ١٨ - التاريخ الباهر : ابن الاثير الجزري ، ت ٦٣٠ هـ تحقيق : عبد القادر أحمد طليمات . طبع دار الكتب الحديثة - القاهرة ١٩٦٣ .
- ١٩ - تاريخ بغداد : الحافظ احمد بن علي الخطيب البغدادي ، ت ٤٦٣ هـ مطبعة السعادة - القاهرة ١٩٣١ .
- ٢٠ - تاريخ ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ، ت ٨٠٨ هـ طبع دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٦٧ .
- ٢١ - تاريخ الخلفاء : جلال الدين السيوطي . ت ٩١١ هـ . تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٤٤ .
- ٢٢ - تاريخ دمشق : ابن عساكر ، ت ٥٧١ هـ . مصورة مكتبة الأوقاف العامة ببغداد عن مكتبة احمد الثالث رقم ٤٢ .
- ٢٣ - تاريخ ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ، ت ٨٠٧ هـ تحقيق : قسطنطين زريق والدكتور نجلاء عز الدين . المطبعة الأمريكية - بيروت ١٩٣٨ .

- ٢٤ - تاريخ اليمن : لعمارة اليمنى تحقيق الدكتور محمد زهنهم محمد عزب - دار
الجيل - بيروت ١٩٩٢ م .
- ٢٥ - تاريخ ابن الوردي : عمر بن الوردي ، ت ٧٤٩ هـ . المطبعة الحيدرية - النجف
١٩٦٩ .
- ٢٦ - تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذيل على الروضتين : عبد
الرحمن بن اسماعيل المقدسي الملقب بأبي شامة ، ت ٦٦٥ هـ . مطبعة مكتبة نشر
الثقافة الإسلامية - القاهرة ١٩٤٧ .
- ٢٧ - ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب : المرتضى الزبيدي ، ت ١٢٠٥ هـ تحقيق
: صلاح الدين المنجد . مطبعة الترقى - دمشق ١٩٦٩ .
- ٢٨ - تزيين الأسواق : داود الأنطاكي ، ت ١٠٠٨ هـ منشورات دار حمد ومحيو-
بيروت ١٩٧٢ .
- ٢٩ - تقويم البلدان : أبو الفداء اسماعيل بن علي ، ت ٧٣٢ هـ . مطبعة دار الطباعة
السلطانية - باريس ١٨٤٠ .
- ٣٠ - تمام المتون في شرح رسالة ابن زهدون : خليل بن أيك الصفدي ، ت ٧٦٤ هـ .
مطبعة المدني - القاهرة ١٩٦٩ .
- ٣١ - تهذيب الأسماء واللغات للنواوي - المطبعة المنيرية القاهرة .
- ٣٢ - تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني حيدر آباد الدكن ١٣٣٢ هـ .
- ٣٣ - ثمرات الأوراق : ابن حجة الحموي ، ت ٨٣٧ هـ . تحقيق : محمد أبو الفضل
ابراهيم . مطبعة السنة المحمدية - القاهرة ١٩٧١ .
- ٣٤ - الجواهر المضية في طبقات الحنفية : عبد القادر بن أبي الوفاء القرشي ت ٧٧٥ هـ
مطبعة مجلس دائرة المعارف - الهند ١٣٣٢ هـ .
- ٣٥ - حسن المحاضرة : جلال الدين السيوطي ، ت ٩١١ هـ . تحقيق : محمد ابو
الفضل ابراهيم . طبعة دار احياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٦٧ .
- ٣٦ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : أبو نعيم أحمد بن عبد الله ، ت ٤٣٠ هـ
مطبعة السعادة - القاهرة ١٣٥١ - ١٣٥٧ هـ .

- ٣٧ - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة : عبد الرزاق بن الفوطى ، ت ٧٢٣ هـ . تحقيق : مصطفى جواد . مطبعة الفرات - بغداد ١٣٥١ هـ .
- ٣٨ - خريدة القصر وجريدة العصر : عماد الدين الأصفهاني ، ت ٥٩٧ هـ قسم شعراء الشام . تحقيق : د. شكري فيصل . مطبعة المكتبة الهاشمية - دمشق ، ج ١ : ١٩٥٥ ، ج ٢ : ١٩٥٩ ، ج ٣ : ١٩٦٤ قسم شعراء مصر : عنى بنشره أحمد أمين ، شوقي ضيف ، احسان عباس . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥١ .
- ٣٩ - خطط الشام : محمد كرد على ، ت ١٩٥٣ . مطبعة الترقى - دمشق ١٩٢٦ .
- ٤٠ - دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية . نشر جهان - طهران د. ت .
- ٤١ - المدارس في تاريخ المدارس : عبد القادر بن محمد النعيمي ، ت ٩٢٧ هـ تحقيق : جعفر الحسنى . مطبعة الترقى - دمشق ١٩٤٨ .
- ٤٢ - الدرر الكامنة : ابن حجر العسقلاني ، ت ٨٥٢ هـ . تحقيق : محمد سيد جاد الحق . مطبعة المدني - القاهرة ١٩٦٦ .
- ٤٣ - ديوان أسامة بن منقذ : تحقيق : أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد المطابع الأميرية - القاهرة ١٩٥٣ .
- ٤٤ - ديوان بهاء الدين زهير : مطبعة دار صادر - بيروت ١٩٦٤ .
- ٤٥ - ديوان أبى تمام : مطبعة دار المعارف - مصر ١٩٦٤ .
- ٤٦ - ديوان زهير بن أبى سلمى : مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٦٤ .
- ٤٧ - ديوان سبط ابن التعاوىذى : تحقيق : مرجليوث . مطبعة المقتطف - مصر ١٩٠٣ .
- ٤٨ - ديوان ابن الساعاتى : تحقيق : أنيس المقدسى . المطبعة الاميركانية - بيروت ١٩٣٨ .
- ٤٩ - ديوان السموأل : تحقيق : الشيخ محمد حسن آل ياسين . مطبعة المعارف - بغداد ١٩٥٥ .
- ٥٠ - ديوان الصاحب شرف الدين الأنصارى : تحقيق : د. عمر موسى باشا . المطبعة الهاشمية - دمشق ١٩٦٧ .

- ٥١ - ديوان الصبابة : ابن أبي حجلة ، ت ٧٧٦ هـ . المطبعة الأزهرية - مصر
١٣٢٨ هـ .
- ٥٢ - ديوان صردر : مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٣٤ .
- ٥٣ - ديوان العباس بن الأحنف : تحقيق : الدكتورة عاتكة الخزرجي مطبعة دار الكتب
المصرية - القاهرة ١٩٥٤ .
- ٥٤ - ديوان أبي العتاهية : تحقيق : د. شكري فيصل . مطبعة جامعة دمشق - دمشق
١٩٦٥ .
- ٥٥ - ديوان عرقلة الكلبي : تحقيق : أحمد الجندي . مطبعة دار الحياة - دمشق
١٩٧٠ .
- ٥٦ - ديوان ابن عنين : تحقيق : خليل مردم بك . مطبعة دمشق ١٩٤٦ .
- ٥٧ - ديوان القاضي الفاضل : تحقيق : أحمد أحمد بدوي . مطبعة دار الكتاب -
القاهرة ١٩٦١ .
- ٥٨ - ديوان ابن الفارض : مطبعة دار صادر - بيروت ١٩٦٢ .
- ٥٩ - ديوان المتنبي : تحقيق : عبد الوهاب عزام . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر -
القاهرة ١٩٤٤ .
- ٦٠ - ديوان مجنون ليلى : تحقيق : عبد الستار فراج . مطبعة دار مصر . د . ت .
- ٦١ - ديوان ابن مطروح : مطبعة الجوائب - قسطنطينية ١٢٩٨ هـ .
- ٦٢ - ديوان الملك الأمجد : تحقيق : ناظم رشيد . مطبوع على الرونيو ١٩٧٣ .
- ٦٣ - ديوان ابن نباته : مطبعة التمدن - القاهرة ١٩٠٥ .
- ٦٤ - ديوان ابن النبي المصري : تحقيق : عمر محمد الأسعد . مطبعة دار الفكر ١٩٦٩ .
- ٦٥ - ذيل رفع الأصغر : عبد الرحمن السخاوي ، ت ٩٠٢ هـ . تحقيق : جودة هلال
ومحمد محمود صبيح . طبع دار التعاون - القاهرة .
- ٦٦ - ذيل مرآة الزمان : موسى بن محمد اليونيني . ت ٧٢٦ هـ . مطبعة مجلس دائرة
المعارف العثمانية - الهند ١٩٥٥ .

- ٦٧ - رفع الأصر عن قضاة مصر : ابن حجر المسقلاني ، ت ٨٥٢ هـ تحقيق : حامد عبد المجيد ومحمد المهدي ومحمد اسماعيل . المطبعة الأميرية - القاهرة ١٩٥٧ .
- ٦٨ - روضات الجنات : محمد باقر الخوانساري ، ت ١٣١٣ هـ . المطبعة الحيدرية - طهران ١٣٩٠ هـ .
- ٦٩ - الروضتين في أخبار الدولتين : عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي الملقب بأبي شامة ، ت ٦٦٥ هـ . مطبعة وادي النيل - القاهرة ١٢٨٧ هـ .
- ٧٠ - زبدة الحلب من تاريخ حلب : ابن العديم ، ت ٦٦٠ هـ . تحقيق : سامي الدهان . المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٦٨ .
- ٧١ - شرح العيون في شرح رسالة بن زيدون : جمال الدين بن نباتة المصري ، ت ٧٦٨ هـ . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . مطبعة المدني - القاهرة ١٩٦٤ .
- ٧٢ - السلوك لمعرفة دول الملوك : احمد بن علي المقرئ ، ت ٨٤٥ هـ . مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٣٤ .
- ٧٣ - سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي : عبد الملك بن حسين العصامي المكي ، ت ١١١١ هـ . المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٨٠ هـ .
- ٧٤ - منا البرق الشامي : الفتح بن علي البنداري ، ت ٦٤٢ هـ . تحقيق : رمضان شبن . ج ١ . مطبعة دار الكتاب الجديد - بيروت ١٩٧١ .
- ٧٥ - شذرات الذهب : عبد الحق بن العماد الحنبلي ، ت ١٠٨٩ هـ . عنيت بنشره مكتبة القدسي - القاهرة ١٣٥١ هـ .
- ٧٦ - صبح الأعشى : أبو العباس أحمد القلقشندي ، ت ٨٢١ هـ . المطبعة الأميرية - القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٠ .
- ٧٧ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع : عبد الرحمن السخاوي ، ت ٩٠٢ هـ طبع مكتبة القدسي - القاهرة ١٩٦٦ .
- ٧٨ - الطالع السعيد : جعفر بن ثعلب الادفوي ، ت ٧٤٨ هـ . تحقيق : سعد محمد حسن . مطبعة سجل العرب - القاهرة ١٩٦٦ .

- ٧٩ - طبقات الشافعية : تاج الدين السبكي ، ت ٧٧١ هـ . المطبعة الحسينية - القاهرة ١٣٢٤ هـ .
- ٨٠ - العبر في خبر من غير : الحافظ الذهبي ، ت ٧٤٨ هـ . تحقيق : صلاح الدين المنجد . مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٠ - ١٩٦٦ .
- ٨١ - المسجد المسبوك : الملك الأشرف الغساني ، ت ٨٠٣ هـ . تحقيق : شاكر محمود عبد المنعم . طبع دار التراث الإسلامي - بيروت ١٩٧٥ .
- ٨٢ - عقود الجمان للزركشي - مخطوطة الفايح رقم ٤٤٣٤ ، مصورة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد .
- ٨٣ - العقود اللؤلؤية : علي بن الحسن الخزرجي ، ت ٨١٢ هـ . مطبعة الهلال - مصر ١٩١١ .
- ٨٤ - عيون الانباء في طبقات الأطباء : ابن أبي أصيمة ، ت ٦٦٨ هـ . مطبعة الأقبال - بيروت ١٩٥٦ .
- ٨٥ - الفصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة : علي بن موسى الاندلسي ، ت ٦٨٥ هـ . تحقيق : ابراهيم الأبياري . مطبعة دار المعارف - مصر ١٩٦٧ .
- ٨٦ - الغيث المسجم : خليل بن أيك الصفدي ، ت ٧٦٤ هـ . المطبعة الأزهرية - مصر ١٣٠٥ هـ .
- ٨٧ - الفتح القسي في الفتح القدسي : العماد الأصفهاني ، ت ٥٩٧ هـ . تحقيق : محمد محمود صبيح . طبع الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٥ .
- ٨٨ - الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية : داود بن عيسى الأيوبي ، ت ٦٥٦ هـ . مصورة دار الكتب المصرية رقم ٢٢٩٣ .
- ٨٩ - فوات الوفيات : محمد بن شاكر الكتبي ، ت ٧٦٤ هـ . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة - القاهرة ١٩٥١ .
- ٩٠ - القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية : محمد بن طولون ، ت ٩٥٣ هـ . طبع مكتبة الدراسات الإسلامية - دمشق ١٩٤٩ .

- ٩١ - الكامل فى التاريخ : ابن الأثير ، ت ٦٣٠ هـ . طبع دار صادر - بيروت ١٩٦٥ .
- ٩٢ - كتاب الرد على أبى بكر الخطيب البغدادى : عيسى بن أبى بكر الأيوبي ، ت ٦٢٤ هـ . مطبعة السعادة - مصر ١٩٣٢ .
- ٩٣ - كشف الظنون : حاجى خليفة ، ت ١٠٦٨ هـ . ط ٢ . المطبعة الاسلامية - طهران ١٩٦٧ .
- ٩٤ - كنز الدرر وجامع الغرر (الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب) : عبد الله بن أيك الدوادارى ، ت ٧٣٦ هـ . تحقيق : د. سعيد عبد الفتاح عاشور - نشر المعهد الألماني للآثار - القاهرة ١٩٧٢ .
- ٩٥ - لسان العرب : ابن منظور ، ت ٧١١ هـ . طبع دار صادر - بيروت ١٩٦٨ .
- ٩٦ - لسان الميزان : ابن حجر العسقلانى ، ت ٨٥٢ هـ . طبع حيدر آباد الكن - الهند ١٣٣١ .
- ٩٧ - المحمدون من الشعراء : على بن يوسف القفطى ، ت ٦٤٦ هـ . تحقيق : حسن معمري ، مطبعة المتنبي - بيروت ١٩٧٠ .
- ٩٨ - محيط المحيط : بطرس البستاني ، ت ١٨٨٣ م . طبع بيروت ١٨٧٠ .
- ٩٩ - المختصر فى اخبار البشر : أبو الفداء اسماعيل بن أيوب ، ت ٧٣٢ هـ . المطبعة الحسينية - مصر ١٣٢٥ هـ .
- ١٠٠ - مرآة الجنان وعبر اليقظان : عبد الله بن أسعد اليافعى ، ت ٧٦٨ هـ . مطبعة دار المعارف الإسلامية - حيدر آباد الدكن ١٣٣٨ هـ .
- ١٠١ - مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان : يوسف بن قزاوغلى الشهير بسبط ابن الجوزى ، ت ٦٥٤ هـ . ج ٨ . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - الهند ١٩٥١ .
- ١٠٢ - مراصد الاطلاع : عبد المؤمن بن عبد الحق ، ت ٧٣٩ هـ . تحقيق : جونبول . مطبعة بريل - ليدن ١٨٥٢ .
- ١٠٣ - مضمار الحقائق وسر الخلائق : محمد بن تقى الدين عمره الأيوبي ، ت ٦١٧ هـ . تحقيق : د. حسن حبشى . مطبعة دار الهنا - القاهرة ١٩٦٨ .

- ١٠٤ - مطالع البدر في منازل السرور : على بن عبد الله البهالي الغزولي ، ت ٨١٥ هـ .
مطبعة ادارة الوطن - مصر ١٣٠٠ هـ .
- ١٠٥ - معجم الأدياء : ياقوت الحموي ، ت ٦٢٦ هـ . تحقيق : مرجليوث . ط ٢ مطبعة
هندية - مصر ١٩٢٣ .
- ١٠٦ - معجم الانساب والاسراب الحاكمة في التاريخ الإسلامى : المستشرق زامبارو .
ترجمة د. زكى محمد حسن وحسن أحمد محمود . مطابع جامعة فؤاد الأول -
القاهرة ١٩٥١ .
- ١٠٧ - معجم البلدان : ياقوت الحموي ، ت ٦٢٦ هـ . طبع دار صادر بيروت ١٩٥٥ .
- ١٠٨ - المعجم المفضل بأسماء الملابس عند العرب : رينهارت دوزى . ترجمة الدكتور
اكرم فاضل . مطبعة الحكومة - بغداد ١٩٧١ .
- ١٠٩ - معيد النعم ومبيد النقم : عبد الوهاب السبكي ، ت ٧٧١ هـ . تحقيق : محمد
على النجار وأبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون . ط دار الكتاب العربى - القاهرة
١٩٤٨ .
- ١١٠ - مفتاح السعادة : طاش كبرى زاده ، ت ٩٦٨ هـ . ط حيدر آباد بالهند
١٣٢٨ هـ .
- ١١١ - مفرج الكروب في أخبار بنى أميـوب : ابن واصل ، ت ٦٩٧ هـ الأجزاء الثلاثة
الأول تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال . ج ١ مطبعة جامعة فؤاد الأول - القاهرة
١٩٥٣ ، ج ٢ المطبعة الأميرية - القاهرة ١٩٥٧ . ج ٣ مطبعة دار القلم - القاهرة
١٩٦٠ . ج ٤ تحقيق : الدكتور حسنين محمد ربيع . مطبعة دار الكتب - القاهرة
١٩٧٢ .
- ١١٢ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى : ابن تفرى بردى ، ت ٨٧٤ هـ تحقيق :
أحمد يوسف نجاشى . ج ١ . مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٥٦ .
- ١١٣ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط الآثار : أحمد بن على المقرئى ، ت ٨٤٥ هـ .
ط بولاق ١٢٧٠ هـ .

- ١١٤ - ميزال الاعتدال في نقد الرجال : الحافظ محمد بن أحمد الذهبي ، ت ٧٤٨هـ . ط الخانجي - القاهرة ١٣٢٥هـ .
- ١١٥ - نفع الطيب : أحمد بن محمد المقرئ ، ت ١٠٤١هـ . تحقيق : د. احسان عباس . مطبعة دار صادر - بيروت ١٩٦٨ .
- ١١٦ - نزهة الأم في العجائب والحكم لابن لياس - القاهرة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .
- ١١٧ - نزهة الأنام في محاسن الشام : عبد الله بن محمد البدرى ، ت ٨٤٧هـ . المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٤١ .
- ١١٨ - نظم العقيان في أعيان الأعيان : جلال الدين السيوطى ، ت ٩١١هـ . تحقيق : د. فيليب حتى . المطبعة السورية الأمريكية - نيويورك ١٩٢٧ .
- ١١٩ - النجوم الزاهرة : ابن تفرى بردى ، ت ٨٧٤هـ . مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٦٣ .
- ١٢٠ - النكت المصرية في أخبار الوزارة المصرية : عمارة اليمنى ، ت ٥٦٩هـ . تحقيق : ديرنبورغ - باريس ١٨٩٧ .
- ١٢١ - نكت الهميان : خليل ابن أيك الصفدى ، ت ٧٦٤هـ . المطبعة الجمالية - مصر ١٩١١ .
- ١٢٢ - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية : بهاء الدين بن شداد ، ت ٦٣٢هـ . تحقيق : د. جمال الدين الشيال . طبع الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤ .

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١١٩	سنة ٥٧٨ هـ	٥	مقدمة المحقق
١٢٣	سنة ٥٧٩ هـ	٤١	صور المخطوطة
١٢٤	ذكر أخذ السلطان حلب وجارم وذكر غير ذلك	٤٩	مقدمة المؤلف
١٢٨	سنة ٥٨٠ هـ	٥٣	طبقات البيت الأيوبي
١٣٣	سنة ٥٨١ هـ	٥٥	أصل البيت الأيوبي
١٣٤	سنة ٥٨٢ هـ	٥٩	الطبقة الأولى من أولاد شاذى
١٣٦	سنة ٥٨٣ هـ	٦٦	رجوع أسد الدين مرة ثالثة إلى القاهرة ودخوله
١٣٩	ذكر فتح عكا والمجدل ويافا	٦٨	تقلد أسد الدولة الوزارة
١٤١	ذكر ما فتح من البلاد بعد عكا	٧٤	وفاة أسد الدين
١٤٤	ذكر فتوح القدس الشريف	٧٥	الملك الأفضل
١٦٠	ذكر قصد السلطان صور	٧٧	الطبقة الثانية
١٦٥	سنة ٥٨٥ هـ	٧٨	نور الدين شاهنشاه
١٦٦	ذكر محاصرة الفرنج عكا	٧٩	الملك المعظم توران شاه
١٦٨	سنة ٥٨٦ هـ	٨٤	تاج الملوك بورى
١٧٤	سنة ٥٨٧ هـ	٨٨	الملك الناصر
١٧٦	وقعة أرسوف	٩٧	ذكر قتل مؤتمن الخلافة جوهر وحرب السودان
١٧٧	ذكر تخريب عسقلان والرملة ولداً	٩٨	ذكر نزول الفرنج على دمياط
١٧٨	سنة ٥٨٨ هـ	٩٩	ذكر خروج الملك الناصر إلى بلاد الفرنج
	ذكر عقد هدنة وعودة السلطان إلى دمشق		ذكر قطع خطبة العبيدية والخطبة للمستضى
١٨٠	وغير ذلك	١٠٠	العباسى
١٨٢	سنة ٥٨٩ هـ		نسخة كتاب التهيلة للمستضى بخط القاضي
١٨٧	ذكر ما فتحه للملك الناصر من البلاد	١٠٣	الفاضل
١٨٩	ذكر ما بلى من الأماكن		ذكر خروج الناصر إلى الكرك والوحشة بيه
١٩٠	ذكر بعض ترجمته مما لا يدخل تحت السنين	١٠٥	وبين العادل
١٩٥	ذكر أولاد الملك الناصر	١٠٥	سنة ٥٦٩ هـ
١٩٦	ذكر ما تجدد بعد وفاته	١٠٧	سنة ٥٧٠ هـ
١٩٧	الملك العزيز طغتكين		ذكر ملك الملك الناصر دمشق وحمص وحملة
١٩٨	الملك العادل محمد	١٠٧	وحلب
٢٠١	ذكر أخذ الفرنج بيروت	١١١	سنة ٥٧١ هـ
٢٠٢	سنة ٥٩٤ هـ	١١٤	سنة ٥٧٢ هـ
٢٠٣	ذكر حصار الأفضل دمشق فى سنة ٥٩٥ هـ	١١٥	سنة ٥٧٣ هـ
٢٠٤	ذكر رحيل الأفضل الظاهر فى ٥٩٦ هـ	١١٦	سنة ٥٧٤ هـ
٢٠٥	ذكر ملك العادل مصر	١١٦	سنة ٥٧٥ هـ
	ذكر حصار الأفضل الظاهر دمشق فى سنة	١١٨	سنة ٥٧٦ هـ
٢٠٧	سنة ٥٩٧ هـ	١١٩	سنة ٥٧٧ هـ

٢٥١ الملك الأشرف	٢٠٩ ذكر رحيل الملكين عن دمشق سنة ٥٩٨ هـ
٢٥٥ ذكر ما بلى من الأمكنة	٢٠٩ سنة ٥٩٩ هـ
٢٥٦ ذكر وفاته	٢١٠ سنة ٦٠٠ هـ و ٦٠١ هـ
٢٥٩ الملك الكامل	٢١١ ذكر خروج العادل إلى الشام سنة ٦٠٢ هـ
٢٥٩ سنة ٦١٦ هـ	٢١٣ سنة ٦٠٤ هـ
٢٦٢ ذكر تخريب القدس	 ذكر ملك العادل الخابور ونصيبين في سنة
٢٦٢ ذكر فتح دمياط	٢١٤ ٦٠٦ هـ
٢٦٦ ذكر ما جرى بين الكامل والأشرف والمعظم	٢١٥ سنة ٦٠٨ هـ
٢٦٧ ذكر تسليم القدس للفرنج	٢١٨ سنة ٦١٤ هـ
٢٦٩ ذكر فتح آمد في ٦٢٩ هـ	٢١٩ سنة ٦١٥ هـ
٢٦٩ ذكر مسير الكامل إلى الروم سنة ٦٢١ هـ	٢١٩ ذكر وفاة الملك العادل
٢٧١ ذكر مسير الكامل إلى الشرق ٦٢٣ هـ	٢٢١ ست الشام
٢٧١ ذكر ما حصل من الوحشة بين الملوك ٦٢٤ هـ	٢٢٢ ربيعة خاتون
٢٧٣ ذكر مسير الكامل إلى دمشق في ٦٢٥ هـ	٢٢٣ الملك الظاهر
٢٧٥ الملك العزيز	٢٢٥ ذكر وفاته
٢٧٦ الملك الحافظ	٢٢٦ الملك الأفضل
٢٧٧ الملك المظفر	٢٣١ الملك المعز
٢٧٩ الملك الصالح	٢٣٢ الملك الظافر
٢٨٠ الملك المعز	٢٣٣ الملك الزاهر
٢٨٠ الملك ممدود	٢٣٣ الملك المحسن
٢٨٠ المغيث محمود	٢٣٥ الملك المعظم
٢٨٠ الناصر خليل	٢٣٦ الصالح اسماعيل
٢٨١ الأمد حمد	٢٣٦ الأعز يعقوب
٢٨١ الملك القاهر	٢٣٦ المفضل موسى
٢٨١ المغيث عمر	٢٣٦ الأشرف محمد
٢٨١ ناج الملوك عمر	٢٣٧ الجواد أيوب
٢٨١ الأمد عباس	٢٣٧ العادل الغالب ملك شاه
٢٨٢ غازية خاتون	٢٣٧ عماد الدين شاذي
٢٨٢ ملكة خاتون	٢٣٧ المنصور أبو بكر
٢٨٢ ضيفة خاتون	٢٣٨ الملك المعز
٢٨٣ زوجة قيصر شاه	٢٣٩ الملك الناصر
٢٨٤ محمد بن ست الشام	٢٣٩ الملك الأوحده
٢٨٥ الملك الصالح	٢٤١ الملك الفائز
٢٨٥ الملك الزاهر	٢٤١ الملك المفضل
٢٨٥ الملك الأمد	٢٤٢ الملك المعظم
٢٨٦ الطبقة الثالثة	٢٤٨ ذكر ما بلى من الأماكن
٢٨٧ الملك المعز	٢٤٨ ذكر وفاته

٢٤١ ذكر ما يلي من الأماكن
 ٢٤١ غازية خاتون
 ٢٤٤ فاطمة خاتون
 ٢٤٤ عاشوراء
 ٢٤٤ السعيد عمر
 ٢٤٥ الملك الكامل
 ٢٤٦ السعيد عبد الملك
 ٢٤٦ الملك المنصور
 ٢٤٦ غازي بن يعقوب
 ٢٤٧ الملك الجواد
 ٢٥٠ المغيث بن المغيث عمر
 ٢٥٠ حسن بن إسحاق
 ٢٥٠ الملك المظفر محمود
 ٢٥٠ الملك العزيز محمد
 ٢٥١ ملكة خاتون
 ٢٥٢ الطبقة الخامسة
 ٢٥٦ ذكر ملكه حماة في سنة ٦٢٦ هـ
 ٢٦٠ ذكر قصد الفرنج حماة ٦٢٧ هـ
 ٢٦٢ ذكر وفاته وسيرته
 ٢٦٢ العزيز المعز
 ٢٦٥ ذكر أخذ المعرة وحصار حماة
 ٢٦٧ ذكر أخذ حمص سنة ٦٤٦ هـ
 ٢٦٧ ذكر أخذ نصيبين ٦٤٧ هـ
 ٢٦٧ ذكر أخذ دمشق سنة ٦٤٨ هـ
 ٢٦٨ ذكر مسيرة الناصر إلى مصر وكسوته
 ٢٧٠ ذكر أخذ التتار بلاد الشام وما جرى للناصر
 ٢٧٢ ذكر مسيرة الناصر
 ٢٧٤ الملك الظاهر
 ٢٧٤ الظاهر على
 ٢٧٤ غازية خاتون
 ٢٧٥ عائشة خاتون
 ٢٧٥ الملك العادل
 ٢٧٥ الملك الأوحى
 ٢٧٦ الملك المظفر
 ٢٧٦ عيسى وشاذي وحسن على
 ٢٧٦ الملك الكامل
 ٢٧٧ على بن عبد الملك

٢٨٨ الملك المظفر
 ٢٨٩ الملك العزيز
 ٢٩٢ ذكر نزول العزيز الشام سنة ٦٧١ هـ
 ٢٩٣ ذكر ملك العزيز دمشق سنة ٦٧٢ هـ
 ٢٩٤ ذكر وفاة العزيز
 ٢٩٨ الملك المؤيد
 ٣٠١ الطبقة الرابعة
 ٣٠٥ الملك المنصور
 ٣٠٥ أحمد بن عمر
 ٣٠٨ الملك المنصور
 ٣٠٨ الملك العزيز
 ٣١٠ الملك الصالح
 ٣١٠ الملك الناصر
 ٣١١ الملك الصالح
 ٣١٢ أسد الدين أرسلان
 ٣١٢ تاج الملوك
 ٣١٢ أبو بكر بن محمد
 ٣١٢ بنت أيوب
 ٣١٣ الملك المغيث
 ٣١٣ الملك الناصر
 ٣١٩ ذكر أحواله بعد ذلك
 ٣٢٠ ذكر وفاته
 ٣٢٢ الملك القاهر
 ٣٢٤ الملك الظاهر أيوب
 ٣٢٤ الملك السعيد
 ٣٢٥ ملكة خاتون
 ٣٢٥ الملك المسعود
 ٣٢٨ الملك العادل
 ٣٢٩ الملك الصالح
 ٣٢٢ ذكر ملك الصالح اسماعيل دمشق
 ٣٢٤ ذكر خروج الصالح من الحبش
 ٣٢٦ ذكر صلح الصالحين
 ٣٢٧ ذكر أخذ دمشق من الصالح اسماعيل
 ٣٢٧ ذكر منازل الصالح اسماعيل دمشق
 ٣٢٩ ذكر ملك الفرنج دمواط
 ٣٤٠ ذكر وفاة الملك الصالح
 ٣٤٠ ذكر بعض سيره الملك الصالح

٢٨٧ علي بن الجواد	٢٧٧ اسماعيل بن عبد العزيز
٢٨٧ يوسف بن محمد	٢٧٧ أولاد المغيث
٤٠٠ فخر الدين بن المغيث	٢٧٨ خاتون بنت عبد العزيز للمغيث
٤٠٠ غياث الدين بن محمد	٢٧٨ السعيد حسن
٤٠١ الطبقة السابعة	٢٧٨ للمسعود يوسف
٤٠١ الملك المظفر محمود	٢٧٨ للملك المغيث
٤٠٤ ذكر حضور المظفر إلى مصر	٢٧٩ للملك المعظم
٤٠٥ ذكر وفاة المظفر	٢٨٢ للمصور خليل
٤٠٥ الملك المزيد	٢٨٢ للملك المغيث
٤٠٦ ذكر وفاته وميراثه	٢٨٢ ذكر منازلة الناصر يوسف الكرك
٤٠٨ أحمد بن محمد	٢٨٤ ذكر القبض على المغيث سنة ٦٧١ هـ
٤٠٨ الكامل محمد بن موسى	٢٨٦ عائشة خاتون
٤٠٩ الملك الكامل شاذي	٢٨٦ للملك الكامل
٤١١ المصادر والمراجع	٢٨٦ بنت خاتون



٩٦/٢٠٦٤	رقم الإيداع
977 - 5250 - 10 - 2	الترقيم الدولي I. S. B. N

دار المناهل للطباعة
٧ ش يوسف السداری - أرض اللواء
سولاف الدكرور

دراسات تاريخية

شفاء القلوب في مناقب

بني أيوب

لأحمد بن إبراهيم الحنبلي

ت ٨٧٦ هـ - ١٤٧١ م

تقديم وتحقيق وتعليق

مديحة الشرقاوي

Marfat.com



مكتبة الثقافة الإسلامية

الرياض - ٥٢١٧٧٧

١٤١٧ هـ / ٢٠١٧ م